التاريخ الحربي المصري

في عهد صلاح الدين الأيوبي

تأليف

دكتور نظير حسان سعداوي
كلية المعلمين بالقاهرة

١٩٥٧

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

التاريخ الحربي المصري

في عهد صلاح الدين الأيوبي

تأليف

دكتور نظير حسان سعداوي

كلية المعلمين بالقاهرة

١٩٥٧

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا القاهرة

مكتبة التسادات

مكتبة مدرسة ... الثانوية المشتركة

رقم العام ١١٩٣

هدية من الدكتور

تصـــدير

بقـــلم

دكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

هذا الكتاب الجديد نتيجة جهود سنوات طويلة ، ومثابرة صامتة ، وبحوث متصلة ، كان غرضها المبدئى الحصول على الدكتوراه من قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم صار غرضها فيما بعد الوصول من طريق البحث العلمى المستمر ، والتعمق الإضافى ، إلى أسرار التوفيق الصلاحى الأيوبى فى تكوين وعى عام فى الشرق الأوسط لإخراج الصليبيين منه ، بعد إقامتهم به ثلاثة أرباع قرن تقريبا .

والتاريخ الحربى المصرى الذى هو موضوع هذا البحث لا يعنى دراسة القوة العدوانية الغاشمة ، بل دراسة الطاقة الحربية والسياسية للدفاع عن الشرق الأوسط وكرامته وقوميته ضد العدوان الأوربى الصليبى فى العصور الوسطى . ومن هنا تتضح قيمة الجهود التى بذلها الدكتور نظير حسان سعداوى فى تصوير مدى أعمال صلاح الدين الايوبى ، ومبلغ اعتماده على مصر باعتبارها محور ارتكاز القوى الدفاعية عن الشرق الاوسط كله ، ومن هنا كذلك تتضح أهمية هذا البحث الجديد للقارىء العام والخاص ، إذ يستطيع كل منهما أن يجد فيه مادة تاريخية ميسرة لمعرفة إمكانيات الشرق الاوسط كله وخاصة مصر ، فى الوقوف أمام التيارات الهادفة إلى استغلال موارده لمنفعتها الاجنبية عنه .

ولذا أرجو لهذا الكتاب مكانا مرموقا فى المكتبات الخاصة والعامة ، كما أرجو له رواجا واسعا وانتشارا بعيدا .

مصر الجديدة فى { ٢٣ صفر سنة ١٣٧٧
١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٧ }

محمد مصطفى زيادة

مطبعة لجنة البيان العربي

مقدمة البحث

البحث فى التاريخ الحربى القومى اتجاه جديد فى الدراسات التاريخية ، وميدانه فسيح عميق مهمل ، على أنه جدير بالكشف والاهتمام فى جميع العصور ، ولاسيما العصور الوسطى الإسلامية المصرية ، حيث المعالم الأثرية وفيرة ، والمادة الدالة على الطاقة المادية لهذا البلد غزيرة ، إذ هى العصور التى احتدم فيها الصراع والنزال بين الغرب والشرق بزعامة مصر .

وهذه هى المحاولة الأولى فى هذا الميدان ، يرجع فضلها إلى أستاذى المشرف على الرسالة دكتور محمد مصطفى زيادة رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهى برغم التزام اليقظة والاحتراس وتلمس العلاقة بين التاريخ الحربى والتاريخ السياسى ، تتوفر فيها جميع الصفات التى تلصق بالمحاولات الأولى ، من توخى الدقة أو الجودة ، مع الاقتناع بصعوبة تحقيق هذه الأهداف كاملة . على أنى حرصت على ألا تطغى الناحية السياسية على الناحية العسكرية . كما حرصت على توضيح ما قامت به مصر من جهد فى مضمار الحروب الصليبية ، وما استلزمته تلك الحروب من تعبئة الموارد المصرية الاقتصادية لتمويل الجيوش وإعدادها .

وتبدأ هذه المحاولة من تاريخ مجئ صلاح الدين مصر وتقلده أمورها ، مع العلم بأن التاريخ الحربى لمصر صلاح الدين تمتد جذوره إلى أيام شباب هذا العبقري الكبير فى البلاطين النورى بالشام والفاطمى بمصر . فاللبنة الأولى فى هذه المحاولة هى الأصول الحربية عند الزنكيين بالشام والفاطميين بمصر ، ومعرفة هذه الأصول من الأمور العسيرة على الباحث ، لقلة المصادر الحربية المعاصرة التى تصف أنواع الأسلحة ، ووسائل صناعتها ، وإعداد الحصون والقلاع ، وتجييش الجيوش ، ووسائل تموينها ، وخصائص العمارة الحربية ، والجغرافية العسكرية ، وآداب الحرب وقواعدها . وأكبر الظن أن المعاصرين عنوا بهذه النواحى عناية كبيرة ، وخصصوا لها كتباً قائمة بذاتها ، ولكنها لم تصل القوامين على الدراسات التاريخية حتى اليوم ؛ لكونها مبعثرة فى أشتات المكتبات بالشرق

محمد فتحي توفيق
المكتبة
رقم

والغرب ، أو لإبادتها عمداً بعد عصر الفاطميين[1] .

ومن الكتب الأيوبية الباقية التى ظلت مخطوطة حتى نشرها الأستاذ كاهن كتاب لمؤلف اسمه الطرسوسى ، وهو مؤلف عاش زمن صلاح الدين ، وعاشر رجلا اسمه الأرق الإسكندرانى ، عارفاً بآلات الحرب وأنواعها وصناعتها وأسرارها فى دولتى الفاطميين والأيوبيين[2] . ثم ما أحوج الباحثين إلى الثروة التاريخية التى تضمنتها رسائل القاضى الفاضل ، والتصانيف الكثيرة للأسعد ابن مماتى ، ومنها كتاب سيرة صلاح الدين الذى انفرد بذكره ياقوت الحموى[3] ؛ ومؤلفات أسامة ابن منقذ ، وهى لا تقل عن ثلاثة عشر كتاباً اتصلت بالباحثين أسماؤها فقط ، ومنها تاريخ القلاع والحصون[4] ، عدا ما جمعه أسامة من أفخر الكتب المعاصرة وعددها أربعة آلاف مجلد استولى عليها الصليبيون ، ولم يأسف أسامة على شىء مثل أسفه على فقد هذه الكتب ، « فإن ذهابها حزازة فى قلبى ما عشت »[5] .

وهناك مخطوط حربى أيوبى آخر لأبى يوسف يعقوب ابن صابر المنجنيقى أسماه « عمدة المسالك فى سياسة الممالك » يتضمن أحوال الحروب وتصنيفها ، وفتح الثغور وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصار والقلاع والرياضة الميدانية والحيل الحربية ؛ أشار إليه ابن خلكان المعاصر ، ولم يعرف مصيره بعد[6] .

وامتاز التاريخ الحربى الصلاحى بأهداف واضحة ، أخصها حماية مصر من الخطر الصليبى ، وصيرورتها قاعدة تموينية للاعداد والتموين للجبهة الإسلامية المتحدة ، ثم إمداد مصر بأموالها ومحصولاتها الزراعية والصناعية لتلك الجبهة وجهادها ، حتى استخلص بها صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين . غير أن

(١) انظر مقدمة القائمقام عبد الرحمن زكى فى كتاب « الرتب والألقاب المصرية » .
(٢) راجع المجلة التاريخية المصرية مجلد ٢ عدد أول ص ٢٢٣ عن مؤلف الطرسوسى فى التاريخ الحربى على عهد الأيوبيين للدكتور زياده .
(٣) ياقوت حـ ٢ ص ٢٤٩ - ١٠ .
(٤) ابن مماتى ص ٣ نشر الدكتور عطيه سوريال .
(٥) أسامه ابن منقذ ص ٢٦ .
(٦) ابن خلكان حـ ٢ ص ٣٣٧ .

انتصارات صلاح الدين على الصليبيين تعرضت لخطر كبير ، حين جاءت الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة إلى سواحل الشام سنة ١١٩٠م ، واشتعل أوار القتال بينه وبينها . على أن صلاح الدين اجتاز هذه الأزمة بصلح عام فى البر والبحر ، وهو صلح دال على أن جلاء صلاح الدين عن عكا وهزيمته عند أرسوف ويافا ، لم تكن كلها ذات أثر كبير فى مركزه بإزاء الصليبيين ، أو فى مبلغ هيبته فى الأوساط الصليبية .

وسبيل الباحث فى هذه المحاولة الأولى ، هو اعتصار النصوص المبعثرة هنا وهناك فى الأمهات الكبرى والحوليات العامة ، وفى مؤلفات المعاصرين من المسلمين والصليبيين ، وأهمهم جميعاً حتى الآن هو القاضى بهاء الدين ابن شداد الموصلى المولد والبغدادى النشأة ، الذى التحق بخدمة صلاح الدين فى الخمس السنوات الأخيرة من عهده ، وشهد جميع الحركات الصلاحية من زاوية واضحة . وتتلمذ على ابن شداد القاضى ابن خلكان . ويلى هاتين الشخصيتين فى الأهمية ابن الأثير ، ومولده فى جزيرة ابن عمر على نهر دجله ، ونشأته بالموصل وقبره بها . ولابن الأثير أخوان ، اشتغل أحدهما بالبلاط الأتابكى بالموصل ، وتولى الآخر وظيفة هامة فى دولة صلاح الدين ، وشهد ابن الأثير نفسه كثيراً من معارك صلاح الدين ، ولم تخل كتابته من نقد لبعض العمليات الحربية فى هذه المعارك . أما العماد الاصفهانى فامتاز بطول معاشرته لصلاح الدين معظم حروبه منذ صار سلطانا على مصر والشام إلى وفاته ، ولذا فلا مشاحة أن كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » أهم مرجع للتاريخ الحربى على عهد صلاح الدين[1] . ويرجع الفضل فى توضيح بعض معالم العمارة الحربية فى ذلك العهد إلى مشاهدات الرحالتين المعاصرين ابن جبير الأندلسى وعبد اللطيف البغدادى . على أنى جملت من المؤلفات الحديثة فى خصائص العمارة الحربية العربية والبيزنطية ، ومن المشاهدة الشخصية لمعالم الآثار الصلاحية الحربية بالقاهرة رائداً لى فى هذه المحاولة . أما المؤرخون الصليبيون المعاصرون فأشهرهم وليم الصورى الذى انتهت حولياته فى سنة ١١٨٣ م ثم أرنول ، وأمبراوز الشاعر الإنجليزى والمؤرخ الحربى ريتشارد ، ومؤلفاتهم التى استخدمتها أوضحت لى طريق البحث فى كثير من المواضع[2] .

(١) راجع ستة من معاصرى صلاح الدين الأيوبى للمؤلف نشر مكتبة النهضة ١٩٥٧
(٢) راجع ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية للمؤلف نشر مكتبة النهضة ١٩٥٧ .

والبحث كما قلت لم يصل إلى درجة الكمال ، ولكنه محاولة لشرح القواعد العامة للدفاع والهجوم على عهد صلاح الدين ، وهى قواعد أحدثت تطورا كبيرا فى العمارة الحربية والتنظيمات والتشكيلات العسكرية ؛ إذ أنشأ صلاح الدين لأول مرة فى تاريخ القاهرة قلعة اتخذها الأيوبيون بعده — وكذا سلاطين المماليك والعثمانيين بعدهم — قاعدة للدفاع عن العاصمة . على أن إنشاءها وغيرها من الأبنية العسكرية يعتبر كذلك من الأعمال العمرانية ، التى أثرت فى حياة العاصمة المصرية ، وفى تاريخ العمارة فى مصر فى العصور الوسطى الإسلامية .

وأظهر صلاح الدين لأول مرة فى التاريخ القيمة الحربية لطريق وسط سينا من بلدة صدر إلى بلدة أيلة ، إذ شيد على جانبيه القلاع والمنازل وصهاريج المياه ، وأقام له الحاميات ، فأمسى طريقا حربيا خطيرا ، تسلكه جيوش مصر وقوافل التجار والحجاج فى غدواتها بين شرق العالم الإسلامى وغربه .

واعتمد صلاح الدين فى تكوين الجيش فى مصر على غير المصريين ، من الأكراد والأتراك . ولهذين العنصرين فى التاريخ الحربى صفحتان ، إحداهما مشرقة ، وهى قيامهم منذ اعتناقهم الدين الإسلامى على مذهب السنة بالدفاع عن الحضارة الإسلامية ضد الصليبيين والمغول ، ففضلهم هنا كبير خالد لاشك فيه . أما الصفحة الأخرى فقاتمة مظلمة ، بسبب ما تخللها من تعصب عنصرى امتد أذاه إلى الحاكمين والمحكومين معا . وسعر هذا التعصب طبيعة النظام الحربى الذى تكونت الجيوش على مقتضاة ، والذى أدخل عليه صلاح الدين تعديلات جوهرية جديدة ، استمدها عن الزنكيين والسلجوقيين . على أن هذا النظام الحربى نجح جملة وتفصيلا رغم ما به من عيوب واضحة ، إذ حطم الجيوش الصليبية فى حطين وهى جيوش اقطاعية كذلك ، وأوقف تيار الغزو التترى عن مصر وأوربا فيما بعد .

واعتمد صلاح الدين على المغاربة فى تكوين البحارة للأسطول ، وهو هنا غير مبتكر شيئاً فى النظم البحرية المصرية ، فالمغاربة عماد الأساطيل المصرية منذ الفاطميين على الأقل . ومما يؤخذ على صلاح أنه لم يستخدم المصريين لا فى الأسطول ، ولا فى الجيش ، بل اكتفى بما يؤدونه من العمل فى الخطوط

الخلفيه بالحقول والمصانع ودور الصناعة البحرية . ولو أنه أدمج المصريين كما صنع محمد على الكبير فى القرن التاسع عشر الميلادى لكان لمصر شأن آخر — أكبر الظن — منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

ولاشك ، أن الأحوال الجغرافية والجوية أثرت فى التاريخ الحربى تأثيراً ملموساً ، سواء أكان ذلك فى فعل الزلازل وتخريبها للحصون وأعمال التحصين بعض الأحيان ، أو فى تسريح الجند فى الشتاء لشدة البرد وكثرة الثلوج وقلة الوقود ، أو فى عدم ملاءمة أشهر الصيف للغربيين فى القتال .

واحتوى هذا التاريخ الحربى على حياة صلاح الدين وخططه ، فكشف عن مهارته الحربية ، وعن مسايرته للاحوال السياسية المحيطة به ، وعن تقديره للمبادئ الخلقية ، وبالأحرى للمبادئ الإنسانية فى معاملته لأسرى الصليبيين وملوكهم ، على عكس استخفاف الصليبيين لتلك المبادىء ، وعلى الخصوص أرناط ورتشارد .

وباشر جيش(1) صلاح الدين حركات عسكرية طبقاً لنظم واضحة ، استخلصها صلاح الدين من تجاربه الشخصيه أيام شبابه ، فضلا عن خطط محكمة ناقشها مجلس المشور قبل القتال . وتتضح هذه الخطط بعد انتصاره فى حطين واتجاهه صوب الساحل لبلوغ النصر فى أسرع طريقة خاطفة ممكنة ، وهى خطط أملتها الأحوال التى أحاطت بجيوشه ؛ فأمراؤه إقطاعيون يقلقهم طول البقاء والمصابرة فى ميادين القتال ، وربما يرحلون قبل بدء الهجوم لانتهاء مدة خدمتهم الإقطاعية المقررة ، أو لأنهم لا يحبون الابتعاد طويلا عن مواطنهم وأهلهم . ووضحت هذه الأحوال حين وقفت الجيوش الأيوبية موقف المدافع أمام عكا ، حتى إذا ذهبت عكا لم يخط صلاح الدين خطوة للحرب إلا بعد تأمين طريق الإرتداد ، وربما كانت هذه المبالغة فى الاحتراس هى بعض أسباب ما حدث فى ارسوف ويافا قبيل وفاة صلاح الدين .

وبعد ، فإنى أحمد الله وأشكره على نعمة التوفيق ، كما أشكر أستاذى دكتور زيادة على جميل صبره وحسن توجيهه وإشرافه .

القاهرة فى { ذى الحجة ١٣٧٦ / يوليو ١٩٥٧ }

نظير حسان سعداوى

(1) راجع جيش مصر فى أيام صلاح الدين للمؤلف . نشر مكتبة النهضة ١٩٥٦ .

الفصل الأول

القواعد الحربية فى تأسيس الدولة الأيوبية

(١١٤٩ — ١١٧٤ م) — (٥٤٤ — ٥٧٠ هـ)

النواة الأولى فى تأسيس الدولة الأيوبية — الاقطاع الحربى — تأثر صلاح الدين بالنظم السلجوقية والنورية والفاطمية — مشاهدته خطة نور الدين فى الدفاع عن دمشق سنة ١١٤٩ واستيلاؤه عليها سنة ١١٥٤ — أثر الزلازل فى أعمال التحصين — تحصين بلبيس سنة ١١٦٤ — خطة معركة البابين سنة ١١٦٦ — حصار الاسكندرية فى نفس السنة — نواة الجيش الأيوبى فى سنة ١١٦٩ — رفع الحصار عن دمياط فى نهايتها — احتلال أيلة فى نوفمبر سنة ١١٧٠ — ترميم أسوار القاهرة والاسكندرية سنة ١١٧١ — تكوين مجلس الحرب (المشور) — حصار الشوبك — الاهتمام بالأسطول فى سنة ١١٧٢ — الجيش الثابت الاحتياطى — البدو — البريد الحربى الجوى — حملة النوبة سنة ١١٧٣ — حصار الكرك والشوبك المرة الثانية — البدء فى تحصين شبه جزيرة سيناء والراجح أنه منذ سنة ١١٧٠ — حملة اليمن سنة ١١٧٤ — حملة بلاد المغرب فى نفس السنة — حصار الصليبيين الاسكندرية — ثورة كنز الدولة بالصعيد — وفاة نور الدين ورحيل صلاح الدين إلى دمشق فى نهاية سنة ١١٧٤ .

حلت الدولة الأيوبية محل الدولة الفاطمية فى مصر، ومحل الدولة الزنكية النورية فى الشام وأطراف العراق، واستمدت نظمها العسكرية وسياستها الحربية من كل من هذين المنبعين. غير أنه يبدو أن المنبع الزنكى النورى الأقوى والأكثر وضوحا فى التاريخ الأيوبى، ففى كنف عماد الدين زنكى

نشأ الأيوبيون الأولون ، وهم أصحاب الفضل فى غرس بذرة الدولة الأيوبية ، ونشأ صلاح الدين وإخوته وبنو عمومته فى كنف نور الدين زنكى . ولما شب صلاح الدين عن الطوق جاء إلى مصر ثلاث مرات فى جيش نور الدين حتى صار عمه أسد الدين شيركوه وزيراً فاطمياً فى ٨ يناير سنة ١١٦٩ (٥٦٤ هـ) إلى جانب منصبه العسكرى فى خدمة نور الدين ، ولم يلبث صلاح الدين أن ورث عمه فى الوظيفتين ، وقام عليهما مدة سنتين ونصف (من ٢٣ مارس سنة ١١٦٩ إلى ١٣ سبتمبر سنة ١١٧١ م) برغم ما فيهما من تناقض . وهذه السنوات هى التى خبر فيها صلاح الدين نظم الدولة الفاطمية وفنونها فى شئون الدفاع والهجوم عن كثب ، وهى أيضاً السنوات التى لاءم فيها بين معرفته الحربية التى كسبها فى خدمة نور الدين وبين أساليب الفاطميين فى البر والبحر . وسوف يتضح من دراسة التاريخ الحربى ومراحله على عهد صلاح الدين أن الاقتباسات البرية النورية تغلبت فى الجيش وتشكيلاته ، على حين كان الأمر العكس فى الاقتباسات البحريه إذ يتبين منها غلبة النظم الفاطمية ، وهاتان ظاهرتان بديهيتان فالدولة الزنكية النورية بحكم وضعها الجغرافى وتطورها السياسى دولة برية ، والدولة الفاطمية بحكم إطلالها على البحر الأبيض المتوسط من أقصى المغرب تقريبا إلى أقصى شرق البحر المتوسط ، وبحكم اختلاط سياستها الخارجية بشئون صقلية والأندلس كانت دولة ذات صفة بحرية فوق صفتها البرية .

ولما كانت الدولة الزنكية النورية فى سياستها ونظمها فرعا جانبياً من فروع الدولة السلجوقية العظمى ، فالبحث فى التاريخ الحربى المصرى والنظم الحربية على عهد الأيوبيين يتطلب الرجوع من وقت لآخر إلى نظم السلاجقة والزنكيين والفاطميين ، بقدر ما يساعد على إظهار عامل الاتصال بين الدولة الأيوبية والدول التى سبقتها فى مصر والشام وأطراف العراق . فمن المعروف أولا أن الدولة السلجوقية اصطبغت بصبغة عسكرية بعد انسياقها وراء الغزو والفتح بزعامة أبناء سلجوق فى بلاد الفرس والعراق ، ثم وصل السلاجقة فى حركتهم التوسعية الدافقة غرباً إلى شواطئ البسفور ، وجنوباً إلى الشام وأطراف البلاد المصرية ، ولم

يزل من بينهم السلاطين والقادة العظماء أمثال ألب أرسلان وملكشاه ، وتتش وأتسز أصحاب فكرة الامتداد نحو مصر . وبلغ تعداد الجيش السلجوقى أيام ملكشاه على قول المراجع أربعمائة ألف من الأتراك والتركمان ، فضلا عن الحرس الكبير البالغ عدده ما بين سبع وأربعين وستة وأربعين ألفا كلهم من أرقاء الأتراك كذلك(١) . ونظراً لمغالاة هؤلاء وأولئك فى الأجور التى تقاضوها نظير خدماتهم فى الجيش السلجوقى ، ونظرا لصلفهم وقلة ثباتهم واحترامهم لنظام الجيش الثابت ، لجأ سلاجقة العراق وسوريا إلى استخدام محاربين جدد من القبائل الكردية القاطنة على ضفاف دجلة والفرات وسفوح جبال كردستان ، ومن القبائل العربية المتنقلة على حافة الهلال الخصيب(٢) . وما زالت القاعدة المرعية فى الدولة السلجوقية قائمة على إعطاء مرتبات أولئك المحاربين على اختلاف أصنافهم نقداً حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة الهيمنة عليها وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات ، إلى تفكير وزير ملكشاه نظام الملك آل ملك الطوسى الشهير ، فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالاقطاعات من الأرض لمختلف طبقات الجند ، حتى صار الإقطاع الحربى هو القاعدة العامة(٣) .. ومن ناحية أخرى أراد الوزير أن يجدد النشاط الحربى النفر من أمراء السلاجقة بعد أن أهلكتهم البغضاء ، فأوقف لهم ولايات تحت اسم إقطاع ، ومنحهم حق تكوين الفرق الحربية الخاصة ، وامتلاك البقاع التى يخضعونها إقطاعات لهم ، على شريطة أن يظلوا تابعين لسيدهم ، وهو السلطان السلجوقى الأعظم(٤) . وبذلك أقطع ملكشاه سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ هـ) أخاه تاج الدولة تتش دمشق وأعمالها وحلب وغيرها من بلاد الشام ، وأقطع ابن عمه سليمان

---

(١) Casanova : La citadelle p. 517-gibb : The Damascus chronicle of the Crusades p. 36.

(٢) Reinaud : L'art militaire chez les arabes au moyen age. p.229.

(٣) Ibid: p.234. المقريزى : خطط حـ ٢ ص ٨٤ طبعة ڤيت وحـ١ ص١٥٢ طبعة مصر — جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى حـ١ ص ١٤٦ .

(٤) Reinaud : op. cit. p. 234—gibb: op. cit. p. 33

أشيا الصغرى فضلا عما يفتحه كل منهما من البلاد[١] . كما ظهرت طبقة الأتابكة بالموصل وحلب ودمشق وغيرها من المدن ، بفضل إقطاع السلاطين السلاجقة بعض أمرائهم الإقطاعات الشاملة للمدينة أو المدينتين فى تلك المدن وأعمالها . ولم يكتف السلاجقة وسلاطينهم وأتابكتهم ، بإقطاع الأراضى المحاربين الذين يخدمون تحت لوائهم ، بل منحوا القبائل البدوية مساحات واسعة على حدود أتابكتهم ، ليكونوا لهم بمثابة الأرصاد والعيون ، يدافعون عنها وقت خلوها من الجيوش النظامية . على أن هذا التحول فى سياسة السلاجقة المالية والحربية لم يؤت ثماره المرجوة ، بل زاد الخلافات والثورات الاقطاعية فى جميع أجزاء المملكة ، وشغل الدولة عن سياستها العليا وقتذاك ، وهى الأخذ بيد أمراء سوريا الوطنيين ضد غزوات الصليبيين الأولين[٢] . ومن المعروف كذلك أن الدولة النورية الزنكية قامت على القاعدة الحربية العامة ، إذ جعل نور الدين بعض الاقطاعات الحربية على الأقل وراثية حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، رغبة منه فى إغراء الجند إلى الحرب والنصر . فإذا توفى أحد الأجناد وخلف ولدا ذكرا أقر الاقطاع عليه . فإن كان الولد كبيراً استبد باقطاعة ، وإن كان صغيراً رتب نور الدين معه رجالا يثق إليه ، ليتولى أمره إلى أن يكبر[٣] . وكتب بعض المعاصرين حديثاً لبعض الجند فى هذا المعنى نصه « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها »[٤] .

وطبيعى كذلك أن يتخذ صلاح الدين من النظم الحربية فى الدولة الفاطمية ما يصلح لأغراضه ، فمن المعروف أن تلك الدولة اعتمدت على أصناف المرتزقة أولا من الأتراك ، ثم من البربر والأرمن والنوبيين ، حين أحس خلفاؤها بانحراف الأتراك عن المذهب الشيعى ، فأوجسوا خيفة منهم ورغبوا عنهم إلى الأرمن والنوبيين

(١) Reinaud : op. cit. p. 234 — ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥

(٢) Casanova : op. cit. p. 517—Reinaud : op. cit. p. 236—gibb : op. cit. p. 33 - Lane - Poole : A history of Egypt... p.154

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٨ — المقريزى : خطط ج ٣ ص ٣٥١

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى تواريخ بنى أيوب ص ١٦٤

والسودانيين . ولذا سار صلاح الدين فى مصر على سياسة استخدام المرتزقة ، مع الفوارق التى أملتها أحواله التى سيرد ذكرها فى أماكنها .

ولما كانت أعمال التحصين والإعداد الداخلى أهم ما شغل صلاح الدين فى سنواته الأولى من حياته المصرية ، فسوف يقتصر هذا الفصل من التاريخ الحربى الأيوبى على الأعمال التحصينية فى تلك السنوات ، عملا بقواعد الوضع الزمنى للحوادث ، مع العلم بأن معرفة صلاح الدين فن التحصين لم تكن وليدة تجاربه المصرية وحدها ، بقدر ما كانت وليدة التجارب الماضية ، ولا سيما السنين العشر التى قضاها فى خدمة نور الدين . وإن كان صلاح الدين لم يقم فى هذه السنوات بعمل ما يلفت الأنظار ، وقت أن حكم أبوه بعلبك على عهد زنكى ثم دمشق على عهد نور الدين ، كما أنه لم يشترك فيما يبدو فى حروب عمه شيركوه بسوريا ، وقت تولى شيركوه منصب القائد العام لجيوش نور الدين[١] .

وصحيح كذلك أن سيرة صلاح الدين فى تلك الفترة السابقة لمجيئه مصر لم تكن واضحة كل الوضوح . والكشف عنها يتطلب البحث فى الشخصيات والبيئات العسكرية والسياسية والاجتماعية التى حاطته واحتضنته أيام طفولته وشبابه على وجه خاص ، فأثرت فيه تأثيراً واضحاً ملموساً ، وهذا يتطلب تقسيم التاريخ الحربى على عهد صلاح الدين إلى مراحل زمنية ، تبدأ بمرحلة الدراسة والتجارب الحربية من ١١٤٦ — ١١٦٨ م (٥٤١ — ٥٦٤ ه) ، على أن استجلاء هذه المرحلة يتطلب الرجوع إلى الأيام الأولى من حياة صلاح الدين . ففى سنة ١١٣٩ م (٥٣٤ ه) وصلاح الدين وقتذاك طفل لم يبلغ من العمر سوى سنتين ، صار أبوه نجم الدين أيوب حاكماً على بعلبك ، وبقى بها حتى صار عمر ابنه سبع سنين ، فلم يستطع إلا أن يرى قلعة بعلبك ذات الأسوار المنيعة . ثم سلم نجم الدين بعلبك وقلعتها باختياره سنة ١١٤٦ م إلى معين الدين أنر صاحب دمشق ، وانتقل هو نفسه إلى دمشق بعد أن أقطعه معين الدين إقطاعاً وافرا[٣] .

(١) Reinaud : op. cit : p. 236

(٢) Lane—Poole : op. cit p. 191

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٨ — دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٧٢١ و ٧٠٢ مادة بعلبك — وراجع حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٢٩ — ٣٩ .

وبذلك أدركت الحوادث الدمشقية صلاح الدين ولما يتجاوز العاشرة من عمره. ثم شهد صلاح الدين مقدم نور الدين إلى دمشق سنة ١١٤٩ لمساعدة معين الدين في دفع الصليبيين عن دمشق [١] ، وعرف بقدر ما سمحت له سنه خطة الدفاع عن المدينة ، وخطة الصليبيين في الحصار والهجوم . وحوالى ذلك الوقت وضحت لنور الدين ضرورة الاستيلاء على دمشق ، وتركزت سياسته سنة ١١٥٤ في تحقيق ذلك ، فرأى صلاح الدين وهو صبي أروع قصة تاريخية تمثل فيها الأسلوبان الأساسيان لإدارة الحرب في حالتي الهجوم والدفاع ، وهما طرفان متضادان متقاتلان ، وعنصر الجدة والغرابة في القصة أن يكون الطرف المهاجم عمه أسد الدين شيركوه الذي عينه نور الدين قائد الحملة التي أعدها للاستيلاء على دمشق ، ومن واجبه أن يضع خطة الزحف والمباداة بالعدوان ، وأن يبحث عن خصمه فيقهره ويرغمه على التسليم ؛ وأن يكون الطرف المدافع هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، ومن واجبه أن يتجنب العمليات الحربية التي تجرى ضده ويدفعها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وحقناً للدماء تفاوض الأخوان وانتهى بهما الأمر إلى تسليم دمشق لنور الدين ، فكان جزاءهما عنده ، أنه عين نجم الدين حاكماً على دمشق ، وزاد في إقطاع الأسد شيركوه أقطاعاً جديداً ، بعد أن ولاه نيابة السلطنة بالقسم الجنوبي من الشام كله وهو المعبر عنه بإقليم دمشق . ثم جعل نور الدين دمشق عاصمة لمملكته ، فتقلب الفتى صلاح الدين في بلاطه ، وأبرزته رواية ابن مخرمة في صورة الذي غلبت عليه مظاهر الجد والاجتهاد في شئون الإدارة والحرب [٢] .

وبدأ صلاح الدين دراساته النظرية للمبادئ الحربية سنتي ١١٥٦ و ١١٥٧ (٥٥١ و ٥٥٢ هـ) عندما غضبت الطبيعة على المسلمين وروعتهم بالزلازل وأهوالها ولا سيما بحماة وشيزر حيث زلزلت الأرض بمعدل أربعة في الليلة الواحدة ، حتى أن

(١) Gibb : p. p. 278, 287 وحبشي ص ٥٩ — ٦١ .
(٢) راجع وصف ترجمة الشاب صلاح الدين في مخطوطة قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر جـ ٢ مجلد ٢ ص ٧٧٢

بعض مؤدبي الصبية بحماة ذكر أنه فارق المكتب لأمر ، فجاءت الزلزلة وأخربت الدور وسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، فلما عاد المؤدب لم يجد من مكتبه وصبيانه إلا الخراب والفناء [١] . وتهدم الكثير من الحصون والقلاع والمنازل ، وخلت الثغور من الحاميات حتى طمع الصليبيون فيها ، لولا أن الزلازل حاقت بهم كذلك ، فوافتهم يوم عيدهم وهم في كنائسهم ، فخر عليهم سقفها وصرفتهم عن التفكير في مهاجمة المدن الإسلامية [٢] . وعادت الزلازل سنة ١١٦٠ (٥٥٥ هـ) في ثلاث عشرة بلدة ، بينها شيزر وحماة والمعرة وحصن الأكراد وطرابلس وإنطاكية ، فلم تبق ولم تذر ، ولم يسلم من أهل شيزر تلك السنة إلا امرأة وخادم [٣] . ومن ثم كان اهتمام نور الدين بإعادة تحصين تلك المدن الشامية ، لشدة خوفه على البلاد من الصليبيين ، فرتب لبعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة وبادين [٤] . أما حلب فباشر نور الدين عمارتها بنفسه ، ووقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وجميع البلاد وجوامعها ، وأخرج لذلك كله من الأموال ما لا يقدر قدره على قول المراجع [٥] . وليس من المعقول أن يقوم نور الدين على تلك المشاريع الحربية الضخمة تحت سمع صلاح الدين وبصره دون أن تنعكس صورتها في مخيلته ، ودون أن تحفر أثرها البالغ في ذهنه ، فلا بد أنه ألم بالكثير من فن التحصين ومقوماته ، حتى إذا ما استهل حياته العملية ضابطاً في جيش نور الدين طبق نظرياته ودراساته السابقة تطبيقاً عملياً . ومصداق ذلك ما حدث له في حملة عمه الأولى على مصر في أبريل سنة ١١٦٤ (٥٥٩ هـ) ، إذ حدث أن تقدم شيركوه إلى بلبيس فاستولى عليها ، وعبر منها إلى القاهرة فدخلها من باب القنطرة [٦] . وأخذ يسوى حسابه

(١) ابن الأثير : أتابكة الموصل ص ١٩٦ .
(٢) أبو شامة : جـ ١ ص ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٩ .
(٣) الذهبي تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام جـ ٢٥ ص ١٠٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٣٣ وأتابكة الموصل ص ٢٦١ .
(٥) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٥٨ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٢٥٧ — العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان جـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٩ .
(٦) Creswell : The citadel of Cairo p. 90

مع شاور حسب الاتفاق الأول مع نور الدين ، القائل بإعطاء العساكر النورية ثلث مُغل البلاد المصرية ، والثلث الثاني لشاور وعساكره ، والثلث الآخر للخليفة الفاطمي يصرفه في مصالحه ، غير أن شاور تنكر للاتفاق ، وأغلق باب القاهرة استعداداً لمنازلة شيركوه ، فاستعد شيركوه من ناحيته للقتال ، على حين سير ابن أخيه صلاح الدين في قطعة من الجيش لاحتلال بلبيس والأقاليم الشرقية ، وأمره بجمع الغلال والأتبان والأحطاب ، وما تدعوا الحاجة اليه في حالات الدفاع ، على أن يكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة . وعند ذلك استنجد شاور بأموري ملك الدولة الصليبية ببيت المقدس ، وطلب إليه الحضور إلى مصر لإخراج العساكر النورية ، وضمن أن يدفع له مقابل كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار عدا ما قرره لتضيم الدواب والاسبتارية ؛ حتى إذا وصل أموري فاقوس قبض سبع وعشرين ألف دينار عن سبع وعشرين مرحلة[1] . وعندما علم شيركوه بقدوم أموري تقهقر عن القاهرة، ولحق بابن أخيه في بلبيس، وجعلها ظهراً يتحصن به ، بعد أن سورها بسور من طين قصير، ليس له خندق يحميه ولا جبيل يعصمه .

ثم خرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالصليبيين ظاهر بلبيس ، فحاصر معهم شيركوه بداخل المدينة، وشيركوه يغاديهم القتال ويراوحهم حتى أعياهم دون أن يبلغوا منه غرضاً ، وذلك بفضل مؤازرة أهلها له من الكتانية ، وبفضل صاحب رأيه صلاح الدين[2]. وأقام شاور والصليبيون على تلك الحال مدة ، اختلف المؤرخون في تقديرها بين الثمانية والثلاثة من الأشهر ، حين علم أموري بإغارة نور الدين على ممتلكاته بالشام ، وكان قد وصل بلبيس نجاب نوري يحمل أعلام الصليبيين وشعافهم التي استولى عليها نور الدين في حارم، فنشرها الأسد على أسوار بلبيس مما أزعج أموري ، فآثر الرحيل والعودة إلى بلاده[3] . وهكذا تعلم صلاح الدين

(١) أبو شامة : حـ ١ ص ١٣١ و ١٦٧ — جمال الدين : أخبار الدول المنقطعة ص ٩٢

(٢) راجع ابن مخرمة عن وصفه الشاب صلاح الدين حـ ٢ مجلد ٢ ص ٧٧٢ .

(٣) الذهبي : حـ ٢٥ ص ٤٢٢ — الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب مجلد ١٧ ص ٥ — خطط المقريزي حـ ٢ ص ١٧٤ — اليونيني : كشف الكروب في معرفة الحروب ص ١١ .

في بلبيس كيف يكون إعداد المدن لمقاومة الحصار ، وكيف تكون إعداد المؤن والذخائر الكافية للجيش والمدنيين داخل المدينة المحصورة ، كما تعلم كيف يكون تحصين المدينة بما يتيسر من الوسائل الطبيعية وغير الطبيعية ، ثم رجع الأسد والصلاح إلى دمشق في نوفمبر سنة ١١٦٤ (المحرم ٥٦٠ هـ) ، بعد أن أعطاهما شاور ثلاثين ألف دينار[1] . ففوض نور الدين إلى الصلاح وقتذاك شحنكية[2] دمشق ، فكانت تجربة ثانية من التجارب التي تمرّس بها صلاح الدين في شبابه ، لأن متولي الشحنة يتطلب أن يكون إدارياً حازماً ، واسع الحيلة مصلحاً ، ودل صلاح الدين على صلاحيته في تلك الوظيفة ، إذ أظهر السياسة وهذّب الأمور على قول الراجع[3] .. وآية ذلك ما لا يزال ماثلا من كتابة على باب الجابية بدمشق ، ونصها : « أمر بعمارته نور الدين سنة ٥٦٠ وفيها أمر أيضاً بعمارة الباشورة المباركة والأبواب[4] . ومعنى ذلك أن صلاح الدين هو الذي أشرف على تلك العمارة في السنة الأولى من توليه الشحنكية .

ثم جذبت الحوادث المصرية صلاح الدين ثانية إلى مصر ، عندما تسابق الجيشان النوري والصليبي في الوصول إليها في وقت واحد تقريباً ؛ إذ خرج شيركوه في ٦ يناير سنة ١١٦٧ (١٢ ربيع الأول سنة ٥٦٢) في ألفي فارس يريد فتح مصر ، وتقدم حتى صار على مقربة من القاهرة ، لكنه لم يشأ مهاجمتها . بل عسكر عند أطفيح[5] على بعد أربعين ميلا جنوبيها ، ومن هناك عبر النيل في المراكب ، وعسكر في الجيزة قبالة الفسطاط[6] ، على حين خرج آموري من

(١) أبو شامة حـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) الشحنكية : هي وظيفة رياسة الشرطة — راجع السلوك للمقريزي حـ ١ قسم ١ حاشية ص ٣٥ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب حـ ٤ ص ١٨٨ — الذهبي حـ ٢٦ ص ١٩٩ .

(٤) Wiet: Repertoire Chronologique Tome 9 p. 42

(٥) بلدة كبيرة قديمة واقعة على يمين النيل ومذكورة في مؤلفات استرابون وبطليموس وصارت اطفيح حوالى سنة ١٨٤٣ م بندر القرى المجاورة لها ، وهي رأس قسم من مديرية الجيزة ؛ شرع إسماعيل باشا في حفر ترعة — لصرف السيول الساقطة بسفح الجبل المجاور لها — تمتد من ترعة الكريمات الشهيرة بترعة شرق اطفيح الى أن تمر خلف القاهرة بين القلعة والجبل ، حتى تمر من تحت ترعة الإسماعيلية لتروى منها بلاد مديرية القليوبية — علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية حـ ٨ ص ٧٩ و ٨٠ .

(٦) Creswell op. cit. p. 91

غزة إلى العريش يوم ٢٠ يناير ، فأدرك بابيس ثم القاهرة حيث عسكر على شاطىء النيل الأيمن قبالة شيركوه على الشاطىء الآخر . وهكذا وقف الطامعان وجهاً لوجه لا يفصلهما سوى الماء . وطلب آمورى على الفور أن يتعهد شاور بدفع أربعمائة ألف دينار ، ثمناً لمجيئه لإخراج شيركوه من مصر ، وأصر على أخذ نصف هذا المبلغ مقدما ، فقبل شاور الطلب ، ولتأكيد هذه الاتفاقية أرسل آمورى مندوبين من قبله لمقابلة الخليفة العاضد[(١)] .

ومن ثم شرع آمورى فى إقامة جسر من المراكب وجذوع النخل جنوبى الروضة الحالية ، ليعبر عليه هو وجنده إلى الجيزة حيث عسكر شيركوه وفرسانه ، فكان أول جسر يقام بين الجيزة والروضة فى هذه المنطقة[(٢)] . غير أن أسد الدين ترك آمورى وجنوده يقيمون الجسر حتى إذا توسطوا النهر ، أخذ ينضحهم بالنبال والسهام والقسى ، فارتد الصليبيون ، وطال بقاء الفريقين أمام بعضهما البعض مدة شهرين . وعاود الصليبيون العبور ثانية ، غير أنهم لم يكادوا يتوسطون النهر ليلا ، حتى هبت عاصفة هوجاء أرغمتهم على الاتجاه إلى جزيرة الوراق ، الواقعة جنوبى كوبرى عباس الحالى ، بين الجيزة الحالية والفسطاط . وبينما هم فى ملجأهم هذا رحل شيركوه بجنده تحت جنح الظلام صاعداً فى النيل إلى الصعيد[(٣)] . فتعقبه الصليبيون والفاطميون حتى لحقوا به عند بلدة البابين ، على بعد عشرة أميال جنوبى المنيا الحالية ، حيث وقعت الواقعة (١٨ إبريل سنة ١١٦٧) التى أظهرت مواهب صلاح الدين . ذلك أن شيركوه رسم الخطوط الأساسية للمعركة ، كما نظم قواته التى لم تزد عن الألفين تنظيما ، يدل عليه قوله فى جند القلب من جيشه « أن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أنى فيه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا قدامهم بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا

---

(١) Lane-Poole: A Hist. of Egypt: p.p. 177-179.- Saladin p. 81-85

(٢) جاء فى خطط المقريزى ح ١ ص ٥٠٦ ، طبعة ڤيت : اعلم أنه كان فى النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط والجزيرة تعرف اليوم بالروضة ، وكان فيما بين الجزيرة والجيزة أيضا جسر ، فى كل جسر منها ثلاثون سفينة .

(٣) جمال الدين : أخبار الدول المنقطعة ص ٩٧ — حنفى ص ١٩٢ .

فى أعقابهم » . بعبارة أخرى اختار أسد الدين من عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم فى الحرب ووقف بهم فى الميمنة ، وجعل صلاح الدين فى القلب ومعه الأثقال ، خوفا من تركها بمكان آخر فينهبها أهل البلد . وبدأت المعركة وفعل الصليبيون ما توقعه أسد الدين ، وحملوا على القلب فقاتلهم صلاح الدين قتالا يسيراً ، ثم تظاهر بالهزيمة وأخذ فى التقهقر فى نظام ، حتى أطمع الصليبيين فى تعقبه . عند ذلك حمل أسد الدين فى من معه على الصليبيين ، فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر ، فلما وقف الصليبيون عن تعقب القلب ، وعاودوا اللحاق بإخوانهم ، رأوا عسكرهم مهزوماً ، فانهزموا أيضاً ١٨ إبريل سنة ١١٦٧ (٥٦٢) ، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر والصليبيين معا[(١)] .

وعد هذا فخراً كبيراً للضابط الناشىء صلاح الدين ، ودرسا ألم فيه بأسس التعبية العامة لنظام المعركة من كر وفر ومخاتلة ، وانطبعت آثار العملية فى ذهنه ، حتى إذا ما جاء دور الجهاد الفعلى ، وجد نفسه مزوداً بتراث الماضى وخبراته . وكشفت معركة البابين كذلك عن طبيعة نظام الاقطاع الحربى الوراثى وأثره فى نفسية المحاربين ، كما كشفت عن قاعدة الوراثة ومداها فى الدولة النورية ، إذ قال شرف الدين برغش أحد جنود نور الدين إبان المعركة مخاطبا بعض إخوانه : «من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحا أو مع النساء فى بيته ؛ والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ، ليأخذن ما لنا من إقطاع وجامكية ، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا[(٢)] . » ثم يلتفت إلى أصحابه ويقول مرة أخرى مؤنبا . « تأخذن أموال المسلمين ، وتفرون من عدوهم . وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيده[(٣)] » . فوافقه الجميع على قوله ومن بينهم صلاح الدين نفسه ، وربما كانت هاتان العبارتان من أسباب استماتة الجند النورى فى القتال ، حتى كان لهم الفوز والغلبة على النحو السابق ذكره .

---

(١) ابن الأثير ح ١١ ص ٢١٤ — تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٣٨ .

(٢) أبو شامة ح ١ ص ١٤٣ — ابن الأثير ح ١١ ص ٢١٤ .

(٣) نفس المراجع والأجزاء والصفحات السابقة .

ثم زحف أسد الدين شمالا مخترقاً الصحراء إلى الأسكندرية ، لقلة جنده ولتحقيق رغبة أهل الأسكندرية الذين يبدو أنهم كاتبوه بعد أن أنفوا من شاور واستعانته بأعداء دينهم ووطنهم . إذ تخبر المراجع أن الأسكندريين بعثوا إلى أسد الدين رسالة حملها ، إليه رجل اسمه الادريسى يخبرونه فيها « أن السلاح واصل »[١] . وأن أسد الدين قرر الذهاب إليهم فى سرعة ، وأراد بتلك الحركة الجريئة أن يجعل من الأسكندرية قاعدة لما سوف يقوم به من هجوم على القاهرة ، وأن يحول دون مجىء أى مدد لأمورى من البحر . ويحتمل أن أسد الدين اتخذ طريقه من المنيا إلى الفيوم ، ومنها إلى وادى النطرون ، ومن وادى النطرون إلى الأسكندرية ، ماراً بالطريق الصحراوى الذى اعتاد عرب الصحراء الغربية ارتياده من وقت لآخر ، لاخضرار مراعيه فى شهر أبريل ، فضلا عن كثرة حصاه وقلة رماله[٢] . ولما وصل أسد الدين ومعه صلاح الدين إلى الأسكندرية ، خرج إليه واليها وقاضيها وأعيانها ، وسلموه المدينة فى مايو سنة ١١٦٧ ، على أن شيركوه لم يقم بالأسكندرية طويلا ، بل عاد إلى الصعيد لجباية الأموال وإعداد الرجال ، بعد أن استخلف صلاح الدين فى ألف فارس على الأسكندرية[٣] .

عند ذلك قرر شاور والصليبيون محاصرة الثغر براً وبحراً ، فزحفوا إليها وحاصروها مدة خمسة وسبعين يوماً ، وقيل أربعة أشهر ، وعمل الصليبيون برجاً متحركا لمواجهة الأسوار من عدة نواح ، وصابرهم صلاح الدين ، ووقف إلى جانبه أهل الثغر بأموالهم وأنفسهم ، حتى قتل منهم جماعة عظيمة ، وحاول شاور استمالة أهل الأسكندرية ، ووعدهم أن يضع عنهم المكوس والواجبات ، ويعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين فأبوا ذلك ، غير أن روحهم المعنوية أخذت تضعف لقلة الطعام وضغط الحصار ، مما أزعج خاطر صلاح الدين ، فكاتب عمه وشرح له حرج موقفه ، لاسيما بعد أن أفسد شاور جماعة من التركمان فى حامية صلاح الدين ؛ ثم ما لبث شيركوه أن غادر قوص ، ووصل إلى قرب

(١) أبو شامة حـ ١ ص ١٦٨ — حبشى ١٢٥ .
(٢) راجع حاشية Creswell op. cit p. 91
(٣) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٣٠٥ .

الأسكندرية فى جمع كثير من العربان ، وبلغ ذلك شاور فرحل هو والصليبيون عن الأسكندرية لإقرار الصلح مع أسد الدين .

وتم الاتفاق على أن يعود كل من الأسد وأمورى إلى بلاده ، وأن يدفع شاور لأولهما جميع تكاليف هذه الحملة ، ولثانيهما ثلاثين ألف دينار ، وسيَّر أمورى صلاح الدين ومن معه من ضعفاء العسكر النورى فى البحر إلى دمشق عن عكا فى أغسطس سنة ١١٦٧ (شوال سنة ٥٦٢)[١] . ويُعَدُّ هذا درساً من دروس التحصين والدفاع التى قام بها الضابط صلاح الدين ليصد المغيرين . وبلغ من أثر الدرس فى نفسه أن قال يوم أن طلب منه السفر فى الحملة الثالثة فى نوفمبر سنة ١١٦٨ م (سنة ٥٦٤ هـ) . « والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالأسكندرية من المشاق بها ، مالا أنساه أبداً » . ولكنه اشترك فيها على كره منه ، وكأنه يساق إلى الموت على قول مؤرخ معاصر[٢] « وأن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل »[٣] .

على أن موضع الأهمية هنا أن الجيش النورى الذى جاء إلى مصر فى تلك الحملة الثالثة وعدته ثمانية آلاف رجل ٨٠٠٠[٤] ، كان نواة الجيش المصرى الأيوبى ، إذ جاء ذلك الجيش لا ليعود إلى الشام ، بل ليقيم فى مصر ، ويرى تأسيس الدولة الأيوبية بها ، والمعروف أن تلك الحملة النورية الثالثة جاءت إلى مصر بناء على استغاثة الخليفة العاضد الفاطمى وشاور ، اللذين أرسلا الكتب إلى نور الدين وفيها شعور النساء والبنات ، بعد أن زحف أمورى على مصر طمعا فيها وعلى غير انتظار .

وقد هاجم أمورى بلبيس واستباحتها جنوده ذبحـاً وسبيـاً فى نوفمبر سنة ١١٦٨[٥] . ثم سار منها حتى نزل على بركة الحبش خارج القاهرة ، فرأى

(١) الخطط المقريزية حـ ١ ص ٢٨٢ — ابن العماد : شذرات الذهب حـ ٤ ص ٢٠٣ الذهبى حـ ٣٦ ص ٢١٣ — أبو شامة حـ ١ ص ١٦٨ .
(٢) ابن واصل ٩٨ — الذهبى حـ ٢٥ ص ٣٠٤ و ١٦١ — أبو شامة حـ ١ ص ١٥٥ و ١٦١ .
(٣) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٢٦ — أبو شامة حـ ١ ص ١٦١ ومقدمة Reinaud : Extraits des Hist. p. 138
(٤) Creswell op. cit. p 91
(٥) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ٣٠٥ .

شاور أن يعطل تقدم الصليبيين ما استطاع حتى تصل إليه النجدة النورية ، فأمر بإحراق مدينة مصر (الفسطاط) وبتحريق مراكب الأسطول خوفاً عليها من الوقوع فى أيدى الصليبيين، وبقيت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً (١) .

ويعتبر حريق الفسطاط من الحوادث البارزة المروعة فى التاريخ الحربى المصرى، والذى لا تزال آثاره باقية إلى اليوم فى الأراضى الرملية بمصر القديمة .

وما أروع ما وصف به المقريزى الناس عندما أمرهم شاور بإخلاء المدينة وقد ماجوا « كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لا يعبأ والد بولده ، ولا يلتفت أخ الى أخيه » . واشتد بهم أمر النقلة منها الى القاهرة ، حتى بلغ كراء الدابة بضعة عشر ديناراً ، وكراء الجمل إلى ثلاثين ديناراً ، ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها ، وعلى طرقاتها مطروحين بنسائهم و أطفالهم ، فى انتظار ما سيفعله العدو معهم ، بعد أن عموا بمسلكه مع بلبيس وأهلها . ثم فرق شاور على المدينة عشرين ألفا قاروره نفط ، وعشرة آلاف مشعل نار لإحراقها ، وخرج العبيد ورجال الأسطول الى منازلها ، فنهبوها وأمعنوا فى طلب الخبايا .

وما أن شاهد آمورى ذلك المنظر المخيف حتى رحل من بركة الحبش، وخيم بظاهر القاهره قرب باب البرقية ، حتى إذا وصل الأسد والصلاح بالحملة النورية الثالثة قرر آمورى الرحيل الى بلاده .

وهكذا انتهت قصة التسابق والتنافس بين الدولتين النورية والصليبية بجلاء آمورى عن مصر الى فلسطين يوم ٨ يناير سنة ١١٦٩ (٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤)(٢) . بعد أن غلبه شيركوه بمهارته الحربية ، وصدعه شاور بوعوده . ونزل شيركوه باللوق خارج القاهرة ، حيث صفى حسابه نهائياً مع شاور ، وبعد أن سفه رأيه فى احراق المدينة ، وأمر الناس بالعودة الى الفسطاط وتعميرها .

(١) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ٣١٤ — تاريخ الدولة الاتابكية ص ٢٨٤ وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) Creswell op. cit. p.92 الخطط المقريزية جـ ٢ ص ١٤٣ — الفاطميون فى مصر ص ٣٠٦ .

والجديد فى هذا الحادث بالنسبة لصلاح الدين ، أنه أضاف الى تجاربه الحربية السابقة تجربة جديدة وهى ، اعداد المأوى والمؤن لأولئك المنكوبين والمهاجرين الذين فقدوا مساكنهم وأموالهم ، وتعمير الفسطاط وترميمها . وسوف يقابل صلاح الدين نفس المشكلة على نطاق أوسع فى حروبه القادمة مع رجال الحملة الصليبية الثالثة ، عندما يأمر بإخلاء مدن فلسطين الساحلية أمام زحفهم صوب الجنوب .

وهكذا دخل أسد الدين وصلاح الدين القاهرة دخول المنتصر ، وقام أسد الدين فى الوزارة مدة شهرين ونصف (٨ يناير سنة ١١٦٩ — ٢٣ مارس) . فلما توفى أسد الدين قام صلاح الدين فيها بعده مدة سنتين ونصف سنة (٢٣ مارس سنة ١٢٦٩ — ١٣ سبتمبر ١١٧١) هى فترة التأسيس للدولة الأيوبية فى مصر ، والظاهرة البارزة فى تلك الفترة هى مجموعة الأعمال التحصينية والتنظيمية التى قام عليها صلاح الدين منذ تولية الوزارة ، ابتغاء الاستعداد لدفع أى اعتداء على مصر من الداخل والخارج معا ، مما تطلب القيام — فضلا عن تلك الأعمال التحصينية — ببضعة أعمال حربية ضد الصليبيين ، وضد سيده نور الدين ، وضد الفواطم (١) . وتلك الأعمال التحصينية بالذات أعمال عمرانية إنشائيه ، شملت تحصين القاهرة ، ثم الديار المصرية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، وامتصت كل موارد الدولة ومواهب صلاح الدين ، ويستطيع الباحث فى التاريخ الحربى أن يتلمس خيوط السياسة التى اتبعها صلاح الدين فى تلك الفترة من معالجة المؤرخين للحوادث والأحوال ، وأول تلك الأحوال اهمية فى التاريخ الحربى المصرى على عهد الأيوبيين ، أن صلاح الدين تقلد الوزارة الفاطمية يوم ٢٣ مارس سنة ١١٦٩ (الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤) مستشعرا الاستقرار بمصر نهائيا (١) . إذ أخذ فى تقوية مركزه ونور الدين على قيد الحياة ، فعمل على ترحيل كبار القادة

(١) Lane-Poole A Hist. of Egypt in the middleages p.p. 191,194

(٢) بدليل تقمصه لباس الجد لما آلت اليه الوزارة (أنظر وصف بن مخرمة للشاب صلاح الدين جـ ٢ مجلد ٢ ص ٧٧٢) ، وبدليل أن نور الدين لما عرف استقرار صلاح الدين بمصر أخذ يحس من نواب عمه أسد الدين فى العهد التالى لتولية صلاح الدين الوزارة (ابن شداد ص ٣٣) .

فى الجيش النورى إلى الشام ، مثل عين الدولة الياروق ، وعز الدين جرديك وغيرهم ممن لم يرقهم اختياره للوزارة دونهم ؛ ومن ثم اخذ اولئك القاده ـ . ن بينه و بين نور الدين ، ثم احاط صلاح الدين نفسه على الفور بجماعة الأسدية المنتسبة إلى عمه المتوفى ، وعدتهم خمسمائة مملوك ومن أعيانهم الفقيه عيسى الهكارى ، وجاولى الأسدى وعلم الدين كرجى الأسدى صاحب حمام كرجى بالقاهرة ، وبهاء الدين قراقوش صاحب الأخبار الطوال فى بناء العمائر الحربية فيما بعد[1].

وإلى جانب هؤلاء أحاط صلاح الدين نفسه بطائفة المماليك والصلاحية المنتسبة إليه ، والمتواترة أحياناً فى كتب التاريخ باسم الناصرية ، أو المماليك الخواص أو جند الحلقة . ومن كبار أمرائها سيف الدين سنقر الدووى ، وأيبك الساقى زاده[2] ، وركن الدين منكورش[3] . وفارس الدين ميمون القصرى[4] . وأبو المنصور جهاركس الملقب فخر الدين ، وكان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية[5] . ومن الطبيعى أن يتخذ صلاح الدين من هاتين الطائفتين نواة جيشه الحقيق ، وأن يفيض فى الإغداق عليهم ، فيشرع فى نقض اقطاع المصريين « الفاطميين » من أجلهم ، وهى خطوة جريئة أثارت عليه سخط جيش الفاطميين من السود ، وعدتهم تتراوح بين الثلاثين ألف رجل ، والخمسين ألفا بزعامة مؤتمن الخلافة نجاح[6] . كبير الخصيان السود ، ومما ساعد على اتخاذ صلاح الدين تلك الخطوة ، أنه قبض على رسول مؤتمن الخلافة موفداً إلى آمورى يدعوه دعوة شاور لفتح مصر ، وعلم صلاح الدين من ذلك الرسول ، أن خطة نجاح تقوم على فكرة وصول

(١) أبو شامة حـ ١ ص ١٧٣ — ابن الأثير حـ ١١ ص ١٤١ و ٢٨٥ و ٢٩٧ والخطط المقريزية حـ ٣ ص ١٣٠ و Casanova op. c t. p. 521 .

(٢) العماد : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٢٥ .

(٣) الخطط المقريزية حـ ٣ ص ١٥١ .

(٤) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٥١ .

(٥) وكان مقدم الطائفة الناصرية أو الصلاحية والحاكم بديار مصر فى أيام الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين يوسف ، وبموته انقضى أمر تلك الطائفة (الخطط حـ ٣ ص ١٤٢ وابن خلكان جـ ٣ ص ٣١٥) .

(٦) الخطط حـ ١ ص ١٣٨ و حـ ٣ ص ٣ و ٢٩ — الفاطميون فى مصر ص ٣٠٨ .

آمورى إلى مصر ، حتى إذا خرج صلاح الدين لمدافعته هاجمه المتآمرون فى مؤخرته ، وبذلك يقع بين نارين فيقضى عليه وعلى جنده من التركمان ، ويصير نجاح صاحب الكلمة العليا فى مصر كما كان شاور ، غير أن صلاح الدين لم يمهل أحداً ، فلم يكد يتحقق من كبير الخصيان حتى قبض عليه بقرية الخرقانية الواقعة بقرب قليوب فى يوليو سنة ١١٦٩ (الأربعاء ٢٥ ذى القعدة سنة ٥٦٤) وأمر بقطع رأسه . وحاول شركاء نجاح ولا سيما جماعة السودانية ، إثارة الفتنة والخواطر فى الرأى العام بالقاهرة ضد الوزير الشاب ، وماجت القاهرة فترة بحرب الشوارع ، غير أن صلاح الدين تملك زمام الموقف فى معركة « بين القصرين » المنيفة ، بفضل جنده من الأسدية والصلاحية ، وبفضل مهارة أخيه تورانشاه ، الذى أقطعه صلاح الدين قوص وأسوان وعيذاب[1] . وهى فيما يبدو جزء على الأقل من اقطاع مؤتمن الخلافة المقتول . وهكذا دارت الدائرة على السودانيين فى القاهرة وذهب حيهم المعروف بالمنصورية ، فلاذ من بقى منهم بالصعيد ، حيث كونوا مركز المقاومة صلاح الدين وإحداث الشغب الشعبى هناك ، وظلوا شوكة فى جانبه ست سنوات (حتى ١١٧٦ م — ٥٧٢ هـ) ، ولم يقلل هذا من قدرة صلاح الدين فى القضاء على الفتن الشعبية واستتباب الأمن الداخلى ، وهو أمر أفلت زمامه من جيش الفواطم منذ أن طعم الخليفة العزيز الفاطمى جيشه بالعنصر التركى المرتزق .

أما أمورى ، مدبر الركن الثانى من تلك المؤامرة العسكرية ، فاتفق مع أما نويل إمبراطور بيزنطه على محاصرة دمياط براً و بحراً واحتلال مصر عن طريقها ، وكانت دمياط كما وصفها ابن واصل « عقيلة الاسلام وثغر الديار المصرية »[2] ، وعليها من جانبيها برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس ، ولا يخرج مركب إلى البحر الملح ولا يدخل إلا باذن ، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تانيس ، وعلى سورها محارس ورباطات[3] . وكان لكل من آمورى والامبراطور

(١) أبو شامة حـ ١ ص ١٧٨ — Lane-Poole : Saladin 101 ابن واصل ص ٩١٠ .

(٢) ابن واصل ص ٣٧٤ — وحبشى ص ١٣٩ .

(٣) ميخائيل عواد : كتاب الناصر ص ٣٨ .

أما نويل غرض خاص فى المشاركة فى تلك الحملة، إذ رأى أمورى فى وجود الجيش النورى بمصر ما يهدد كيان دولته فى فلسطين ، ونظر أمانويل بعين الخوف هو الآخر إلى التوسع النورى رغم أنه فى الجنوب ، فضلا عن طمعه فى إدخال مصر ضمن دائرة نفوذه . ولعل اختيار مدينة دمياط بالذات ، يفصح عن أن المحرك فى ذلك المشروع هو البيزنطيون ، اعتماداً منهم على أسطولهم.

ولما علم صلاح الدين بخبر الحملة ، أنفذ إلى دمياط الرجال والميرة وآلات السلاح، عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر ، وخاله شهاب الدين محمود الحارمى ، وعهد إليهم أمر الدفاع عنها، وعدهم إمدادهم بالعساكر والآلات ، وإزعاج العدو عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وأزر الخليفة العاضد صلاح الدين ماديا بإنفاق ما يزيد على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار على قول المراجع [1] . ومن حسن حظ المدافعين أن هبت ريح مضادة ، أخرت إبحار الاسطول البيزنطى من القرن الذهبى، فأفاد صلاح الدين من هذا التأخير فى تقوية الحامية والاستعداد لمواجهة العدو [2] . ثم ارست السفن الصليبية البيزنطية قبالة دمياط فى ١ كتوبر سنة ١١٦٩ [3] (اول صفر سنة ٥٦٥) فى اسطول عدده مائتا وعشرون قطعة ،وقال المقريزى [4] الف ومائتى مركب مزودة بالأموال والسلاح والدبابات والمجانيق ، واحاطوا بدمياط براً وبحراً بعد أن طموا خندقها ، وامضى الصليبيون ثلاثة ايام فى نصب الخيام امامها ، وقيل ان اموری استخدم فى الحصار ابراجاً متحركة ذات سبع طبقات تجرى على عجل ، وتغطى جوانبها جلود غير مدبوغة لتقيها من النار ، وبداخلها آلات الحصار ونقاب الأسوار والممرات الأرضية . واشتد الأمر على أهل دمياط وهم ثابتون ، وصلاح الدين فى القاهرة لا يستطيع النهوض لدفع الصليبيين عنهم خوفا من قيام المصريين عليه ، ولذا كتب إلى نور الدين يصرح له بخوفه من مؤامرات القصر الفاطمى والمحيطين بالخليفة العاضد ، فأسعفه نور الدين كعادته منذ أيام شيركوه بإرسال نجدة سريعة ، وخف هو إلى محاصرة الكرك الصليبية ، فانزعج الصليبيون عند وصول تلك

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٣١ — الذهبى ج ٢٥ ص ١٣٨ :
Lane-Poole: A Hist of Fgypt p. 192
(٢) Lane - Poole : Saladin : p. 103-104
(٣) يقول لنبول (Saladin p. 104) بدأ الحصار فى نوفمبر سنة ١١٦٩ .
(٤) الخطط ج ١ ص ويقول بدأ الحصار فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٥ هـ .

الأخبار إليهم. وزاد ازعاجهم هطول الأمطار ليلا ونهاراً فى ذلك الشهر، فتحولت خيام الصليبيين ومعسكراتهم إلى طين وماء ، حتى اضطروا إلى حفر الحفر حولها لتتجمع فيها مياه الأمطار [1] . ومما أضعف عزائمهم نقصان الطعام عندهم يوما بعد يوم ، وتوالى ضربات المدافعين عليهم مما اضطرهم إلى الجلاء عن دمياط فى نهاية ديسمبر سنة ١١٦٩ (٢٥ ربيع الأول سنة ٥٦٥)، أى بعد حصارها خمسة وخمسين يوماً، وبعد أن أحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها ، وبعد أن غرق لهم نحو الثلثمائة مركب بسبب العواصف البحرية [2] . وهكذا أفسد صلاح الدين أمر الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط ، بحسن تدبيره ، وشجاعة جنده من الأسدية والصلاحية . وما أجمل قول ابن الأثير حين شبه تلك الحملة فى فشلها ، بالنعامة « خرجت تطلب قرنين ، رجعت بلا أذنين [3] »

ويستنتج من الحوادث اللاحقة أن صلاح الدين أعطى الأوامر غداة مغادرة الصليبيين لدمياط ، بترميم أسوارها وأبراجها وإصلاح ما أفسده الحصار الصليبي بذلك الثغر . وتمخضت الحملة عن تمكن صلاح الدين عسكريا وسياسيا بمصر ، إذ شجعه الانتصار على الصليبيين فى دمياط بغزوهم فى دارهم والإغارة عليهم فى فلسطين ، فهاجم غزة فى أبريل سنة ١١٧٠ واتبعها بمهاجمة عسقلان والرملة . وبدأ بذلك الحلقة الأولى من سلسلة مشاريعه الحربية فى فلسطين، والتى استمرت اثنين وعشرين عاماً بعد ذلك . وما أن وصل صلاح الدين القاهرة عائداً من غزوته، حتى جاءه الخبر بتلبية نور الدين رغبته ، فى إرسال أبيه نجم الدين أيوب وأهله إليه بالقاهرة ، وبخروج القافلة بهم جميعاً من دمشق ، فخاف صلاح الدين عليهم من الصليبيين فخرج فى نوفمبر سنة ١١٧٠ (النصف من ربيع الأول سنة ٥٦٦) قاصداً أيله، وكانت بها قلعة فى البحر حصنها الصليبيون عقب احتلال بلدوين الأول لها سنة ١١١٦ م . بقصد السيطرة على طريق القوافل بين مصر والشام . فأنشأ

---

(١) حبشى ص ١٣٥ — ١٣٧ . تاريخ الدولة الاتابكية ص ٤٥٩
(٢) راجع الخطط المقريزية ج ١ ص ٣٤٦ — أبو شامة ج ١ ص ١٨٠ — المأمرى ص ٥٤ — خطط المقريزى طبعة فيت ج ٤ ص ٩١ Reinaud: Extraits des Hist. p. 144
(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٣١ — الفاطميون فى مصر ص ٣١٠ .

صلاح الدين مراكب مفصلة وحملها على الجمال ، وأرسلها من القاهرة فى عسكر كبير للاستيلاء على أيله وقلعتها — وعلى مقربة من أيله أمر صلاح الدين بتركيب المراكب وشحنها بالمقاتلة ، وزحف بها إلى القلعة براً وبحراً فى نهاية سنة ١١٧٠ (ديسمبر — ربيع الثانى سنة ٥٦٦ ه). وما زال حتى استولى على أيله وأفنى حاميتها الصليبية ، وأسكن بها جماعة من ثقاته ، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره ، وظل صلاح الدين على أيله حتى اجتمع بأهله ، ثم سار بهم إلى القاهرة فدخلها فى يناير سنة ١١٧١ (٢٦ جمادى الأولى[١]).. والظاهر أن فكرة استرداد أيله تولدت عنده عقب غزواته بجنوب فلسطين، إذ أدرك وقتذاك استحالة توغله بين القلاع اللاتينية فى صحراء النقب ، واستحالة وصل الطريق بين دمشق والقاهرة طالما ظلت أيله[٢] فى حوزة الصليبيين . . . والظاهر أيضاً أنه سلك فى طريقه إلى أيله درب الشعوى ، شرق شبه جزيرة سينا لاعتباره أقصر الطرق من السويس إلى نقب العقبة وأقدمها عهداً وأخصبها مرعى ، وربما كان موضع قلعة الباشا الحالية قرب عين سدرة ، هو موضع القلعة التى بناها هناك صلاح الدين[٣] .

ومما يوجب الالتفات فى أعمال صلاح الدين فى تلك الفترة وهو لا يزال وزيراً للخليفة الفاطمى ، ونائباً عن نور الدين، أنه اتجه بعد الانتهاء من تأمين أيله إلى

---

(١) أنظر أبو شامة ﺣ ١ ص ١٩٢ — ابن واصل ص ١٢٢ — شفاء القلوب ص ٩٩ — الخطط ﺣ ١ ص ١٩٩ — العينى ﺣ ٢١ قسم ٣ ص ٤٧٣ — ابن الأثير ﺣ ١١ ص ١٤٦ نعوم شقير : تاريخ سينا والعرب ص ١٩٩ — Lane Poole: Saladin p.109 Reinaud: Extraits des Hist. p. 147 المقريزى طبعة فيت ﺣ ٣ ص ٢٣٣ .

(٢) تعرف أيله فى بعض المراجع بجزيرة فرعون (أنظر تاريخ سينا والعرب ص ٥٣٢) وعرفت فى كتب اليهود « عصيون جيبر » ، ثم أطلق عليها Laena ثم حرفت هذه التسمية فأطلق عليها الرهبان حوالى القرن السادس اسم Ailea الذى عرفه كتاب العرب وأطلقوه عليها فى كتبهم . أما كلمة عقبة فظهرت أولا مضافه إلى أيله فكان يقال عقبة أيلة ثم غلبت على الاسم القديم منذ القرن السابع عشر . وأضيفت إليها أحيانا كلمة قلعة نسبة إلى الحصن الذى كان قائما فيها ، والذى اهتم به بوجه خاص صلاح الدين الأيوبى فى صراعه على العقبة ضد الصليبيين . راجع عباس عمار ص ٦٨ .

(٣) نعوم شقير : تاريخ سينا والعرب ص ٢٦٥ .

تحصين الأسكندرية ، إذ لم يمض على استيلائه على أيله سوى أربعة شهور ، حتى خرج إلى الأسكندرية فى مارس سنة ١١٧١ (٢٣ شعبان سنة ٥٦٦) ليشاهد مداخلها ويرتب قواعدها ، وهناك أمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها ، وعم أهلها بإحسانه[١] .

وغدت الأسكندرية نتيجة هذا الاهتمام « مركز الأكابر من ولاة الحرب[٢] » . ومعنى ذلك أن صلاح الدين لم يقصر اهتمامه على مصر والقاهرة دون الثغور والداخل بأطراف البلاد ؛ لأنه رغم حصانة تلك الأطراف فى جهاتها الأربع ، وهى البحر المتوسط من الشمال ، وشلالات النيل وجنادله من الجنوب ، وصحراء ليبيا من الغرب ، وسينا من الشرق ، فإن صلاح الدين ومن سبقه من حكام مصر اهتموا بمداخلها الحربية رغم هذا التحصين الطبيعى ، وأقاموا عندها القلاع والحصون وزودوها بالرجال والسلاح . والثغور المصرية على عهد صلاح الدين فى الوزارة والسلطنة كما ذكرها ابن مماتى هى : اسكندرية ودمياط ، وتانيس ورشيد . وعيذاب ، وفيها يستأدى من تجار الروم الواردين على الثغور الخمس بمقتضى ما صولحوا عليه[٣] . على أن اهتمام صلاح الدين بتلك الثغور لم يكن راجعاً إلى أهميتها التجارية فحسب ، بل لأهميتها العسكرية الاستراتيجية ، ولاسيما الثلاث الأولى منها . تلك الأهمية الملحوظة منذ أيام الفاطميين وتخصيصهم ديواناً للنظر فى شئونها ، عرف بديوان الثغور[٤] . وأدرك صلاح الدين منذ أن صار وزيراً مدى الخطر الذى يصيبه من ناحية الشمال ، ولم ينس محاصرة آمورى له براً وبحراً فى الأسكندرية سنة ١١٦٦ ، ولم ينس كذلك نزول الصليبيين عليه بحراً فى دمياط فى العام المنصرم سنة ١١٦٩ ، فخوفه المستمر جعله شديد الحرص على تحصين الموانى المصرية فى السنوات القليلة المقبلة .

---

(١) العينى ﺣ ٢١ قسم ٣ ص ٤٧٢ — ابن واصل ١١٠ أبو شامة ﺣ ١ ص ١٩١ ابن أيبك : درر التيجان القسم الرابع أحداث سنة ٥٦٦ . بدر الدين : الدر الثمين : أحداث سنة ٥٦٦ .

(٢) عمارة : النكت العصرية ﺣ ٢ ص ٤٨٨ .

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين : ص ٣٢٥

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك : ﺣ ٧ ص ٥٦٧ .

أما مشاريع صلاح الدين المعمارية الحربية بداخل البلاد المصرية، فأهمها في غير شك تحصينات القاهرة ، التي بدأها صلاح الدين أوائل السنة الثالثة في وزارته أي سنة ١١٧١ (سنة ٥٦٦ هـ)، غير أنه يلاحظ أنه لم يدر في خلد صلاح الدين تلك السنة، وهو يومئذ وزير مصر الأول، أن يعمل أكثر من تجديد سور القاهرة الذي أصبح في حالة سيئة . ويتفق هذا حقيقة مع كلمة «عمارة» الواردة في عبارة ابن أبي طي، وهي لا تحتمل أكثر من معنى التجديد والترميم ونصها : « وفي هذه السنة (١١٧١ م — ٥٦٦ هـ) شرع السلطان — يعني صلاح الدين — في عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً ، وولاه لقراقوش الخادم»[١] وشملت عملية الترميم هذه السور الشرقي من القاهرة الواقع ما بين درب المحروق و باب الوزير[٢] .

ويدأ العام الهجري الجديد (سنة ٥٦٧ هـ) يوم ٤ سبتمبر سنة ١١٧١ م وهو عام هام من وجهة النظر الحربية ، نظراً لما اتخذ فيه من قواعد وتنظيمات عسكرية بعيدة الأثر في التاريخ الحربي الأيوبي ، وأولها أن صلاح الدين أقام لدراسة العمليات الحربية و إقرارها والإشراف عليها مجلس شورى من أهله والمخلصين له[٣] ، وانعقد ذلك المجلس كلما دعت الضرورة إلى انعقاده ، واستفتى صلاح الدين ذلك المجلس في عمليات حربية كثيرة وعمل بفتواه .

وأقدم نص عن أول اجتماع لهذا المجلس يرجع إلى الجمعة الأولى من سبتمبر سنة ١١٧١ (أول محرم سنة ٥٦٧) ، حينما جمع صلاح الدين الأمراء وشاورهم في رغبة الخليفة العباسي و نور الدين محمود في القبض على العاضد وأهله ، والخطبة

(١) أبو شامة حـ ١ ص ١٩٢ — الخطط المقريزية حـ ٢ ص ٢٠٨ — الدر الثمين تحت أحداث سنة ٥٦٦ هـ — وقراقوش الخادم هو بهاء الدين قراقوش ومعنى قراقوش باللغة التركية طائر أسود ، وهو باني قلعة الجبل وقناطر الجيزة وسور القاهرة ، ولاه صلاح الدين والياً على عكا سنة ١١٨٧ وأسره الصليبيون سنة ١١٩١ م ولكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير ثم عاش في القاهرة حتى توفي سنة ١٢٠١ — راجع الفاطميون في مصر حاشية ص ٣١٢ .

(٢) Casanova op. cit. p.p. 535—538, Creswell op. cit. p. 93

(٣) سنذكر أسماء أعضاء هذا المجلس في الفصل الخامس .

للإمام المستضيء فمنهم من خوفه ، ومنهم من هوّن عليه . وخرج صلاح الدين من الاجتماع عاقداً العزم على إيثار الهوادة والتدرج[١] .

وفي نفس الشهر والسنة ، دعا صلاح الدين المجلس إلى الانعقاد مرة أخرى، بعد أن بلغه عزم نور الدين على قصده مصر و إخراجه منها ، وحضر الاجتماع والده نجم الدين أيوب ، وخاله شهاب الدين وأهله وسائر الأمراء، فلما عرض الموضوع عليهم ولم يجبه أحد بكلمة واحدة، قام تقي الدين عمر بن أخي صلاح، وقال إذا جاء نور الدين « قاتلناه كلنا وصددناه عن البلاد » ووافقه غيره من أهله[٢] . فشتمهم أبوهم نجم الدين وأنكر ذلك واستعظمه ، وشتم تقي الدين وأقعده ، وكان يرى انقاذ الموقف مع نور الدين بالسياسة لا بالحرب بدليل قوله لابنه : « الأيام تندرج والله كل وقت هو في شأن »[٣] وتصور الرواية نجم الدين في صورة الرجل الحريص على مستقبل إبنه ، وتصفه بالمكر والكيد ، والرأي والعقل ، وهي صفات الخبير العليم بشئون السياسة والحرب ، كما تصور صلاح الدين مطيعاً نصائح والده ، متخذاً منها دستوراً للمستقبل .

ثم أعلن صلاح الدين رسمياً زوال الخلافة الفاطمية بمذهبها الشيعي يوم الجمعة ١٣ سبتمبر سنة ١١٧١ (محرم سنة ٥٦٧) ولم ينتطح فيها عنزان[٤] . ثم مات الخليفة العاضد بعد ذلك وهو لا يعلم ، وتغير الموقف تماما لأن صلاح الدين لم يعد في وضعه المزدوج المتناقض ، بل صار نائباً لنور الدين فحسب ؛ ومما يسترعي النظر هنا أن صلاح الدين زحف صوب فلسطين في نهاية الشهر الذي ألغيت فيه الخلافة الفاطمية وكانت فيه وفاة العاضد ، فهاجم حصن الشوبك على نحو أربعين ميلا إلى

(١) العيني حـ ٢١ قسم ٣ ص ٤٧ — ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٤٢ .

(٢) أبو شامة حـ ١ ص ٣٠٤ — ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٤٤ .
Lamb: The Flame of Islam p. 40

(٣) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٤٩ — العيني حـ ٢١ قسم ٣ ص ٤٩٦ —
Histoire scient. et milit. V. 2 p. 305

(٤) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٤٨ — الفاطميون في مصر ٣١٢ —
Lane - Poole - The Story of Cairo p. 170

الجنوب من البحر الميت، لوقوعه على الطريق بين القاهرة ودمشق والمدينه ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج صلاح الدين بنفسه يحرسها حتى تعبر بلاد العدو . لذلك أراد تأمين الطريق وتسهيله ، لتصل البلاد بعضها ببعض ، ويسهل على السابله ، وربما وصل صلاح شمالا إلى حصن الكرك إلى الشرق قليلا من البحر الميت ، غير أنه لم تكد حامية الكرك تسلم ، حتى بادر صلاح الدين برفع الحصار خوفا من نور الدين بعد أن بلغه سيره جنوبا لمقابلته هناك[1] . ثم عاد صلاح الدين على أيله ، وهلك منه نحو الخمسة آلاف رأس ما بين جمل وفرس فى هذه السفره[2] .

وشرع صلاح الدين بعد وصوله القاهرة فى النظر فى الشئون البحرية والأسطول ، وربما كان سر اهتمامه بالأمور البحرية مباشرة بعد ازالة الدولة الفاطمية ، أنه كان يخشى مجىء حملة بحرية من ناحية افريقية ، أو من ناحية الصليبيين وأحلافهم من البيزنطيين والصقليين كما حدث قبلا ، بحجة التدخل لاعادة الدولة الفاطمية ، أو أنه رأى البحرية الفاطمية ودور الصناعة فى حال تدعو إلى العناية ، بعد أن نزل بها ما نزل بسبب احراق شاور الفسطاط ودور الصناعة بها ، غداة وصول حملة أمورى الثالثة فى نوفمبر سنة ١١٦٨ ، أو أنه أخذ فى ترتيب شئونه الحربية عامة ، بمجرد أن صار صاحب الأمر فى مصر بعد وفاة العاضد ، وهذا الاحتمال الثالث هو الأرجح ، بدليل اهتمامه بالجيش فى السنة نفسها .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن البحرية الفاطمية اشتملت على عشر شوانى بحرية ، فيها عشرة آلاف مقاتل[3] على عهد العاضد ومن سبقه[4] . وكان لها ديوان خاص عرف

(١) السلوك ج ١ قسم ١ ص ٤٤ و ٤٨ و ٥٠ .

(٢) نفس المراجع والصفحات السابقة — ويلاحظ أنه حدث خلط كبير وتشويش عند مؤرخى العرب بصدد هذه الغزوة ، فابن عرمة (ج ٢ مجلد ٢ ص ٢٠٣) قرر وقوعها وهو وزير متابع للفاطميين . وأبو شامة (ج ١ ص ٢٠٣) أشار الى بروز صلاح الدين من القاهرة فى ٢٠ محرم ثم كتب الى نور الدين معتذرا . ويتفق العينى (ج٢٩ قسم ٣ ص ٥٠٥) مع ابن شداد (ص ٣٦) فى ذكرها تحت أحداث سنة ٥٦٨ه واعتبارها أول غزوة للكرك والشوبك ونهج نهجهما Creswell op. cit. p. 63

(٣) الخطط ج ١ ص ١٥٢ .

(٤) وعنى الفاطميون بالأسطول حتى بلغ عدد قطعه خمس وسبعين سفينة تحت إمرة =

بديوان الأسطول ، ويقال له أحيانا ، ديوان الجهاد ، أو ديوان العماير[1] . وسيطر هذا الديوان على موارد الفيوم بأعمالها ، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى أى بهتين ، والأميرية ، والمنية وناحية سقط ، ونهيا ووسيم ، والبساتين خارج القاهرة ، فضلا عن عبرة النطرون التى بلغت فى السنة الوحدة ثمانية آلاف دينار ، ولم يمسس صلاح الدين تلك الموارد أو يصرفها إلى جهة أخرى ، بل أضاف إليها من موارد ديوان الزكاة على التجار ، وهو الديوان الذى إستحدثه صلاح الدين ، وجبى منه فى السنة الواحدة[2] ، زيادة على خمسين ألف دينار ، فرقها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين ، ورفع إلى بيت المال سهم العاملين والمؤلفه ، وفى سبيل الله وفى الرقاب ، وأفرد من الخراج جزءا للاسطول ، وأضاف صلاح الدين كذلك لموارد ديوان الأسطول ما يأتى من ثمن القرظ وساحل السنط والمراكب الديوانية وإشناوطنطدى[3] . وأسند تدبير تلك الموارد وصرفها وادارة شئون الأسطول ، وسلاحه ومقاتلته إلى قائد من القواتيه يقال له أمير البحر أو أمير الماء ، وهو لفظ انتقل إلى اللغات الأفرنجية فصار فى الانجليزية Admiral وفى الفرنسية Amiral ، كما أسند الأمور البحرية البحته إلى رئيس عارف بالريح والمجاديف والارساء والدراية بمسالك البحر ومجاريه[4] . واختار صلاح الدين الحاجب الشيخ حسام الدين اللؤلؤ ، أميرا للبحار وكان يطلق عليه مقدم

= أميرالاى يعاونه عشرة قواد تصرف مرتباتهم من ديوان الجيش ، وهذه تختلف من عشرين دينارا إلى دينارين ، وعبرتها راجعة إلى الاقطاعات التى تعرف بأبواب الغزاه والتى منها رواتبهم ، ولهذا كان يصل دينارهم أى دينار الأسطول بالمناسبة الى النصف (راجع : السلوك ج ١ قسم ١ حاشية ص ٤٥ Lane Poole His Hist. p. 145) هذا فضلا عن الجرايات التى تخرج لرجال الأسطول من الاهراء الحكومية وعلى وجه الخصوص ما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول . وما يغنمه الأسطول من المال والثياب ونحوها فانه لغزاته لايشاركهم فيه أحد . أما الاسرى والسلاح فللسلطان (راجع الخطط ج ٢ ص ٣٤٤ و ج ٣ ص ٣١٤) .

(١) ابن الفرات ج ٧ ص ٥٦٧ .

(٢) لم يشر المقريزى إلى السنة التى جمع فيها هذا المبلغ لحساب ديوان الزكاة والراجح أنها ١١٧١/١١٧٢ أى عقب وفاة العاضد .

(٣) الخطط ج ١ ص ١٧٤ و ج ٣ ص ٢١٠ و ٣١٢ والسلوك ج ١ قسم ١ ص ٤٤ و ٧٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٢ الجوى تاريخ الأسطول العربى ص ٤٧ .

الأسطول (١) وله صاحب ينوب عنه فى غيبته يقال له الأمير حرب بن فوز (٢) .

ويستدل من حوادث تلك السنة (١١٧١/١١٧٢) على وجود قوانين بحرية عامة للملاحة فى القرن الثانى عشر الميلادى بين المسلمين والصليبيين ، إذ ورد فى ابن الأثير وغيره أن مركبين خرجتا من مصر إلى الشام ، تحملان أمتعه وتجاره فهبت عليهما ريح عاصفة ، اضطرتهما إلى الارساء بمدينة اللاذقيه ، حيث أخذهما الصليبيون وكان بينهم وبين نور الدين هدنه فأرسل إليهم يطلب إعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور منها ، أن المركبين انكسرا ودخلهما الماء يوم دخولها الميناء ، والمشروط أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يصبح ملكا لأصحاب الميناء ، فلم يقبل نور الدين مغالطتهم ، وجمع عساكره وحاربهم فى نواحى انطاكيه وطرابلس ، حتى رد إليه الصليبيون جميع ما أخذوه من المركبين وجددوا الهدنه معه فكانوا فى ذلك « كاليهودى لا يعطى الجزيه حتى يلطم » (٣) .

ويبدو أن تلك المغالطات كانت أمرا مألوفا فى الشئون البحرية فى ذلك العصر ، فإذا التجأ مركب إلى ميناء لسبب ما ، نهبه أهل ذلك الميناء بحجة أنه انكسر ، وربما تعمدوا كسره ونهب ما فيه ، كما حدث حين رحل أسامة بن منقذ عائلته فى بطسة من دمياط إلى عكا أيام وزارة الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما دنت المركب من عكا خرج إليها قوم فى مركب صغير ، وكسروا البطسة بالفؤوس ونهبوا ما فيها ، وقيمته نحو ثلاثين ألف دينار عدا الرجال والنساء (٤) . على أن موضع الأهمية هنا ليس فى تلك التفاصيل البحرية العامة ، بل ما أحدثه صلاح الدين من تحديد سعر الدينار لرجال الأسطول فى فبراير سنة ١١٧٢ (جمادى الآخرة ٥٦٧)

(١) الخطط ح ٣ ص ١٣٨ .

(٢) صبح الأعشى ح ٣ ص ١٩٧ .

(٣) ابن الأثير ح ١١ ص ٢٤٥ — أبو شامة ح ١ ص ٢٠٣ — العينى ح ٢٢ قسم ٣ ٤٩٩ — Reinaud: Extraits des Hist. p. [illegible]

(٤) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٢٥ — ويلاحظ عدم إشارته الى السنة التى وقعت فيها تلك الحادثة ، كما يلاحظ أن ما كتب هنا فى متن تلك الصفحة يغلب عليه الناحية النظرية لكنها تمثل أمام القارئ للتاريخ الحربى لبلد متميز واحد.

إذ جعل دينار الأسطول بنصف وربع دينار ، بعد أن كان بنصف وثمن دينار (١) . أى أنه زاد فى قيمته الشرائية من باب الإضافة إلى موارده ، من باب الترفية على رجال الأسطول فيما يبدو .

وفى تلك السنة نفسها (١١٧١/١١٧٢) أخذ صلاح الدين فى تنظيم الجيش فعكف على التخلص من الأمراء المصريين والعربان والأرمن والعبيد السود بأن أبطل إقطاعاتهم ، واستجد عسكرا من الأتراك والأكراد ، وخصهم بمعظم تلك الاقطاعات (٢) . وبدأ صلاح الدين ذلك منذ السنوات التى جمع فيها بين وظيفته النورية ووظيفته الفاطمية ، مترسما نظام الفاطميين فى الجمع بين العطاء والاقطاع الضمنى فى الجيش (٣) . غير أنه عمم القاعدة الاقطاعية بعد وفاة العاضد أى سنة

(١) السلوك ح ١ قسم ص ٤٥ — لقد سمى الدينار دينارا لأنه دين ونار أى تصل به اليهما . وسمى الدرهم درهما لأنه يُدر اليهم (نبذ من مؤلفات أسامة ص ١٢٦) . وفى سنة ٥٨٣ هـ أمر صلاح الدين بأن تُبطل النقود التى وقع الاختلاف فيها وتضرَّر العامة بها ، وأن يكون ما يضرب من الدنانير ذهبا مصريا ، ومن الدراهم الفضة الخالصة . وأبطل الدراهم السود لاشتغال الناس الميزان فسر الناس ذلك . والدراهم الفضة هى النقرة ، أما الدراهم السوداء فأسماء على غير مسميات كدينار الأسطول والدينار الجيشى . وكل درهم منها معتبر فى العرف بثلث درهم نقرة (السلوك ح ١ قسم ١ ص ٩٩ وحاشيتها) وسعرها يتغير ويرتفع حسب عبرة البلدان وقدر متحصلها . ففى سنة ٧٧٧ هـ مثلا بلغت قيمة الدينار الجيشى ثلاثة عشر درهما وثلث درهم (التحفة السنية لابن الجيعان ص ٣) .

(٢) الخطط ح ١ ص ١٥٢ — أبو شامه ح ١ ص ١٧٨ — النويرى نهاية الأرب : ح ٢٦ ص ١١١ .

(٣) جزم المقريزى بعدم معرفة الدولة الفاطمية للاقطاعات وان ما عرفته منها فهو الإقطاع الضمنى : واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد اقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى إجناد الدولة التركيه . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم هذه الأبدة التى يقال لها الفلاحة . ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق بل هو قن ما بقى ومن ولد له كذلك ، بل كان من اختار زراعة الأرض يقبلها كما تقدم وحمل ما عليه لبيت المال فاذا صار حال الخراج بالديوان أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن (الخطط ح ١ ص ١٣٨) ويقول النويرى (ح ٨ ص ٢٤٨) قبالات وقبائل جمع قباله ، وهى الأرض يقبلها أصحابها أى يضمنونها بمبلغ من المال يؤدونه عنها فى مدة سنة ، ولكل نوع من الأراضى قطيعة (ضريبة) خاصة تناسب حاله .

١١٧٢/٧٦ م ، ومصداق ذلك قول المقريزى : « ومنذ كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا هذا ، فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده(١) » بمعنى أنه لأول مرة فى تاريخ مصر توزع أراضيها إقطاعات على السلطان وجنوده ، منذ أن صار صلاح الدين نائبا لنور الدين بعد وفاة العاضد ، وقبل أن يستقل بالبلاد ، وهى الفترة التى أخذ يمكن لنفسه فيها فعلا . وطبيعى أن ينقل صلاح الدين عن مخدومه نور الدين نظام الاقطاع الحربى الوراثى والشخصى إلى مصر ، غداة أن استتب له الأمر فيها بعد وفاة العاضد سنة ١١٧٢/٧١ م (٥٦٧ هـ) .

وترك ابن مماتى فصلا فى المقرر عن عبرة الاقطاعات فى دولة صلاح الدين ، مرتبة قيمتها حسب درجات الأجناد وجنسياتهم . وفات ابن مماتى أن يؤرخها ، وربما كان إقرارها تلك السنة ، أو هى فى مجموعها متوسط لما كان من عبرات إقطاعية على عهد صلاح الدين كله ، وبيانها كالآتى : فالأجناد من الأتراك والاكراد والتركمان دينارهم الاقطاعى دينار واحد كامل جنديا . الكنانية والعساقله من العربان ، ومن يجرى مجراهم على عادة الأجناد المصريين دينارهم نصف دينار . والغزاه والقواد ، ومن هم فى معناهم دينارهم ربع دينار . العربان إلا من شذ منهم دينارهم ثمن دينار . السمر الكامل فيما يطلق لبعض الأجناد عن كل دينار واحد ، السمر الناقص عن كل دينار جندى . والمأمور بالحواله به عن كل جندى مصالحه ربع دينار . السمر المأمور به عن كل دينار واحد جندى أردب واحد ، الثلثان قمح والثلث شعير . والحواله على بيت المال فى مستحق الأجناد كل دينار جندى ربع دينار عينا ، على سبيل المصلحة(٢) .

والباحث فى النصوص الخاصة بالنظام الذى أحدثه صلاح الدين فى الجيش يلحظ شيئاً من الخلط بين كلمتى عسكر وجند وهى ملاحظة تحتاج إلى تفسير ، المقصود بالعسكر الجيش النظامى الثابت ، على عكس كلمة جند فالمقصود بها الجيش

(١) الخطط حـ ١ ص ١٥٦ وطبعة فييت حـ ٢ ص ٥١ .

(٢) ابن مماتى نشر الدكتور عطيه ص ٣٦٩ . وجاء فى Dozy: Supplement aux dict: V.I p. عن كلمة الصالحة ما يأتى : صالح عن نفسه وأولاده من . وأخذت فى من السكات التى لى والمصالحة على ما بقى منه . كأنه يعنى المهادنة والتنازل عن ما تبقى .

الاحتياطى أو الجيش الاقليمى أو الميليشيا العربية كما هو مستنتج من روايات المؤرخين العرب(١) . غير أن معظم المصادر تستخدم هذين اللفظين فى غير دقة وتحديد ، ومن اليسير مشاهدة هذا الخلط فى صفحات الكثير منها(٢) . والعلاقة بين الجند الاحتياطى والعساكر الثابتة ، هى أن الجند هم جند الأمراء الذين ينفرون بهم إلى حروب السلطان مقابل اقطاعاتهم ، على أن العسكر هم عسكر السلطان . ومن الصعب تحديد القوة العددية للعسكر والجند على عهد صلاح الدين ، فالجيش الثابت يخدم أفراده بصفة دائمة ، ويتقاضون اقطاعا ويحيطون شخص السلطان لا يفارقونه أبداً ، ويكلفون أحيانا بالدفاع عن القلاع والحصون ، وجعل صلاح الدين هذا الجيش من الاكراد والترك والتركمان ، أو بلغة الافصاح من أولئك الذين اعتادوا عيشة التقشف والخشونة وقدرة احتمال الاسفار والقتال . وطريقتهم فى القتال أن يحمل كل منهم جزدال وصولق وبقجه وتركاش ، ممتطياً جواده ، ويطلق عليهم لفظ الفرسان ، غير أن تكاليفهم الباهظة جعلت عددهم محدوداً ، فصلاح الدين رغم حروبه الكثيرة وفتوحاته الواسعة ، لم يزد عدد ما فى خدمته منهم عن أربعة عشر ألفا(٣) . ذكرها القاضى الفاضل فى متجددات سنة ١١٧٢/٧١ (٨ محرم ٥٦٧) عندما خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها بعد أن أنذر حاضرها وغائبها . وصلاح الدين وقتذاك على ما يبدو مبرزاً من القاهرة يوم ١٢ سبتمبر ، للمسير إلى حصن الكرك فاجتاز العساكر موكباً بعد موكب ، وطلباً بعد طلب ، إلى أن انقضى النهار ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم ؛ وكانت عدتهم مائة وسبعة وأربعين طلباً ، والغائب منها

(١) Sanaullah : Decline of the Salj : Emp. p. 18 gibb op. cit pp. 32,36 وأنظر : المقريزى : السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٨٥ وابن اياس بدائع الزهور : حـ ١ حـ ١ ص ٧٠ وابن الأثير حـ ١١ ص ٣٠٧ والعينى حـ ١ قسم ١ ص ٤٧ عن كلمة عسكر . وأنظر : العماد ص ١٦٨ وابن الجوزى : مرآة الزمان حـ ٨ ص ١٩٤ وابن الأثير تاريخ الدولة الاتابكية ص ٣٠٨ والعينى حـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٨٥ عن كلمة جند .

(٢) أنظر مثلا : القلقشندى حـ ١١ ص ١٣ و ٨٥ و ٩٣ والعينى حـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٤٣ وأبو شامة حـ ٢ ص ١٢٥ والسلوك حـ ١ قسم ١ ص ٤٨ وابن الأثير حـ ١٢ ص ٥٥ .

(٣) Gibb op. cit p.p. 33,26 Reinaud L'art milit: ... 230.

عشرون طلباً ، وتقدير ذلك يناهز أربعة عشر ألف فارس ، أكثرهم طواشية وقراغلامية(١) . وشاهدت رسل الروم والصليبيين هذا المدد وذلك الجمع ، واعتمد صلاح الدين على أفراد هذا المسكر دون غيرهم اعتماداً كلياً .

أما الجند فهم فى الواقع عسكر الأمراء وهم من جنس الأتراك والأكراد ، وعلى كل أمير إعداد ما يتطلبه إقطاعه ، فإذا شبت الحرب ذهب الأمير بجنده إلى الميدان على أن يتمتع جند الأمير بثلثى إقطاعه ، ويتمتع هو بالثلث الباقى ، إذا صح التسليم بأن هذه الطريقة المملوكية ترجع فى الأصل إلى الأيوبيين(٢) . فإذا نشبت الحرب ذهب الأمير بجنده إلى الميدان وانضم إلى المسكر ، وليس له أو لجنده عند السلطان سوى نصيب الغنائم والأسلاب(٣) . وتشاهد مثل تلك القوات الاحتياطية بمصر فى القرن الثانى عشر الميلادى ، على حين يرجح مشاهدتها بسوريا منذ بدايته . ومن المشكوك فيه اندماج قبائل العرب الرحل فى الجند ، ولعلهم كونوا جنداً مستقلا ، استنتاجاً من شاهد الواقع ، القائل بأن صلاح الدين عرض فى تلك السنة (٧١ / ١١٧٢) وفى سفرته إلى الكرك العربان الجذاميين ، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس ، فاستقرت على ألف وثلثمائة فارس لا غير ، وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب ، وكان أصله ألف ألف دينار ، وكلف الثعالبة مثل ذلك فامتعضوا على حد تعبير المقريزى ، ولوحوا بالتحيز إلى الصليبيين(٤) .

(١) الخطط حـ ١ ص ١٣٩ . وفيها أيضا : الطلب بلغة الغز هو الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب وعدة ٢٠٠ أو ١٠٠ أو ٧٠ فارسا . والطواشى من رزقه من سبعمائة إلى الف إلى مائة وعشرين وما بين ذلك ، وله برك من عشرة رءوس إلى ما دونها ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل وله غلام يحمل سلاحه . أما القرا غلامية فشرحها الدكتور زيادة فى هامش السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٧٥ بقوله : هم جماعة الضبطية وعملهم مراقبة الطرق فى أثناء سير الجيوش .

(٢) الخطط حـ ٣ ص ٣٥٠ ، والمعروف أن دولتى المماليك والأيوبيين فرع من السلاجقة ، ونهجنا نهجهم بدليل قول أبى المحاسن : وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق وآق سنقر جد بنى زنكى ثم أنشأ بنو زنكى — أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك — فانظر إلى أمر الدنيا كيف كل طائفة نعمة طائفة ونشؤها إلى يومنا هذا — النجوم الزاهرة حـ ٥ ص ٢٧٩ .

(٣) Sanaullah op. cit p. 4 Reinaud L'art milit. p 231

(٤) gibb: op. cit p.p 36-37 السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٤٧ — الخطط حـ ١ ص ١٣٩ .

ونتيجة لهذه الآراء السابقة يمكن القول أن الترك والأكراد كونوا العنصر الأساسى فى المسكر ، يقل عددهم ويكثر حسب قدرة السلطان المالية فى إعدادهم والصرف عليهم ، على حين تكون الجند من الأتراك والتركمان والأكراد ، وكل من قدر على حمل السلاح من أصحاب الإقطاعات الجيشية ، وأولئك يقل عددهم ويكثر حسب مركز الأمير وإقطاعه ، ووفق ما هو مقرر عليه من المدد ، وامتاز البدو منهم بخفة الحركة والضرب بالسهام(١) .

ومن الترتيبات العسكرية العامة التى قررها صلاح الدين تلك السنة (١١٧١ م — ٥٦٧ هـ) استخدام الحمام فى البريد الحربى نقلا عن مخدومه نور الدين ، ذلك أن المتواتر فى المراجع المعروفة أن نور الدين أول من اتخذ الحمام الهوادى فى نقل الأخبار بجميع أنحاء مملكته التى امتدت من حدود النوبة إلى باب همذان ، ورتب لذلك فى كل ثغر رجالا ومعهم حمام المدينة التى تجاورهم فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته ، وعلقوه على الطائر وسرحوه إلى المدينة التى هو منها فى ساعته فتنتقل الرقعه من طائر إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه وبذلك انحفظت الثغور(٢) .

وعلل العماد ذلك الإجراء الجديد بتشوق نور الدين إلى أخبار مصر وأحوالها(٣) . ومهما كان الدافع عند نور الدين فمما لا شك فيه أن صلاح الدين اعتمد على نظام الحمام الهوادى فى كثير من حركاته ، ومن ذلك أنه علم سنة ١١٧٣ م (سنة ٥٦٨ هـ) باجتماع السودان والنوبيين على حدود مصر الجنوبية ، وإغارتهم على بعض البلاد ، ووصلته تفاصيل تلك الحركة عن طريق

(١) راجع : Reinaud: L'art milit p. 231, Sanaullah p. 4

(٢) الدر الثمين تحت حوادث سنة ٥٦٧ هـ تاريخ الفازانى حـ ٢ ص ٢٣١ . وراجع فصل البريد الجوى فى « نظام البريد فى الدولة الاسلامية » للمؤلف ص ١١٢ — ١١٥ ، هذا وتوجد نصوص دالة على وجود نظام الحمام الهوادى قبل نور الدين وفى استطاعة الباحث التوفر على ذلك الموضوع أن يأتى فيه بجديد .

(٣) أبو شامة حـ ١ ص ٢٠٤ وانظر الخطط حـ ١ ص ٣٢١ عن اهتمام الفاطميين بثغر اسوان .

الجمام المواذى ؛ فأنفذ قطعة من جيشه فى حملة على رأسها الشجاع البعلبكى لإنجاد والى أسوان كنز الدولة(١).

وتمكنت تلك الحملة من الزحف جنوباً حتى أسوان حيث اصطدمت بالنوبيين وألقت بهم إلى داخل بلادهم. غير أن صلاح الدين أراد أن يؤمن تلك الحدود الجنوبية من خطرهم فى المستقبل، فذهب فى هذا المعنى إلى أبعد من أسوان عندما أنفذ أخاه شمس الدولة تورانشاه فى عسكر إلى بلاد النوبه فى فبراير سنة ١١٧٣ (جمادى الأولى سنة ٥٦٨ هـ).

وشحن تورانشاه مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميره، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبه، ونزل على ناحية أبريم الواقعة على شاطىء النيل الشرقى وعلى مسافة مائة وعشرين ميلا جنوبى أسوان الحالية(٢). فاستولى على قلعتها بعد حصار ثلاثة أيام، وأمر بهدم الصليب الذى وجده بارزاً فوق كنيستها، كما أمر بالأذان فى تلك الكنيسة. ثم ترك تورا نشاه إبريم إلى قوص فى عدد من الأسرى بعد أن استولى على كميات كبيرة من قطن وجده بها، وبعد أن عين على حاميتها الأمير إبراهيم الكردى، وبعد أن زوده بالخيل والمؤنة والسلاح والعدد والآلات. وبعد سنتين من وجود الحامية الأيوبية بأبريم أنفذ ملك النوبة إلى تورا نشاه بقوص رسولاً بهديه، فيها عبد وجارية، ومعه كتاب يطلب فيه الصلح(٣).

(١) المعروف أن كنز الدولة كان فاطميا معادياً لصلاح الدين، والظاهر من قول المقريزى (السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٥٠ و ٥٧ و ٥٨) أنه هادن صلاح الدين فأبقاه واليا على أسوان، وظل هناك حتى تزعم ثورة شعبية فى سنة ١١٧٤ (٥٧٠ هـ) كما هو واضح فى نهاية ذلك الفصل. ويقول ابن كثير (حـ ١٢ ص ٢٨٧) أن الكنز هو عباس بن شاوى.

(٢) على باشا مبارك حـ ٨ ص ١٣ — ويقول أيضاً فى ص ١٤ من ذلك الجزء: وتشتهر إبريم بالبلح الأبريمى الناشف الذى يوجد فى جميع بلاد القطر. ويقول لينبول فى A Hist. of Egypt p. 197 إبريم تقع بالقرب من كوروسكو، وعرفت أيام الرومان بريمى Primis

(٣) أنظر أبو شامة حـ ١ ص ٢٠٨ — العينى حـ ٢٢ قسم ٣ ص ٥٠٦ — تاريخ أبى صالح ١٢١ — السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٥١ — الدر الثمين تحت احداث سنة ٥٦٨ — Lane Poole Saladin p. 101 وما بعدها.

وذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تأويل الغرض من تلك الحملة، فيجعل الشيخ أبو صالح الدافع لها دينيا، بمعنى أن بلاد النوبة حتى هذا التاريخ لم تزل على تنصرها، وأن صلاح الدين وتورانشاه اتفقا على غزو تلك البلاد، ابتغاء تحويلها إلى الاسلام، والتمكين بذلك للدولة الأيوبية فى مصر والعالم الاسلامى، بدليل مافعله تورانشاه بكنيسة أبريم وصليبها، فضلا عن أسر أسقفها واقتياده فى ركب الأسرى إلى قوص(١). ويقول ابن الأثير أن صلاح الدين وأهله استقر الرأى بينهم على تملك بلاد النوبة أو اليمن، حتى إذا أخرجهم نور الدين من مصر لحقوا بالبلاد المفتوحة(٢). وكيفما كان الأمر فالمعروف أن تورانشاه كتب إلى صلاح الدين يصف النوبة وأهلها من أنصاف العرايا السود، الذين دأبوا على الضحك كلما تحدث إليهم فى أمر، ونصح بعدم الاعتماد على تلك البلاد، لسوء مناخها وقلة مواردها(٣). وهذا التقرير يبين فى وضوح غرض صلاح الدين الاقتصادى أو الاستعمارى بلغة اليوم، إلى جانب ما هنالك من أغراض سياسية واستراتيجية.

وعلم صلاح الدين بمسير نور الدين إلى شمال الشام وأطراف أسيا الصغرى سنة ١١٧٣ (ذى القعدة سنة ٥٦٨ هـ)، لمقابلة قلج أرسلان سلطان السلاجقة بالروم، أملا فى محالفته واجتذاب عسكره إلى جانب العسكر النورى لمحاربة الصليبيين، فضلا عن طلب يد ابنته لسيف الدين غازى ابن أخى نور الدين(٤). وقبل قلج أرسلان المحالفتين العسكرية والزواجية؛ على أن موضع الأهمية فى ذلك كله أن صلاح الدين انتهز فرصة غياب نور الدين عن الشام، كما فعل من قبل سنة ١١٧١ وأغار على بعض العربان المقيمين حول الكرك والشوبك جنوبى البحر الميت بفلسطين، تأمينا لأطراف دولته وتقوية لمركزه، وكان أولئك العربان ينقلون الأخبار إلى الصليبيين، فأعلن صلاح الدين تبريرا لحركته الانتهازية، أنه يريد

(١) تاريخ أبى صالح ص ١٢١.

(٢) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٥٤.

(٣) Lane-Poole A Hist. of Egypt. p. 197, Lamb The Flame of Islam p. 42.

(٤) ابو شامة حـ ١ ص ١٢٣ — ٢١٤.

تأديبهم ، وسار إليهم عن طريق أيله على خليج العقبة ، وبذابرر ما انزل بهم من قتل وتشريد ، حتى لم يبق « فى بلادهم أحد من العربان ، وإذا نهض العدو لا يجد بين يديه دليلا » على قول ابن العماد (١) . وكتب صلاح الدين إلى نور الدين يخبره بأن أولئك العربان « كانوا آفة على المسلمين ودليلا للكفار على الإسلام » (٢) . فاستحسن نور الدين ما فعله صلاح الدين معهم ، غير أنه رأى من الكياسة — بعد أن أدبهم صلاح الدين — أن يسوس من تبقى من أولئك العربان باللين وحسن المعاملة ، فأمر بإقطاع أمرائهم القطائع لئلا يتعرضوا للحجاج (٣) . ثم ترامى إلى صلاح الدين أن نور الدين قادم عليه لمقابلته على حصن الكرك ، فأسرع بالرجوع إلى القاهرة ، معتذراً بمرض والده والرغبة فى اللحاق به قبل وفاته (٤) .

ويبدو أن صلاح الدين أدرك وهو فى طريقه إلى عربان الكرك والشوبك عن طريق أيلة ، أن الضرورة الحربية (٥) تقضى عليه بتطهير شبه جزيرة سينا كلها من العربان الضاربين فى الوديان وممار الطرق بين مصر والشام ، فرأى أن يشيد قلعة فى قلب شبه الجزيرة ، والراجح أنه بدأ ذلك التفكير منذ استيلائه على أيلة فى سنة ١١٧٠ . واختار صلاح الدين لتلك القلعة أكمة مرتفعة مخروطية الشكل ، تقع على نحو ميل إلى الشمال الشرقى من عين سدر الغزيرة ، والموجودة بدرب الشعوى على مسافة ٥٧ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من السويس الحالية . وتنفصل هذه الأكمة عن جبال الراحة إلى الشرق . وتكشف سهولا وأودية

---

(١) ابو شامة حـ ١ ص ٢٠٦ و ٢٢١ .

(٢) العينى حـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٠٥ و ٥٣٨ .

(٣) الدر الثمين تحت عام ٥٦٨ هـ وراجع ابن خلكان حـ ١ ص ١٢٥ Stevenson the Crusades p. 198

(٤) والمعروف أن نجم الدين توفى بتاريخ يوليو سنة ١١٧٣ (الثلاثاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ) أى قبل وصول صلاح الدين الى القاهرة — وانظر تاريخ النازلى حـ ٢ ص ٣٢١ .

(٥) شهدت شبه جزيرة سينا فى العصور التاريخية المختلفة حملات عسكرية كثيرة ضد مصر ، واتخذت مصر نفسها سينا طريقا لتوسعها الخارجى كلما امتد نفوذها على بلاد الشام — راجع تلخيص الحملات الداخلة إلى مصر والخارجة منها فى كتاب : المدخل الشرقى لمصر للدكتور عباس عمار ص ٦ و ٧ .

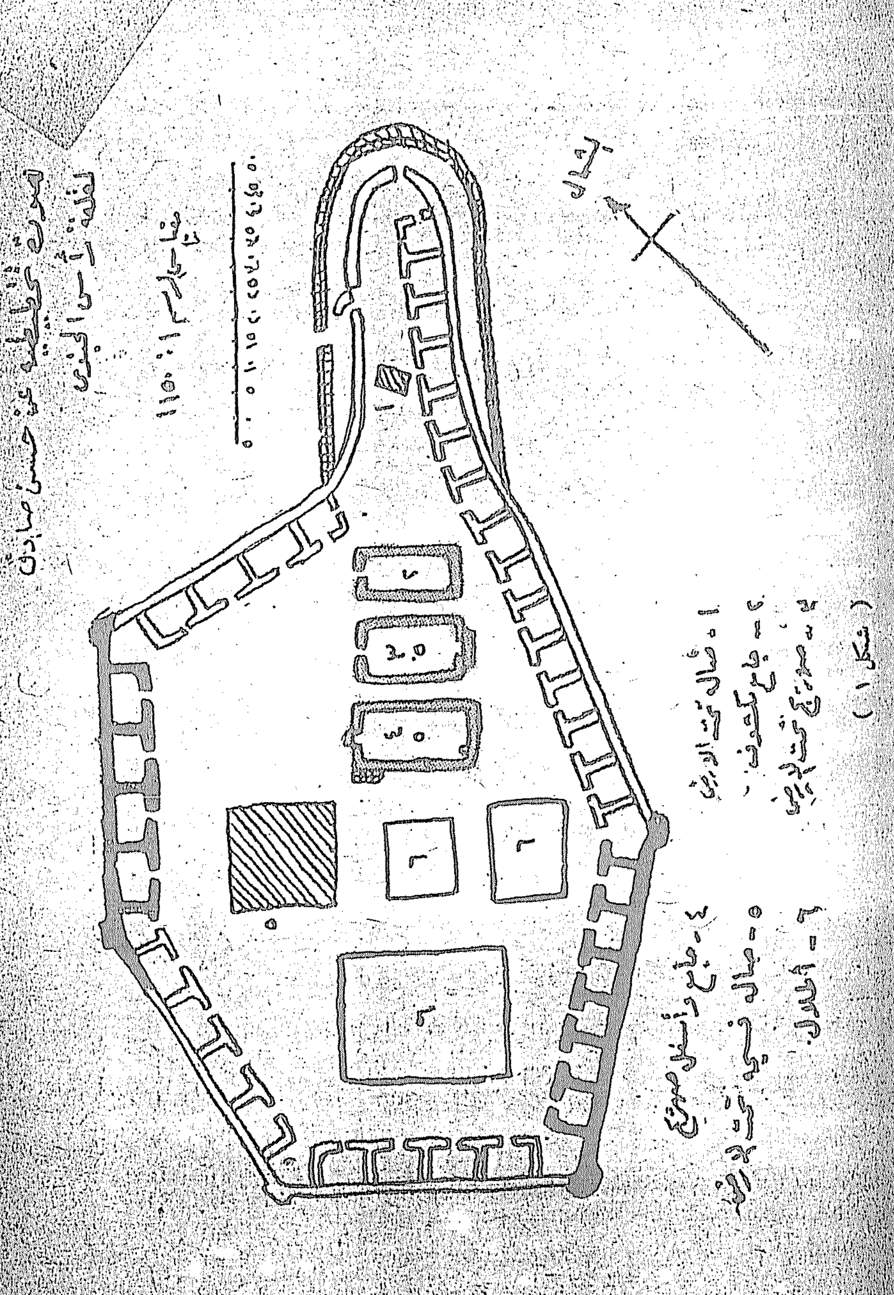

وجبالا شتى إلى كل الجهات[١] . وشكل قلعة صلاح الدين هذه مستطيل (ش ١٠) متجه في اتجاهين شمال وشرق إلى جنوب بغرب، وطرفها الجنوبي ينتهي بشكل نصف الأضلاع ، ويتراوح كل ضلع من أضلاع القلعة ما بين مائة وخمسين ، ومائتين مترا طولا ، وما بين مائة مترا وأقل عرضا ، وسمك سورها الخارجي متران ، وفي داخلها غرف صغيرة لرجال الحامية . وكان في فنائها عدة مبان شيدت لأغراض مختلفة تهدمت[٢] . وفي الجهة الجنوبية من القلعة جامعان متجاوران ، أحدهما كبير ما زالت جدرانه قائمة، تدل على أوصافه الأصلية من جمال الصنعة والإتقان ، وعلى بابه حجر تاريخي عليه كتابة متآكلة لم يبق منها إلا اسم الجلالة ، وفي محرابه كتابة لم يبق منها إلا عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أصلي على محمد » وتحت هذا الجامع صهريج ماء كبير كالصهاريج التي في قلعة جزيرة فرعون[٣] . ولهذا الصهريج بابان: باب في سقفه في صحن الجامع ، وباب من الخارج في أسفل حائط الجامع الشرقي ، ينزل منه إلى الصهريج بسلم . ولهذا الباب سد من حجر نقش عليه هذه العبارة « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد . خلّد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين ملك الإسلام والمسلمين خليفة أمير المؤمنين . عمّر هذا الصهريج والجامع الملك علي بن الناصري العادل المظفر . . . الملك . . وكان فراغه شهر شعبان تسعين وخمسمائة هـ »[٤] أي ١١٩٣ .

وأما الجامع الثاني الصغير إلى الشمال منه فأدركه الخراب ولم يبق منه إلا أساس محرابه . وتسمى هذه القلعة الحصينة في العصر الحاضر بقلعة الباشا أو قلعة الجندي وهي تسمية لا شك لاحقة لعصر الأيوبيين . وقد مرّ بها نعوم شقير سنة ١٩٠٥ وقضى نصف ساعة في تسلق الأكمة المبنية عليها ، فوجد القلعة متهدمة ولكن أنقاضها دلته على مبلغ حصانتها وفخامتها القديمة . ووجد نعوم شقير بتلك

(١) شقير تاريخ سينا والعرب ص ٤١ و ٥٣٣ .
(٢) Hassan Sadek: Salah El-Din's Fort p. 114.
(٣) أنظر ما سبق عنها في حاشية ٢ ص ٢٠ .

القلعة بابا كبيرا في الجهة الشمالية الغربية منها، وفوق عتبة الباب حجر تاريخي عربي كبير مربع الشكل ، نقش عليه بحروف ناتئة اسم باني القلعة وتاريخها ، وهذه صورته : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد ، خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين يوسف بن . . . . العادلي الناصري في جمادى الآخرة ثلاث وثمانين وخمسمائة[١] » ، أي أغسطس سنة ١١٨٧ مما يدل على أن صلاح الدين أتم بناءها في تلك السنة ، وأنه ظل مهتما بتلك القلعة طوال عهده تقريبا، لأنه فيما يبدو كان يزيد في تحصينها سنة بعد أخرى . وقرأ نعوم على الحجارة المبعثرة بجانب الجامع الصغير هذه الكتابة : « مما استعمله الملك الناصر صلاح الدنيا والدين الملك العادل سيف الدين ، وتولى عمارته الآن صلاح الدين عبد القادر ؟ وكان فراغه في ذي القعدة سنة ثماني وتسعين وخمسمائة هـ »[٢] أي ١٢٠١ .

ومن المراجع التي لدينا وكذلك النصوص يبدو استنتاجا ، ان صلاح الدين بدأ في بناء تلك القلعه أوئل عهده لتحصين مدخل مصر الشرقي ، وهو الذي زودها بصهاريج الماء والجامعين كما هو متبع في بناء الحصون والقلاع ، وأنه هو الباني للجامعين أولا أكبرهما على الأقل . وأن أخاه الملك العادل قام بتعميرهما أو زاد فيهما ويغلب على الظن أن صلاح الدين سلك بجيوشه درب الشعوى أثناء سيره إلى أيله لفتحها سنة ١١٧٠ ولمقابلة أهله عليها وكذلك سنة ١١٧١ ، حين خرج لمحاصرة حصن الكرك . وسنة ١١٧٣ حين سار نحو العربان الموالين للصليبيين . ويحسن الإشارة هنا إلى الطرق المارة بشبه جزيرة سينا وهي ثلاثة مجموعات : المجموعة الشماليه وتتكون من ثلاث شعب وقد تعطل السفر بها منذ ١٠٩٦ | ١٠٩٧

(١) تاريخ سينـا والعرب ص ٥٣٣ Hassan Sadek p. 113 ذكر مؤلفو الـ Repertoire vol. 9 p. 141 هذا النص الأثري بنفس التاريخ ولكنه يختلف في عبارته : بسم الله وصلى الله على محمد ، خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف ابن أيوب خليل أمير المؤمنين ، عمّر هذين البرجين والباب

(٤٩٠ هـ) لما استحوز الصليبيون على العريش ؛ والمجموعة الجنوبيه المحاذيه للسواحل الجنوبيه والجنوبيه الغربيه لشبه الجزيره وهى وعره وطويله : والمجموعه الوسطى والأهم لأنها الطريق المباشر من السويس إلى أيله ، ومن أيله إلى غزه . وظهرت أهمية تلك المجموعه الوسطى (ش ٢٠) حين إتخذها المسلمون طريقا للحج . على أن هذا المجموعه تتكون فى الواقع من طريقين يقطعان هضبة التيه فى وسطها . أولها وهو الشمالى ويسمى « درب الحج » وهو الذى عبرته شجر الدر فى حجها سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥ هـ) وثانيها وهو الجنوبى والأهم وهو طريق «درب الشعوى» . ورغم قلة المعلومات عن ذلك الطريق الثانى فالراجح أنه استخدم قبل درب الحج .(١)

وإذا صح ماذكره نعوم شقير الذى كانت له فرصة الإختلاط بالبدو أثناء وجوده فى شبه جزيرة سيناء سنة ١٩٠٥ ، والذى بنى معلوماته على ماقصه عليه شيوخهم المسنون من أن درب الشعوى هو أقدم الطرق إلى نقب العقبه عهدا ، فأن الطريق الذى يتحدث عنه جغرافيو العرب فى القرن الثانى عشر الميلادى وما يسبقه — أى قبل قيام طريق درب الحج — إنما يقصد به درب الشعوى هذا(٢) الذى بنى صلاح الدين قلعته عليه ، ولما جاء العادل بعد صلاح الدين زاد تحصين تلك الحدود الشرقيه فقام بزيارة تلك القلعه سنة ١٢٠٢ م . وجلب رجال الحاميه مياهها من عين سدر التى تبعد خمسة كيلومترات عن القلعة ولازالت إلى اليوم موردا المياه لمن يجتازون الصحراء فى تلك الجهة(٣) . وتدل القرائن كذلك على أن صلاح الدين هو البانى أيضا لقلعة مبعوق بوادى الراحه ، وقلعه جزيرة فرعون (أيله) ومحلة أم رجيم وكلها بمنطقه سيناء .(٤) وتقع على طريق درب الشعوى . وهكذا شيد صلاح الدين القلاع والمنازل وأقام الحراس على طول الطريق بين مصر والشام . فأعاد الأمن والسلام إلى منطقه سيناء ، وسرعان مادبت الحياه العمرانيه فيها . واعتاد صلاح

---

(١) راجع عمار : كتاب المدخل الشرقى لمصر ص ٢٠ و ٣٠ و ٥٦ و ٥٩ . وراجع أيضا Hassan Sadek p. 112 .

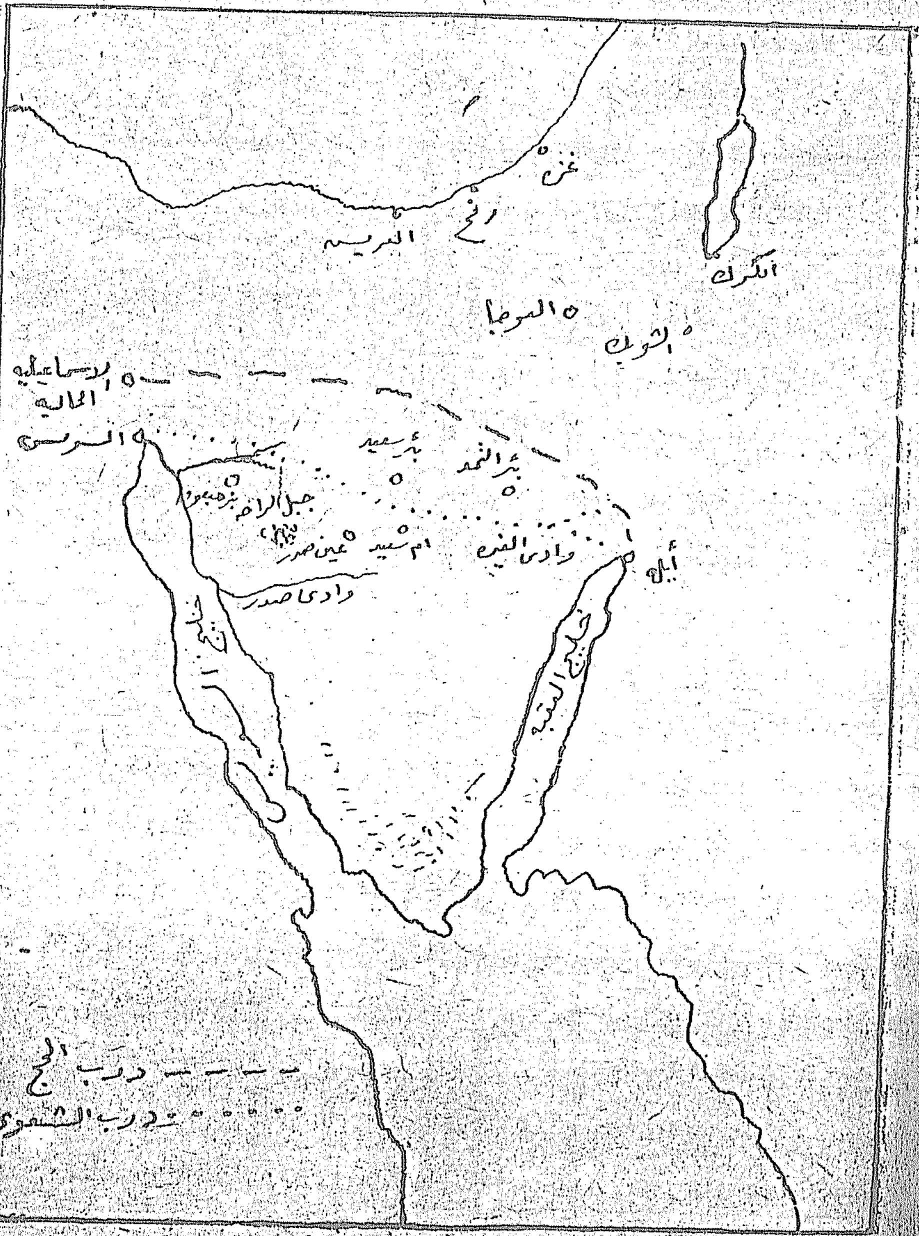

رسم تخطيطى لشبه جزيرة سيناء نقلا عن كتاب "المدخل الشرقى لمصر" للدكتور عباس عمار .

الدين أن يسلك ذلك الطريق فى غدواته وروحاته إلى الشام ، وعنه جاءته قوافل التموين من مصر مزودة بالرجال والعتاد أثناء معاركه مع الصليبيين كما سوف يتضح فيما يلى .

ويبدأ درب الشعوى كما يبدأ درب الحج فيقطع المنطقة الصحراوية الواقعة شرق السويس (ش ٢٠) ، مارأ بوادى الراحة وهضبة الراحة ليدخل أرض التيه شمالى عين سدر حيث توجد آثار قلعة صلاح الدين . وفى هضبة التيه يسير الدرب شرقاً عبر أعالى مجرى البروك ، ثم يقطع وادى العريش نفسه شمالى بئر أم سعيد بقليل ومنه إلى العريش الشرقية حتى يصل إلى الثمد ، ثم يمر بوادى الشعيرة ، ويسير معه قليلا ليتفرع إلى فرعين يسير أحدهما إلى الجنوب الشرقى حتى ينتهى إلى أيله ، ويستمر ثانيهما شرقا حتى يلتقى بدرب الحج عند نقب العقبة . ويمتاز درب الشعوى بقصر مسافته التى تقطعها الأبل فى ستة أيام فضلا عن غنائه فى الماء والمرعى ؛ فتستقى القوافل فيه من بئر مبعوق على مدخل هضبة التيه ، ومن عين سدر على مدخل التيه ، ثم من بئر أم سعيد ، وبئر القريعر والثمد وما بعدها[١] .
ولعل هذا كله يفسر اختيار صلاح الدين لهذا الطريق واهتمامه به وبروز أهميته الحربية ، تلك الأهمية التى لم تظهر قبل العصر الأيوبى .

وتجلى بعد نظر صلاح الدين فى فن الحرب ، حين أدرك أن الصحارى دروع مصر الطبيعية ، وأنه لا بد للسلطة الحاكمة فى الوادى من التمسك بتلك الدروع والتمكن منها فى الشرق والغرب ســـواء ، إذ اتفق له فى تلك السنة أيضاً (١١٧٣م — ٥٦٨ هـ) أن أرسل قطعة من جيشه لفتح بلاد المغرب ، وعقد لذلك بالاسكندرية مشور الدرس مشروع الحملة ، وحضر الاجتماع أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمى، وابن أخيه تقى الدين عمر ، واستقر الرأى على أن يتوجه تقى الدين فى عسكر من الترك عدته خمسمائة فارس أخر[٢] وتقررت حوالتهم فى النفقة على كورة البحيرة ، وكتب صلاح الدين إلى رجاله بمصر والقاهرة

---

(١) عباس عمارة ص ٧٢ و ٧٣
(٢) [illegible]

بتجهيز الأسواق من السقطيين والبياطرة وغيرهم ، كما كتب إلى العربان بطلب الزكوات والانكار عليهم فى قطع الطريق على الجلابين[١] .

وأسندت قيادة تلك الحملة إلى قراقوش غلام تقى الدين ، ويقال إن غرضها كان لتحقيق مايشاع عن ثروة بلاد المغرب ، كما يقال أن تقى الدين عمر كان يبحث عن جهة يستقر بها[٢] . ومهما قيل عن البواعث لمثل تلك الحملة فإن الجغرافية العسكرية تدل على قيمة تلك الجهات ، فى تأمين مصر من ناحية البدو الليبيين والمغاربة بنوع خاص ، وقد كانوا على الدوام مصدر قلق للحياة المصرية المستقرة بأرض الوادى ودلتاه أيام ولاة العباسيين ، حتى نجح الفاطميون فى فتحها عن هـذا الطريق على يد جوهر والخليفة المعز . ولا شك أن صلاح الدين اهتم بتلك الحملة لتأمين الحدود المصرية ولخوفه مما عساه يهدد مصر من تلك الناحية ، بدليل اهتمامه ببناء سور على طريق الاسكندرية فيما بعد[٣] . وإذا كانت تلك الحملة شغلت جزءاً من جيش صلاح الدين فإنها أمدته ببعض الغنائم والأموال . ومن ذلك كله يتضح أن ذلك الشريط الضيق من الساحل الليبى أعطى صلاح الدين موقعاً اســتراتيجياً للدفاع[٤] .
والدليل على ذلك عدم تعرض مصر لخطر من هذه الناحية طوال العصر الأيوبى وبعده، وإصرار الانكليز والأمريكان بعد الحرب العالمية الثانية (١٣٩٩ — ١٩٤٥) على الاحتفاظ بقواعد حربية فى تلك المنطقة .

ومن أجل تلك الأغراض الاستراتيجية كذلك سير صلاح الدين أوائل سنة ١١٧٤ (فبراير — رجب سنة ٥٦٩ هـ) أخاه تورانشاه لفتح بلاد اليمن ، إحدى مشروعات الفتوحات الخارجية التى أنفذها صلاح الدين فى إفريقية وبلاد العرب أول أيامه ، لأغراض يحيطها بعض الغموض حتى العصر الحاضر . فابن شداد يرجعها إلى قوة عسكر صلاح الدين وكثرة عدد إخوته وقوة بأسهم ،

---

(١) ابو شامه جـ ١ ص ٢١٥ والسلوك جـ ١ قسم ١ ص ٤٨ وفى حاشيتها للدكتور زياده : الغالب أن المؤلف يقصد بالسقطيين صغار الباعة عموما وكذلك باعة السقط والكروش .
(٢) العينى جـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٨٥ .
(٣) انظر ما يلى بالفصل الثالث تحت حوادث عام ٨٣/٥٨٤ م١١٨ .
(٤) Lane-Poole : A Hist. of Egypt p. 197.—Saladin p.p. 124—128

ورغبته فى التخلص من أقوى أولئك الأخوة وأكبرهم سنا منه ، بمشروعات حربية مثل النوبة واليمن لتورانشاه ، وبرقه لتقى الدين عمر ، على حين يرى العماد ومن نقل عنه ، أن عمارة اليمنى أغرى تورانشاه ببلاد اليمن ورغبه فى كثرة أموالها وسخاوة أهلها(١). وذلك تنفيذاً لخطته مع المتآمرين الفاطميين ، الذين اتفقوا مع آمورى ملك بيت المقدس ، وسنان رئيس الحشيشية ، ووليم الثانى ملك صقلية على غزو مصر من ناحيتهم ، وقيامهم من ناحيتهم بثورة داخلية بالقاهرة حين يكون صلاح الدين بعيداً باليمن(٢) . أما ابن أبى طى فيعلل حملة اليمن بأن إقطاع تورانشاه بمصر لم يقم بفتوته ، ولا ينهض بمروته(٣) . وربما رحب صلاح الدين بالفكرة تخلصاً من نفوذ أخيه وهو الأكبر ، وهو تعليل معقول يوضحه قول نور الدين لتورانشاه سنة ١١٦٨ (٥٦٤ هـ) عندما بعثه إلى أخيه : « إن كنت تريد أن تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان فى خدمتك وأنت قاعد فلا تسير ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضرك حينئذ ، وأعاقبك فيما تستحقه ؛ وأن كنت تنظر أنه صاحب مصر ، وقايم فيها مقامى وتخدمه كما تخدمنى فسر إليه ، واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » . فأجاب تورانشاه . « افعل معه فى الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله(٤) » .

ويقال كذلك أن حملة بلاد اليمن كانت بإشارة من الخليفة العباسى إلى نور الدين بأن يرسل أحداً من قبله للتحقيق من شكوى أهل اليمن إلى الخليفة العباسى من حاكمها عبدالنبى ابن مهدى الشيعى ومعاقبته وتأديبه بحملة رادعه ، فكتب نور الدين إلى صلاح الدين فى هذا المعنى(٥) . وتنفيذاً لأمر نور الدين أرسل صلاح الدين حملته إلى اليمن . وللمقريزى كذلك رأى فى تلك الحملة ، إذ قال أنها تقررت « لشدة خوف

(١) أبو شامه حـ ١ ص ٢١٦ وابن الأثير حـ ١١ ص ١٦٠ .

(٢) أبو شامة حـ ١ ص ٢٢١ النويرى مخطوط نهاية الأرب حـ ٢٦ ص ١١١ — العينى حـ ٢١ قسم ٣ ص ٦ ٢٦ م — Lane Poole : Saladin. p.p. 124—128 .

(٣) العينى حـ ٢١ قسم ٣ ص ٢١ .

(٤) الدر الثمين تحت عام ٥٦٨ هـ .

صلاح الدين وأهله من نور الدين(١) » . أن يدخل مصر وينتزعهم منها فأحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون إليها ، وهو رأى له قيمته بين ما تقدم من الآراء ، على أن الأمر يتطلب هنا معرفة الأسباب التى حملت صلاح الدين على إرسال حملة إلى اليمن سنة ١١٨١ (٥٧٧ هـ) بقيادة أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بحجة الخلاف بين نوابه هناك(٢) . إذ المعروف أن نور الدين توفى قبل ذلك بسنين ، ولم يكن لدى صلاح الدين ما يخيفه حتى يفكر فى اليمن ، لتكون موئلا له فى المستقبل ، فضلا عن حاجته إلى كل جندى لمنازلة الصليبيين .

وصفوة القول فيما يبدو ، أن صلاح الدين أراد بحملة اليمن سنة ١١٧٣ م تأمين حدود مصر الجنوبية ، فاليمن من الناحيتين الحربية والتجارية مفتاح البحر الأحمر الذى عليه تطل الحبشة المسيحية ، ويحتمل أن صلاح الدين توجس خيفة من تسرب الفكرة الصليبية فى هذا البحر جنوبا إلى الأحباش ، فيصير محاطا بنارين إحداهما على سواحل البحر المتوسط ، والأخرى على سواحل البحر الأحمر . وحدث ما توقعه صلاح الدين فعلا عندما قام ارناط سنة ١١٨١ (٥٧٧ م) بحملته المشهورة قاصدا بلاد العرب ، ومع أنه ليس بالمراجع التاريخية ما يشير إلى اتصال ملك الحبشة بارناط ، ولكن لو قدر لارناط النجاح فى حملته لا اتصلا ، ولكانت العاقبة وخيمة على مصر ، ولتغير وجه التاريخ ، ولكن صلاح الدين استطاع القضاء على تلك الحركة بتشريد ارناط وجنوده كما سوف يتضح فى موضعه .

أما الدليل التاريخى على خوف صلاح الدين من الحبشة واتصالها بالصليبيين ، وعلاقة ذلك بحملاته فى النوبة واليمن ، فيدل عليه حادث سابق لأيام صلاح الدين فى مصر ، وخلاصته أن الملك الصالح طلائع بن رزيك طلب إلى الأمير أسامه ابن منقذ ، الذى جاء إلى مصر أواخر الدولة الفاطمية زائرا سياسيا ، ثم عاد إلى بلدة شيزر ، أن يرجع إلى القاهرة ليتولى إقطاعا كبيرا حول مدينة أسوان ، للقيام على مشروع لم تذكره المراجع ، بل شرحته مكاتبة طلائع بن رزيك التى جاء فيها مخاطبا

(١) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٥٢ — الخطط حـ ٣ ص ٥٩ — أبو الفدا حـ ٣ ص ٥٤

(٢) [illegible] تفاصيل تلك الحملة عند ابن الأثير حـ ١١ ص ٣١٠ وأبو شامة حـ ٢ ص ٣٦

أسامه « وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة » وكاد أسامه يقبل قيادة الحملة لولا نصيحة نور الدين محمود له بالابتعاد عن الفتن المصرية[1] . ومما يدل كذلك على مثول خطر الحبشة فى رأس صلاح الدين أن الحبشة نفسها كانت تدلل على التزامها الحياد فى المسألة الصليبية منذ أيام الفاطميين ، وتهدىء من ثورة الخواطر فى القصر الفاطمى ، ومن ذلك إرسالها رسول من عندها بهدية وكتاب إلى الخليفة العاضد فى أغسطس سنة ١١٧٢ (ذى الحجة سنة ٥٦٧ هـ)[2] .

وكيفما كان الأمر فالمعروف أن صلاح الدين أطلق لأخيه تورانشاه مغل قوص لمدة سنة من أجل حملة اليمن ، كما أمده بجماعة من الأمراء فى ألف فارس خارجا عمن سيره معه من حلقته . وسار تورانشاه بعساكره عن طريق النيل حتى قوص ، ثم عن طريق البر حتى عيذاب ، ثم عن طريق البحر حتى جده ، ثم عن طريق البر مرة أخرى حتى مكة[3] . حيث زار الكعبة صحبة أحد أشرافها ، ثم وصل برا إلى زبيد فى مايو سنة ١١٧٤ (شوال سنة ٥٦٩هـ) وتسلمها عافيها ، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي ، ورحل تورانشاه إلى عدن فصنعاء وعاد إلى زبيد بعد أن تملك جميع الحصون[4] . ويقال أنه فتح وحده ثمانين حصنا ومدينة باليمن ، وأن نواب القلاع أرسلوا مفاتيحها إليه دون قتال وهي إحدى وأربعين حصنا[5] . وبعد أن استتب له أمر الفتح ، عهد إلى أطباء الحملة أن يتخيروا مكانا صحيح الهواء والماء ليتخذ فيه سكناه ، فوقع اختيارهم على مكان تعز ، حيث اختط به تورانشاه المدينة ونزلها بعسكره وبقيت كرسيا لمملكته[6] .

وفى منتصف تلك السنة (١١٧٤/٧٢ م — ٥٦٩ هـ) وصل القاهرة الموفق

(١) أسامة : ص ٢٥ .

(٢) السلوك ح ١ قسم ١ ص ٤٨ .

(٣) هذا هو الطريق الذى وصفه ابن جبير فى مذكراته ص ٢٨ و٣٢ و٣٣ و٣٨ و٣٩ وربما أرسل تورانشاه الأثقال والأزواد فى البحر من القلزم أى السويس إلى جده ، وقد ذهب الأيوبيون من بعد تورانشاه على هذا الطريق .

(٤) أبو شامه ح ١ ص ٢١٧ — العينى ح ٢١ قسم ٣ ص ٥٢١ .

(٥) شفاء القلوب ص ١٣ .

(٦) تاريخ اليمن لعماره ص ١٣٠ .

خالد بن القيسرانى سفير نور الدين يطالب صلاح الدين « بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من الغل » ويستعلم أخبار البلاد وحوادثها ، فصعب ذلك على صلاح الدين ورد على الرسول غاضبا « إلى هذا الحد وصلنا » ، وحدثته نفسه بالخروج عن طاعة نور الدين ، لولا غيبة جزء من عسكره باليمن ، ولو لا تذكره لنصيحة والده المتوفى منذ يوليو سنة ١١٧٣ ولم يجد صلاح الدين بدا من عمل الحساب واطلاع ابن القيسرانى على « جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعاتهم وتعيين جامكياتهم[1] » وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الهكارى مع الرسول إلى نور الدين بهدية ، تفوق الهدية الأولى التى أرسلت من قبل عقب وفاة العاضد ، ولكن نور الدين توفى يوم ١٥ مايو سنة ١١٧٤ والرسول فى طريق عودته إلى دمشق[2] . وموضع الأهمية فى هذا كله هنا ، أن صلاح الدين طبق النظام الاقطاعى على مصر فى تلك السنوات الأولى من حكمه ، وأن ذلك التطبيق كان مماثلا لما هو فى الشام ، وأهمية أخرى لذلك الحادث أنه يدل دلالة قاطعة على مابين نور الدين وتابعه من قطيعه وخوفه من أن يستبد بمصر .

وعلم صلاح الدين أوائل سنة ١١٧٤ (٥٦٩ هـ) بتفاصيل المؤامرة الخطيرة التى دبرتها البقايا الفاطمية بالقاهرة ، بالاتفاق مع وليم الثانى ملك صقليه ، وأمورى ملك بيت المقدس ، وسنان رئيس الحشيشية ، وكان المفروض أن تنفذ فى العام السابق أثناء حصار صلاح الدين للكرك والشوبك فيقطع الصليبيون عليه طريق الرجعة عند أيله[3] . ثم أرجئت تلك المؤامرة وتنفيذها بسبب رجوع صلاح الدين فى سرعة ؛ على أنها حيكت المؤامرة بحيث تندلع الثورة فى وقت وصول الأساطيل الغازية إلى الثغور المصرية . غير أن صلاح الدين أفسد على المتآمرين خططهم

(١) أبو شامه ح ١ ص ٢٠٦ و ٢١٩ — الدر الثمين حوادث سنة ٥٦٩ — العينى ح ٢١ قسم ٣ ص ٥٢٥ وفى هامش ص ٥٢ من السلوك ح ١ قسم ١ للدكتور زياده : الجامكيات : الرواتب العامة ، وكانت نفقة مماليك السلطان عبارة عن جامكيات وعليق وكسوه وغير ذلك .

(٢) Wiet: Histoire de la nation Egyptienne V IV p.312

بشنق عمارة وثمانية من الزعماء بالقاهرة يوم ٦ ابريل سنة ١١٧٤ (١٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ) أى قبل وفاة نور الدين بشهر واحد[1] .

واكتشاف تلك المؤامرة من الأعمال الباهرة ، فإنه إذا قُدر لها النجاح لقضت على مشاريع صلاح الدين الحربية فى مهدها ولعرضت سلامة الجيش الأيوبى لخطر فادح .

وحينما علم ملك بيت المقدس بفشل الثورة تنكر للاتفاق ولم يتحرك من فلسطين ، غير أن ملك صقلية كان قد أرسل ما اتفق عليه عسكرياً من أسطول ورجال قبل أن يعلم بما حدث بالقاهرة ، فوصلت حملته الأسكندرية يوم الأحد الساعة ١٢ ظهراً يوم ٢٨ يوليو سنة ١١٧٤ (٢٦ ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ) على حين غفله من حامية الثغر ، وعدتها[2] مائتا شينى فى كل شينى مائة وخمسون راجلا ، وست وثلاثين طريدة تحمل ألف وخمسمائة رأس من الخيل ؛ وست سفن كبار تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ؛ وأربعين مركباً لحمل الأزواد والرجال . وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودبابات والمنجنيقية ما يتم خمسين ألف راجل . فلما نزلوا بالبر حمل عليهم المدافعون حملة جعلتهم يتقهقرون إلى السور ؛ ودخلت قطع الأسطول الصقلى ميناء الأسكندرية ، رغم وجود المأصر ذات السلاسل الحديد فى مدخلها والمقاتلة على أبراجه .

ومما يؤسف له حقاً أن أنباء مأصر الأسكندرية ضئيلة المقدار فى المراجع التاريخية[3] . وتصادف أن كان بالميناء وقتذاك مراكب مقاتلة وأخرى مسافرة ، فأسرع التجارة المصريون إليها وخسفوها وغرقوها ، وأغرقوا ما احترق منها كى لا ينتفع العدو بها واتصل القتال إلى المساء ، وضرب

(١) عماره النكت العصرية ج ١ ص ٤٩٤ و ج ٢ ص ٥٤٨ — أبى الفدا ج ٣ ص ٥٤ — Lane-Poole : Saladin p. 126

(٢) ذكر ابن شداد (ص ٣٨) أن عدد قطع الأسطول ستمائة وانه وصل الثغر يوم ٧ سبتمبر (صفر سنة ٥٧٠) .

العدو ثلثمائة خيمة على البر ، ثم حاصر المدينة فى الصباح وأخذ فى رميها بثلاثة مجانيق كبار ، تضرب بحجارة سود استصحبوها معهم من صقلية ، وبثلاث دبابات بكباشها تشبه الأبراج فى صلابة أخشابها وارتفاعها ، وكثرة مقاتلتها واتساعها . وزحف الصليبيون حتى قاربوا السور فوجدوه منيعاً ، وبذا كوفئ صلاح الدين على اهتمامه بتحصين الأسكندرية منذ مارس سنة ١١٧٠ أحسن مكافأة ، إذ تمكن واليها وقتذاك فخر الدين قراجا[1] من مقاومة الحصار حتى أنجده صلاح الدين الذى وصله خبر الحملة على جناح الطائر يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو وهو بمنزلة العساكر بفاقوس ، وسير صلاح الدين فى الحال مملوكاً له ومعه ثلاثة جنائب ليجد فى السير إلى الأسكندرية[2] ، ويبشر بقدومه بنفسه لنجدة فخر الدين قراجا . واستنهض صلاح الدين العساكر لثغرى الأسكندرية ودمياط ، وأخذ فى التجهز للسير لرفع الحصار عن الأسكندرية ، فكان انتشار خبر قدومه كفيلا بتشجيع الحامية والأهالى معاً على مداومة القتال والاستماتة فى المقاومة وإلقاء الرعب فى صفوف المهاجمين . وفى يوم الأربعاء ٣١ يوليو سنة ١١٧٤ كانت أخبار مقدم صلاح الدين قد أثرت فى صفوف الصقليين حتى وضح استسلامهم للهزيمة والهرب . ثم كر المسلمون عليهم بغتة فى الظلام وألقوا بهم فى البحر ، واقتحموا عليهم بعض مراكبهم فخسفوها وأتلفوها ، وظل العدو بين قتل وغرق وأسر حتى أقلع أسطوله عن الثغر يوم الخميس أول أغسطس (أول محرم سنة ٥٧٠ هـ)[3] .

أما صلاح الدين فلم يكد يفرغ من المؤامرة الفاطمية وذيولها بالأسكندرية حتى استدعى للقضاء على فتنة شعبية فى الصعيد فى سبتمبر سنة ١١٧٤ (٧ صفر سنة ٥٧٠ هـ) ، هى الفتنة التى دبرها كنز الدولة الأمير السودانى والى أسوان ، وعباس بن شادى والى قوص ، وهما من المخلصين للفاطميين ، الراغبين فى إعادة

(١) الخطط ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٧٣ .

(٣) أنظر : العينى ج ٢١ قسم ٣ ص ٥٦٠ — ابن واصل ١٧٩ أبو شامه ج ١ ص ٢٣٥ — السلوك ج ١ قسم ١ ص ٥٦ — Lane - Poole Saladin p. 127

الدولة الفاطمية فى مصر ، فجرد لهما صلاح الدين قطعة كبيرة من العسكر بقيادة أخيه العادل سيف الدين أبو بكر ، ومعه من الأمراء حسام الدين أبى الهيجاء السمين ، وعز الدين مُوسك ، وعدة من الأمراء أصحاب الإقطاعات هناك ، وصحبه فى تلك الحملة الخطير مهذب بن مماتى صاحب كتاب قوانين الدواوين ، واستطاع العادل أن يهزم عباس بن شادى خارج قوص ويقتله ، وأن يهدم الحركة كلها بهزيمة كنز الدولة بطود وقتله[1] . وفى ١٥ مايو سنة ١١٧٤[2] (١١ شوال سنة ٥٦٩) توفى نور الدين وهو يتأهب لغزو مصر ومحاسبة صلاح الدين ، فخلا الجو لصلاح الدين قبل نهاية تلك السنة إذ تخلص من متاعبه الداخلية والخارجية ، وقرر قواعد دولته الحربية فى البر والبحر .

---

(١) ابن شداد ٣٨ — أبو شامه ج ١ ص ٢٣٥ — أبو الفدا ج ٣ ص ٥٦ — العينى ج ٢١ قسم ٣ ص ٥٦٢ — السلوك ج ١ قسم ١ ص ٥٨ .

(٢) Lane-Poole — Saladin p. 128

الفصل الثانى

فى سبيل السلطنة على أملاك نور الدين

سبتمبر ١١٧٤ — أكتوبر سنة ١١٧٦

(صفر سنة ٥٧٠ — ربيع الأول سنة ٥٧٢ هـ)

وفاة نور الدين — دعوة دمشق لصلاح الدين — مكاتبة صلاح الدين بغداد — الاستراتيجية الحربية لسوريا — تأهب صلاح الدين للسفر — طريقه إلى دمشق. دخوله دمشق يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١١٧٤ — سيره شمالا إلى حمص وحماه — موقف عز الدين جرديك صاحب حماه — حصار حلب الأول يناير سنة ١١٧٥ — استنجاد حلب بالصليبيين والحشاشين — اتخاذ العماد مؤرخا حربيا وسياسيا لصلاح الدين — فتح بعلبك ابريل سنة ١١٧٥ — استنجاد حلب بالموصل — هزيمة المواصلة والحلبيين عند قرون حماه ١٣ ابريل سنة ١١٧٥ — حصار حلب الثانى والصلح مع الملك الصالح — نتائج قرون حماه — فتح بعرين — اقطاع المدن المفتوحة — عودة صلاح الدين إلى دمشق يونية ١١٧٥ . الهدنة مع الصليبيين — نقض الحلبيين الصلح بتحريض سيف الدين غازى صاحب الموصل — عودة صلاح الدين إلى حماه — تاكتيك معركة تل السلطان ٢٢ ابريل سنة ١١٧٦ — كسوف الشمس — نتائج المعركة — فتح بزاغه — حصار منبج مايو سنة ١١٧٦ — محاولة اغتيال صلاح الدين أثناء محاصرته عزاز — حصار حلب الثالث يونية سنة ١١٧٦ — الصلح النهائى ٣١ يوليو — عودة إلى اليمن والمغرب سنة ١١٧٦/٧٥ — زحف صلاح الدين إلى قلاع الاسماعيلية ١١٧٦ — حصار مصياف — الصلح مع الاسماعيلية وسببه — العودة إلى دمشق — زواج صلاح الدين من أم الملك الصالح أرمل نور الدين — مغادرة دمشق إلى مصر ١٠ سبتمبر سنة ١١٧٦ — طريق العودة — الخلاصة .

عندما اندرجت الأيام بوفاة نور الدين يوم ١٥ مايو سنة ١١٧٤ (١١ شوال سنة ٥٦٩) كان قد مضى على وفاة نجم الدين أيوب ، صاحب هذه العبارة المشهورة فى مجلس مشهور سنة وشهران ، ونصها « قوموا عنا فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد » وأمر صلاح الدين أن يكتب إلى نور الدين قائلا « أى حاجة إلى قصدى ؟ نجاب يجيء فيأخذنى بحبل يضعه فى عنق » فإنه إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله عز وجل كل يوم هو فى شأن »(١) .

ولا بد أن صلاح الدين واخوته وسائر الحاضرين ذلك المجلس ذكروا تلك العبارة ، حين وصلتهم أخبار وفاة نور الدين ، وأخذ كل منهم يفكر فيما عسى أن يكون ، ولا سيما أن نور الدين لم يترك سوى ابن طفل فى الحادية عشرة من عمره اسمه اسماعيل ، وابنته الخاتون التى لم تسمها المراجع المعروفة فى أقل من ذلك العمر ، وزوجة هى عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر ، وهو من السابقين إلى فكرة توحيد القوى الإسلامية فى الشرق لمناهضة الصليبيين(٢) وكان صلاح الدين وأهله وأمراؤه كثرة فى العدد والقوة والمقدرة غداة وفاة نور الدين ، وأولهم أهمية فى التاريخ الحربى الصلاحى قبل سنة ١١٧٤ وبعدها ، تورانشاه(٣) أكبر إخوة صلاح الدين من أبيه ، فهو الذى وكل إليه صلاح الدين غزو النوبة ثم اليمن ، واعتمد عليه فى كثير من أعماله الحربية المستقبلة ، ويحتل تلك المكانة من الأهمية أخوه الملك العادل أبو بكر ، صاحب الفضل فى هدم الحركات الفاطمية والحملات التأديبية ضد بقايا الفاطميين فى الصعيد ، وذلك فضلا عن حصافة الرأى والقدرة على التدبير ، مما سوف يتضح طوال عهد صلاح الدين وبعده ، وكان لصلاح الدين أخ إسمه شاهنشاه توفى سنة ١١٤٩ م وترك ولدين ، أحدهما تقى الدين عمر الذى أنفذه صلاح الدين إلى برقة ، ودل على مقدرة حربية كما دل عماه تورانشاه والعادل ، وثانيهما فرخشاه الذى سوف توضح الحوادث ما اتصف به من مقدرة

(١) السلوك ج ١ قسم ١ ص ٤٩ .
(٢) أنظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .
(٣) وتورانشاه كلمة أعجمية معناها ملك الشرق : ابن خلكان ج ١ ص ١٤٦ .

فى السياسة والحرب فى كثير من حوادث العهد الصلاحى بعد سنة ١١٧٤ ، كما سوف توضح ما كان للاخ الأصغر لصلاح الدين وهو سيف الاسلام طوغتكين(١) من خدمات حربية ببلاد اليمن .

وحاط صلاح الدين من أهل بيته عدا إخوته وولدى أخيه ، خاله شهاب الدين الحارمى الذى تعهد صلاح الدين منذ صباه ، واستعان به صلاح الدين فى كثير من الحوادث زمن وزارته الفاطمية ونيابته عن نور الدين بالقاهرة ، أما القاضى الفاضل فلم يكن من البيت الصلاحى بل كان ممن خدم الدولة الفاطمية ، ثم اجتذبته شخصية صلاح الدين كما اجتذبت غيره من رجال الدولة الفاطمية أمثال قراقوش ، وهذا وذاك ممن خدم صلاح الدين خدمات جليلة حتى سنة ١١٧٤ بأن علاه أسرار الحكم فى مصر ، وأدى كل منهما فى ميدانه لصلاح الدين أجل الخدمات هذا فى ديوان الانشاء ، وذاك فى ديوان الجيش والإدارة ، وكلاهما فى مجلس المشورة .

وبديهى أن يتغير الموقف العسكرى والسياسى تغيرا كليا ملحوظا ، وأن تضطرب الأمور اضطرابا سريعا لا فى نفس صلاح الدين وأهله فحسب ، بل فى الشرق الأدنى والأوسط ؛ إذا خلف نور الدين وراءه — عدا صلاح الدين وأهله — ثلاث مجموعات تتنازع السلطان والسيادة والصداره على المسلمين : أولاها مجموعة غازى صاحب الموصل والجزء الشرقى من المملكة الزنكية ، وأخواه عماد الدين ومسعود أولاد قطب الدين مودود أخى نور الدين ؛ وثانيها مجموعة قلج أرسلان سلطان السلاجقة بالروم ، وأولياؤه بآسيا الصغرى ممن يكرهون قيام دولة كبيرة على أنقاض الدولة النورية ؛ وثالثها مجموعة اسماعيل بن نور الدين وأمراؤه بحلب ودمشق ؛ وقد نصبه أمراء دمشق مكان أبيه فى كفالة الأمير محمد بن المقدم .

وعندما سمع غازى بوفاة نور الدين أسرع بعساكره إلى احتلال البلاد النورية بالجزيرة وهى : نصيبين ، والخابور ، وحران ، والرها ، والرقة ، وسروج ، وتم له امتلاكها فعلا عدا قلعة جعبر ، لأنها من أحصن القلاع وأمنعها ، فعدة ابراجها

(١) وكذا طغتكين .

مائة وسبعون برجا وبدنه ، وفيها أربعة وثلاثون حماما[1] . وبينما تسقط تلك المدن وقلاعها في يد غازى ، إذا بالصليبيين يحاصرون بانياس رغبة في تهديد وارباك قوات المسلمين في كل من حلب[2] ، ودمشق بعد أن ذهب عنهما سلطان نور الدين . على أن ابن المقدم استطاع أن يفك ذلك الحصار بعد أن هادن الصليبيين على مال يدفعه إليهم سنويا « خوفا من صلاح الدين حتى لا يجئ من الغرب ، ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل فيجئ من الشرق » على قول ابن الأثير[3] واتصل خبر ذلك كله بصلاح الدين فاستقبحه واستعظمه[4] . ومن هنا يتضح مبلغ ما كان من تنافر وتنافس وتخاوف بين القوى الكائنة بالشرق الأدنى بعد وفاة نور الدين ، وسوف توضح الحوادث صحة إطلاق هذه العبارة كذلك على قلج أرسلان صاحب السلاجقة بالروم وغيره من الدول مثل أرمينيه الصغرى .

ثم أنقسم المحيطون بالسلطان الطفل على أنفسهم حزبين : حزب ابن الداية وهو من أكبر الأمراء النورية ، وبيده وإخوته أمر حلب وعسكرها أيام نور الدين ، وحزب ابن المقدم الذى نصب الطفل اسماعيل بدمشق وتكفل رعايته . وأرسل ابن الداية أحد خلصائه وهو سعد الدين كمشتكين الذى كان من أقدم أصدقاء نور الدين[5] إلى دمشق لاستحضار اسماعيل إلى حلب مركز الدولة

(١) تاريخ الجزيرى حـ ٣ ص ٨٩ .

(٢) كانت حلب في نظر المعاصرين المركز الطبيعى للمقاومة الإسلامية ضد الصليبيين دون الموصل ، وآية ذلك أن أسد الدين شيركوه أشار على نور الدين محمود باتخاذها قاعدة للملكة بدلا من الموصل « لأن ملك الشام يحصل بحلب ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق » . ابن أبى طى : كتاب الروضتين حـ ١ ص ٢٣٨ وانظر كذلك — الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب الحروب الصليبية ص ٤٤ .

(٣) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٦٨ وانظر ابن خلدون حـ ٥ ص ٢٨٩ .

(٤) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٦٨ .

(٥) لما مات قطب الدين مودود بن زنكى سنة ١١٦٩م أسرع نور الدين أخوه إلى احتلال الموصل وأرض الجزيرة . ثم عاد فأقطعها لسيف الدين غازى بن أخيه . وجعل نور الدين الطواشى سعد الدين كمشتكين دزدارا لقلعة الموصل وعينا على ابن أخيه غازى صاحب الموصل ، وحافظا له من تعاطى ما لا يليق من الفواحش والخمر واللعب . فلما مات نور الدين تمادى غازى فى اللهو بالمجاهرة باللعب والشراب والطرب خاف منه الطواشى المذكور أن يبطش به فهرب منه سرا إلى حلب ومنها أستقدمه ابن الداية إلى دمشق — انظر ابن كثير حـ ١٢ ص ٢٨٥ .

النورية منذ نشأتها والدولة الزنكية قبلا ، فمارضه ابن المقدم وعاد كمشتكين خائبا إلى حلب ، غير أن ذلك لم يثن ابن الداية عن عزمه فسير كمشتكين إلى دمشق مرة ثانية ، بعد أن زوده فيما يبدو بمعلومات كفيلة باقناع الأمراء الدماشقة دون ابن المقدم بوجوب انتقال السلطان الطفل إلى حلب ، ولعل تلك المعلومات أن ابن المقدم على صلة بصلاح الدين ، وأن صلاح الدين ربما استولى على شخص اسماعيل بمساعدته ، وأن المصلحة تتطلب إرسال اسماعيل إلى حلب قبل فوات الأوان ، وكيفما كان الأمر فالمعروف أن كمشتكين نجح فى إقناع أمراء دمشق بأن مصلحة السلطان الطفل فى الإقامة بحلب ، فأجابوه إلى طلبه على شريطة أن تكون دمشق لابن المقدم ، وقلعتها للطواشى جمال الدين ريحان . وغادر الموكب السلطانى دمشق أواخر يوليو سنة ١١٧٤ (ذى الحجة سنة ٥٦٩) إلى حلب . ثم لم يلبث كمشتكين إن استبد بالأمر فى حلب ، واستشعر الزهو والغرور واستولى هو على شخص اسماعيل دون ابن الداية ، وما زال حتى قبض على ابن الداية وإخوته الثلاثة وابن الخشاب رئيس الشيعة بحلب ، وألقى بهم جميعاً فى السجن . وتوجس أمراء الدماشقة خيفة من حركة كمشتكين بحلب ، فبعثوا إلى سيف الدين غازى بالموصل يعرضون عليه المملكة النورية وأحياء الدولة الزنكية الكبرى ، فظنها مكيدة منهم وامتنع عن مساعدتهم فى صورة سافرة ، غير أنه اتفق مع الحلبيين على البقاء فى جميع ما أخذه من مملكة نور الدين بالأراضى الجزرية[1] . مقابل وقوفه موقف المحايد فيما سوف يتمخض عنه النضال بين ابن الداية وكمشتكين .

ولم يسع ابن المقدم حين تأكد من هذا الإتفاق أن سير رسله فى طلب النجدة من صلاح الدين ، وهو الناقم الساخط على الحلبيين والدماشقة جميعاً لأنهم لم يردوا الأمر إليه بادىء ذى بدء ، ولم يخبروه بحركات غازى وهى فى مهدها حتى يدفعه عن أملاك نور الدين .

ورأى صلاح الدين فى تلك الاستغاثة كل ما اشتهى وابتغى ، خصوصاً وقد

(١) راجع ابن خلدون حـ ٥ ص ٢٨٩ — ابن واصل ١٧٤ — أبو شامة حـ ١ ص ٢٣٠ — ٢٣٣ — ابن كثير حـ ١٢ ص ٢٨٥ .

وليت عنده بعد وفاة نور الدين مباشرة ، أنه الوارث الحقيقي لملكه سيفه وسياسته في الجهاد ، ومن واجبه أن يعمل على إزالة تلك الشخصيات الضعيفة من طريقه لتوحيد القوى الإسلامية تحت يده ، ولكنه لم يشأ إعلان ذلك صراحة في الشهور الأولى من صيف سنة ١١٧٤ لانشغاله بأمور مصر الداخلية والخارجية ، ولترقبه ما ينجم عنه الموقف السياسي والعسكري بالشام إثر وفاة نور الدين .

وبرهان ذلك كله رسالة صلاح الدين في تلك السنة إلى الخليفة المستضيء بالله العباسي ببغداد ، وهي رسالة طويلة بخط القاضي الفاضل ، وقد حملها إلى أبواب الخلافة الخطيب شمس الدين بن البيضاء[1] ، وفيها يستنجد صلاح الدين بالخليفة ، ويطلب إليه المؤازرة المعنوية ، ويبين ما له وما لوالده وعمه من جهاد الصليبيين من الأيادي في حياة نور الدين ، ومنها « كان أول أمرنا أنا كنا بالشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا ، فأي مدينة فتحت ، أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر ، أو مصاف للإسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولا يجحد عدونا أنا نصطلي الجمرة ، ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندبر التعبية ، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها » . وانتقل صلاح الدين بعد ذلك إلى مصر مصوراً أحداثها الداخلية والخارجية التي جذبته إليها ، والصعاب التي واجهته في إبعاد الخطر الصليبي عن أراضيها ، واقتلاع الخلافة الشيعية الهرمة منها ، إلى أن قال « فهنالك تمت لنا إقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء السواد الأعظم ، والجمع لكلمة السواد الأعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بقتاله ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم بقائه ، إلا أنه عوجل

(١) السلوك ج ١ قسم ١ ص ٦٠ — جعل القلقشندي (ج ١٣ ص ٨٣) حدوث تلك السفارة في خلافة الناصر ، والمعروف أن المستضيء بأمر الله توفي ٢٨ مارس سنة ١١٨٠ م (سلخ شوال سنة ٥٧٥) وخلفه الناصر لدين الله في تلك السنة مما يدحض رأي القلقشندي . وذكر ابن كثير في تاريخه (ج ١٢ ص ٢٩٠) بعض هذه الرسالة مجزوءاً على أنه مرسل من صلاح الدين إلى الحلبيين أثناء حصاره حلب في المرة الثانية (مارس سنة ١١٧٥ م) ، متذكراً أيامه وأعماله وأهله في الشام ، وطالب منهم المؤازرة والعون . ولا شك أن الأمر التبس على ابن كثير الذي جعل تاريخ الرسالة سنة ٥٧٠ هـ .

لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته » . وبعد أن أشار صلاح الدين إلى فتح أيله وإلى حملة النوبة واليمن ، قال عن حملته إلى شمال أفريقية « ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : لك ، وبرقة ، وقفصه ، وقسطيلية ، وتوزر . كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلام الله عليه » . ثم شرح صلاح الدين سياسة كل ملك وأمير من ملوك الصليبيين وأمرائهم واحداً واحداً ، سواء أكان معاديا له أو مهادنا . فمن قوله في مانويل الأول كومنيني امبراطور الدولة البيزنطية[1] : « ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح » . يشير بذلك إلى الاسطول البيزنطي الذي اشترك مع حملة آموري ملك بيت المقدس في حصار دمياط في ديسمبر سنة ١١٦٩ وإلى تعهد بيزنطه — بعد ما لحقها من خسائر في تلك الحملة — بأن تكون بمنأى عن المشكلة الصليبية . وعلى العكس من ذلك كان غليام الثاني ملك صقلية[2] « إذ عمر اسطولا استوعب فيه ماله وزمانه : فإنه إلى الآن منذ خمس سنين يكثر عدته ، وينتخب عدته ، ويجتلب مقاتلته إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى اسكندرية أمر رائع وخطب هائل » وهو الاسطول الذي وصلها سنة ٧٣ — ١١٧٤ وعاد خاسراً بعد أن أفسد صلاح الدين خطته . وأشار صلاح الدين في رسالته كذلك إلى تفكك كلمة المسلمين بعد وفاة نور الدين ، وبين ضرورة استيلائه على الشام تمهيداً لتنفيذ خطته العسكرية التي رسمها لفتح بيت المقدس ، فقال ما نصه « وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قلعه ، وإلا ثبتت عروقه واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود آثمة ؛ وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية والمنفعة جامعة » . ومن أجل ذلك كله اقترح صلاح الدين على الخلافة العباسية ، أن تنعم عليه بما هو « تقليد جامع

(١) راجع Baynes : Byzantine Empire عن القائمة الخاصة بأسماء الأباطرة البيزنطيين
(٢) أنظر مادة Sicilly : Encyclopaedia Brit. vol. XX p. 611

المصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله الدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيم من أخ وولد من عندنا ، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً » . ولم يفت صلاح الدين أن يوضح فى رسالته الضرورة الاستراتيجية من امتلاكه الشام لاعتزامه الجهاد والفتح ضد الصليبيين ، بدليل قوله كذلك ما نصه « ويتبين أن أمراء الدولة النورية يحتاج إليهم فى فتح البلاد القدسية ضرورة : لأنها منازل العساكر ، ومجمع الأنفار والعشائر ، فمتى لم يكن عليهم يد حاكمة وفيهم كلمة نافذة ، منهم ولاة البلاد وبغاة العباد[(١)] » . وصفوة القول أن هذه الرسالة تبرهن أوضح برهان على سمة أطماع صلاح الدين ، كما تشرح موقفه من مشروع توحيد القوى الإسلامية استعداداً للجهاد ضد الصليبيين ، فضلا عما فيها من شرح لحقيقة القوى الأوربية ، وما فيها من إشارة إلى ما سوف يقوم به صلاح الدين من حركات استراتيجية عندما يقتطف ثمار الحوادث بتلبية دعوة الدماشقة إلى نجدتهم .

وكيفما كان الأمر من تلك الرسالة ، فمن العسير على الباحث الحربى أن يدرك تماما كيف فكر صلاح الدين تلك السنة (١١٧٤) فى ضرورة الاستيلاء على دمشق وحلب والموصل جميعا للقضاء على الصليبيين ، إلا أن يرجع الباحث البصر إلى كاتب الرسالة ، وهو القاضى الفاضل العارف بخطة تطويق الصليبيين من ناحيتين ، وهى الخطة التى وضعها بدر الجمالى الوزير الفاطمى ، واتبعها من بعده نور الدين نفسه بالاستيلاء على دمشق والقاهرة . ومن ذلك يتضح أن اهتمام صلاح الدين بدمشق وحلب والموصل ، لم يكن للاستيلاء على أملاك نور الدين والبيت الزنكى فحسب ، بل لتطويق الصليبيين بالشام من جميع الجهات ما استطاع إلى ذلك سبيلا . إذ المعروف تاريخيا أن الإمارات الصليبية السورية شطرت العالم الإسلامى إلى قسمين : —

شرقى ويشمل العراق وفارس والهند الإسلامية ، وغربى ويشمل مصر

(١) راجع النص الكامل للرسالة فى القلقشندى ج ١٣ من ص ٨١ — ٩٠ وأبو شامة ١ من ص ٢٤١ — ٢٤٤ .

وإفريقية وجنوب أسبانيا ، ولا يتيسر الاتصال بين القسمين إلا عن عبور تلك الإمارات ، حيث يخترقها ثلاث طرق رئيسية من الشمال إلى الجنوب : الطريق الساحلى الملتصق بساحل البحر المتوسط ، ويمتاز بجباله المرتفعة وأمطاره الغزيرة ، وهو صعب الاجتياز إلا ما بين جبال الكرمل والحدود المصرية ، إذ تكسوه طبقة رملية ، والصليبيون أنفسهم يسيطرون على هذا الطريق . أما الطريق الثانى فيشمل وديان نهرى العاص والأردن ، والمياه به متوفرة ، وتقع عليه مدن سوريا الهامة ومنها حماه وحمص ، وتتنازعه قوات الصليبيين والمسلمين ، ومنه يسهل على القوات الآتية من أعالى الفرات ودجله ، أن تضايق قوات الصليبيين المرابطة بما هو شمال فلسطين فى العصر الحاضر . واعتاد صلاح الدين أن يسلك هذا الطريق الثانى بجيوشه ، فى ذهابه وعودته من حلب إلى دمشق كما سيتضح فيما بعد[(١)] . أما الطريق الثالث فهو شريط ضيق موازٍ لصحراء الشام وترويه السهول القصيرة والآبار ، وهو أصلح الطرق المعروفة جميعا لحركات الجيوش ، ويمر من حلب إلى جنوب حمص ، وعندها يتشعب إلى فرعين يلتقيان عند دمشق ، ومنها يسير مع جبال المآب إلى عمان فأيله ومكه ، وقد نجح المسلمون فى الاحتفاظ بهذا الطريق الثالث وبمدنه الرئيسية وهما حلب ودمشق[(٢)] . ويرجع فشل الصليبيين عموما فى التأسيس لأنفسهم فى الشرق ، إلى أغفالهم الاستيلاء على حلب سنة ١٠٩٧ وعلى دمشق عامى ١٠٩٨ و ١١٤٩م ، وعذرهم فى ذلك مقبول نظرا لما وصلهم من معلومات جغرافية محرفة عن استراتيجية الأراضى المقدسة . واللوم من غير شك لا يقع على المحاربين الصليبيين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، وإنما على تلك الارساليات التى جمعت تلك المعلومات الجغرافية من مصادر رومانية قديمة ، دونتها نقلا عن الرواية الشفوية للتجار والحجاج[(٣)] . ويفسر هذا اعتماد الصليبيين فى استراتيجيتهم

(١) أنظر أبو شامة ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥٤ .

(٢) Fuller : Decisive Battles p.p. 228, 232 - Belloc : The Crusades p. p. 92 - 103.

(٣) Oman: A History of the art of war p. 235

على المعاقل والحصون يحتمون بها فى داخل البلاد ، وعلى البحر ليمونهم بالرجال والعتاد من الخارج (١).

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد من تأهب صلاح الدين فى السفر إلى الشام استجابة لدعوة ابن المقدم ، وتحقيقا لخطته فى تطويق الصليبيين هناك من ناحيتين على الأقل ، فعهد إلى أخيه الملك العادل بإدارة شئون مصر ، وفرق بعض عساكره على ثغورها ومداخلها الحربية لصيانتها والمحافظة عليها ، وخرج من القاهرة ومعه جمع من أهله وأقاربه ورجال دولته ، منهم سيف الدين طوغتكين وتقى الدين عمر وعز الدين فروخ شاه ، وشهاب الدين الحارمى والقاضى الفاضل وناصر الدين محمد ابن أسد الدين شيركوه . فنزل بركة الجب وهى بركة الحاج زمن المقريزى ، وتقع شمالى القاهرة يوم ٣ سبتمبر سنة ١١٧٤ (أول صفر ٥٧٠ هـ) . وأقام بها حتى اجتمع العسكر ، وسار منها يوم ١٦ سبتمبر على رأس فرقة قليلة من الجند قدرتها المراجع التاريخية سبعمائة فارس (٢) ، كانوا النواة الأساسية لجيوشه فى المستقبل (٣) ثم وصل صلاح الدين بلبيس حيث كان فى انتظاره رسل صاحب بصرى واسمه شمس الدين ، وكذلك رسل ابن المقدم يستعجلون قدومه . على أن الأمر الذى يستوجب الالتفات والاهتمام هنا ، هو عدم تعجل صلاح الدين فى السير ، إذ لزم خطة التريث والتمهل أثناء الطريق ، وعمد إلى تثبيت أقدامه فى كل خطوة يخطوها ، فمر بصدر وأيله ، متفقدا استحكاماته ومخافره فى شبه جزيرة سينا ، وربما كان ذلك ليتأكد أن خطوطه فى مأمن من العدو . ثم نزل بصرى فاستقبله صاحبها وشد أزره ، وفيها انضم إليه جمع كبير من أمراء الأتراك والأكراد والعربان وأجنادهم . ومر بالكسوه ومنها إلى دمشق (٤) ، وما أن قدمها صلاح الدين حتى خرج أهلها وعساكرها للقائه ، ثم دخلها يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١١٧٤ (الاثنين

(١) Fuller op cit p. 231

(٢) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٧٤ — العينى حـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٦٥ — السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٥٨ .

(٣) Belloc op. cit p. 276

(٤) ابن كثير حـ ١٢ ص ٢٨٨ — السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٥٨ .

أول ربيع الآخر سنة ٥٧٠) وملكها من غير مدافع ، وبلا ضربة ولا طعنة على قول ابن العماد (١) . على حين استعصت عليه قلعتها لحصانتها ، فتركها ونزل دار أبيه المعروفة بالعقيق مشغولا بتمنع القلعة عليه ، ثم مشى صلاح الدين إلى دار قاضى القضاة كمال الدين (٢) ابن الشهرزورى الموصلى ، فدخلها وجلس إلى صاحبها وفى تلك الجلسة قال قاضى القضاة لصلاح الدين « طب نفسا فالأمر أمرك ، والبلد بلدك » (٣) ومن ثم بعث صلاح الدين قاضى القضاة إلى ريحان الخادم والى القلعة ، يطلب تسليمها إليه ويعلن أنه ما جاء إلى الشام إلا لتربية السلطان الطفل والإنابة عنه فى تدبير دولته ، فأذعن ريحان وسلم القلعة لصلاح الدين بتاريخ نوفمبر سنة ١١٧٤ . وعندئذ أمر صلاح الدين على الفور بانفاق الأموال وتوزيعها فى الناس ، والمناداه بإزالة المكوس وإبطال القبائح والمنكرات والضرائب المستحدثة بعد نور الدين ؛ مما كان له أبعد الأثر فى نفوس الناس ، إذ ارتاحت قلوبهم وطابت نفوسهم ، وسارت حياتهم فى المدينة سيرها الطبيعى المعتاد (٤) وهكذا سلم الدماشقة مدينتهم وقلعتها ومقاليد أمورهم لصلاح الدين عن رضى واختيار ، حقنا للدماء دون أن ينتطح فيها عنزان ، أو يختلف عليه سفيان ، بفضل ابن المقدم . ومن قبل سلم الدماشقة مدينتهم وقلعتها إلى عمه أسد الدين شيركوه ، بفضل نجم الدين أيوب أبى صلاح الدين (٥) .

(١) ابن العماد : شذرات الذهب حـ ٤ ص ٢٣٦ .

(٢) كان القاضى كمال الدين الشهرزورى الحاكم المتحكم فى الأيام النورية بدمشق ، وصلاح الدين يومئذ يتولى الشحنكية بها . وكثيرا ما اعترض القاضى على تصرفات صلاح الدين وأغراضه ، وهو الذى تولى لنور الدين بناء أسوار دمشق ومدارسها وبيمارستانها . ولما فتح صلاح الدين دمشق لم يؤاخذه بجرمه ، بل احترمه وأخذ برأيه وأحكامه . توفى سنة ٥٧٢ هـ . وعندما اشتد به المرض ، وصى صلاح الدين بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين ابن الشهرزورى المتوفى سنة ٥٩٩ هـ فاجابه صلاح الدين الى طلبه ، ورتب ابن أخيه للسفارة بينه وبين الخليفة العباسى ، فيرسل عنه إلى بغداد مرارا وآخر قدومه عن صلاح الدين رسولا فى سنة ٥٨٨ هـ . راجع أبو شامه حـ ١ ص ٢٦٢ — وذيل الروضتين ص ٣٧ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب حـ ٤ ص ٢٤٣ .

(٤) أبو شامة حـ ١ ص ٢٣٦ . Lane Pool: His Hist. p. 199 — Wiet op. cit vol. IV p. 312.

(٥) أنظر الفصل الأول ص ٦ .

وعلم السلطان إسماعيل ووزراؤه بمجيء صلاح الدين إلى دمشق، والتفاف الأمراء والأعيان والناس حوله، وصيرورة البلد إليه من غير قتال وفي صورة سريعة مريبة، فأرسل أحد أمرائه وهو قطب الدين بن حسّان ومعه رسالة إلى صلاح الدين، ورغم ما في الرسالة من وعيد وتهديد، خاطب صلاح الدين الرسول بكلام لطيف رقيق أورده ابن أبي طي ونصه: «اعلم يا هذا أنى وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المتدين» فقال له ابن حسّان «إنك وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما ترومه خرط القتاد وفت الأكباد»(١).

ولم يلتفت صلاح الدين لجوابه، بل تزايد في احتماله وأكثر من إكرامه، وبعث معه إلى السلطان الطفل كتاباً يقول فيه «إنما جئت من مصر خدمة لك، ليؤدى ما يجب من حقوق الرحوم، فلا تسمع ممن حولك، فتفسد أحوالك وتختل أمورك، وما قصدى إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج»(٢). ويتضح من تلك النصوص المعاصرة حرص صلاح الدين على أن يكون قدومه إلى الشام دعوة لجمع كلمة المسلمين تحت لوائه، استعداداً لتنفيذ مشاريعه وخططه العسكرية المستقبلة مع الصليبيين، لا حركة توسعية منفرة للناس.

ومن أجل ذلك استخلف صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طوغتكين على دمشق، ونادى في عساكره الذين ازدادوا عدداً بعد استيلائه على دمشق، بالتأهب والاستعداد لقصد شمال الشام وكانت وجهته مدينة حمص، وأسوارها وقتذاك على قول ابن جبير «في غاية المتانة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديد، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة(٣). ومع هذا فإن صلاح الدين تسلم البلد دون قتال في ٨ ديسمبر سنة ١١٧٤ (١١ جمادى

(١) أنظر أبو شامه: كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٨.
(٢) ابن الجوزى: مرآة الزمان ص ٢٠٧.
(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص ٢٣٧، ٢٥٣، طبعة ليدن.

الأولى سنة ٥٧٠ هـ). أما القلعة فتمنعت عليه وبها والٍ من قبل الأمير التركى فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وهو من أكابر الأمراء النورية.

ولم يرد صلاح الدين تضييع وقته بالانتظار حولها، فوكل بها من يحصرها ويمنع وصول الميرة إليها، ثم رحل صلاح الدين إلى الرستن في طريقه إلى حماة، وصاحبها عز الدين جرديك النورى، عتيق نور الدين والباشر لقتل شاور سنة ٦٨ — ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ)(١)، وبينه وبين صلاح الدين حساب قديم منذ أن عارض في توليه الوزارة الفاطمية سنة ١١٦٩. غير أن جرديك فيما يبدو رأى كما رأى غيره من الأمراء النورية إقبال الدنيا بكليتها على صلاح الدين وانتقال الحظ به من نصر إلى نصر، فأحب أن يتدارك الوقف وأن يكون له نصيب في هذا الاقبال وذاك النصر. ولذلك كله انقلب إلى جانب صلاح الدين. هذا فضلا عن حقده وغيره من الأمراء على كمشتكين لانفراده دونهم بالسلطان الطفل.

وكيفما كان الأمر، فالمعروف أن عز الدين لقى صلاح الدين واجتمع به بالرستن وسلمه مدينة حماه، بينما امتنع عن تسليم القلعة التى كان عليها أخوه حتى يستشير أقطاب الأمر بحلب، فأجابه صلاح الدين إلى اقتراحه، وذهب جرديك إلى حلب مشيراً على كمشتكين وحزبه من الحلبيين مصالحة صلاح الدين، فاتهموه بالمخامرة، وقبضوا عليه وأنزلوه الجب مع أولاد الداية.

وسئم صلاح الدين الانتظار بالرستن، فسار إلى جباب التركمان، وهناك علم باعتقال جرديك فرحل من ساعته عائداً إلى حماه، وطلب من أخى جرديك تسليم قلعتها إليه ففعل؛ وتولاه من قبل صلاح الدين مبارز الدين على بن أبى الفوارس في ٢٠ ديسمبر سنة ١١٧٤(٢). وزحف صلاح الدين إلى مدينة حلب وبدأ حصارها في يناير سنة ١١٧٥ (٢ جمادى الثانى سنة ٥٧٠ هـ) بضرب خيامه على جبل جوشن فوق مشهد الدكة، وامتدت عساكره التى حضر بها من مصر ميمنة وميسرة إلى الحرشاقية وإلى السعدى، ونشرت أعلامه فوق رءوس

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٠.
(٢) ابو شامه ج ١ ص ٢٣٨ — ابن خلدون ج ٥ ص ٢٧٩.

الخيام ، فخاف كمشتكين ومن معه أن يسلم الحلبيون البلد كما فعل أهل دمشق .

وأشار على السلطان اسماعيل أن يجمعهم فى ميدان باب العراق ، فاجتمعوا وخطب السلطان الطفل فيهم قائلا « يا أهل حلب ، أنا ربيبكم ونزيلكم ، واللاجئ إليكم ، كبيركم عندى بمنزلة الأب ، وشابكم عندى بمنزلة الأخ ، وصغيركم عندى يحل محل الولد » وأجهش بالبكاء فتأثر العامة ، وبلغ من تأثرهم أن رموا بعمائمهم ، وضجوا بالبكاء والعويل صائحين « نحن عبيدك وعبيد أبيك ، نقاتل بين يديك ، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك »(١) .

وخرجوا لمقاتلة صلاح الدين عند جبل جوشن ، ومنعوه عن الاقتراب من البلد ، ولكنهم عجزوا عن زحزحته أو حمله على فك الحصار عن المدينة . ومن ثم لجأ كمشتكين إلى أساليب الخيانة والنذالة ، فكتب إلى سنان صاحب الحشيشية فى طلب إرسال من يفتك بصلاح الدين . ويرفع الحصار عن حلب ، وضمن كمشتكين لسنان أموالاً كثيرة ، وضياعاً واسعة تحوى عدة قرى ، ووعده بالسماح للنزارية بإعادة شعائرهم الدينية واستردادهم الكثير من حريتهم فى حلب ، فأنفذ سنان جماعة من الفدائيين تمكنوا من الاختلاط بعسكر صلاح الدين على جبل جوشن ، فعرفهم الأمير ناصح الدين(٢) كمارتشين صاحب بوقبيس ، وقال لهم « ياويلكم كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا المعسكر ومثلى فيه » فخافوا غائلته ووثبوا عليه فقتلوه فى موضعه(٣) . وتقدم أحدهم لاغتيال صلاح الدين فلما صار على باب خيمته اعترضه الأمير طغريل فقتله ، وقتل الباقون من الفدائيين بعد أن قتلوا بعضاً من عسكر صلاح الدين .

ولما تبين عجز الحشاشين عن إنجاد حلب وزحزحة صلاح الدين عنها ، كتب كمشتكين إلى ريموند الثالث(٤) صاحب إمارة طرابلس ، يطلب إليه النجدة على

(١) ابن أبى طى : كتاب الروضتين : ح ١ ص ٢٣٨ — حمزة : أدب الحروب الصليبية ص ٤٤
(٢) Defremery : Nouvelles Recherches sur Les Ismaeliens p. 15.
(٣) ابن أبى طى : الروضتين ح ١ ص ٢٢٩ .
(٤) ريموند الثالث هو الذى أشار إليه ابن الأثير بلقب الصنجيل (ح ١١ ص ٢٧٧) والقريتى بالقمص ، وهو تعريب حرفى للكلمة اللاتينية Comes التى صارت إلى Comte فى =

صلاح الدين ، فسار ريموند إلى حمص ليهدد مؤخرة صلاح الدين ، وعلم صلاح الدين بأمره فأمر برفع الحصار عن حلب فى فبراير (مستهل رجب) أى بعد شهر من نجاته من مؤامرة الحشاشين ، وعاد إلى حمص ليرد عنها الصليبيين ، وهكذا فشل صلاح الدين فى أن ينال غرضه من حلب بعد محاصرتها شهراً . ومهما كان فشله راجعاً إلى ذهابه لصد الصليبيين عن حمص ، أو إلى بلوغه خبر مجئ نجدة موصلية لحلب(١) . فإنه كان من العسير عليه أن يمتلكها بالسيف لحصانتها ومناعتها ، إذ شاهدها ابن جبير سنة ١١٨٥ م سورها الأعلى الذى يمتاز بكثرة « أبراجه المنتظمة ذات الملالى المنيعة والقصاب المشرفة ، تفتحت كلها طيقاناً ، وكل برج منها مسكون »(٢) .

لم يكن تراجع صلاح الدين عن حلب هزيمة مادية بالمعنى الحربى الحديث ، وإنما كان تدبيراً حربياً حصيفاً ، ناتجاً عن خوفه من الوقوع بين المدافعين عن حلب فى الداخل ، وأنصارهم من الصليبيين فى الخارج ، ثم إنه رحل عن حلب وفى نيته فيما يبدو ، أن يقتنع بالجزء الشامى الواقع جنوبى حلب والاتفاق مع السلطان الطفل ودياً على تلك القاعدة .

ووصل صلاح الدين إلى حماة بعد يوم واحد من نزول ريموند الثالث على حمص . وما أن بلغ الرستن وسمع ريموند بزحفه جنوباً حتى رحل عن حمص ، ثم تقدم صلاح الدين إلى حمص ، وحاصر قلعتها التى تمنعت عليه قبلا ، فوكل بها من يحاصرها وظلت تقاوم الحصار من ٨ ديسمبر سنة ١١٧٤ إلى أن ملكها فى ١٧ مارس سنة ١١٧٥ ، ورتب فيها والياً من قبله .

= اللغة الفرنسية (الدكتور زيادة حاشية ص ٥٩ من السلوك ح ١ قسم ١ وانظر Lane Poole His Hist p. 199 والمعروف أن نور الدين أسره على حارم سنة ١١٦٣ وبذل فى نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين إلى أن سعى له الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى حتى باعه نور الدين قبل وفاته بمائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير ، واتفق أن مات ملك بيت المقدس أمورى الثانى ، تاركا ولدا قاصرا أبرصا وتكفل أمره هذا القمص فعظم شأنه وزاد خطره — راجع أبو شامة ح ١ ص ٢٣٩ .

(١) النجوم الزاهرة ح ٦ ص ٢٥ وابن شداد ص ٣٩ .
(٢) ابن جبير ص ٢٢١ .

وفى أثناء مقام صلاح الدين على حمص قصده العماد الكاتب الأصفهانى المؤرخ المشهور ، وكان من رجال الدولة النورية ، فقرره صلاح الدين تلك السنة نائباً فى الكتابة الديوانية عن القاضى الفاضل بسعاية نجم الدين محمد بن مصال(١) . وقال صلاح الدين للعماد الأصفهانى حين قدمه إليه القاضى الفاضل : « أنت كاتبى ووزيرى ، وقد رأيتك على وجهك البركة ، فإذا سلمت غيرك يحدث الناس » . فقال القاضى « هذا يحل التراجم ، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك ، فإذا غبت قام مقامى » ، وقد عرفت العماد وخدمته فى الدولة النورية فاستكتبته »(٢) .

وبذا زادت جماعة صلاح الدين رجلا ذا أفضال كبيرة على المؤرخين والباحثين ، ذلك أن العماد حرص على تسجيل الوقائع الصلاحية فى نثره المسجوع ، كما حرص على تسجيلها فى شعره الكثير .

والمراسل الحربى اليوم الذى يغذى صحف العالم كلها ووكالات الأنباء بالأخبار الحربية ، أشبه ما يكون بالعماد الأصفهانى فى تتبعه عساكر صلاح الدين فى ميادين القتال ، وإحصاء الأسرى والقتلى والجرحى ، وهو « حجة تاريخية » فيما يقول وفيما يكتب .

وبعد أن فرغ صلاح الدين من أمر حمص سار إلى بعلبك ، فاضطرب واليها يمن الخادم وانزعج من اقتراب صلاح الدين ؛ وأرسل إلى حلب على جناح طائر . فلما لم يصله من الحلبيين خبر طلب الأمان من صلاح الدين وسلمه القلعة فى أوائل أبريل سنة ١١٧٥ .

أما الفريق الثانى الذى استنجد به الطفل اسماعيل وكمشتكين أثناء محاصرة صلاح الدين حلب ، وهو سيف الدين غازى صاحب الموصل الذى كان وقتئذ يحارب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار لخلاف بينهما ؛ فقد رأى

(١) السلوك ج١ قسم ١ ص ٦٠ — أبو شامة ج١ ص ٢٥١ — ابن كثير ج ١٢ ص ٢٩١
(٢) ابن واصل ج٢ ص ٢٠٨ وراجع Gibb the AarabicSources of the life of Saladin p. 59

صلاح الدين أن يدخل بين الأخوين ، بأن ينجد عماد الدين على سيف الدين بقطعة من جيشه ، كما أنفذ إليه كتاباً يطمعه فى الملك لكونه أكبر أمراء البيت الزنكى(١) . وأثمرت تلك الحيلة ثمراً سريعاً بدليل رفض عماد الدين — مصانعة لصلاح الدين — أن يشترك فى النجدة الموصلية التى بعثها سيف الدين مع أخيهما الثالث عز الدين مسعود بن زنكى إلى حلب أوائل تلك السنة (سنة ١١٧٥ م)(٢) .

على أن صلاح الدين لم يشأ مقابلة العدوان بمثله إلا بعد أن يبرهن للمحيطين به خاصة والعالم الإسلامى عامة أنه مغلوب على أمره ، أو كما قال المؤرخون قديماً أن صلاح الدين لم يقصد محاربة أحد من المسلمين البتة ، بل أراد توحيد كلمتهم بالتفاهم الودى والاتفاق السياسى أولا ، حتى إذا أخفق فى الاتفاق بالمفاوضة عمد إلى القتال فى غير هوادة . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن صلاح الدين عندما علم بمسير عسكر المواصلة والحلبيين لقصد حماه وهو وقتذاك بحمص ، بعث إليهم فى طلب الصلح ، بشرط أن يسلم لهم حمص وحماه وبعلبك وجميع الحصون التى فتحها ، مقابل اعترافهم بامتلاكه جنوب الشام ، فأبوا عليه ذلك تحت ضغط غازى الطامع أن يخلف نور الدين فى الشام كله والجزيرة كذلك .

ولذا لم يجد صلاح الدين بداً من السير إلى قرون حماه ، وهناك عاود الكتابة إليهم « تلطيفاً للأحوال ، فلم ينجح فيهم حال » على قول ابن أبى طى(٣) . فاستعد للحرب ولقيهم يوم ١٣ ابريل سنة ١١٧٥ (الأحد ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ) ولم يكن قد وصل إليه عسكره من مصر ؛ فتجمع أصحابه كردوساً(٤) واحداً ، وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ، وطمع العدو فيهم لقلتهم ، وكادوا يولون الأدبار لولا وصول العسكر المصرى — وكان قد أرسل إلى مصر لإحضاره — آنئذ .

(١) ابن واصل ص ١٨٢ — الحنبلى : شفاء القلوب ص ٢٣ .
(٢) المرجعان السابقان ونفس الصفحات — الذهبى ج ٢٦ ص ١٩٠ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ٢٥٠ .
(٤) قسم الرومان الفرق الحربية الى كراديس بلا تقييد بالصف ، فجعلوا الفرقة عشرة كراديس ، والكردوس ثلاثة أقسام ، وكل قسم فصيلتان عدد رجاله كل منهما مائة رجل . وهو نظام يخالف نظام الكتائب بأن لا يتقيد الجند بصف واحد أو كتيبة واحدة ، بل يكون عدة كتائب كل كتيبة منه كردوس . زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١١٧ .

فى عشرة من المقدمين ، على رأسهم الأخوان عز الدين فرخشاه وتقى الدين عمر ولدى أخيه شاهنشاه بن أيوب . وبهم استطاع صلاح الدين أن يحمل على العدو ويزيلهم عن مواقفهم ، ويجتاز معسكرهم ، وهم يعدون أمامه صوب حلب ، تاركين غنائم كبيرة وآلة وسلاحاً عظيما ، ودواب كثيرة . ولحق بهم صلاح الدين إلى حلب وحاصرها للمرة الثانية ، واشتد على الحلبيين الحصار وطال ، فراسلوه فى الصلح على أن يكون لصلاح الدين مابيده من بلاد الشام ، مضافاً إليها المعره وكفرطاب ، وبارين ، ولهم مابأيديهم منها ، واشترطوا كذلك أن يكون الدعاء للسلطان الطفل فى جميع منابر البلاد التى تحت يد صلاح الدين وولايته وولاية أصحابه ، وأن تكون السكة باسمه ، وأن ينجد صلاح الدين بنفسه وجيشه السلطان اسماعيل عسكرياً إذا قصده عدو(١) .

فأجابهم صلاح الدين إلى جميع ماطلبوه سياسياً وعسكرياً ، وانتظم الصلح ثم رحل صلاح الدين عن حلب عائداً إلى حماه ، وقد انتصر على الحلبيين والمواصلة انتصاراً كفلت به الأيام ماهو أعظم بعد قليل من السنين .

وبذا تمخضت قرون حماه(٢) (أبريل سنة ١١٧٥ م) عن إنكسار فاضح للمواصلة فى أول امتحان لهم مع صلاح الدين ، ومنها ابتدأ عهد سلطنته واستقلاله من الناحيتين القانونية والعملية ، بدليل ماطرأ على العملة من تغيير تلك السنة .

(١) ابن أبى طى : الروضتين حـ ١ ص ٢٥٠ وانظر النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٢٥ — ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين حـ ٣ ص ٧٠٠ Histiore scient. et milit. V.II p.307 — Stevenson op cit p.9—lane-poole Saladin 140.

(٢) من مميزات التاريخ الحربى الأيوبى أنه دون رسميا فى الرسائل الديوانية المتبادلة بين مصر والحكومات الإسلامية تعبيرا عن عواطفها ، كما دون فى الشعر تعبيرا عن عواطف شعوبها الاسلامية فى هذا الصراع الدينى . وهنأ عماد الدين صلاح الدين يوم انتصاره فى قرون حماه بقصيدة عصماء جاء فيها :

وتحطمت عند القرون قرونهم بل كلت الأنياب والأظفار
عبروا المرة بالسكين مرة والعار يملك تارة ويعار
أو ما كفاهم يوم حمص وكفهم فى تلّيك بمثلها الأنذار

الروضتين حـ ١ ص ٢٤٩ .

إذ المعروف أنه — يوم أن كان وزيراً فاطمياً (١١٦٩ — ١١٧١ م) — سك النقود باسم الخليفة العاضد الفاطمى ، ثم سكها باسم نور الدين لما صار نائباً عنه (١١٧١ — ١١٧٤ م) فى مصر ، فلما احتل دمشق تلك السنة ، سك بها نقوداً نحاسية باسم اسماعيل بالاضافة إلى اسمه ، غير أن سنة ١١٧٥ شهدت النقود الذهبية فى مصر والأسكندرية تحمل اسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب(١) . على حين ظهرت النقود الدمشقية والحلبية من الفضة والنحاس باسمه كذلك(٢) .

وربما كان معنى ذلك أن النقود الذهبية بالشام ظلت باسم اسماعيل إحتراما للاتفاقية الماضية .. ودليل آخر على استقلال صلاح الدين فى صورة عملية على الأقل استقباله رسل الخليفة المستضئ بأمر الله العباسى بحماه ، وذلك عقب عودته من المعركة وكان معهم التشريف الخليفى ، والأعلام السود والتقليد بسلطنة صلاح الدين بلاد مصر والشام وغيرها .

وأفيضت الخلع فى ذلك الاستقبال على أهل صلاح الدين وأقاربه وأصحابه وأعوانه ، وكان يوماً مشهودا(٣) . دلّ على أن رسالته إلى الخليفة العباسى سنة ١١٧٤ م أثمرت ثمراً طيباً وأتت أكلها اليوم(٤) . وأهمية ذلك فى التاريخ الحربى لاتقل عنها فى التاريخ السياسى ، لأن صلاح الدين منذ أن صار سلطاناً بذلك التقليد الخليفى ، رسخ فى ذهنه أنه الوارث الحقيق لنور الدين وجهاده وحروبه فى كل الجهات ، مما يفسر سلسلة الفتوح الصلاحية ، فضلا عن أن هذا التقليد أكسبه مهابة وتقديراً فى نظر أمراء المسلمين بوجه عام والصليبيين بوجه خاص .

ثم خرج صلاح الدين على الفور من حماة صباح تسلمه هذا التقليد قاصداً بارين ، وهى فى يد الأمير التركى مسعود بن الزعفرانى ، الذى كان من أقوى رجال

(١) مضافا اليه عبارة « محيى دولة أمير المؤمنين » التى نقشت على نقوده وعلى آثاره المعمارية وفى كتب التاريخ — انظر Van Berchem : citadellé du Caire p. 83

(٢) حاشية Lane—Poole: His Hist p. 200 وحاشية Cresswell op. cit p.95

(٣) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٦٠ — Wiet op. cit V.4 p. 313—Lamb : the Flame of Islam p. 43.

(٤) راجع ما سبق ص ٥٤ .

الدولة النورية، فنزل ابن الزعفراني عن قلعة بارين، واتصل بصلاح الدين آملاً أن يكون في خدمته وطاعته، وأن يشركه في مملكته كما كان حاله مع نور الدين[1]. غير أن صلاح الدين لم يعره التفاتاً أو اهتماماً، بل ظل على حصار بارين، ونصب عليها المنجنيقات، وأدام قتالها حتى سلمت بالأمان في نهاية مايو (شوال سنة ٥٧٠ هـ).

وهذا التصرف يفسر في وضوح سياسة التعصب العنصري بين الأتراك والأكراد، التي سوف يسير عليها صلاح في مستقبل فتوحاته، حيث دأب على إقرار أهله وأمرائه من الأكراد دون الأتراك في فتوحاته، ضماناً لولائهم له وقت منازلته الصليبيين، فأقطع حماه بعد عودته إليها خاله وصهره شهاب الدين محمود الحارمي، وأقطع حمص لابن عمه ناصر الدين محمود بن أسد الدين شيركوه رعاية لحق والده. وأقطع بعلبك لشمس الدين محمد بن المقدم جزاء ماقدمت يداه[2].

وبعد أن قرر صلاح الدين الصلح مع المواصلة والحلبيين، ونظم إدارته العسكرية فيما آل إليه من المدن والقلاع، غادر حماه إلى حمص فبعلبك، ماراً بسهل البقاع الواقع بين سلسلتي جبال لبنان، قاصداً دمشق حتى نزلها في يونية سنة ١١٧٥ (ذي القعدة سنة ٥٧٠) وأقام صلاح الدين بمرج الصفر أحد المروج الواقعة حول مدينة دمشق[3]، ووافته هناك رسل الصليبيين[4]، بعد شهر من وصوله في طلب مهادنته، إذ أحست أنه لا بد مغير على بلادهم، بعد أن عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام، وبعد أن كسر المواصلة في قرون حماه. وأجاب صلاح الدين الصليبيين

(١) وصف ابن الأثير (حـ ١١ ص ٢٨٠) مشاركة ابن الزعفراني نور الدين في الحكم والسلطان في صورة عملية واضحة.

(٢) ابن خلدون حـ ٥ ص ٢٩٠ — ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٨٠.

(٣) المقريزي السلوك: حـ ١ قسم ١ حاشية ص ٦٠.

(٤) باشر المفاوضات في تلك المهادنة مع صلاح الدين Humphrey of Toron الذي بلغت صداقته بصلاح الدين إلى حد الإعجاب، ولذا منحه لقب فارس على قول لينبول (A. Hist of Egy. p. 200) على حين يرى البعض أن مانح هذا اللقب لصلاح الدين هو Hugues de Tabarie أمير جاليل وأحد الشخصيات الهامة في مملكة بيت المقدس، والذي أسره صلاح الدين في سنة ١١٨٧ ثم أطلق سراحه (راجع Paris : la legénde de Saladin p. 290).

إلى المهادنة، على شروط اشترطها لم تشر إليها المراجع، ولكن يبدو من حوادث سنة ١١٧٧ اللاحقة أنها كانت هدنة قصيرة الأجل[1].

واستهل صلاح الدين العام الهجري الجديد (٥٧١) يوم ٢٢ يوليو سنة ١١٧٥ بعد أن صفى حسابه وأنهى مشاكله مع جميع المسلمين والصليبيين من جيرانه، غير أنها لم تكن تصفية نهائية، بدليل بقائه بدمشق رغم تفويض أمرها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، ورغم إعطائه الأوامر للعساكر المصرية بالعودة إلى مصر، لجدب الشام وللاستراحة في بلادهم واستغلالها إلى أن يعود إلى طلبهم[2]. ولا شك أن إرسال الجيش إلى مصر صحبة القاضي الفاضل، كان عملاً غاية الحزم والتدبير ليحفظ ما استجد من الممالك، خوفاً عليه مما هنالك على قول ابن كثير[3]. ومعناه القيام على شئون مصر في غيبة صلاح الدين. غير أن بقاء صلاح الدين بدمشق في طائفة يسيرة من الجند سبب له متاعب كثيرة، وأطمع فيه أمراء الجزيرة فاستدعى الجيش المصري عام ١١٧٦ م. وتفصيل ذلك أنه لما سمع سيف الدين غازي صاحب الموصل بانتظام الصلح بين صلاح الدين والحلبيين، بعث إلى الشام رسولاً بكتابين: أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهداً للمواصلة، والآخر إلى الحلبيين يحثهم ويلومهم على الصلح، ويحملهم على النكث والنقض، ويخبرهم أنه واصل إليهم بعساكر الشرق. وتوجه الرسول إلى دمشق لتسليم خطاب غازي لصلاح الدين، ولكنه أخطأ فأخرج من كمه كتاب الحلبيين، وناوله صلاح الدين فتأمله، وأطلع على ما اتفق عليه المواصلة والحلبيون، ثم رد النسخة إلى الرسول قائلاً له «لعلك قد تبدلت» فعرف الرسول غلطته، ولم يكن في قدرته أن يتدارك ما فات[4]. وتحقق صلاح الدين من ذلك اليوم أن عهده مع الحلبيين منقوض، وخيانتهم له واضحة، وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الربيع، فكتب

(١) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٨٨ — Wiet op. cit. V 4 p 316

(٢) ابن واصل ص ١٨٦.

(٣) ابن كثير: حـ ١٢ ص ٢٩٠.

(٤) الحنبلي: شفاء القلوب ٣٤، وابن واصل ١٨٦ — Wiet op. cit. V. pp. 313-314.

صلاح الدين إلى أخيه ونائبه بمصر الملك العادل ، يأمره بإرسال العساكر المصرية فوافته بدمشق فى مارس سنة ١١٧٦ (شعبان سنة ٥٧١ هـ) وقيل بحماه فى أبريل .

أما سيف الدين غازى فأخذ فى التأهب للسير إلى حلب ، فصالح أخاه عماد الدين صاحب سنجار ، وضم إلى صفوفه عساكر صاحب حصن كيفا ، وصاحب ماردين ، وصاحب أربل واسمه زين الدين بن مظفر الدين ، وسار بهم جميعا إلى نصيبين ، وخيم على جانب الفرات الشامى حيث وافاه كمشتكين وزير السلطان اسماعيل . وهناك اتفق غازى وكمشتكين على خططهم العسكرية والسياسية إزاء مصر وصلاح الدين . ثم زحف غازى إلى حلب ، فخرج للقائه السلطان الطفل وتعانق الاثنان عناقا طويلا ، وأصعد غازى فرقة موصلية إلى قلعة حلب ، ويظهر أن غازى واسماعيل اتفقا على الدخول فى مفاوضات عسكرية مع إمارة إنطاكية الصليبية ، ولم يعرف تماما ما أسفرت عنه تلك المفاوضات إلا إطلاق سراح من كان بحلب وقتذاك من أسرى الصليبيين ، وعلى الخصوص البرنس إرناط صاحب حصن الكرك ، وحامل لواء العداء السافر للمسلمين — بعد أسر استمر خمسة عشر عاما(١) .

ثم خرج غازى وابن عمه اسماعيل بعساكرهما من حلب إلى تل السلطان ، وهى منزلة بين حلب وحماه (ش ٣٠) . أما صلاح الدين فغادر دمشق بعساكره وبصحبته العماد الكاتب فى نهاية مارس سنة ١١٧٦ (رمضان سنة ٥٧١) ، وعبر نهر العاصى عند شيزر إلى الفسولة ، تجاه حيث ترك أثقاله ، وتقدم إلى جباب التركمان ، وعسكره فى غاية التعب من العطش فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة . وحدث ذلك اليوم ظاهرة فلكية هامة فى التاريخ الحربى ، إذ انكسفت الشمس ضحوة نهار يوم الجمعة ١١ أبريل سنة ١١٧٦ (٢٩ رمضان سنة ٥٧١ هـ) وأظلمت الأرض حتى بقى النهار كأنه ليل مظلم وظهرت النجوم ، وكان ابن الأثير حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر ، مع شيخ له من العلماء يقرأ عليه الحساب ، فلما رأى ذلك خاف خوفا شديدا وتمسك بشيخه ، وتشاءم صلاح الدين من ظهور هذا

(١) أبو شامة ح ١ ص ٢٥٥ و ٢٢٣ — Stevenson op. cit. p. 214

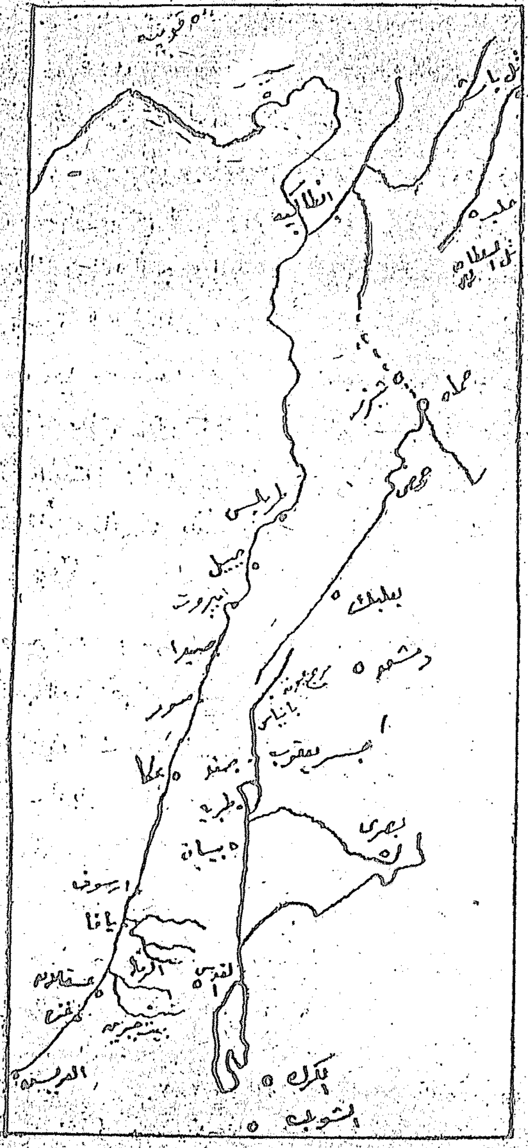

حروب صلاح الدين مع المسلمين والصليبيين
ما بين ١١٧٤ – ١١٨٠ م

(شكل ٣)

الكسوف وتوقف مباشرة عن السير بعد حماه . وانشغل عسكره بإرواء خيولهم لعدم توقعهم مجيء غازى ذلك اليوم الذى لو هجم فيه لانتصر على صلاح الدين ، ولكن انتظار غازى لليوم التالى مهلا بمشورة مقدم عسكره زلفندار ، مكن لصلاح الدين من الصعود إلى تل السلطان بعد زوال الكسوف وصفاء السماء.(١) ثم وصل إلى معسكر صلاح الدين رسول من عند الحلبيين يخوفونه من غازى وجنوده ، ويطلبون إليه الرجوع إلى مصر . ووصف الرسول عسكر صلاح الدين فى ذلك اليوم بقوله « فوافيته وهو فى خيمة صغيرة على بساط لطيف ، وتحته سجاده ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة ، وإلى جانبه زرديته وسيفه، وقوسه ، وتركاشه معلق فى عمود الخيمة . فأديت إليه الرسالة ، وجاء وقت الظهر فضج المسكر بصوت الأذان ، وفى كل خيمة إمام ، فقال لى ألحق بأصحابك وقل لهم استعدوا للقائى ، فإنى عند طلوع الشمس نازل عليهم ، ويحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »(٢) .

ولما أصبح العدو بكرة ٢٢ أبريل سنة ١١٧٦ (١٠ شوال سنة ٥٧١) إصطف الجانبان للقتال ثم التق الجمعان ، وجرى بينهم قتال عظيم انكسرت فيه ميسرة صلاح الدين تحت ضغط ابن زين الدين بن مظفر الدين أمير ميمنة العسكر الموصلى وصاحب أربل . فحمل صلاح الدين بنفسه وبعساكره المصرية التى وصلته أثناء المعركة ، وقد سبق الإشارة إلى طلبه لها من مصر عند ما سمع بحركة غازى ، وحالت كوسات العساكر المصرية وصهيل خيولها جموع الحلبيين . ولم يرو أعلامهم لأن زلفندار جعلها فى وهدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها ، فلما زحزحهم صلاح الدين منها ظنوا أن زلفندار انهزم ، فلم يلبثوا أن دارت الدائرة

(١) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٨٧ — Lane—Poole Saladin p. 143 أشار العماد (الروضتين حـ ١ ص ٢٥٠) إلى حدوث هذا الكسوف فى مايو سنة ١١٧٥ عند عبور صلاح الدين لنهر العاصى وهو فى طريقه من حماه إلى دمشق عقب موقعة قرون حماه . ويؤكد لنبول فى حاشية كتابه Saladin p.143 عدم حدوث كسوف كلى فى هذه السنة ، بينما لوحظ حدوثه فى سوريا يوم ١١ إبريل سنة ١١٧٦ .

(٢) ابن الجوزى مرآة الزمان ٢١١ — الحنبلى شفاء القلوب ٢٤ .

عليهم ولم يلو أخ على أخيه . وقدر العماد عسكر غازى فى وقعة تل السلطان عشرين ألف فارس ، وعسكر صلاح الدين ألف فارس زيدت إلى ستة آلاف بعد وصول العسكر المصرى . أما ابن الأثير الذى وقف على جريدة العرض وترتيب العسكر الموصلى ، لكون أخيه مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد هو الكاتب لها ، فقدره بستة آلاف فارس . وقال أن العماد قصد تعظيم صاحبه صلاح الدين بقوله أنه هزم بستة آلاف مصرى عشرين ألف موصلى ، وكم تكون الموصل وأعمالها حتى تجند عشرين ألفاً(١) . وتصرف صلاح الدين فى مخلفات معركة تل السلطان تصرفاً حكيماً ، دل على استحقاقه لزعامة المسلمين وقيادة جيوشهم فى مستقبل جهادهم مع الصليبيين ، إذ أسر جماعة من أمراء المواصلة المقدمين فنقلهم إلى حماة ، ثم أطلقهم بعد أن خلع عليهم بالخلع ، فذهبوا إلى حلب وقلوبهم تلهج له بالدعاء والشكر والرغبة فى الانطواء تحت لوائه . ونزل صلاح الدين سرادق دهليز غازى فتسلمه بخزائنه ومطابخه واصطبلاته . وفرق ذلك كله على الحضور والشهود دون الاحتفاظ بشىء لنفسه ، مما كان له أبلغ الأثر فى تكوين جبهته الإسلامية ؛ فأعطى خيمة غازى لابن أخيه فرخشاه ، وقيل لأخيه تورنشاه ، أما ما وجد فى الأقفاص من طيور مختلفة ، كالبلابل والقمارى والهزار والببغاء ، وكذلك المغنيات وعددهن مائة مغنية ، فبعث بها مع أحد الندماء إلى غازى بحلب ومعه رسالة شفوية جاء فيها « عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فإنها ألذ من مقاساة الحرب »(٢) .

أما غازى فالتجأ إلى حلب بعد المعركة ووراءه بعض الجند الصلاحية التى طاردته حتى بزاغة ، فأقام بها حتى لحق به من سلم من أصحابه ، ومنها سار إلى الموصل وهو لا يصدق أنه ينجو ، وظن أن صلاح الدين يتعقبه بعبور الفرات ، وأنه لا بد محاصر الموصل نفسها ، وترك غازى أخاه عز الدين بحلب مع عسكرها

(١) أبو شامة : حـ ١ ص ٢٥٥ — ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٨٣ و ٢٨٤ — ابن واصل ص ١٨٦ Stevenson. op. cit p. 212

(٢) أبو شامة : حـ ١ ص ٢٥٥ — Lane Poole Saladin p. 144 ابن كثير : حـ ١٢ ص ٢٩٢ — ابن العديم : منتخبات فى تاريخ حلب حـ ٣ ص ٧٠٠ من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين .

يتلاومون على نقض الأيمان والعهود ، ويتوجسون خيفة من قصد صلاح الدين لهم ، ومن ثم أخذوا يغلقون أبواب المدينة ومداخلها استعداداً للحصار ، ولحق بهم صلاح الدين وخيم على حلب أياماً ، يبدو بعدها أنه أحس بصعوبة إدراكها لمناعتها ، فرأى من المصلحة الحربية أن يقصد ما حولها من الحصون والقلاع ، ويقطع كل مدد خارجي يصل إليها حتى تضعف ويهون أمرها . ولذا تحول صلاح الدين إلى بزاعة ، الواقعة بين حلب ومنبج وتسلمها ، ثم سار إلى منبج وبها صاحبها الأمير النورى القديم قطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، المعروف بصلفه وكبريائه وشدة عداوته لصلاح الدين ، فتسلم صلاح الدين المدينة وتحصن ابن حسان بالقلعة ، بعد أن جمع إليها الرجال والسلاح والذخائر ، غير أن صلاح الدين لم يمهل ذلك الأمير بل زحف إلى القلعة وضيق عليه ، ووصل النقابون إلى السور فنقبوه وملكوا القلعة عنوة فى منتصف مايو سنة ١١٧٦ . وغنم العسكر المصرى كل ما فيها وأسر صاحبها ، ثم أطلقه ليلحق صاحبه غازى بالموصل ، حيث أقطعه مدينة الرقة ، وظل بها حتى أخذها منه صلاح الدين فى سنة ١١٨٢ (٥٥٧٨)(١) . ومن طريف ما يؤرخ عن حصن منبج ، أن صلاح الدين لما صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره البالغة ثلثمائة ألف دينار ، عدا الفضة والآنية الذهبية والأسلحة وينامز ثمنها ألفى ألف دينار ، حانت منه التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً « يوسف » فسأل عن هذا الإسم ، فقيل له ولد يحبه ابن حسان ويؤثره إسمه « يوسف » كان يدخر هذه الأموال له ، فقال صلاح الدين « أنا يوسف وقد أخذت ما خبىء لى »(٢) . وتعجب الحاضرون من تلك المصادفة .

ولما أيقن الحلبيون انهيار خط دفاعهم الأول عن حلب ، أثر سقوط بزاعة ومنبج فى يد صلاح الدين ، ورأوا فى سيره إلى عزاز تمهيداً لأخذ حلب ، عادوا إلى مكاتبة سنان صاحب الحشيشية ثانية لإنفاذ من يفتك بصلاح الدين وهو على حصار عزاز ، ولبى سنان دعوتهم وسلك هذه المرة مسلكاً أكثر حيطة مما

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٨٤ .
(٢) ابن أبى طى : كتاب الروضتين : ج ١ ص ٢٥٧ .

سلكه فى محاولته الأولى ، إذ أرسل بعض فداويته فى زى الأجناد ، فاندسوا بين صفوف العساكر المصرية وهم على حصار عزاز ، علهم يجدون فرصة ينتهزونها للانقضاض على صلاح الدين فى فرصة مواتية ، وحانت لهم تلك الفرصة فعلا ليلة الأحد ٢٢ مايو سنة ١١٧٦ (١١ ذى القعدة سنة ٥٧١) بعد أسبوع من حصار عزاز ، إذ تسلل أربعة من الفداوية إلى حيث صلاح الدين وهو جالس إلى كبار قادته ، بخيمة الأمير جاولى الأسدى التى اعتاد صلاح الدين أن يحضر إليها يومياً لتدبير العمليات الحربية والآلات ، وترتيب المهمات . وضربه الفداوى الأول ضربه بسكين مسددة إلى رأسه ، فلم تصل إليها بسبب مغفرة(١) الزرد ، غير أن السكين جرحت خده . وجرى الدم على وجهه ، وقيل أنها جرحت فخذه(٢) ، ثم هجم الفداوى الثانى على صلاح الدين ، فأمسك الأمير سيف الدين يازكش سكين الفداوى بيده اليسرى فيما يبدو . ولم يطلقها حتى قتله بيده اليمنى . وفى وسط الهرج الذى أحدثته هذه المحاولة الثانية ، قفز الفداوى الثالث نحو صلاح الدين فاعترضه الأمير داوود بن منكلان الكردى ، وما زال الأمير يصارع الفداوى ، والفداوى يصارعه حتى ماتا معاً . أما الفداوى الرابع فطعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه وقتله . وهكذا نجا صلاح الدين بمعجزة من تلك المؤامرة الأربعية ، وركب إلى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته ، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب ، ثم اعتبر جنده فمن أنكره أبعده ، ومن عرفه أقره على خدمته . واحتجب صلاح الدين عن العسكر وخاف الناس عليه ، مما ألجأه إلى الركوب والظهور ليشاهده العساكر وتطمئن نفوسهم عليه(٣) . وراجت على ما يبدوا إشاعات فى

(١) المغفر والمغفرة زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة وقيل فوقه (نفح الطيب ج ٢ ذيل الروضتين ص ٧٠) والبيضة آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيها ما يرسل على القفا والأذن ، وربما تصنع من زرد كذلك ، والفرق بينها وبين المغفر أن فى الأخير أطرافاً تمسه وله البيضة ، وقيل حلق يجعلها الرجل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقيه على قفا اللابس وأذنيه وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً (...) القلقشندى ج ٢ ص ١٣٤) والبيض مى الخوذ على قول أبى العباس البونى (مخطوط التدبيرات السلطانية فى الصناعة الحربية ص ١١) .
(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣٨ — ابن مخرمة ص ٧٥٩ وراجع Casanova : notice sur une coupe arabe p. 328
(٣) العينى : ج ٢١ قسم ٣ ص ٥٧٨ — الذهبى ج ٣٦ ص ٢٠٠ — Defrémery op. cit. p. 16

مصر بقتله ، فكتب على الفور إلى أخيه ونائبه في مصر الملك العادل يطمئنه على سلامته ، ويأمره بمعاملة مروجي تلك الإشاعات بالحزم والشدة ، حتى لا تتاح الفرصة للاسماعيلية في مصر للقيام بثورة ، وآية ذلك ما جاء في كتابه إلى العادل :

« السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم يناله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها واندملت لساعتها ، والركوب على رسمه والحصار لعزاز على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ، ولا ما يشغل سراً »[١] . وشد ذلك الحادث أزر صلاح الدين ، وزاده عنفاً في محاصرة عزاز ، كما ألهب همة المحاصرين في موالاة ضربها بمنجانيقاتهم ونقوبهم ، وقتالها قتالا مراً حتى عجزت عن مقاومة الحصار فطلبت الأمان ، وتسلمها صلاح الدين ثاني يوم عيد الأضحى المبارك ٢١ يونية سنة ١١٧٦ (١١ ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ) بعد حصار ثمانية وثلاثين يوماً (١٤ مايو — ٢٢ يونية) أو أربعين يوماً على قول ابن خلدون . وصعد صلاح الدين إلى قلعتها بعد تسليمها ، وأصلح ما تهدم منها ثم أقطعها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر[٢] . أما أهمية عزاز من الناحية الاستراتيجية ، فهي أنها تستطيع أن تكون قاعدة لتجمع الجيوش المتحالفة من عسكر حلب وصليبي انطاكية[٣] . فلما أصر صلاح الدين في الاستيلاء عليها « قطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز » على قول العماد[٤] .

ولما فرغ صلاح الدين من عزاز قصد حلب ليعاقبها على خيانتها ومكاتبتها سنان ، فنزل عليها وحاصرها للمرة الثالثة في ٢٥ يونيه ، وضرب خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن ، وجبى أموالها وأقطع ضياعها ، وضيق على أهلها من غير قتال ، بأن منع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد . وتعصب

(١) أبو شامة : جـ ١ ص ٢٥٨ .

(٢) راجع ابن خلدون : جـ ٥ ص ٢٩١ — ابن شداد ص ٤١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧ .

(٣) Lane Poole - Saladin p. 211

(٤) أبو شامة : جـ ١ ص ٢٥٧ .

أهل البلد السلطان الطفل ، أو إعصوصبوا على قول ابن خلدون . واستماتوا في المدافعة حتى إذا تقدم صلاح الدين للقتال خسر عدداً كبيراً من أصحابه قتلا وجرحا ، وتكرر خروج الحلبيين لقاتلته ظاهر البلد ومنعه من الاقتراب منها . لذلك ترك صلاح الدين القتال وأخلد للمطاولة حتى دخل العام الهجري الجديد (سنة ٥٧٢ هـ) وهو لها محاصر ، ثم ترددت الرسل بينه وبينهم في الصلح بعد فوات شهر من حصارها . واشترط صلاح الدين امتلاك حماه وما فتحه جنوبها حتى مصر ، وأن يطلق السلطان الطفل أولاد الداية ، ويمتلك مدينة حلب وحدها — وهي أقل بكثير من أمارة حلب الحمدانية — وبذا يقنع بإنقاذ مملكته المرة الثانية . وانتظم في هذا الصلح صاحب الموصل وكيفا وصاحب ماردين ، وتحالفوا على أن يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر . وبعد تمام الصلح (٣١ يوليو) عول اسماعيل على مراسلة صلاح الدين ، فبعث أخته الصغيرة الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل باكية له ، مستوهبة قلعة عزاز فوهبها لها ، وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا[١] .

وهكذا تم استيلاء صلاح الدين على أملاك نور الدين ، على أن تأسيس صلاح الدين لنفسه لم يقتصر تلك السنة على أعماله هذه بالشام ، إذ توجه أخوه شمس الدولة تورانشاه من اليمن إلى حضرموت سنة ٧٥ / ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) ففتحها ، واستناب عنه بها الأمير هارون الكردي ولما استقامت أمور اليمن وحضرموت لتورانشاه على هذه الصورة ، كره المقام بها لجدبها ، ولاشتياقه إلى أخيه صلاح الدين ، وإلى رؤية أقاربه واخوته ملوك الشام ؛ فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقيل منها ، ويسأله الإذن له في العودة إلى بلاد الشام الكثيرة الخيرات ، شاكيا حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج إليها ، فأرسل إليه صلاح الدين يرغبه في الإقامة ، وأن اليمن مملكة كبيرة كثيرة الأموال ، فقال تورانشاه الرسول « ليت شعري ماذا أصنع بهذه الأموال ، إذا لم أنتفع بها

(١) ابن واصل ١٩٠ — العيني جـ ٢١٠ قسم ٣ ص ٥٥٢ — بن العديم منتخبات في تاريخ حلب جـ ٣ ص ٧٠٠ من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين وابن كثير جـ ١٢ ص ٢٩٥ و Wiet : V. IV p. 311

فى ملاذى وشهواتى ، فإن المال لا يؤكل بعينه ، بل الفائدة فيه أن يتوصل الإنسان إلى بلوغ أغراضه »[١]. وعاد الرسول إلى صلاح الدين وأخبره بما جرى ، فأذن لأخيه فى المجىء . ولذلك استخلف تورانشاه على مدينة زبيد وأعمالها وجميع تهامه سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ ، وهو أحد أقارباء أسامه بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار ، وعلى عدن وأعمالها عثمان بن على الزنجيلى أو الزنجارى ، وعلى تعز وأعمالها مملوكه ياقوت التعزى ، وجعل إليه أمر الجند ، وعلى قلعة التعكر وذى جله ، ومخلاف مملوكه مظفر الدين جعفر بن قايماز[٢] . ووصل تورانشاه إلى الشام قبيل وقعة المواصلة وكسرتهم بتل السلطان ، وإليه يرجع فضل الظفر عليهم ، وقيل أنه وصل بعد الصلح والسلطان بحماه فى أغسطس سنه ١١٧٦ .

على أن امتلاك تورانشاه بلاد اليمن حفز ابن أخيه تقى الدين عمر على التوغل فى بلاد المغرب ، علّه يرتاد مكانا صالحا للاستعمار والاستغلال ، وعهد عمر بذلك العمل إلى مملوكه قراقوش التقوى ، الذى رافقه منذ البدء فى مشروع برقه[٣] . فسار حتى نزل على قلعة أزبيرى وهى فم درب المغرب ، وشرع فى عمارتها لاتخاذها قاعدة لعمليات حربية أخرى فى قلب الصحراء الكبرى . ثم اصطحبه جماعة من أدلاء المغاربه العالمين بدروب الصحراء إلى اقليم الجريد وفزان ، حتى أشرف على مدينة أوجله الواقعة جنوبى برقة ، وهناك لقيه صاحبها وأكرمه وأعطاه عشرين ألف دينار ، ففرق قراقوش منها فى أصحابه عشرة آلاف دينار واحتفظ بالبقية لنفسه ، ثم سار قراقوش من أوجله إلى الأزراقية فامتلكها ، وبلغه وهو هناك موت صاحب أوجله فعاد إليها ، غير أنه لم يجد من أهلها قبولا بعد موت صاحبها الموالى له ، فضرب عليها حصارا وما زال حتى أخذها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل ، وغنم منها غنائم كثيرة وعاد قراقوش بعد ذلك إلى مصر لشده اشتياق جنده إليها[٤] . وبينما تلك الحوادث كلها تأخذ مجراها بالشام واليمن وافريقية ، بعثت حملة صقلية الشواطىء

(١) ابن خلكان : حـ ١ ص ٢٧٥ — ابن أبى طى : كتاب الروضتين حـ ١ ص ٢٦٠ ، ٢٦١
(٢) ابن حاتم : السمط الغالى الثمن فى أخبار ملوك الغز باليمن ، مخطوط ، ص ٦ .
(٣) راجع ما سبق فى الفصل الأول ص ٤١ وما بعدها عن حملتى اليمن وبلاد المغرب .
(٤) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٦٠ — أبو شامة حـ ١ ص ٢٦٠ .

المصرية فى أسطول من أربعين مركبا سنة ٥٧/١١٧٦ م (سنة ٥٧١ هـ) وألقت الحملة الحصار على تانيس يومين ، ثم أقلعت لشدة مقاومة الحامية المصرية لها[١] .

أما صلاح الدين فلم يشأ العودة إلى مصر بسبب تلك الحملة أو غيرها من الحوادث دون أن يصفى حسابه مع الحشاشين ، وهو حساب قديم سببه العداء القائم بين التشيع والسنية ، ويرجع إلى سنة ١١٧٣ م (سنة ٥٦٩ هـ) عندما اتخذ صورة الحرب الدينية المذهبية ، وكاتب المخلصون للدولة الفاطمية بمصر سنانا يستدعون أحد رجاله لاغتيال صلاح الدين بحجة « أن الدعوة واحدة والكلمة جامعة ، وأن ما بين أهلها خلاف ، إلا فيما لا تفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة ، واستدعوا منه من يتمم على الملوك غيله ، أو يبيت له مكيدة وحيلة »[٢] .

ومن المعروف أن الأسماعيليين لم يستجيبوا إلى تلك الدعوة وقتذاك ، وأن صلاح الدين قضى على الحركة الفاطمية وهى فى المهد بشنق المتآمرين ، غير أن ذلك لم يمنع سنانا من افتراص أول فرصة لقتل صلاح الدين بعد أن صار على مقربة منهم بالشام ، ولكنه لم يكن موفقا فى المحاولتين السابقتى الذكر ، وأراد صلاح الدين أن يضع حداً لأولئك السفاكين ، الذين وضح خطرهم فى الشام منذ اتخذوا لإقامتهم الإقليم الجبلى الممتد على طول الساحل بين اللاذقية وطرابلس ، والمعروف بجبل لبنان ، وهو الحد الطبيعى بين بلاد المسلمين والصليبيين[٣] . إذ أقاموا فى صفحة ذلك الإقليم الجبلى عدداً من القلاع والحصون المنيعة مثل : مصياف ، والقدموس ، والكهف ، والخوابى ، والمليقه ، والقليعة ، والرصافى ، والمينقه[٤] . لذلك كله اخترق صلاح الدين سنة ١١٧٦ م وادى حماه الطويل إلى الغرب من شيزر حتى

(١) الخطط المقريزية : حـ ١ ص ٢٩١ .
(٢) عمارة : النكت العصرية حـ ٢ ص ٤٩٥ — ابن واصل ١٤٨ Casanova : Notice Sur une Coupe Arabe p. 327- Lamb - The Flame of Islam p. 44
(٣) ابن جبير ص ٢٥٦ طبعة ليدن .
(٤) السلوك حـ ١ قسم ٣ ص ٩٧٦ — ومناقب الولى راشد الدين : لأبى فراس المينقى ص ١٣٢ و ١٣٣ و ١٥١ و ١٦١ وهو منشور فى كتاب : Defrémery op. cit T 3 p 420 وراجع : Guyard: Un grand maitre des assassins وراجع تفاصيل استيلاء الاسماعيلية على تلك القلاع فى رسالة الدكتور طه شرف الخطية « الدعوة الاسماعيلية الجديدة » حـ ٢ ص ١٤ و ١٤٢١ .

صار فى بلاد الاسماعيلية ، وساق أبقارهم ، ونهب ديارهم ، وأحرق حقولهم ، ولم يزل كذلك حتى وصل جبل مصياف الشامخ ، وبه قلعة مصياف المنيعة ، وهى مقر سنان شيخ الاسماعيلية .

وكانت تلك القلعة منيعة بموقعها فى أعلى الجبل ، وزادها مناعة أنها قائمة على صخر جوانبه عمودية يصعب تسلقها ، وأن جبل مصياف محوط بالمستنقعات من كل ناحية . وعلى مسافة من الجبل تقع بلدة مصياف التى يسكنها الفلاحون المشتغلون بزراعة الحنطة والشعير ؛ والقلعة حمراء اللون ؛ محوطة بسور سميك ارتفاعه ستون قدماً ، ليس له إلا باب واحد ، سقفه عقدمتين فإذا دخل الرجل منه صار فى ممر كله معقود ، يصل من الداخل إلى قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف ، وكلها مبنية من الحجر الصلد ، وعلى السور أبراج متلاصقة تقيم بها الحامية ، ترمى المهاجمين عليها بالسهام أو الحجارة قبل وصولهم إلى الباب لمسافة بعيدة ، بحيث يستحيل أخذها بالهجوم إلا بعد قتل المئات والألوف[١] .

ولهذه الأسباب اختص صلاح الدين مصياف[٢] بالحصار ، فحاصرها يوم أول أغسطس سنة ١١٧٦ م (٢٠ محرم سنة ٥٧٢ هـ) ونصب عليها المجانيق والعرادات ، وضيق الخناق على من بها .

ورغم كثرة آلاته وتوالى ضرباتها مدة أسبوع كامل ، لم يحدث صلاح الدين فى القلعة أثراً ، ولم تتغير مجريات الحياة اليومية فيها . ولم يظهر أى ضعف أو وهن فى صفوف الاسماعيلية . غير أن ما يستوجب الالتفات فى حصار مصياف هو تبادل الرسائل بين صلاح وسنان ، إذ يذكر أحد مؤرخى الشيعة أن صلاح الدين أرسل إلى سنان رسالة وصلته وهو وقتذاك بقرية المنبة ، من معاملة القدموس مع زميلين من أشياعه . فأخبر سنان حامل الرسالة بأنه إذا لم يحضر صلاح الدين إليه فإنه سينزل فى الغد إلى صلاح الدين ولم يفتح الرسالة ليقرأ ما فيها .

---

(١) صلاح الدين لجورجى زيدان ص ١٤٠ — Defrémery op. cit. T. 3 p. 418
Lamb The Flame of Islam p. p. 44,45

(٢) جعل ابن خلدون (جـ ٥ ص ٢٩٩) هذا الحصار لقلعة باميان ، على حين أجمع المؤرخون على مصياف وهو الأصح .

ولما عاد الرسول وأخبر صلاح الدين بذلك قال « إنى لا أغتر بذلك ، ولا أسمح بدخول جيشى بين هذه الجبال الشامخة »[١] . ولذلك نزل سنان فى الغد من القرية ، وجلس على قمة الجبل الذى يشرف على مصياف مع رفيقين من رفقائه ، مراقباً العمليات الحربية الجارية فى مصياف من جانب المدافعين والمهاجمين .

وحاول صلاح الدين أن يصل إلى غرضه من سنان ، فضرب على الجبل حلقة من الحصار ، قوامها نحو خمسين أو ستين فارساً من الأمراء وأكابر الدولة والأعيان والخواص ، وأمرهم بالقبض على سنان وزميليه ، ولكنهم فشلوا .

وداخل صلاح الدين الشك وقتذاك ، فى وجود جماعة من الحشاشين بين رجاله وخواصه ، يخبرون سناناً بكل ما هو جار فى معسكره ، فأمر بطرح الجير والرماد حول دهليزه ، ورتب فى كل بدل من الليل ألفى فارس يحرسونه[٢] .

ثم رد سنان على صلاح الدين رداً حاسماً ، دل على قدرته وجرأته ، إذ نزل ليلاً من الجبل وبين يديه فانوس يضىء إلى أن دخل خيمة صلاح الدين ووصل إلى مخدعه ، وحول النور الذى عند رأسه إلى رجليه ، والنور الذى عند رجليه إلى عند رأسه ، ووضع قريباً منه جرادق سخنة من خبز الاسماعيلية كانت معروفة فى ذلك الزمان ، وشك فى الجرادق سكيناً من سكاكين الفداوية مغموسة فى السم إلى نصفها ، ثم وضع فوق الخبز ورقة فيها بيتان من الشعر[٣] ، بخط سنان نفسه معناهما « ما تملكه ، سوف يؤول إلينا فى النهاية ، واعرف أنك فى قبضة يدنا ، وسنحتفظ بك حتى نحاسبك حساباً عسيراً »[٤] . وعندما استيقظ صلاح الدين أخذته الدهشة والحيرة ، لتغيير معالم الحجرة على هذا النحو السابق الذكر ، ولاحظ وجود أثر أقدام إنسان فى الجير والرماد ، خارجاً فقط ولا أثر لدخوله . وعم الذعر والخوف جميع المسكر ، وأقسم الحراس أنهم ما ناموا ليلتهم ، ولا رأوا أحداً ،

---

(١) أبو فراس : كتاب مناقب الولى راشد الدين ، نشر Guyard p. 137

(٢) I bid : p. 139. وانظر طه شرف ص ١٩٦ وما به من المراجع .

(٣) أما وجلال الله ما تملكونها ... مراغمة ما دام ذا النصر قايم
نخبركم أنا قدرنا عليكم ... نؤخركم حتى تقيم القيايم — أبو فراس ص ١٣٩ نشر guyard

(٤) Lamb : The Flame of Islam p. 45

وارتاب السلطان فى أقرب الناس إليه . وسرعان ما تبدد ريبه عند ما وصلته رسالة أخرى من داخل القلعة فى رأس سهم ونصها . « اعرف أننا نعدو وتروح كسابق عهدنا ، ولا توجد أية وسيلة تعوقنا »[1] . وعاود صلاح الدين المكاتبة إلى سنان ، يهدده ويخوفه ولكن دون جدوى ، بدليل ما قاله سنان لرسول صلاح الدين « أدعوك لترى جندى » ثم دعا عشرة من صبيان القاعة ، وكان على حصنه المنيف ثم استخرج سكيناً وألقاها إلى الخندق ، وقال لهم « من أراد هذه فليلق نفسة خلفها »[2] ، فتبادروا جميعاً وثباً خلفها ، وتقطعوا لساعتهم مما يؤكد قول ابن جبير عن سنان ورجاله . « يأمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل ، فيتردى ويستعجل فى مرضاته الردى »[3] .

وأنبأ الرسول عند عودته صلاح الدين بما شهده ، فأكثر من الاحتراز والاحتراس ، وآثر عسكره المحافظة على حياته عن الاهتمام بضرب القلعة ، ولا سيما حين أشيع أن صلاح الدين سيقتل فى مدى أسبوع ، إذا لم يرفع الحصار عن مصياف ، وأيد الإشاعة مغادرة سنان لقلعة مصياف ليلا على ضوء شرر أزرق أضىء منها ، وعلى مشهد من العسكر المصرى ، ثم اختفى بسرعة البرق وراء تلال القلعة ، كما أيدها كذلك الرسالة التى بعثها سنان إلى شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين وصاحب حماة ، يسأله بحكم الجوار أن يقنع صلاح الدين بالجلاء ويهدده بقوله « إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين »[4] . وأوقف شهاب الدين ابن اخته على مضمون الرسالة ، قائلا له « أخاف على نفسى »[5] . فأجابه صلاح الدين إلى وساطته ، وصالح سنان بعد أسبوع من حصار مصياف . ويرى البعض أن صلاح الدين هو الذى طلب الصلح لاسنان ، استناداً على ما ورد

(١) I bid : p. 45

(٢) الذهبى ح ٣٦ ص ١٧٣ و ١٧٩ .

(٣) ابن جبير ص ٢٥٦ طبعة ليدن .

(٤) ابن الأثير ح ١١ ص ٢٨٩ — العينى ح ٢١ قسم ٣ ص ٥٩١ — ابن واصل ص ١٩٢ Defrémery op. cit. T. 4 p.20

(٥) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٢١٢ .

عن ابن الأثير من أن عسكر صلاح الدين ملوا الحرب ، ورغبوا المودة إلى أوطانهم للاستراحة ، بعد أن امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ونهب بلاد الاسماعيلية . وأحس صلاح الدين تلك الرغبة من عسكره فأسرع إلى طلب المصالحة[1] . تاركا لسنان الزردخانة[2] على حالها فى مكانها ، وجميع الآلات على اختلاف أصنافها من الطوارق والجنويات والجرخ والزرديات ، وغير ذلك مما وزعه سنان على قلاع الدعوة ، جاعلا لكل قلعة منها سهماً يخصها[3] .

ولم يشر أحد من المؤرخين السنيين إشارة واحدة إلى هذه النهاية البالغ فيها — فيما يبدو — من جانب زملائهم الشيعيين المتطرفين . على أن الراجح فى مصالحة صلاح الدين لسنان ، هو ما ذكره ابن أبى طى من خوف[4] صلاح الدين من الصليبيين أن يستغلوا غيبته واشتغاله بحصار مصياف فيغيرون على الشام الأعلى ، وقد وصلته الأخبار أثناء حصاره مصياف بحدوث ذلك فعلا ، إذ أغاروا على جبهة البقاع الواقعة بين دمشق وبعلبك ، وخرج إليهم الأمير محمد بن المقدم من بعلبك ، وأوقع بهم وقتل وأسر أكثر من مائتى أسير ، أحضرهم إلى صلاح الدين وهو على حصار مصياف ؛ على حين خرج إليهم تورانشاه من دمشق ، وشتت الباقين منهم وساقهم إلى بلادهم ، بعد أن أسروا عدة من أصحابه ، منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار من أعيان الجند الدمشقيين ؛ ثم سار تورانشاه شمالا إلى حماه ، حيث اجتمع بأخيه صلاح الدين عقب عودته من بلاد الاسماعيلية[5] . وكيفما كان الأمر ، تعلم صلاح الدين درساً عملياً قاسياً من دروس محاصرة الحصون والقلاع وهو على حصار مصياف ، وسوف يتضح أثره فى مستقبل أيامه ، ثم أنه غدا صديقاً لسنان من هذا التاريخ ، بل صار سنان له

(١) ابن الأثير ح ١١ ص ٢٧٨ .

(٢) زَرْدَخَانَاه : ومعناها خزانة الأسلحة ، وقد تجىء بمعنى « معتقل » مخصص لطبقة معينة من الناس ، يقيمون فيه لمدة قصيرة وهو ممتاز عن السجن العادى (Dozy Part I p. 585)

(٣) ابو فراس ص ٤٤١ نشر guyard .

(٤) المعروف أن والد ابن أبى طى من رءوس الشيعة ، ولم يذهب ما ذهب اليه متطرفوا الشيعة من الإشارة إلى تلك النهاية العسكرية الخاصة بحصار صلاح الدين لمصياف : أنظر أبو شامه : ح ١ ص ١٧٤ .

(٥) العينى ح ٢١ قسم ٣ ص ٥٩١ — أبو شامة : ح ١ ص ٢٦٢ .

عونا فى حربه ضد رجال الحملة الصليبية الثالثة ، وبلغ من توطد الصداقة بين صلاح الدين والاسماعيلية ، أنه عامل بلادهم فى صلح الرملة معاملة بلاده ، كيلا تتعرض لضغط الصليبيين ، فاشترط دخول بلاد الاسماعيلية فى الهدنة[1].

وأخيراً غادر صلاح الدين حماه قاصداً دمشق فوصلها يوم ٢٦ أغسطس ١١٧٦م (١٦ صفر ٥٧٢) . وزعم أحد شعراء الصليبيين المعاصرين أن صلاح الدين تزوج الخاتون عصمة الدين أم السلطان اسماعيل وأرملة نور الدين حوالى ذلك الوقت ، وأنه كان بينه وبينها علاقة غرامية منذ كان شابا فى البلاط النورى ، وأنها هى التى مهدت له سبيل الحصول على السلطنة ، بأن سهلت له وضع السم لنور الدين فى الطعام ، وأن صلاح الدين فعل مثل ذلك مع اسماعيل بعد الزواج من الخاتون عصمة الدين[2] . وهو زعم باطل لا يقومه سند تاريخى ، على الرغم من اضطراب المصادر العربية فى موضوع زواج صلاح الدين من الخاتون عصمة الدين . إذ بينما يقر العماد ومن أخذ عنه وقوع هذا الزواج بقلعة دمشق ، بحضوره وحضور القاضى شرف الدين ابن عصرون ، والأمير سعد الدين مسعود ابن أنر أخى الخاتون لأبيها يوم ٨ سبتمبر سنة ١١٧٦ (آخر صفر سنة ٥٧٢) ، كما يقرر أن صلاح الدين عاشرها معاشرة الأزواج ، ليلتين اثنتين فقط قبل خروجه إلى مصر بيومين ، وذلك حفظاً لحرمتها وصيانتها[3] ، يقرر ابن شداد ومن نقل عنه زواج عز الدين مسعود صاحب الموصل بها عقب وفاة ابنها اسماعيل سنة ١١٨٠م (٥٧٧)[4] . غير أن الرجح استنتاجا من تلك النصوص المعاصرة ، أن عصمة الدين خاتون آثرت الإقامة فى منزلها بقلعة دمشق ، غداة وفاة زوجها نور الدين على مرافقة نجلها الطفل إلى حلب ، وأنها مالت إلى تأييد الحزب الدمشقى القائل بوحدة مصر وسوريا ضد الخطر الصليبى ، وأنها تزوجت من صلاح الدين على قول

(١) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٤٩ .

(٢) Paris : La Legende de Saladin-p. 285

(٣) ابو شامة ج ١ ص ٢٦٣ — ابن خلكان ج ١ ص ٤٠٠ — الذهبى ج ٢٦ ص ٦٢ .

(٤) ابن شداد ص ٤٤ وابن كثير ج ١٢ ص ٣٠٩ .

العماد ، ولا غرابة فى ذلك فهى إبنة معين الدين أنر ، أحد أصحاب الفكرة القائلة بوجوب تكوين جبهة إسلامية لجهاد الصليبيين ، وقد برهن صلاح الدين على صلاحيته للقيام على ذلك الدور بعد نور الدين . ومما يرجح ذلك الزواج أن صلاح الدين زوج اخته ربيعة خاتون بنت أيوب ، بأخى عصمة الدين خاتون وهو سعد الدين ابن أنر ، يوم أن عقد هو قرانه بعصمة الدين خاتون[1] . وقد يكون صاحب تلك الفكرة والممهد لها بفرعيها ابن المقدم والعماد ، لكونهما من رجال الدولتين النورية والصلاحية المعاصرين لتلك الحوادث .

وأخيراً عزم صلاح الدين السفر إلى مصر ، ففوض أمور الشام إلى أخيه تورانشاه ، وقضاءها إلى شرف الدين بن أبى عصرون ، ثم ودعه الدماشقة صباح الجمعة ١٠ سبتمبر (٤ ربيع الأول) ونزل بمرج الصفر ، واتخذ طريقه على الفقيع ، والقوار ، والزرقاء ، والشوبك وأيله ، وصدر حيث تلقاه أخوه ونائبه الملك العادل . وتقدم صلاح الدين بعد ذلك عن طريق عين موسى ، ثم عبر جسر القلزم ، ونزل بركة الجب ودخل القاهرة يوم ٣ أكتوبر سنة ١١٧٦ (السبت ١٦ ربيع الأول و ٥٧٢)[2] سلطانا مستقلا ، بعد أن غادرها نائباً تابعاً للسلطان الطفل اسماعيل منذ سنتين وشهر[3] ، وفى هذه المدة القصيرة قضى صلاح الدين على كثير من عوامل الانحلال والتفكك فى الجبهة الإسلامية ، وأخضع الشام الإسلامى بأجمعه باستثناء حلب ، بحيث لم يبق له ما بين الفرات والنيل منافس من أمراء المسلمين . وما كان فى مقدور صلاح الدين أن يصل إلى كل تلك النتائج الحربية السريعة ، لولا ما بذره والده نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه من بذور سياسية وحربية أيام خدمتهما لنور الدين فى سوريا ، فأثمرت حتى أتت أكلها على يد صلاح الدين .

(١) ابن كثير ج ١٢ ص ٣١٧ .

(٢) ذكر العماد (ابو شامة ج ١ ص ٢٦٥) تلك المنازل مرتبة فى القصيدة التى نظمها فى طريق مصر عند ملازمته صلاح الدين إياه .

(٣) [٣ سبتمبر ١١٧٤ — ٣ أكتوبر ١١٧٦] م — [أول صفر ٥٧٠ — ١٦ ربيع الأول ٥٧٢ هـ] .

الفصل الثالث

صلاح الدين بعد العودة إلى مصر

(ربيع الأول ٥٧٢ هـ/ سبتمبر ١١٧٦م — رجب ٥٧٦هـ/ ديسمبر سنة ١١٨٠م)

عودة صلاح الدين من الشام بأفكار جديدة — فكرة تحصين القاهرة — المقارنة بين مشروعى ١١٧١ و١١٧٦ — الغرض من بناء القلعة — موقع القلعة — وصف القلعة — أشهر أبراجها — تمييز الأجزاء الصلاحية عن غيرها . أبواب القلعة . هل سكن صلاح الدين القلعة ؟ — دراسة الأستاذ كريزول للقلعة — البئر الحلزونى — الخندق — سور القاهرة — تتبع آثاره الباقية الآن — برج الظفر — قلعة المقس — دراسة السور من الناحية المعمارية الفنية — تأثر صلاح الدين بقواعد فن العمارة الحربية عند الصليبيين — أثر المدرسة الفرنسية — أثر المدرسة الشرقية البيزنطية — حجر البناء فى السور — ديوان الأسوار — أبواب السور . تحصينات الثغور — رحلة صلاح الدين إلى دمياط والاسكندرية فى فبراير سنة ١١٧٧ .

حملة غزة وعسقلان — الغرض منها — وقعة الرملة ديسمبر سنة ١١٧٧ — هزيمة صلاح الدين وعودته إلى القاهرة — نتائجها — تخبط الشام وعودة صلاح الدين إليه — وصول دمشق فى ابريل سنة ١١٧٨ — الخلاف مع ابن المقدم — بناء حصن بيت الأحزان — موقعة مرج عيون وهزيمة الصليبيين ١٥ يونية سنة ١١٧٩ — أسراهم — حصار حصن بيت الأحزان — وصف الحصن — تاكتيك المسلمين فى قتاله أغسطس سنة ١١٧٩ — حركات الأسطول المصرى — الهدنة مع الصليبيين مايو سنة ١١٨٠ — صلاح الدين عند قلج أرسلان سلطان الروم — قتال ابن لاون الأرمنى سنة ١١٨٠ ومصالحته — الصلح مع الشرقيين جميعا سنة ١١٨٠ أكتوبر . العودة إلى دمشق فى ديسمبر — وصول صلاح الدين القاهرة فى يناير سنة ١١٨١ .

أفاد صلاح الدين فوائد كثيرة فى شئون الحرب والسياسة من رحلاته إلى الشام ، وأحس بما طرأ عليه من تغيير كبير فى أفكاره وخططه . إذ عاد إلى مصر بعد أن أنهى مشاكله الحربية الخارجية الناجمة عن وفاة نور الدين (١) . وبعد أن كشف عن نوايا أمراء المسلمين نحو مصر ، وبعد أن مارس عمليات الحصار لأمهات المدن السورية ، وإدراكه ما تقوم به القلاع من دور فاصل فى المعارك الحربية ، حين تسقط المدينة وتظل قلعتها على المقاومة حتى ييأس المحاصرون لها ويرفعون عنها الحصار ، تأثر صلاح الدين تأثراً واضحاً من تلك التجارب العملية التى زاولها فى سفرته إلى الشام . ووضحت آثار ذلك فى أفكاره الحربية والسياسية ، عند ما أصدر أوامره غداة وصوله القاهرة ببناء القلعة ، وإدارة القاهرة ومصر معاً بسور مانع (٢) . وهو مشروع معمارى حربى ضخم ، يغاير المشروع الضيق الذى سبقت الإشارة إليه سنة ٧٠ — ١١٧١م وهو المشروع الخاص بترميم سور بدر الجمالى (٣) . والدليل على ذلك واضح قريب ؛ إذ قال العماد الأصفهانى بصدد البدء فى بناء القلعة والسور العام سنة ١١٧٦م ما نصه « وكان السلطان لما تملك مصر ، رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنى أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقس ، وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم » . ثم أخذ العماد فى وصف القلعة والسور وصفاً دقيقاً فقال : « ووجدت فى عهد السلطان بيتاً رفعه النواب ، وتكمل فيه الحساب ، ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة ، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلثمائة وذراعان . من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطىء

---

(١) قسم كارمان (Carman : The Milit, Hist, of Egypt p, 14) مشاكل صلاح الدين الخارجية إلى ثلاث ، وأولها مشكلة الاستيلاء على أملاك نور الدين . وثانيها محاربة سلاجقة الروم وأمراء الموصل، وثالثها الجهاد الدينى ضد الصليبيين.

(٢) يطلق المؤرخون على مجموع المدن الثلاث : الفسطاط والعسكر والقطائع اسم مصر أو الفسطاط — حفريات الفسطاط لعلى بهجت بك ص ١٢ وراجع Wiet op cit. V 4 P. 3?5

(٣) أنظر ما سبق بالفصل الأول ص ٢٢.

النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع . ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعاً . ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع . ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع . وذلك طول قوسه فى أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل ، وذلك بالذراع القاسمى بتولى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى[1] » .

ويلحظ الباحث فى تاريخ العمائر الحربية على عهد صلاح الدين تفصيل ذلك كذلك فى المقريزى ، حيث يذكر ترميم سور القاهرة القديم سنتى ١١٧٠ — ١١٧١م متفقاً فى ذلك مع أبى شامة فى رواية ابن أبى طى[2] وسنتها ؛ ثم يذكر نصا آخر لعماد الدين تحت حوادث عام ١١٧٦م (سنة ٥٧٢ هـ) مبيناً فيه مشروع صلاح الدين الضخم فى بناء القلعة وتسويرها ومصر والقاهرة .

وعلى ذلك توجد خطتان حربيتان فيما يختص بتحصينات صلاح الدين للقاهرة ، أولاهما التى سبقت الإشارة إليه فى سنتى ١١٧٠ — ١١٧١م (سنة ٥٦٦ هـ) وهو مشروع متفق فى بساطته وتكاليفه مع مركزه الجديد وقتذاك فى وزارة الفاطميين ، وسلطته المحدودة سواء من ناحية حداثته فيها أو من ناحية أنه وزير سنى فى دولة شيعية .

ثم توالت الأحداث عليه وعلى مصر ما بين سنتى ٧١ — ١١٧٦م (سنتى ٥٦٦ — ٥٧٢ هـ) فحملته على تغيير هذا المشروع بمشروع آخر واسع النطاق عظيم الأثر ، يحتاج إلى زمن أطول ومال أوفر ، ويتفق مع مركزه بعد أن أضحى سلطاناً واسع النفوذ مطلق السلطة ، كما هو حاله فى نهاية تلك السنة (١١٧٦م) (سنة ٥٧٢ هـ)[3] .

---

(١) العماد الأصفهانى : كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢٦٨ — ابن اياس جـ ١ ص ٧٠ وحاشية ص ٣٠٦ من Casanova: La Citadelle وراجع المؤلف ملحق رسالة (نظام البريد فى الدولة الاسلامية) لشرح المقاييس الطولية عند العرب .

(٢) أبو شامة جـ ١ ص ٢٩٢ نقلا عن ابن أبى طى — الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) راجع Casanova : op—cit; p.p.535—538

وتفسير ذلك تاريخيا أن صلاح الدين صار مطلق الحرية فى شئون مصر بعد إعلان زوال الخلافة الشيعية بها فى ١٧ سبتمبر عام ١١٧١ (الجمعة الأولى من محرم سنة ٥٦٧ هـ) . وفى أثناء حصاره لحصنى الكرك والشوبك فى صيف سنة ١١٧٣ م جاءته أخبار مصر منذرة بقيام حركة فاطمية ، فأسرع فى الجلاء والعودة لإخمادها ، غير أن صلاح الدين وصل إلى القاهرة فيما يبدو والحركة الفاطمية لا تزال فى المخاض ، إذ توفى نور الدين فى مايو سنة ١١٧٤ م (شوال سنة ٥٦٩) وانقضت السنة دون أن يظهر لتلك الحركة أثر .

ثم انفجرت ثورة كنز الدولة الفاطمى سنة ١١٧٤ وشغلت تلك الثورة صلاح الدين من أبريل إلى سبتمبر سنة ١١٧٤م (صفر سنة ٥٧٠ هـ) ، وفى مارس وأبريل سنة ١١٧٥ م (رمضان سنة ٥٧١ هـ) وصلاح الدين وقتذاك بالشام ، وصله التقليد العباسى بتملكه على مصر والشام وهو بحماة .

وأعقب ذلك قيام ثورة فاطمية كبيرة فى مدينة قفط ، تزعمها داع من بنى عبد القوى ، مدعيا أنه داود بن العاضد فاجتمع الناس عليه ، واستطاع العادل أن يخمدها إخماداً نهائيا فى سبتمبر سنة ١١٧٦ م (سنة ٥٧٢ هـ) أى قبل عودة صلاح الدين إلى مصر بأيام قلائل . وتعقب العادل الثائر وأتباعه إلى أقصى الحدود المصرية ، وقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف ، وصلبهم على شجر ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم على قول المقريزى[1] .

وإذاً لا شك ، أن تلك الثورات دفعت صلاح الدين إلى التفكير والاسراع فى بناء قلعة ، يأوى إليها إذا دهمه خطر الفاطميين داخل البلاد ، أو هاجم أنصارهم ثغوره بمصر والشام . ولا شك أيضاً ، أنه ببنائه القلعة كان ملهماً ومسترشداً بما شهده منذ حداثته فى سوريا ، حيث هبط الصليبيون بعيدين عن أوطانهم الأولى

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٣٧٦ طبعة مصر ، جـ ٤ ص ١١٢ طبعة فييت ، Cresswell p. 95, Lane-Pool: Saladin p.101

فأحاطوا كل مدينة ذات أهمية بسور خارجى ، وبنوا داخله قلعة[١] تأويهم وجنودهم وأهلهم ، إذا هددتهم ثورة داخلية فى المدينة ، أو طرأ عليهم غزو خارجى[٢] وذلك فضلا عما شهده من قلاع حمص وحماه وحلب وقلاع الاسماعيلية . ومن هنا يتضح أن العبارة القائلة بأن صلاح الدين صمم قلعة القاهرة ، لحماية نفسه من احتمال قيام فتنة فاطمية فى الداخل ، ولمقاومة سيده نور الدين إذا جاء من الخارج تحتاج إلى تعديل فى ضوء الحقائق التى أخرجتها المراجع[٣] . والواقع أن القول بأن خوف صلاح الدين من نور الدين سبب من أسباب عزمه على بناء قلعة القاهرة قول لا يستند إلى الحقائق ، التى أضحت معروفة جيد المعرفة لأنه لم يكن هناك ما يفسر وجود أى عزم عند صلاح الدين لبناء القلعة حتى بعد وفاه نور الدين بسنتين ، وإنما القول الصحيح هو الخوف من غزوة صليبية خارجية ومن الثورة الداخلية التى واجه منها ثلاثا حتى سبتمبر ١١٧٦ ، بل ظل يستشعر الخوف من رابعة قد تندلع عاجلا أو آجلا . فمن الطبيعى إذن أن يحتاط صلاح الدين للامر بما ألفه وشهده أثناء أعماله الحربية فى الشام ، وعلى وجه الخصوص فى قلاع حلب ومصياف والكرك ، وغيرها من القلاع التى قاومته مقاومة عنيفة والتى استعصت عليه فى نهاية الأمر . والسند فى هذا التخريج ما رواه المقريزى وغيره من المؤرخين[٤] عن قلق صلاح الدين من أنصار الفاطميين الذين لا يزالون بمصر ،

(١) Hist, Sc, et milit, V, II, p, 311 وأحسن القلاع الصليبيين التى ينطبق عليها هذا القول هى قلاع . بيت المقدس والكرك وجبله فى الداخل ، وصور وبيرت وطرسوس وقيسارية والبطرون Boutron على ضفاف البحر . ولوحظ عند تخطيطها أن تقع القلعة فى زاوية المدينة وعلى مفترق الطرق المؤدية إلى الخلاء ، لتأخذ الحامية طريقها إليه فى حالة إستيلاء العدو على المدينة واستحكاماتها ، ولتجد الحامية فى هذا الخلاء مؤونتها ونجدتها — Rey : Les, Conlonies Franques p 119

(٢) راجع الحوادث التاريخية ما بين سنتى ٥٦٧ ، ٥٧٢ هـ فى جـ ١ من الروضتين Casanova p, 510—Cresswell p, 95

(٣) أنظر : Lane-Pool : His Hist, p, 196 لمعرفة مدى ذلك الرأى القديم ،

(٤) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ٣٣٠ زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى جـ ٥ ص ١٠١ Wiet : op. cit vol 4 p, 315—Cresswell : op, cit p 96 ويرى كازانوفا (Notice sur une Coupe arabe ; p; 329) أنه ليس هناك ما يبرر وجود هذا الخوف عند صلاح .

إذ رغب أن يؤمن نفسه فى مكان حصين تكون فيه مقاومة ، سيما بعد أن وزع على أمرائه القصرين الفاطميين ، وسكن هو دار الوزارة وليس بها ما يحول دون اعتداء العامة عليه فيها .

ويؤيد هذا القول الترتيب الزمنى للحوادث التاريخية ، فنور الدين مات فى مايو سنة ١١٧٤ ، وصلاح الدين سافر إلى الشام فى نوفبر سنة ١١٧٤ ، حيث شهد قلاع الصليبيين والحشاشين عن كثب ، وعاد إلى القاهرة يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١١٧٦ ، وأعطى الأوامر ببناء القلعة وتسويرها ومصر والقاهرة غداة رجوعه من الشام . وعهد بذلك إلى الأمير الخصار[١] بهاء الدين قراقوش وزير أشغال صلاح الدين الأيوبى إن صح ذلك التعبير ، فبدأ قراقوش بالقلعة ثم السور فالخندق الذى يحوطه[٢] .

والمقريزى رأى فى أصل اختيار مكان القلعة ، وهو أن صلاح الدين علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، وعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين ، لطيب هوائها فأمر حينئذ بانشاء قلعة هناك[٣] . وهو تعليل ضعيف لأن هذه القصة مذكورة فى بناء بغداد كذلك ، والمسألة ليست مسألة لحم أبداً . والأصح أن صلاح الدين اختار المكان لميزات استراتيجية لا يتوفر وجودها فى مكان آخر حول القاهرة ، إذ المعروف طوبوغرافيا أن جبل المقطم يأخذ فى الارتفاع فجأة عند القاهرة ، حيث يبرز منه إلى الأمام خط من الكتل الصخرية المنفردة والمختلفة الأحجام والمتساطة على وادى النيل ، ويهم المعسكريون منها ثلاث كتل ، وأصغرها تلك التى اختارها ابن طولون لمسجده ومدينته والتى بها قلعة الكبش ، ويليها فى الارتفاع تلك التى تقع جنوبيها وتحوى قصر الشمع

(١) الحصّار : ككتّان اسم جماعة وكتاب وسحابة ، ومحاصرة العدو وحصره استوعبه والقوم بفلان أطافوا به (أنظر قاموس المحيط جـ ٢ ص ٩) . وورد استعمال اللفظ فى الـ : Wiet: Repertoire vol q p,81

(٢) راجع أبو الفدا جـ ٣ ص ٦٢ — ابن واصل ١٩٦ شفاء القلوب ٢٥ — السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٦٣ .

(٣) الخطط جـ ٣ ص ٣٣٠ — Hist Sc; et milit; V; II p; 309

ومرتفعات سانت جوورج وقرية دير الطين (دار السلام حالياً) وسكة حديد حلوان الحالية ؛ والصخرة الثالثة والأهم لم تكن كاملة البروز عن المقطم ، وإن كانت أكثر ارتفاعا من الصخرتين السابقتين ، ولذلك اختارها صلاح الدين وفصل بروزها عن المقطم ، بحيث يتضح للزائر أن النهاية الجنوبية من القلعة منخفضة ومبنية على الأرض ، على حين أن شمالها مرتفع ومبنى على الصخر[1] . وهو ما يتفق تماما مع وصف القلقشندى للقلعة ، ونصه « وهى على نشز مرتفع من تقاطيع الجبل المقطم ، ترتفع فى موضع وتنخفض فى آخر[2] » . وعرفت تلك الصخرة قديما بقبة الهواء أيام اسحاق ابن منصور الوالى العباسى ، ثم شغل مكانها بعد ذلك بعدد من المساجد الفاطمية التى تبدأ عند نهايتها الشمالية . واضطر صلاح الدين إلى هدم تلك المساجد وهى : مسجد سعد الدولة ، ومسجد معز الدولة ، ومسجد عماد الدولة ، ومسجد عبد الجبار ، ومسجد أمين الملك ، ومسجد القاضى النابه ، ومقبرة الوزير الوخشى ، وغيرها من المقابر والمساجد التى أزيلت بسبب تلك المآثر الحربية[3] . والقلعة بوضعها الحالى المرتفع كانت تشرف على القاهرة ومصر إشرافا تاما ، وهى محصنة من الجهتين سواء ، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعمليين مزدوجين وهما ضبط الأهالى ، وقطع من يخرج منهم عن طاعة السلطان ، فضلا عن مقاومة ماعساه يقع من محاولات خارجية للاستيلاء على القاهرة . ولذا فالاعتراض على صلاح الدين بأنه أساء اختيار مكان القلعة لتسلط المقطم عليه اعتراض لا معنى له لزمن صلاح الدين ، عندما كانت الأسلحة المعروفة غير قادرة على قذف شحنتها من قمة المقطم إلى الهدف داخل القلعة ، فضلا عن أن المغير على القاهرة لا يستطيع أن يصعد المقطم حيث حرارة الشمس وصعوبة الحصول على الماء ، وإذا نجح فى الاقتراب من أسوارها فالخندق يعوقه ، ولا تسمح المسافة بين أسوار القلعة وعلو المقطم بحركات جنده[4] .

(١) Wiet Heri: Précis de L'Hist; d'Egypt V;II p; 229; Cresswell p; 97

(٢) القلقشندى : ج ٣ ص ٣٦٨ .

(٣) Cresswell op; cit p; 98

(٤) أنظر صالح مجدى ميادين الحصون والقلاع ص ٢٩ — Cresswell op; cit p 98 Casanova p; 564

والقلعة عبارة عن بناءين ، أحدهما وهو الجزء الشمالى (شكل ٤) على شكل مستطيل ، شيد فى سوره أبراج مستديرة ، حصينة خارجة عن السور الملتصقة هى به ، وبارزة عنه ومتباعد بعضها عن بعض بمسافات مقدرة بالنسبة إلى مرامى الأسلحة المستعملة وقتذاك[1] . والوصول إلى هذا الجزء الشمالى فى العصر الحاضر يكون باختراق الباب الجديد الذى أنشأه محمد على باشا ، ويرتكز الجانب الأيسر من هذا الباب على باب المدرج القديم . ثم يظل الزائر متجها صوب الجنوب حتى يخترق الباب الوسطانى ومن ثم يواجه جامع محمد على وجامع السلطان الناصر محمد ، فإذا ترك ناحية اليمين وانحرف إلى اليسار وجد نفسه أمام باب القلعة ، وهو المدخل الحالى للجزء الشمالى من القلعة ، ويقوم على جانبيه برجان كبيران (شكل ٤) ثم إذا اخترق الزائر باب القلعة وسار فى الاتجاه الشرقى مع السور وصل إلى برج المقطم ، وهو حلقة الاتصال بين الجزء الشمالى من القلعة والجزء الجنوبى منها . ويتفرع من برج المقطم خطان من التحصينات الحربية ، يتجه أحدهما جنوبا ليسور الجزء الجنوبى من القلعة ، وبه ثلاثة أبراج من طراز معين ، على حين يتجه الثانى شرقا ليسور الجزء الشمالى من القلعة . وهو ما يعنى الباحث هنا . ومهمة برج المقطم الاشراف على الاتجاهين الشمالى والجنوبى معا ، ولا يزال البرج حافظا لمظهر الضخامة ، وبه صهريج ماء كبير . وارجع كريزول بناء برج المقطم وغيره من الأبراج الكثيرة الاضلاع والملاصقة بالبوابة الداخلية ، وكذلك البرج الواقع فوق الباب الوسطانى وبرج الزاوية الشمالية الغربية وأجزاء من السور الموصل بين برج المقطم وبينها لا إلى صلاح الدين بل إلى أحد حكام الأتراك العثمانيين المجهولين الذين عاشوا خلال القرن السادس عشر أو السابع عشر[2] الميلادى .

وعلى مسافة ٩٠ متراً شرق برج المقطم يجد الزائر نفسه داخل برج كركيلان ، يتخلل السور بين هذين البرجين الكبيرين فى تلك المسافة برجان صغيران هما برج سفتا وبرج الماوة . ثم يبرز من السور على بعد ٥١ متراً شرق برج

(١) صالح مجدى : ميادين الحصون والقلاع ص ٢٠ .

(٢) Cresswell op. cit p. 107 .

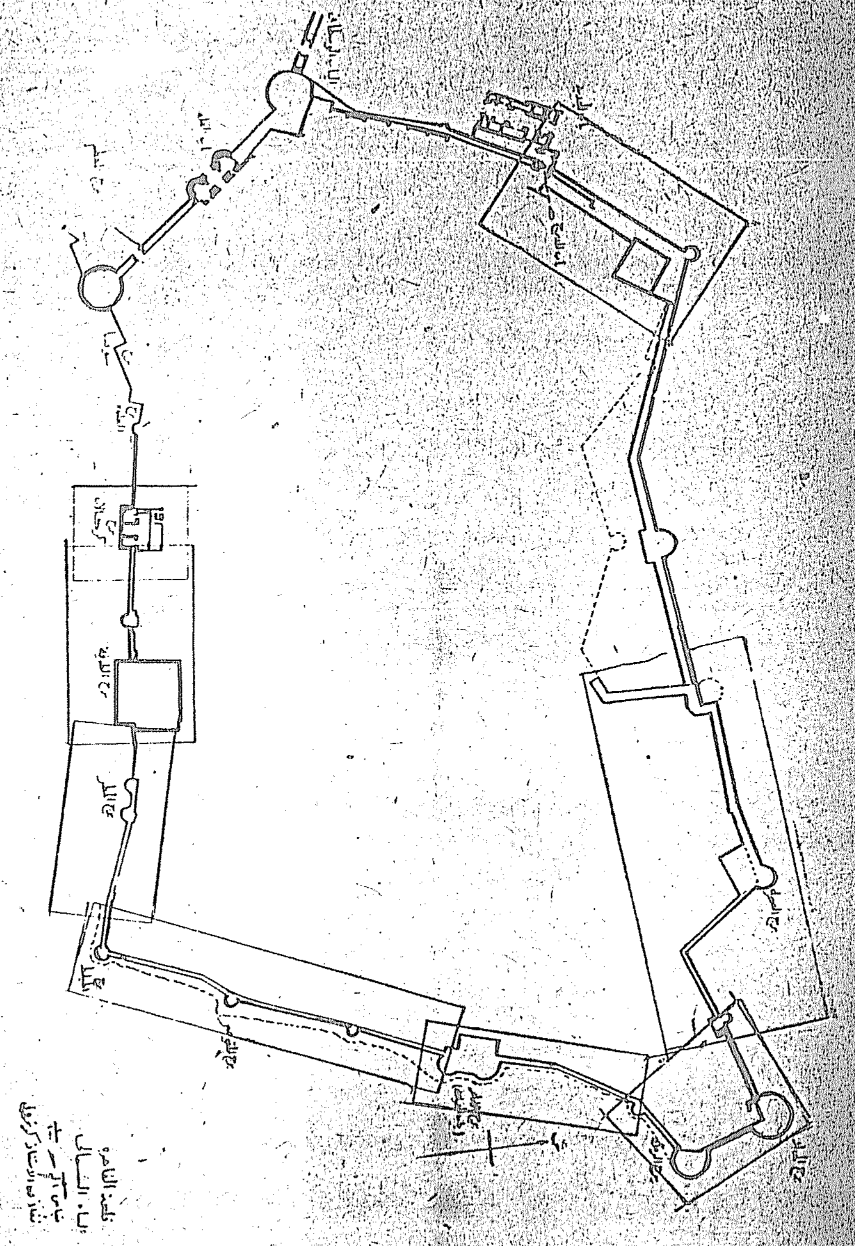

(شكل ٤)

كوكيلان برج نصف مستدير اسمه برج الطرفة ، ومنه يمتد ستار Curtain-wall طوله ٢٥ متراً إلى برج المطر ، وهذا البرج الأخير فى الواقع برجان متلاصقان ، وشكل كل منهما شكل الدائرة . ويخرج من برج المطر ستار طوله ٥٩ مترا ينتهى عند برج المبلط القائم على الزاوية الجنوبية الشرقية ، وهو نهاية السور الجنوبى من الجزء الشمالى من القلعة ، ويلاحظ أن السور من برج المقطم إلى مسافة ٥٠ متراً قبل الزاوية الواقع عندها برج المبلط مشيّد على أرض مستوية ، وبقيته على صخرة عمودية يبلغ ارتفاعها ٩٠٨ مترا ، وهى تدور مع قاعدة برج المبلط وتظل متصلة من بدايتها بالسور الشرقى ، ثم تأخذ فى الابتعاد عنه بمقدار ٧ أو ٨ متراً . وبرج المبلط أقرب أجزاء القلعة مسافة بالمقطم حيث تبلغ المسافة بينهما ٣٥٠ متراً[1] .

ويبدأ السور الشرقى من برج المبلط فى اتجاه ١٧٥ مترا على استقامة واحدة ، ويقطعه برجان نصفا مستديران يسمى أحدهما برج المقصورة ، ويقسمان إلى ثلاثة أجزاء طولها ٥٥ ، ٥٣ ، ٤٣ متراً على الترتيب ، وتتكون الأبراج من طبقتين لكل حجرة من حجراتها ثلاث مزاغل : Arrow-Slits وتنتهى المزاغل بممرات جانبية فى الستائر من طبقتين لمسافة ٧ أمتار . وتنتهى الصخرة الموازية للسور من الخارج بانتهاء دوران برج الإمام . وإذا ترك الزائر برج الإمام وصل إلى برج مستدير على مسافة ٦٦ مترا ، وعلى مسافة ٢٢ مترا من ذلك البرج المستدير برج الرملة المشهور ، قبالة حى العباسية الحالى ، وعلى مسافة ٢٢ مترا منه يقع برج الحداد . وهذان البرجان الأخيران يتسلطان على الطريق بين القلعة والمقطم وهو الطريق الذى يخترقه القادم إلى القاهرة من الجنوب إذا ما تعذر عليه دخولها من الشمال . وهذا يوضح سبب اهتمام العادل بتحصين برجى الرملة والحداد بعد صلاح الدين ، كما يوضح سبب وجود باب سرى فى السور على بعد مترين من باب الحديد لتخرج منه الحامية ، وتحول دون عبور العدو بهذا الطريق والاقتراب من القلعة[2] . ويمتد السور الشمالى من برج الحداد إلى برج الزاوية الشمالية الغربية

(١) Cresswell: op. cit p.101.

(٢) Ibid : p.p. 102, 112, 119, 122.

وطوله ٥٦٠ مترا من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه على بعد ١٢١ مترا غربى برج الحداد برج الصحراء الذى يعلوه صهريج ماء ملون باللون الأحمر . ويبدو شكل برج الصحراء من الخارج كبرج نصف دائرى بينما يبدو من الداخل على شكل مستطيل ، وذلك بسبب التعديلات التى أضافها عليه الملك العادل من الداخل[١] .

ويصعب على المهندس العادى أن يعرف الأجزاء الصلاحية فى الجزء الباقى من السور الشمالى بما فيه الزاوية الشمالية الغربية ، وكذلك السور الغربى الذى يقطعه باب الدرج ، وذلك لكثرة التعديلات والإضافات التى أدخلت عليه فى العصور اللاحقة لعصر صلاح الدين[٢] .

والخلاصة أن القلعة الصلاحية تكونت من البناء الشمالى وهو العمل الحربى المقصود من مشروع سنة ١١٧٦ (٥٧٢ هـ) وهو الذى يستحق التفصيل هنا لعلاقته بالاستراتيجية الصلاحية . وما عداه من أوصاف الأجزاء الأخرى من أبنية القلعة كما تبدو فى العصر الحاضر ، ليس إلا لبيان الجزء الصلاحى منها عن طريق المقارنة ، ولهذا الجزء الشمالى بابان : أحدهما الباب الأعظم المواجه القاهرة ويقال له الباب المدرج اشتقاقاً من درجاته المنحوتة فى الصخر على قول كازانوفا ، ويعرف أيضا بباب الدارفيل ، كما عرف قديماً بباب سارية لمواجهته مسجد سارية[٣] الموجود إلى اليوم بداخل القلعة . ويجلس بداخل هذا الباب والى القلعة لضبط ما يدخل إليها وما يخرج منها ، لأن هذا الباب كان سبيل الإمداد منذ أيام صلاح الدين فيما يبدو . أما الباب الثانى فهو باب القرافة المواجه للقرافة والمقطم ويصعب الوصول إليه ولذا ندر استعماله ، وبين البابين مساحة فسيحة فيه آثار

(١) Ibid : p p 99, 102, 123,

(٢) Ibid : p p 129, 139

(٣) Cresswell : op cit p 148 — لم يجد على باشا مبارك (حـ ٥ ص ١٤) ما يثبت أن سيدنا سارية صاحب رسول الله ، والذى ينسب إليه الجامع كما هو الشائع على الألسنة جاء إلى مصر فضلا عن أنه مات بها . ويغلب على الظن أن هذا المسجد بنى فى العصر الفاطمى .

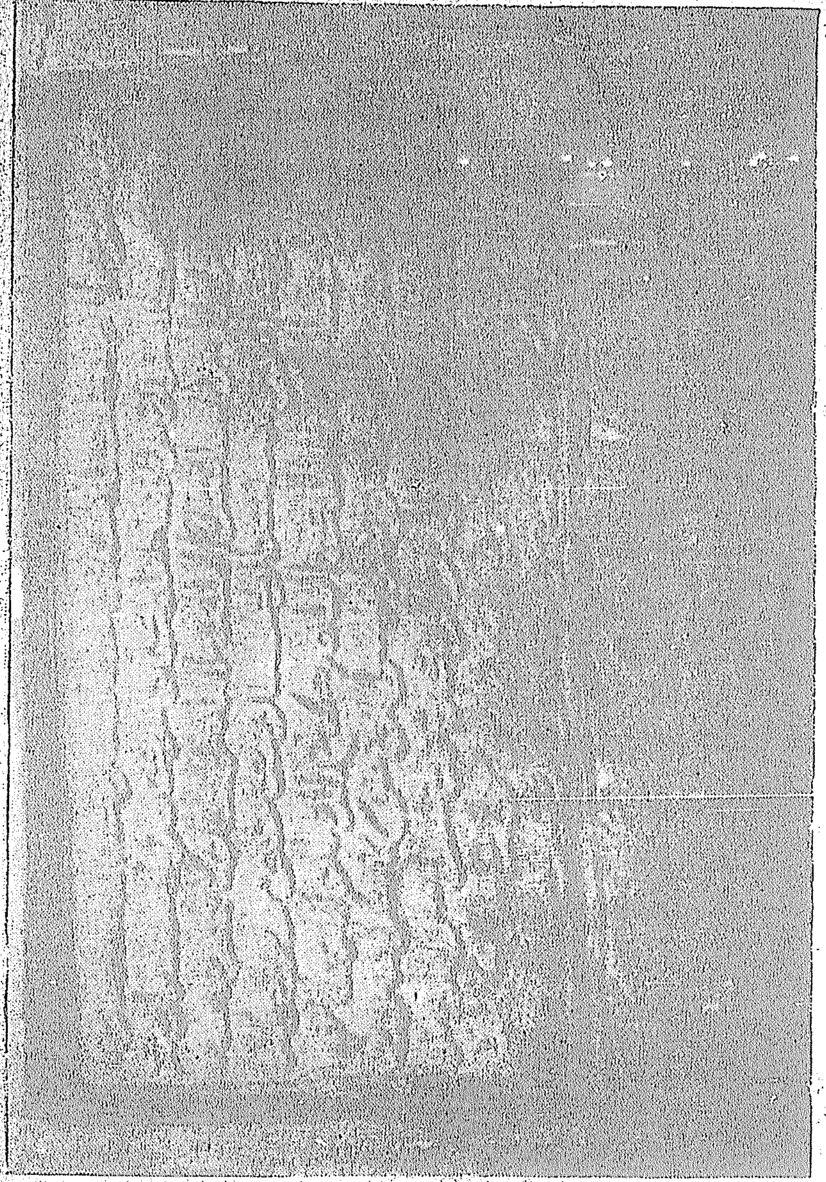

(شكل ٥)
تاريخ إنشاء قلعة القاهرة سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٣ م (تصوير إدارة حفظ الآثار العربية)

بيوت[1] ، ظن بعض الباحثين أن صلاح الدين تاق إلى الإقامة فى حماية القلعة ، فبنى الدور لنفسه وحاشيته فى تلك الساحة ، على حين يرى البعض الآخر أن السلطان الكامل هو الذى بنى تلك الدور سكناً له فى حماية القلعة . وحاول كازانوفا إثبات مدى صحة الظن الأول من مقارنة النصوص المختلفة للمقريزى وغيره فتبين له العكس ، وذلك لأن النص الذى قرأه والموجود إلى اليوم منقوشا على باب المدرج على لوحة من الرخام مساحتها ١٢٥ × ٦٩ بخط النسخ[2] الأيوبى : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة ، بالعزمة التى جمعت نفعا وتحسيناً وسعة على من التجىء إلى ظل ملكه ، وتحصيناً لمولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين[3] ، أبو المظفر يوسف بن أيوب محى دولة أمير المؤمنين . فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة ٥٧٩ (١١٨٣ م)[4] (ش . ٥) . فتاريخ هذه اللوحة إذن يؤكد

(١) الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٢٢ — Casanova La citadelle p p 575,577, 576— Van Berchem : Citadelle du Caire p, 80 والمقصود من كلمة القلعة المدينة الملكية ومعها القلعة ، أما قلعة الجبل فيقصد منها الحصن

(٢) وضح فان برشم (حاشية ص ٨٠ من كتاب Citadelle du Caire وكذلك كريزول ص ١٤٢) أهمية هذا النص كاقدم أثر تاريخى نقش بالخط النسخ فى مصر ، وكأحدى المستحدثات الجديدة التى أدخلها صلاح الدين على مملكة الفن والعمارة الحربية ، وجاء استحداثه مؤذنا بزوال عصر الخط الكوفى المزخرف الجميل الذى كان مستعملا فى النقوش الفاطمية التاريخية . ولا شك أن سوريا سبقت مصر فى استعمال خط النسخ فى الآثار التاريخية بقرن من الزمان . كما سبقت فارس سوريا أيضا بقرن .

(٣) ظل لقب « الدين » حتى القرن السادس الهجرى قاصراً على رجال الخليفة الرسميين ، فلما أصبح من حق العامة والفقهاء والعلماء ميز الخلفاء رجال دولتهم بلقب « الدنيا والدين » وقصروه أخيرا على السلاطين فقط . وليس من حق ولى العهد أن يمنح هذا اللقب . لذا لقب صلاح الدين أخاه أبا بكر بالملك العادل ، كما كان يفعل الفواطم مع وزرائهم وكما لقب الخليفة الفاطمى العاضد وزيره صلاح الدين بالملك الناصر ، وظل صلاح الدين يمنح تلك الألقاب لكبار موظفى دولته . وفى سنة ٥٧٩ هـ منح صلاح الدين أخاه أبا بكر لقب « خليل أمير المؤمنين » ووجد هذا اللقب منقوشا للملك العادل على قلعة طارون ـ راجع Van Berchem-cit adelle p. 82, 83 .

(٤) Repertoire Vol. q p. 123 و Lane-Poole-Saladin p. 152 و Notice Sur une Coupe arabe p. 389 و Casanova : Citadelle p. 567 .

أن القلعة أو على الأقل الجزء الكبير منها لم يتم حتى سنة ١١٨٣ م والمعروف تاريخياً كما سيتضح فيما بعد أن صلاح الدين غادر مصر فى سفرته الثالثة إلى الشام قبل هذا التاريخ أى فى سنة ١١٨٢ (٥ محرم ٥٧٨) لجهاد الصليبيين ولم يعد بعدها إلى الديار المصرية[1] . فمن النادر البعيد الاحتمال أن تكون القلعة صالحة للسكنى قبل ذلك التاريخ ، ومن غير المحتمل كذلك أن يكون صلاح الدين سكنها قبل أن تتم عمارتها رسميا ؛ وهذا هو ما استقر عليه كازانوفا اعتماداً على ذلك الدليل المادى ، فضلا عن المقريزى وغيره من المراجع مثل ابن جبير الذى يشير سنة ٨٢ — ١١٨٣ إلى عزم السلطان صلاح الدين على الإقامة فيها ونصه : « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة ، وهو حصن يتصل بالقاهرة ، حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه[2] » : والمعروف أن تلك المشاهدة تمت فى نهاية ١١٨٢ (٥٧٨) وبداية ١١٨٣ (٥٧٩) فلو سكن صلاح الدين القلعة حتى ذلك التاريخ ما تردد ابن جبير فى ذكره . ويغلب على الظن أن صلاح الدين اعتاد زيارة مبانى القلعة كلما سنحت له الفرصة ، وأنها أوشكت على التمام قبل مغادرته مصر ، وأنه مات قبل أن يتمها ، بدليل ما هو معروف من القيام على بعض ابنيتها أيام العادل والكامل . ومن غريب ما يحكى فى هذا الصدد ، أن صلاح الدين طلع إلى القلعة يوما ومعه أخوه الملك العادل أبو بكر ، فقال صلاح الدين لأخيه : « هذه القلعة بنيت لأولادك » فثقل ذلك على العادل ، وعرف صلاح الدين ذلك منه فقال « لم تفهم عنى ، إنما أردت أنى أنا نجيب فلا يكون لى أولاد نجباء ، وأنت غير نجيب فتكون أولادك نجباء » . فَسُرِّى عنه ، وكان الأمر كما قال صلاح الدين وبقيت خالية حتى ملك العادل مصر والشام[3] .

وكيفما كان الأمر ، فقد درس الأستاذ كريزويل القلعة دراسة هندسية تفصيلية ، واستطاع أن يميز بين طرازين من طرز العمارة الحربية : أحدهما صنعة البناء فيه

(١) أبو شامة ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) ابن جبير ص ٢٠ .

(٣) القلقشندى ج ٣ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

مهذبة smooth masonary كما هو واضح من السور الخارجى وستائره ومزاغلة وأبراجه النصف مستديرة . وهى التى تبدأ من الجانب الشرقى لبرج المقطم ، وتدور مع الجوانب الجنوبية والشرقية والشمالية من السور حتى برج الصحراء تقريبا ، وقد أرجع الأستاذ كريزويل هذه جميعا إلى صلاح الدين الأيوبى ، كما أرجع إليه أيضا الأجزاء الداخلية من باب القرافة وباب المدرج والجزء الخلفى من البرج النصف مستدير ، الواقع بين باب المدرج والباب الوسطانى .

أما ثانى الطرازين فصنعة البناء فيه خشنة rudsticated masonary إذ استعملت فيها الأحجار والصخور الكبيرة ، كما هو مشاهد فى الأبراج الثلاثة المربعة الكبيرة بالجانب الجنوبى من السور ، وهى صفقا والعلوه و كركيلان ، وكذلك الأجزاء الخارجية من برجى الرملة والحداد ، وبعض إضافات بباب القرافة والجزء الداخلى من برج الصحراء . وأرجع الأستاذ كريزويل أجزاء النوع الثانى إلى الملك العادل ، وبنى نتائجه على أساس هندسى علمى ، إذ درس آثار العمارة الحربية للعادل فى سوريا[(١)] بقلاع دمشق وحلب وبصرى وطابور ، وقارنها بتلك الأجزاء المشار إليها هنا من قلعة القاهرة ، فوجد بينها تشابها واضحا فى طراز البناء ، من حيث الخشونة فضلا عن الأبراج المربعة والمستطيلة والمزاغل ، وأقر بأن وجود برجين مربعين وهما كركيلان والطرفة بين أبراج أخرى نصف مستديرة وعلى مسافات معينة ، دليل على أنهما أضيفا إلى البناء الأصلى[(٢)] ، الذى اختطه صلاح الدين وجرى فى بنائه عموما على طراز الأبراج نصف المستديرة ، المكونة من طبقة أو طبقتين[(٣)] مع التشابه فى الحجم والرسم وهى الرموز لها فى فن العمار باسم الصليب القبوى cruciform أو crossvaulted .

(١) لم يشيد الأيوبيون قلاعا حربية لسوريا وإنما رمموا وأصلحوا ما بها من قلاع ، كما يستدل على ذلك من أسمائهم المنقوشة على قلاع حلب ودمشق والقدس وبصرى وتل طابور — أنظر Wiet et Henri : précis de L' Hist. d' Egyp. Vol. 2 P229

(٢) Cresswell op. cit pp. 114, 118, 156

(٣) المرجح أن أنصاف الأبراج القائمة إلى اليوم فى فريبورج بسويسرا شرقية الأصل ، عرفتها فلسطين خصوصا ، وهى عبارة عن أبراج نصف مستديرة أو قائمة الزوايا ومفتوحة من الداخل ، لا بأس العدو إليها ولا يستطيع أن يطل الإقامة بها — انظر أثر الشرق فى الغرب ص ٧٠ .

والسيطرة على استحكامات السور[(١)] . هذا وينقسم البناء الشمالى من القلعة الحالية إلى قسمين : أحدهما الغربى وبه المتحف الحربى وكان يطلق عليه أيام الاحتلال البريطانى اسم المستشفى وأيام محمد على باشا قصر الحريم ، وثانيهما الشرقى وبه جامع سيدى سارية وسلاح الفرسان للجيش المصرى الحديث .

أما البناء الثانى من القلعة وهو الجنوبى ، فيمتد من برج المقطم جنوبا ويدور حول ما يعرف اليوم بقصر الجوهرة ودار القلم ودار الضرب وجامعى محمد على والسلطان الناصر محمد ، وبعض ورش وأسلحة الجيش المصرى الحديث ، ويفصل البناء الجنوبى عن الشمالى سور غليظ ذو أبراج ضخمة أحدها برج المقطم ، وينقص البناء الجنوبى الدوائر المنتظمة والأسوار الحصينة فى الشروع البدائى أو على الأقل فى جزء كبير منه ، كما يفهم من عبارة المقريزى « وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال ، يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق ، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع »[(٢)] وهذا الجزء الجنوبى ليس من بناء صلاح الدين ؛ وهنا تثور مسألة بناء البئر اليوسفى أو الحلزونى ، لأنه مبنى فى الجزء الجنوبى من القلعة الحالية ، أو بعبارة أخرى أنه مبنى خارج القلعة الصلاحية وهى الجزء الشمالى من القلعة ، وهذه البئر حلزونى ، ويسمى بتلك الصفة كما يسمى البئر اليوسفى ، وعمقه ٢٨٠ قدما[(٣)] ، وتلك التسمية موضح شئ من الخلاف بين الشعبى والتاريخى فى البحث ، فهل هى نسبة إلى يوسف صلاح الدين أم إلى سيدنا يوسف عليه السلام ، كما يعتقد عامة الشعب المصرى فى العصر الحديث ، والنسبة الثانية فيما يبدو وهمية ، أما التسمية الغالبة بين مؤرخى العرب فهى « بئر القلعة » أو « البئر الحلزونى » . ورجح كازانوفا حفر البئر فى سنة ١١٨٧ (٥٨٣ ﻫ) وصلاح الدين بالشام ، وذلك بعد انتصاراته التى وفرت لديه آلافا من الأسرى الصليبيين ، الذين بعثهم إلى مصر لاستخدامهم فى الحفر والبناء ، واستعان قراقوش ،

(١) Van Berchem, Notes d' Archeologie Arabe p. 468

(٢) الخطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٢ .

(٣) Hist. SC. et milit V. II p.310 — Lane-Poole: Saladin p.152

عاء النيل أثناء عملية البناء بحفر قناة فى الصخر(١) ؛ أما حفر البئر فى موضع البناء الجنوبى وخارج قلعة الجبل الصلاحية فلا تأثير له فى نسبته إلى عصر صلاح الدين ، بل مما يدل على استراتيجية رديئة فى اختيار مكان الحفر ، لأن ذلك الاختيار جعل موارد المياه للقلعة الصلاحية فى خطر دائم . والواقع كما يبدو من تصميم قلعة صلاح الدين فى صدر بشبه جزيرة سينا ، وهى التى سبق الإشارة إليها فى الفصل الأول والتى يقع بئرها فى داخل أسوارها(٢) ، أن صلاح الدين وضع التخطيط الأساسى للقلعة الصلاحية بحيث يكون البئر داخل أسوارها ، وأن البئر حفرت بالفعل داخل أسوار البناء الشمالى . وأيد هذا القول كرزويل بعد أن مسح القلعة ، قياسا على ما ذكره العماد من أن سمة تحصيناتها ٣٢١٠ ذراعا هاشميا ، وتبين له أن محمد على باشا اقتطع جزءاً من البناء الشمالى وأضافه إلى الجنوبى عند ما قام بإصلاحاته المشهورة فى القلعة . ومما يدعم هذا الفرض المعقول أن السور الشرقى للقاهرة — رغم انتهائه عند باب الوزير — يجب أن يكون متصلا بالقلعة فى محاذاة برج المقطم ، وأن يمتد من برج المقطم جنوبا حتى البرج الذى يشرف على البئر ، والذى يسمى برج الساقية وارتفاعه ١٦,٥ مترا . ويعتقد كرزويل أن هذا الجزء من سور صلاح الدين لا يزال باقيا مدفونا تحت الحائط السميك الممتد من برج المقطم إلى برج الساقية(٣) . ووصف ابن عبد الظاهر هذه البئر « بأنها من عجائب الأبنية ، تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل أن أرضها مسامته أرض بركة الفيل وماؤها عذب . سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلواً فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها »(٤) . ويتفق هذا الوصف مع ما يشاهده الزائر اليوم للبئر .

(١) Casanova: La cit adélle pp590, 588, 573 .

(٢) انظر الفصل الأول ص ٣٥ — Hitti History of the Arabs p. 661 — أبو شامة ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣) انظر : Creswell op. cit. pp 126, 156, 457, 158

(٤) القلقشندى ج ٣ ص ٣٣٠ — ٣٣٢ — ٥٨٦ ذيل Casanova

حيث يرى على فوهتها الساقية التى أقامها الناصر محمد بن قلاوون ، وحيث يستطيع أن يهبط فى البئر إلى أسفلها بواسطة درجاتها المنحوتة فى الصخر .

وفصل صلاح الدين القلعة عن المقطم بخندق عميق ، شاهد ابن جبير عام ١١٨٣م (سنة ٥٧٩ هـ) أسرى الصليبيين يحفرونه فى الصخر بالمعاول ، واعتبره من العجائب الباقية الآثار ، وهو عميق الوادى وخطير على العدو ، وامتد هذا الخندق خارج سور القاهرة من الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده(١) . ورأى المقريزى فى القرن الخامس عشر الميلادى آثار الخندق باقية تعلوها بقايا سور القاهرة وأبراجه ، غير أن الخندق أنطم وتهدمت الأسوار التى كانت من ورائه(٢) ماعدا ما يراه الزائر فى عدة مواضع من القاهرة الحالية . وربما كان أحسن مواضع الابتداء لتلك الزيارة باب الوزير عند الحارة المعروفة اليوم بباب التربة وهى نهاية السور . وكان فى نية صلاح الدين أن يصله بسور قلعة الجبل ، غير أن الزائر لا يلبث أن يرى اختفاء السور من كان يقرب من الصخرة الواقعة تحت القلعة لموت صلاح الدين .

وآثار السور فى تلك المنطقة واضحة للعيان من باب الوزير حتى باب المحروق ، ويستطيع الزائر أن يسير عليه فى بعض جهاته التى يزيد عرضها على المترين .

ويحوى هذا القسم آثار سبعة من أنصاف الأبراج المستديرة ذات الطبقة الواحدة ، فيما عدا برج باب المحروق النصف دائرى والمكون من طبقتين ، وآثاره

(١) ابن جبير ص ٢٠ — The Story Of—Cairo p. 176. Van Berchem,: Note d,Archeologie Arabe P 468 — Wiet et Henri Preci de L' Histoire Vol. II P 229

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٠٤ — على باشا مبارك ج ٣ ص ٧١ — ويشترط فى حفر الخندق أن يكون عرضه واسعا بحيث لا يمكن اجتيازه فلا يقل عن أربعة أمتار ، وأن يكون عمقه متران على الأقل كيما يصعب نزول العدو فيه ، وأربعة أمتار على الأكثر كى لا تطول عليه المتاريس (البدورات السافرات فى فن الاستحكامات . ج ١ ص ١٢٠) وفى حالة الخنادق المبللة تؤخذ الاحتياطات الكافية لحمايتها بسد مجارى المياه وتحويلها إلى الخندق أو على الخندق من أقرب نهر إليه ، وفى حالة تعذر وجود خنادق مبللة حول القلعة القائمة على أرض كقلعة القاهرة مثلا ، يشترط فى حفر الخندق أن يكون منحدرا وعميقا بقدر ما تسمح التربة بالتعمق فى حفرها (أنظر Oman op. cit. Vol. II p. 20)

باقية للآن ، ولا يزال الشارع اللاصق به من ناحية القاهرة يسمى بشارع درب المحروق ، ويختفى السور تماماً شمال باب المحروق حيث لا يوجد حاجز يفصل بين مساكن القاهرة الحالية وتلال المقطم ، فإذا سار الزائر مائة أو مائتين من الخطوات جهة الصحراء الشمالية شاهد آثار باب البرقية بعد أن اكتشفته إدارة حفظ الآثار العربية عند تقاطع السور بشارع قطع المرأة الحالى ، والموصل ما بين صحراء قايتباى ومبانى المدينة الأزهرية الحديثة . ثم يختفى السور مرة ثانية بعد باب البرقية تحت رمال الصحراء إلى مسافة مائتى متر قبل برج الظفر ، ماعدا برجين متجاورين من طبقة واحدة ، وبعدها برج نصف مستدير من طبقتين يمتاز ببئر محفور فى أرضية وسط السور لجلب الماء إلى حامية البرج .

وأخيراً ينتهى المطاف عند برج الظفر الذى يقع شماليه حالياً مبانى مشتاة بوليس الأقاليم . ويعتبر برج الظفر آية من آيات الفن المعمارى الحربى ، ويتكون هذا البرج من طبقتين وسقفه على شكل قبو ، ونجحت إدارة حفظ الآثار العربية نجاحا كبيراً فى إزالة الأتربة عن البرج ومنطقته وأعادة ترميمه وإصلاحه ، ومهمة البرج هنا الإشراف الدقيق على الجهة الشمالية الشرقية من القاهرة ومراقبة اتجاهات السور الخارجية شمالا وشرقا[١] .

ومن برج الظفر يتجه السور غرباً مختفياً تحت مصنع الزجاج النموذجى ، ثم يبدأ فى الظهور بين مساكن القاهرة الملتصقة به من الداخل ومدافن باب النصر الملتصقة به من الخارج حتى يتصل بباب النصر على بعد ٥٥,٣ متراً جنوبيها .

ويشاهد على طول تلك المنطقة آثار أبراج ثلاثة ، نصف مستديرة من طبقة واحدة . أحدها عند عطفة سليمان بحارة الوساعة وعليه يرتكز منزل السيدة رقية أحمد ، والثانى عند حارة أطشا ، والثالث عند حارة البقرى ، وبالسور هنا بعض فجوات تسمح لسكان القاهرة بالمرور إلى المدافن .

(١) صحب الباحث فى تلك الزيارة الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب المفتش بادارة حفظ الآثار العربية — وراجع ما كتبه عن السور الصلاحى فى الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٥٧ ، ١٧٥ ، ٤ : ٢ ، Wiet op. cit Vol. 4 p. 515 — Casanova, op. cit pp. 541, 588, 539,

وعلى بعد ١٣٤,٣ مترا غربى باب الفتوح يظهر السور الصلاحى مرة أخرى عند قاعدة برج كبير نصف مستدير ، ثم يبدأ اتجاهه صوب الجنوب عند البرج المخمس الزوايا ، وهو البرج الذى بدأه الفاطميون وكمّله الأيوبيون فهو فاطمى الأصل وتجملاته وأجزاؤه الداخلية والحنايا المنكسرة للنوافذ صلاحية[١] ، ويسير السور واضحا وسط مساكن الأهلين التى ترتكز عليه من الجانبين ، ويظن أن صلاح الدين أقام سوره هنا على السور القديم ، وبعد أن يقطع السور منزل حسين أفندى الكاتب ينحرف إلى الجنوب الغربى ويسير فى محاذاة شارع البزازرة حتى ناصيته الواقعة على شارع الجيش (فاروق الأول) حيث يشاهد الزائر على تلك الناحية حجرا منقوش عليه « سور البلد القديم — إدارة حفظ الآثار العربية » ومن ثم يتجه السور اتجاهين مختلفين ، احدهما جنوبا مع شارع فاروق حيث يشاهد جزء منه بجوار محل شركة بيع المصنوعات المصرية ويظن أنه مكان باب القنطرة وقنذاك[٢] . والآخر يسير فى اتجاه شارع البزازرة مخترقا شارع فاروق عرضاً إلى ناصيته الغربية ويسير جنبا إلى جنب مع شارع الطبله الحالى ، وهناك يمكن مشاهدته إذا صعد الزائر على سطح المنزل رقم ١١ ملك الحاج سيد شملان ، ثم يوازى السور شارع الفجالة حتى باب البحر ، ينتهى عقد قلعة المقس[٣] التى اقامها صلاح الدين على النيل مكان جامع أولاد عنان الحالى — والراجح أن صلاح الدين بعد أن اتجه بالسور جنوبا مع شارع فاروق الأول الحالى حتى باب القنطرة ، غير اتجاهه تحت ضغط الأحداث السياسية والحربية فى فلسطين[٤] ، ففضل أن يتجه به صوب الغرب ليطل على النيل ضماناً للدفاع عن القاهرة وزيادة فى الإحتراز والتحصين .

ويلاحظ على هذا السور الصلاحى من الناحية المعمارية أنه يمثل نوعين من أنواع العمائر الحربية والتحصين ، ففى الجزء الممتد من باب الوزير حتى باب المحروق

(١) Van Berchem, : op cit. p 475

(٢) قنطرة باب القنطرة على الخليج الكبير يتوصل اليها من القاهرة ويمر فوقها إلى المقس وأرض الطبالة ، وأول من بناها القائد جوهر وكانت مرتفعة بحيث تمر المراكب من تحتها — الخطط ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) انظر Van Berchem, : op. cit p. 474 — على بهجت ص ٢٠ .

(٤) انظر الفصل السابع فيما بعد .

أبراج ذات الطبقة الواحدة ، وتتكون من قبو نصف دائرى يجرى يميناً إلى ستار الحائط بمزاغل ، تستخدم لرمى العدو المهاجم رمياً عمودياً بالسهام حتى يمكن منعه من الإقتراب من أساس السور ، ويكسو هذه المزاغل أقبية نصف دائرية تبلغ نصف ارتفاع القبو الرئيسى ، أما فى الخلف فيوجد ممر على جانبيه غرف للذخيرة ينتهى إلى أجنحة البرج ، ويصعد فى مدرجات إلى فتحة ستار الحائط الخالية من ممر طويل . أما ستائر الأسوار فرقيقة البناء ومبينية من قطع خشبية كبيرة . أما الجزء الثانى الممتد من درب المحروق إلى برج الظفر فباب النصر ، ثم من باب الفتوح حتى برج القسى فكانت أبراجه ذات طبقة أو طبقتين متقاطعتين عمودياً ومسقفه فى بعض الأوقات بمثلثات كروية ، ويختلف هذا الطراز عن السابق فى خلو ستائره من ممر طويل ، وإن كان يوجد على مسافات من ٣ و ١٨ إلى ٥ و ٢٧ مترا مخازن للذخيرة وحفظ المنجنيقات وجميع أنواع الات القتال . وبنيت الجوانب الخارجيه للأبراج والحوائط الأمامية من نوع معين من الحجارة المشقوقة الحواف ، على حين عملت جوانبها الداخلية من قطع خشبية مكسوة بطبقه رقيقة . ويتبع هذا النوع أيضاً سور الفسطاط ، والحديث عنه مؤجل إلى حوادث سنة ١١٨٥ م (٥٨١ هـ) .

والثابت المحقق ، أن صلاح الدين تأثر إلى حد كبير فى تحصيناته الحربية بقواعد الفن الحربى المعمارى الصليبى ، المستمدة من الفن الفرنسى بوجه خاص ، وهى قواعد ترجع أصلا إلى مدرستين رئيسيتين : الأولى المدرسة الفرنسية بالذات وتتمثل فى القصور التى شيدت على الشواطىء الغربية لنهرى اللوار والسين خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، وتمتاز بإقامتها على أرض مرتفعة وإحاطتها بسور تعلوه أحيانا أبراج مدورة ، مسقفة بالخشب والحديد ، والغرض منها جميعاً حماية القصر ، ويمكن مشاهدة الكثير من نماذج هذا الطراز المعمارى فى حصون الاسبتارية فى الشام (١) ، أما الثانية فهى المدرسة البيزنطية الشرقية أو ما يسمى بالشرقية وهى التى جمعت تقاليد العمارة الحربية عند العرب والرومان واليونان ؛

(١) Rey : Eiude sur las monuments de L' archit. Croises en Sy iP. 12—LesColonies fr p. 119

والتى ترتكز على قاعدتين أساسيتين ، وهما مضاعفة خطوط التحصين والدفاع ببناء سورين أو ثلاثة حول قلب الحصين ، ثم إقامة الأبراج البارزة على مسافات معينة فى تلك الأسوار وتزويدها بالسلاح والعتاد فى ستار . ونماذج ذلك الطراز فى البلاد الإسلامية قبل الحروب الصليبية كثيرة ، مثل بيت المقدس وأضاليا وانطاكية وفى القصور العربية القديمة كذلك بحلب وطرطوسة وعتليت بشمال الشام ، حيث أحيطت الأسوار بخنادق عميقة محفورة فى الصخر ومليئة بالماء . فلما أتاحت الحروب الصليبية لمهندسى الغرب دراسة تلك الحصون ، تبين لهم ضآلة معلوماتهم عن قواعد التحصين فنقلوا أخص مميزات العمارة الشرقية ، ويمكن ملاحظة الكثير من تلك المميزات فى حصون الداوية بالشرق (١) .

وكيفما كان الاختلاف بين مظاهر كل من المدرستين ، فإنه يمكن القول بأن أثر المدرسة الشرقية واضح كل الوضوح فى تحصينات بدر الجمالى للقاهرة ، من حيث الشكل المربع وقلة البروز الخارجى للبرج عن السور ، على حين يلحظ أثر المدرسة الفرنسية فى تحصينات صلاح الدين ، من حيث استخدام الابراج المستديرة ذات الطبقة الواحدة أو الطبقتين ، ومن حيث بناء القلعة على صخرة مرتفعة يستخدم بروزها للدفاع عن أسوار المدينة (٢) . ومما يوجب الالتفات هنا أن بدر الجمالى استعمل الحجر الكاسى ذا الحجم الصغير فى بناء سوره ، على حين استعمل صلاح الدين الحجر الكاسى ذا الحجم الكبير وغيره من الأحجار فى بناء سوره وبناء القلعة كذلك لأن الموكل بالمشروعين ، وهو قراقوش اتخذ حجارة الأهرام الصغار الموجودة بالجيزة لبناء القلعة والسور ، والدليل على ذلك وجود حجر من أحجار السور عثر عليه كازانوفا بالقرب من باب النصر به نقوش هيروغليفية ، فضلا عن ثلاثة أحجار أخرى فى أبراج الحائط الشرقى (١) . وكذلك قول المؤرخين العرب أن قراقوش

(١) Van Berchem, : Note d, Arch. p. 473—Rey : Edude sur les. p. 19—Oman Op. cit. Vol II p. 24, 26, 31

(٢) Van Berchem: Op. cit. P471—473— Lane Poole :the srory of cairo p. 175

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٣١ —Casanova : La citadelle p. 541— Lamb : The Flame of Islam p. 42.

هدم أهرام الجيزة الصغيرة لاستخدامها فى بناء تحصينات القاهرة ، وهدم صلاح الدين كذلك سور أنصنا[١] وحمل على كل مركب منحدر فى النيل حملا من أحجار ذلك السور لنقله إلى القاهرة حتى نقل أحجار السور كله بهذه الطريقة[٢] وعين صلاح الدين لنفقة بناء القلعة والسور قدرا معلوما من الرباع والاقطاع ، ومنها دار العيار وهى التى تعبر فيها الموازين ، فضلا عما كان جاريا من الأوقاف والرباع فى ديوان الأسوار[٣] .

لقد سبقت الإشارة إلى عودة صلاح الدين من الشام إلى القاهرة يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١١٧٦ ، حيث ظل مشغولا بشئونه الداخلية حتى أوائل فبراير سنة ١١٧٧ (الأربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٧٢ھ) ثم غادر صلاح الدين القاهرة إلى شمال الدلتا لمشاهدة تحصينات الثغور البحرية ، واستصحب معه ولديه الأفضل عليا والعزيز عثمان والعماد الاصفهانى ، واتخذ صلاح الدين طريقه أولا نحو دمياط فأقام بظاهرها يومين ، يستعرض ما جلبه الأسطول من غنائم الشام وسبيه ، فلم يسعه إلا أن يهب العماد من ذلك جارية . ثم واصل صلاح الدين سيره إلى الاسكندرية حيث صام بها أيام من رمضان ، وشاهد الزيادات التى أضيفت على سورها الدائر الذى أمر بعمارته غداة توليه الحكم بمصر . واستعرض صلاح الدين الأسطول بالاسكندرية ، فلاحظ أن سفنه بليت وأن آلاته أكلها الصدأ ، فأمر

(١) بلده بالصعيد الأوسط تقع على الشاطىء الشرقى للنيل ، قبالة الأشمونين وملوى الحالية من البر الآخر وسبب كثرة الأحجار المنحوتة بها أن الامبراطور هادريان كان قد جعلها مركزا للاقاليم الجنوبية عوضا عن الأشمونين ، وبنى بها الابنية الكبيرة من أجل ذلك ومنها سوران مبنيان بالحجر أحدهما خلف الآخر (على مبارك حـ ٨ ص ٩٥ ، ٩٧)

(٢) ابن جبير ص ٢٨ والخطط المقريزى حـ ١ ص ٣٣٠ ، حـ ٣ ص ٣٠٨ طبعة فيت واجه قياس حـ ١ ص ٧٠ Van Berchem,: Op. cit p 470 — Wiet et Henri: Precis de L'Hist Vol. II, p. 229.

(٣) الخطط المقريزية حـ ٢ ص ٣٤٣ ، حـ ١ ص ١٧٨ — بلغت عدة أبواب القاهرة خمسة عشر بابا على قول ابن إياس (حـ ١ ص ٧٠) وبنى سورها أربع مرات : أولها سور جوهر التى شيد من التراب سنة ٣٥٩ ھ ، وثانيها سور بدر الجمالى سنة ٤٨٠ ھ مستخدما فيه الطوب ، وثالثها ورابعها السور الصلاحى فى سنتى ٥٦٦ ، ٥٧٢ ھ وكانا من الحجر كما سبق الشرح فى المتن (راجع التفاصيل عن أسماء الأبواب وصفتها وموقعها فى المقريزى حـ ٢ ص ٢٠٤ ، ١٧٥ ، ١٥٧ — Casanova La citadelle p 552.

بإصلاح ذلك كله وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة ، ونقل من السلاح والعدد ما يحتاج إليه الأسطول وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه و و الأمير لؤلؤ ترجيحا ، لعدم إشارة المراجع إلى غيره من رجال الأسطول فى حياة صلاح الدين . ثم كتب صلاح الدين يأمر بإمداد قائد الأسطول بجميع ما يحتاج إليه من اللوازم والمؤن وأن لا يمنع من أخذ الرجال للخدمة[١] . حتى يستجمع السلطان قواه ويبدأ هجومه العام فى البر والبحر معا . وعاد صلاح الدين إلى القاهرة وصام بها بقية رمضان ، واستقبل فيها رسل ملوك الموصل وسلاجقة الروم الذين أخبروه ، بما لاقوه من اعتراض الصليبيين لهم فى الطريق ، وسلبهم أموالهم وأسرهم رسول صاحب حصن كيفا . فخفف عنهم المصاب وأكرم وفادتهم ، وخرج إلى فاقوس للصيد والقنص والتطلع إلى أخبار العدو لاختيار أنسب الفرص لمهاجمته . وعلم وهو مخيم على فاقوس أن الأساطيل الساحلية التابعة لدمياط والاسكندرية خرجت للكشف فى عرض البحر ، ورجعت بألف نفس من الأسرى الصليبيين[٢] .

ويظهر أن أخبارا جاءته وقتذاك جملته يقرر العودة سريعاً إلى القاهرة والخروج منها للقتال . والدليل على ذلك أن صلاح الدين لم يكد يصل القاهرة حتى أخذ يتأهب لغزو غزة وعسقلان ، وغرضه من تلك الغزوة غير واضح بالمصادر المعاصرة ، وإن كان الظاهر منها فتح الطريق الساحلى بين مصر وفلسطين لتأمين مدخل مصر الشمالى الشرقى من خطر الصليبيين كما فعل بالطريق المار بوسط شبه جزيرة سينا ، فضلا عن اجتذاب جزء من قوات الصليبيين نحو تلك الجهة لتخفيف الضغط عن الحاميات الإسلامية المرابطة بحماة وحارم ، وكان خروج صلاح الدين من القاهرة فى نهاية أكتوبر ١١٧٧ (٣ جمادى الأولى سنة ٥٧٣) .

(١) العينى حـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٩٦ — ابن أيبك : درر التيجان القسم الرابع ص ٣٧١ .

(٢) وصادف ذلك يوم عيد النحر فقال الشاعر ابن رواحة مهنئا به ومعرضا بما وهب صلاح من الإماء والعبيد :

زهت اسكندرية يوم صيدوا ودمياط إلى الميناء بغين

أبو شامة حـ ١ ص ٢٧٠ .

بعد الصلاة حتى إذا خيم بظاهر بلبيس أمر بالمناداة فى المسكر بأخذ زاد عشرة أيام أخرى للاستظهار . وركب العماد إلى سوق العسكر لشراء لوازمه فلاحظ ارتفاع الأسعار وغلوها ، وخطر له العدول عن المشاركة فى تلك الغزوة لألم بقدميه ، وأمر خادمه بعرض أحماله وأثقاله للبيع[(١)] ، مما يفسر الناحية الاقتصادية فى الحروب وتأثر الأسعار بأنباء القتال . ثم سار صلاح الدين شمالا حتى اقترب من الساحل على رأس قوة من عسكره الثابت ، قدرها المؤرخون بأربعة عشر ألف فارس[(٢)] وحشد معه من العرب ستة وعشرون ألف مقاتل ، منهم ثمانية آلاف طواشية بما فى ذلك ألف مملوك بكلوتاتهم الصفراء ، الزى الرسمى للجيش المصرى الأيوبى[(٣)] ، وثمانية عشر ألف قراغلامية من السودان وهم من طبقة المشاة المصرية القديمة ذات الأسلحة المميزة[(٤)] . وإذا كان المعروف أن صلاح الدين حارب السودانية وقضى عليهم نهائياً سنة ١١٦٩م (٥٦٤هـ) حتى « أصبح أمر السودان كأن لم يكن » على قول ابن واصل[(٥)] ، فالواضح من وجود القراغلامية من السودان فى تلك الحملة أنه عاد إلى استخدامهم فى الجيش ، وأدرك أهمية تجنيد السودانيين فى الجيش المصرى ، وأن الحاكم المصرى مهما بلغ من القوة لا يستطيع بحال من الأحوال أن يغفل شأنهم فى تكوين جيشه . والثابت المحقق أن جميع حكام مصر من زمن الفراعنة حتى اليوم لم تغب عنهم هذه الحقيقة التاريخية .

وفى نهاية نوفمبر سنة ١١٧٧ (الأربعاء ٢٩ جمادى الثانى سنة ٥٧٣) أشرف صلاح الدين على عسقلان واكتسح حصونها وغنم وأسر ، وجمع بها من كان معه من الأسارى فضرب أعناقهم . ثم تقدم نحو الرملة فاعترضه نهر تل الصافية ولم

(١) المرجع السابق حـ ١ ص ٢٧١ وأنظر Gibb : The Arabic Sources for the Life of Saladin p. 70

(٢) الذهبي جـ ٢٦ ص ١٢٥ .

(٣) القلقشندى حـ ٤ ص ٤٠ . Carman : op. cit. p. 14

(٤) يرى لينبول Saladin p.154 أن طواشية أصلها طواويس Toassin على قول وليم الصورى ، والطاووس يعبر عن الرجل الجميل ، فالطواشية مختارون من فئات راقية وصار بعضهم قوادا فى جيش صلاح الدين ، ويستبعد لذلك أن تكون Toassin المشار إليها مأخوذة من طواشى .

(٥) ابن واصل : كتاب مفرج الكروب ص ١١٠

يتيسر للعسكر الاحتفاظ بنظامهم استعداداً للقتال المفاجىء ، وبينما هم على تلك الحال أشرف عليهم الصليبيون أول ديسمبر سنة ١١٧٧ (الجمعة ثانى جمادى الثانى سنة ٥٧٣) ومقدمهم البرنس أرناط صاحب الكرك — واسمه الأصلى قبل أن يأتى الشرق Renaud de chatillon — فى جموع كثيرة ومعه بلدوين الثالث ملك بيت المقدس يحمى ظهره ٣٧٥ فارس ، ولم يكن مع صلاح الدين غير بعض العسكر لأن أكثرهم افترق فى السرايا وطلب الغنيمة ، فلما رآهم صلاح الدين وقف لهم فى من معه ، وتقدم بين يديه محمد الكامل ابن أخى صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدى عمه ، وتقدم بعده أحمد بن تقى الدين عمر بأمر من أبيه ، فحمل على العدو وقاتلهم وعاد سالماً بعد أن أثر فيهم أثراً بالغاً ، فأمر بالعودة إليهم ثانية ففعل وقتل شهيداً . وكان أشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى الهكارى . وصوب العدو حملته على السلطان فثبت ووقف ، وسمعه العماد يوما يصف ذلك الموقف قائلاً : « رأيت فارساً يحث نحوى حصانه ، وقد صوب إلى نحوى سنانه فكاد يبلغنى طعانه ، ومعه آخران قد جملا شأنهما شأنه ، فرأيت ثلاثة من أصحابى خرج كل واحد إلى واحد منهم ، فبادروا وطعنوه وقد تمكن من قربى فما مكنوه ، وهم إبراهيم ابن قنابر ، وفضل الفيضى ، وسويد ابن غشم المصرى ، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المشر[(١)] ، غير أن صلاح الدين مضى بعد ذلك منهزماً لا يلوى على شىء ، فيسير قليلا ثم يقف ليلحقه العسكر ، والشجعان الثلاثة فى صحبته إلى أن دخل الليل ، وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ولا زاد أو علف . وأوقع اختفاء صلاح الدين الرعب فى الصفوف ، فخرج القاضى فى بعض أدلائه يتلمس مكان صلاح الدين ، وبثهم فى الرمال حتى اهتدوا إليه وأسعفوه بما كان معهم من الزاد والعلف[(٢)] . ثم جد الجميع فى السير إلى مصر ، ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء ، وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً

(١) أبو شامة حـ ١ ص ٢٧٣ — السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٦٤ — ابن شداد ص ٤٢ Lane-Poole : His. Hist p. 205

(٢) ابن واصل ص ٢٠٠ — ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٢١٧ — ابن مخرمة ص ٨٧٣ .

ومزعة سير . واما العسكر الذى تفرق فى طلب الغنيمة داخل حصون الصليبيين بفلسطين فإن أكثرهم ذهب بين قتيل وأسير . وكان من جملة المأسورين فى وقعة عسقلان الفقيه عيسى الهكارى وأخيه الظاهر ، إذ هاما على وجههما منهزمين فوقعا فى أيدى الصليبيين ، وجماعة من أصحابهما وبقوا سنين فى الأسر حتى افتداه صلاح الدين وجماعة من الأسرى بستين ألف دينار . ووصل صلاح الدين القاهرة نصف ديسمبر سنة ١١٧٧ (الخميس ١٥ جمادى الثانى ٥٧٣ هـ) بعد أن سبقه إليها خبر الهزيمة مع النجابين وما صدق أهل مصر بنجاته حتى نظروا إليه وصار الأمر كما قيل « رضيت من الغنيمة بالإياب »[1] ومع هذا دقت البشائر فى البلدان فرحاً بسلامة السلطان . ولم ينس الشعراء إذ ذاك أن عليهم واجباً عظيما هو تهدئة خاطر صلاح الدين والاعتذار عن هزيمته وتهوين أمرها عليه[2] .

وهكذا هزم صلاح الدين فى أول تجربة له واحتكاك جدى مع الصليبيين فى وقعة الرملة ، التى عرفتها المراجع الغربية بوقعة Mont-Gisart[3] ويبدو أن الهزيمة كانت شنيعة ، بدليل ما ذكره ابن الأثير أنه قرأ كتابا كتبه صلاح الدين بخطه إلى أخيه شمس الدولة توران شاه يصف هزيمة عسقلان بعد وقوعها بسنين ، يقول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما أنجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده سبحانه ، وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر[4] » ولذلك حلف صلاح الدين ألا تضرب له نوبة حتى يكسر الصليبيين ، كما قطع اخباز جماعة من الأكراد ارجع إليهم سبب الهزيمة[5] . غير أن الأكراد لم يكونوا وحدهم سبب الهزيمة ، بل يبدو أن اخطاء فنية فى التاكتيك الحربى للوقعة ارتكبتها قيادة الجيش ،

---

(١) ابن كثير ﺣ ١٢ ص ٢٩٧ .

(٢) من ذلك ما قاله ابن سعدان الحلبى :

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم ... أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس ... مرت على أصبعيه لذة العسل

أنظر : أبو شامة ﺟ ١ ص ٢٧٤ — حمزة : أدب الحروب الصليبيين ص ١١٩ —

(٣) Wiet : Precis Vol II p. 217

(٤) ابن الأثير ﺣ ١١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ — ابن خلدون ﺣ ٥ ص ٢٩٢

(٥) السلوك ﺣ ١ قسم ١ ص ٦٥ .

المصرى الأيوبى أثناء ملاقاة العدو عند الرملة ، إذا اضطربت صفوف العسكر أثناء عبور النهر ، وانساح العسكر فى شتى الجهات جريا وراء الغنائم دون الانصياع للأوامر والاحتفاظ بالنظام ، وسواء رجعت هزيمة صلاح الدين إلى تلك الأسباب أو إلى غيرها مما قيل ، كغضبة الشيخ محمد بن الموفق نجم الدين أبو البركات على صلاح الدين لخلاف بينهما ، وقوله له قبل خروجه بالحملة إلى غزة « قم لا نصرك الله[1] » فإن صلاح الدين أخذ درساً عسكريا قاسيا من تلك الهزيمة وتعلم ألا يكون متهورا ومتعجلا للحوادث[2] . كما تعلم أن مجاهدة الصليبيين وإكمال سلطانه على بلاد نور الدين فى وقت واحد ليس من الهين ، وأن مهاجمته الصليبيين ولما تكتمل سيادته على بلاد نور الدين فيه خطر كبير .

وما كاد صلاح الدين يفرغ من اصلاح ما أحدثت واقعة الرملة بجيوشه حتى أخبره البريد بتخبط الشام لاختلاف السلطان الطفل مع كمشتكين ، واشتداد المرض على شهاب الدين الحارمى صاحب حماه وهو خال صلاح الدين ، وانهماك شمس الدولة توران شاه نائب صلاح الدين بدمشق فى الملذات وانصرافه عن شئون الجهاد ، وانتهاز الصليبيين الفرصة السانحة بحصار حماة مدة أربعة أيام فى نوفمبر سنة ١١٧٧ (٢٢ جمادى الأولى سنة ٥٧٧) وكانت أخبار هذه الحركة الصليبية هى التى أقضت مضاجع صلاح الدين ، إذ أخبره البريد بأن الصليبيين كادوا يملكون البلد قهراً وقسرا لولا استقتال المسلمين ، وأنهم اتجهوا بعد ذلك صوب حارم وحاصروها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها المنجنيقات والسلالم ، ولم يرحلهم عنها إلا ما بذله السلطان اسماعيل لهم من المال وخوفهم من وصول صلاح الدين[3] . ولهذا كله أخذ صلاح الدين يتأهب للسفر إلى الشام ، فخرج ومعه القاضى الفاضل إلى بركة الجب شمالى القاهرة ، حيث مكث هناك شهرا ونصف يستعرض العساكر ويضع الخطط . وبدأ الرحيل فى بداية

---

(١) الذهبى ﺣ ٢٦ ص ١٢٥ ،

(٢) انظر : Stevenson op cit p 206

(٣) ابن خلدون ﺣ ٥ ص ٢٩٢ — ابن الأثير ﺣ ١١ ص ٤٥٩ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ﺣ ٦ ص ٢٧ .

ابريل سنة ١١٧٨ (يوم عيد الفطر سنة ٥٧٣) بعد أن استناب بمصر أخاه الملك العادل ، وأقام بها معه القاضي الفاضل لعزمه الحج والزيارة في السنة القابلة ، ومر صلاح الدين بطريق صدر — أيله ، فوصل دمشق في نهاية ابريل (٢٤ شوال) وفي دمشق جاءته رسل الخليفة بالتشاريف ، وكذلك بريد مصر ، وأخبره البريد بأن بعض الصليبيين انتهزوا فرصة سفره إلى الشام وساروا إلى قلعة صدر الواقعة شرق السويس الحالية(١) ، فصدتهم حاميتها فاتجهوا شمالا للإغارة على فاقوس ولكنهم صدوا أيضاً(٢) ، والواضح أن غرضهم من هاتين المحاولتين هو منع الامداد عن صلاح الدين وقطع خطوط تموينه الخلفية وصلته بمصر وإمكان غزوها .

والواقع أن العام الهجري الجديد (٥٧٤) أهل يوم ١٩ يونيو سنة ١١٧٨ وصلاح الدين مشغول البال بأمور مصر والشام ، فالقلعة وأسوارها لا تزال في دور البناء ، والصليبيون يتحرشون بالمسلمين في أكثر من موضع ، ولابد من إصلاح القلاع الشامية كذلك استعداداً لما سوف تتمخض عنه الحركة الصليبية ، ودليل واضح على مشغلة صلاح الدين بشأن القلعة وأسوارها ما ورد إليه عن مصر بخط القاضي الفاضل وصلاح الدين نازل على العاصي في طريقه إلى حمص ، ونصه « وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى ، شرع فيه وظهر العمل وطلع البناء ، وسلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم ؛ والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقاً مستديراً على البلدين ، وسوراً بل سواراً يكون به الإسلام محلى اليدين ، محلاً الصديق ، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله ، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله ، قليل التثقيل ، مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله »(٣) . أما الشام فيتضح اهتمام صلاح الدين بأعمال التحصين فيه تلك السنة مما يراه الزائر ماثلا على قلعة دمشق إلى اليوم ونصه « جدد هذا البرج في أيام مولانا

(١) أنظر ما سبق بالفصل الأول ص ٢٤
(٢) السلوك ج ١ قسم ١ ص ٦٥ — أبو شامة ج ١ ص ٢٧٦ .
(٣) أبو شامة ج ٢ ص ٧ — Wiet, Vol IV p.315

... الناصري صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب سنة ٥٧٤ »(١) (١١٧٨) . وأما الصليبيون فقادوا إلى مدينة حماة في أغسطس سنة ١١٧٨ (ربيع الأول ٥٧٤) وعاثوا في نواحيها واكتسحوا أعمالها ، فخرج إليهم الأمير ناصر الدين منكورش فهزمهم واسترد ما أخذوه ، وبعث بالرءوس والأسرى إلى صلاح الدين وهو بظاهر حمص فأمر بضرب أعناقهم(٢) ، وفي تلك السنة كذلك طلب شمس الدولة تورانشاه بعلبك من أخيه صلاح الدين ، وكان صلاح الدين أقطعها لابن المقدم سنة ١١٧٥ مكافأة له على تسليمه إياه دمشق ، وألح تورانشاه في طلبها لأمر في نفسه لم تبينه المراجع ، وخضع صلاح الدين لالحاحه فأشار على ابن المقدم النزول عنها مقابل اقطاع آخر لم تبينه المراجع كذلك ، غير أن ابن المقدم رفض تسليمها واعتصم بها فحاصره صلاح الدين بعسكر من غير قتال ، حتى طلب ابن المقدم العوض مقابل تسليمها فعوضه صلاح الدين حصن بعرين وأعماله وبلد كفرطاب وقرى من بلد المعرة(٣) . ومن هنا يتضح ايثار صلاح الدين أهله من دون الأمراء أصحاب الخدمات الجليلة في دولته ، وتلك صفة سوف تتضح على وضوحها هذا في أحداث سنة ١١٨٦ (٥٨٢ هـ) ، حين أخذ يؤثر بنيه على بني عمه أو بني عمه على الأمراء .

وأراد الصليبيون الاستفادة من انشغال صلاح الدين بأمر بعلبك ومقامه عليها ، وشرعوا في بناء حصن منيع قرب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الأحزان ، أو مخاضة الاضرار على قول ابن خلدون(٤) لزعمهم أن يعقوب اعتاد الانفراد فيه والبكاء على يوسف(٥) . وتقع تلك المخاضة على مسافة يوم من دمشق ونصف يوم من صفد وطبرية ، وتتحكم في طرق القوافل ، وتصلح قاعدة حربية لانفاذ الحملات الإسلامية أو الصليبية إلى كل

(١) Wiet, et Henri : Repertoire Vol. IX p. 93
(٢) ابن واصل ص ٢٠٦ — أبو شامة ج ٢ ص ٣ .
(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٩٨ .
(٤) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٩٣
(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٢٢٥ .

الجهات ، فضلا عن قربها من كروم دمشق وحقولها وأشجارها . ولأهمية هذه البقعة من الناحيتين الاستراتيجية والاقتصادية اتفق المسلمون والصليبيون على تقسيمها مناصفة بينهم ، على أن تكون حدود المناصفة شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح [(١)] .

وعلى الرغم من ذلك كله ، عمد الصليبيون إلى بناء حصنهم قرب مخاضة الأحزان ، وظنوا أنهم يخفون عمارتهم الحربية بالقيام بمحاولتين حربيتين لغزو بلاد المسلمين ، في نهاية تلك السنة (١١٧٨ م — ٥٧٤ ﻫ) ، فاتجهت الحملة الأولى من هاتين الحملتين إلى أعمال دمشق ، فصدها فرخشاه بن أخى صلاح الدين بعد أن قتل جماعة من رجالها منهم الهنفرى صاحب حصن بانياس . وقام بالحملة الثانية بيهوموند الثانى صاحب انطاكية وريموند الثالث صاحب طرابلس ، وكان صلاح الدين على علم بتلك الحملة واتجاهها الراجح ، فرتب ابن أخيه تقى الدين عمر على حماه ، ومعه ابن المقـــدم وسيف الدين المشطوب ، ورتب ابن عمه ناصر الدين على حمص [(٢)] .

وبذلك ألقى صلاح الدين الحوطة على الصليبيين وحملتهم هذه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ليحول دون خروجهم من حصونهم حتى يستطيع هو مهاجمة حصن بيت الأحزان . غير أن مشوره قرر أن يسبق منازلة ذلك الحصن القيام بغارة عامة على العدو فى يوم واحد ، لاستيعاب ما فى دياره من الغلات ، وسرعان ما انتشرت قبائل العرب فى صيـدا وبيروت وغيرها ، تحصد غلات الصليبيين ومحاصيلهم ، وعادوا بها على جمالهم إلى حيث كان السلطان معسكراً قرب

---

(١) ابن واصل ص ٢٠٦ — Lane Poole. Saladin p. 158. — واعترضت تلك الشجرة الرحالة الاندلسى ابن جبير (ص ٢٨٢) فى منتصف الطريق ما بين دمشق وعكا ، وقال عنها أنها تعرف بشجرة الميزان ، لأنها حد بين الأمن والخوف فى هذه الطريق لحرامية الأفرنج وهم الحواسة والقطاع ، من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الأفرنج بقدر ذلك اطلق سبيله لهم . فى ذلك عهد يوفون به وهو من اظرف الارتباطات الافرنجية واغربها .

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ٦ — السلوك ج ١ قسم ١ ص ٦٧ .

بانياس . وعندما جاءه الخبر بخروج الصليبيين عليهم ، سار فى المساء كر مجداً حتى وافاهم وهم فى القتال بمكان يعرف بمرج عيون . ولقيه الصليبيون فى ألف رمح وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل ، فاقتتلوا قتالا عنيفاً انهزم فيه الصليبيون يوم ١٥ يونيو سنة ١١٧٩ (الأحد ٢ محرم سنة ٥٧٥) وركب المسلمون أقفيتهم يقتلون ويأسرون حتى حال الليل بينهم ، وعاد السلطان إلى مخيمه وقد مضى أكثر الليل وجلس ومعه حوالى عشرين من خواصه يستعرض الأسرى ، والعماد يسجل أسماءهم بقلمه على ضوء المصباح وأحصاهم بمائتى وسبعين ، من بينهم بادين ابن بارزان صاحب الرملة ، وأود مقدم الداوية ثم مقدم الاسبتارية ، وابن القومصية وصاحب طبرية ، وأخو صاحب جبيل وصاحب جنين ، وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية ، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا وغيرهم من مشاهير فرسانهم ووضعت القيود فى أرجلهم جميعا وسيقوا إلى دمشق للاعتقال بها . وعاد صلاح الدين إلى دمشق ففدى ابن بارزان بعد سنة بمائة وخمسين ألف دينار وإطلاق ألف أسير من المسلمين من بينهم الفقيه عيسى الهكارى ، وفدى ابن القومصية بخمسة وخمسين ألف دينار صورى [(١)] . ومات أود odo فى المعتقل فأخذت جثته بأسير مسلم أفرج عنه [(٢)] . وفى الوقت الذى أغارت فيه قوات صلاح الدين البرية على ضياع الصليبيين وقلاعهم الخارجية ، أمر أسطوله البحرى بالخروج إلى عرض البحار ومهاجمة الموانى الصليبية ، لامتصاصه ما أمكن من قوات العدو وتخفيف الضغط عن الميدان البرى فى مرج عيون ، فخرج الأسطول على الفور فى أوائل تلك السنة (٥٧٥) فى ستين شينيا وعشرين طريدة إلى تلك الموانى ، ودوخ أسطول العدو وأحرز نصراً كبيراً فى نفس اليوم الذى كسر فيه الصليبيون

---

(١) الدنانير الصورية أو المشخصة أو الأفرنتيه هى الأفرنجية ، وميزتها عن الدنانير المصرية الإسلامية فى العصور الوسطى أن صور ملوكها منقوشة على وجوهها ، فضلا عن كونها مضروبة أصلا فى مدينة صور وقد نسبت إليها — دكتور زيادة حاشية ص ٦٨ من السلوك ج ١ قسم ١ — القلقشندى ج ٣ ص ٤٣٧ — ليتبول Saladin p. 158

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ١ ، ٣ — السلوك ج ١ قسم ١ ص ٦٨ .

...ن وأسر ألف أسير وبطاتين كبيرتين ، وسيق الأسرى إلى القاهرة ...امهم في بناء قلعتها[1] .

...ا ظل صلاح الدين مشغولا بالصليبيين ، تحرك قلج أرسلان سلطان ...ة بالروم نحو حلب بسبب قلقه من قيام دولة مصرية أيوبية على حدود ...، حتى حاصر حصن رعبان مدعياً أن نور الدين اغتصبه منه وأن السلطان إسماعيل أمر برده إليه ، ولم يقم صلاح الدين وزنا لهذا الادعاء فكلف ... تقي الدين عمر والأمير سيف الدين المشطوب بصده ، وقد نجحا في مهمتهما ...لى مطامعه التوسعية في تلك الجهة[2] .

...ن ثم تهيأت الأسباب المعنوية والمادية عند صلاح الدين ليعاود الاهتمام ... حصن بيت الأحزان ، فكتب إلى الصليبيين يطلب إليهم هدمه ، فأبوا ...م مرة ثانية ، فطلبوا إليه أن يدفع لهم ما غرموا عليه ، فقبل وأخذ في ...م لتحديد المبلغ حتى وعد بدفع مائة ألف دينار فلم يقبلوا ، واعتبر ... الدين أنه في حل بعد ذلك لمهاجمة الحصن ، فأغار عليه مرتين وعاد منهما بالغنائم ...ى ، ثم كتب إلى أجناد البلاد الشامية وعشائرهم وقبائل التركمان يستدعيهم ...ليهم الأموال والخيول والتشاريف واكتمل صلاح الدين جيشاً كبيراً ... إلى المخاضة وخيم بالقرب منها يوم ٢٥ أغسطس سنة ١١٧٩ م (السبت ...ع الأول سنة ٥٧٥ هـ) .

...م ركب صلاح الدين يوم الأحد إلى ضياع صفد وكانت قلعتها يومئذ ملكاً ...ة ، وأمر بقطع كرومها لينصبها ستائر المنجنيقات[3] ، وجمع العسكر ...رجون والأخشاب شيئا كثيراً .

(١) ابن واصل ص ٢١ ـ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٩٤ — : Lane - Poole
His Hist. p. 206

(٢) انظر ابو شامة ج ٢ ص ٨ — ٩ — ابن كثير ج ١٢ ص ٣٠٢ .

(٣) لا تزال هذه الطريقة مستعملة في الحروب حتى العصر الحاضر لتغطية مدافع ... وقد بالغ الحربيون في استعمالها في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) ... في اليابان وبورما — حتى كان الجند يعلون فوق رءوسهم فروع الأشجار ليختلط ... العدو تمام الاختلاط .

وعاد صلاح الدين إلى المخاضة في نفس اليوم ، واستقر رأيه على قتال الحصن بطريقتين من التكتيك الحربي في آن واحد ، وهما القتال زحفا وقد أشار بها الأمير جاولي الأسدي مقدم الأسدية ، وهي طريقة قديمة شائعة في الحروب الإسلامية[1] ، ونقب الأسوار وهي خاصة بعمليات الحصار ، واستعملها الجيش المصري الأيوبي في حصار بيت يعقوب المرة الأولى في حروبه ضد الصليبيين فيما يبدو .

وتتلخص تلك الطريقة الثانية في نقب أسوار الحصن نقباً يجعله محمولا على قوائم خشبية يدقها النقابون بعد دعمها بالنفط[2] ، ثم تملأ المسافة بين القوائم بالقش والحطب ونشارة الخشب وتشعل فيها النيران ، فتأكل النيران القوائم الخشبية ويتداعى السور على الفور ، ويجد المهاجمون طريقهم إلى الحصن ، ولم يحسن العسكريون إجادة تلك العملية تماماً إلا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[3] .

وفي عصر ذلك اليوم (الأحد ٢٦ أغسطس سنة ١١٧٩) نادى صلاح الدين بمقاتلة الحصن زحفا ، فزحفت جنوده في سرعة ، وصعد رجل من العامة في قميص خلق إلى باشورة الحصن ، وتبعه غيره من اضرابه فلحق به الجند حتى ملكوا الباشورة . ولم ير الصليبيون بدا من النجاة بأنفسهم إلى اسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم حتى يأتي إليهم المدد من طبرية ، غير أن المسلمين ألحوا في القتال رغبة في الوصول إلى نتيجة حاسمة قبل وصول المدد . وأدرك الليل قبل أن تتضح النتيجة فأمر صلاح الدين بالمبيت في الباشورة إلى الغد ، وفي الصباح تقدم النقابون داخل الأبراج الخشبية[4] إلى أسوار الحصن وهي بالغة في الضخامة ، إذ كان

(١) راجع التفاصيل عند ابن خلدون في مقدمته التاريخية ص ٢٢٧ ، ص ٢٢٨ .

(٢) كتاب فهرست المكتب ص ٨٠ .

(٣) Oman : Vol II pp. 50, 133, 134

(٤) جرت العادة — خوفا من وقوع السور على النقابين فيقتلون عنه أو تعرضهم لسهام الحامية المدافعة ونيرانها لتوقف عمليات النقب — أن يتقدم النقابون تحت ستار واقٍ أسماه الحربيون Testudo ، بينما عرف عند الشرقيين بأسماء مختلفة مثل : الترّاسة ، والحاوات والجنوية ، والطوارق ، والدبابة ، والأبراج الخشبية المجلدة الخ — راجع كتاب فهرست المكتب ص ٧٢ ، Archer & Kingsford : the Crusades : p. 352

سمكها عشرة أذرع بالبخارى الذى يقوم ذراعه بذراع ونصف ، واستعمل فى بنائها ما يزيد على عشرين ألف حجر ، كل فص منها من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها ، وتتكلف بنيان الحجر أربعة دنانير فما فوقها[1] . وفرق صلاح الدين جوانب البرج على الأمراء لنقبه ، فأخذ عز الدين فرخشاه الجانب القبلى ، وأخذ السلطان الجانب الشمالى ، وأخذ ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه بقربه ، وكذلك ابن أخيه تقى الدين عمر ، ولم يبق كبير فى الجيش دون القيام بقسمه فى النقب ، وما زال الشكل على تلك الحالة حتى بلغ طول النقب ثلاثين ذراعا فى عرض ثلاثة أذرع ، وحشى النقب بالحطب ، وأشعلت فيه النيران فلم يسقط أيضاً . ولذا أمر صلاح الدين بإطفاء النار ليتم نقبه ووهب كل من جاء بقربة ماء دينارا . وشاهد العماد الناس متزاحمين على حمل قرب الماء « وأوعيته حتى أغرقوا الثقوب وأخمدوا النيران » وعاد النقابون إلى عملهم حتى خرقوا السور فخرقوه وعمقوا الخرق وفتحوه ، ثم حشوه بالقش والحطب وأشعلوا النار فسقط السور لساعته يوم الخميس ٣٠ أغسطس سنة ١١٧٩ (٢٤ ربيع الأول سنة ٥٧٥)

وكان الصليبيون قد جمعوا وراءه حطبا ، فلما وقع السور دخلت الرياح فردت النار على من به ، وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم واجتمع الباقون إلى الجانب البعيد من النار وطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين . وغنم المسلمون مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة ، عدا ألف زردية فضلا عما كان فيه من أقوات وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة كان الصليبيون اختزنوها استعدادا لمقاومة طويلة . وكانت حامية الحصن تتكون من ثمانين فارسا بغلمانهم وخمسة عشر مقدما للرجال ، مع كل مقدم خمسون رجلا عدا الصناع ما بين بناء ومعمار وحداد ونجار وصيقل وسيوفى وصناع أنواع الأسلحة . ووجد صلاح الدين بداخل الحصن من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة رجل ، فأمر بنزع القيود من أرجلهم ووضعها فى أرجل الصليبيين المأسورين ، البالغ عددهم نحو السبعمائة الذين اقتيدوا مخفورين إلى معتقل الأسرى بدمشق ؛ وأقام صلاح الدين فى منزلته حتى هدم الحصن

(١) ابو شامة جـ ٢ ص ١٣ .

وسوى به الأرض ، وطم جب الماء الذى حفره الصليبيون وسط الحصن برمى قتلاهم ودوابهم المحرقة بالنار فيه ، ويناهز عددها ألف قتيل أنتن الحر جثثهم ، وتسبب عنها وباء فى المعسكر الإسلامى مات بسببه أكثر من عشرة من الأمراء بعد جهاد أربعة عشر يوما أقاموها على الحصن . وعاد صلاح الدين إلى دمشق فمدحه عدة من الأمراء والشعراء وهنأوه بالفتح[1] .

وقبل نهاية تلك السنة (١١٧٩ م — ٥٧٥ هـ) أحرز صلاح الدين نصرين آخرين على الصليبيين ، أحدهما بحرى والآخر برى ، إذ خرج الأسطول المصرى من مصر فى أكتوبر سنة ١١٧٩ ليغزو الساحل الصليبى ، ولزمه رجال تدربوا على قتال البحر والبر معا أكثرهم من المغاربة[2] العارفين بغزو بلاد العدو ، وتمكن الأسطول من دخول ميناء عكا يوم الأحد ١٨ أكتوبر سنة ١١٧٩ (١١ جماد الأولى سنة ٥٧٥) والإستيلاء على عدة من مراكب العدو . وانتصر إنتصاراً مبينا سجله صلاح الدين فى كتابه إلى وزير بغداد بخط القاضى الفاضل « وهذا مما لم يعهد من الأسطول الإسلامى مثله فى سالف الدهر ، لا فى حالة قوة إسلام ولا ضعف كفر »[3] وهذا القول مثال من مبالغات مؤرخى المسلمين ، الذين غاب عنهم الإنتصارات البحريه فى عصر بنى أمية وفى العصر العباسى الأول ولا سيما فى صقلية وفى إبريل سنة ١١٨٠ أغار عز الدين فرخشاه على بلاد الصليبيين حتى وصل إلى قلعة صفد المطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم وعاد إلى دمشق[4] ، على حين ظل الأسطول يواصل نشاطه على الساحل حتى ظهر فى مياه أنطرسوس بين طرابلس واللاذقية فى مايو

(١) انظر : ابو شامة جـ ٢ ص ١١ — ١٣ — ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٠١ — ٣٠٣ العينى جـ ٢١ قسم ٣ ص ٦١٤ — ٦١٥ السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٦٩ — ابن واصل ص ٢١٢ — Lane—Poole : Saladin p. 159

(٢) استخدم صلاح الدين المغاربة فى الأسطول منذ سنة ١١٧٩ (٥٧٥) فيما يبدو وسيأتى الكلام عن هذا الموضوع فى الفصل السابع .

(٣) ابو شامة جـ ٢ ص ١٤ .

(٤) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٠٤ — السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٦٩ — قام فرخشاه بتلك الغزوة بعد أن تسلم بعلبك من توارنشاه الذى أرسله أخوه صلاح الدين إلى مصر عن ضعف من العسكر واستنابه بالاسكندرية فوصلها فى بداية سنه ٥٧٥ هـ وظل بها حتى مات فى أوائل ٥٧٦ — انظر ابو شامة جـ ٢ ص ١٤ ، ١٦ .

من تلك السنة ، فانزعج بلدوين الرابع واضطر إلى إرسال الرسل إلى صلاح الدين في طلب الصلح . ولما كانت خطة صلاح الدين في تلك الفترة تميل إلى مسالمتهم بأى ثمن ماداموا هادئين ليلتفت إلى مشاريعه الحربية إزاء الأمراء المسلمين، أجابهم إلى طلبهم وعقد معهم هدنة لمدة سنتين في بداية العام الهجرى الجديد (٥٧٦) يوم ٢٨ مايو سنة ١١٨٠ ، وشمل هذا الصلح ريموند صاحب طرابلس ، على حين ظلت انطاكيه واميرها بيمو هند الثالث على عدائها لصلاح الدين[١] .

وتوفى سيف الدين غازى صاحب الموصل في منتصف ذلك العام الهجرى (٥٧٦) وجلس مكانه أخوه عز الدين ، فكتب صلاح الدين في يونيو سنة ١١٨٠ (صفر ٥٧٦) إلى الخليفة العباسى أن يفوض إليه سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين، لأنها حافظة لثغور المسلمين ونقط ارتكاز لصد العدو والغارة عليه . وما كاد صلاح الدين يفرغ من عقد الهدنة مع الصليبيين حتى وصل إليه وهو بدمشق رسول نورالدين ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، يستغيث من حميه قلج أرسلان صاحب قونية لخلاف وقع بينهما بسببه زواج نور الدين من مغنية وإعراضه عن إبنة قلج أرسلان ، فسار صلاح الدين في طريق تل باشر إلى رعبان ، حيث اجتمع برسل الفريقين، واستقر الأمر على إخراج المغنية من عند صاحب الحصن وإصلاح ذات البين[٢] . وشكى قلج أرسلان لصلاح الدين من ليون ملك أرمينية الصغرى ، وهو ابن لاون صاحب بلاد الأرمن « سيس » في المراجع العربية[٣] ، وكانت بلاده تفصل بين حلب والروم من جهة الساحل ، وخلاصة تلك الشكوى أن ابن لاون غدر بكثير من التركمان الذين ترعى مواشيهم في بلاده وأنه أسر عدداً من رجالهم ، فاستدعى صلاح الدين عسكر حلب لمعاونته في غزو بلاد ابن لاون ، تنفيذاً لشروط الصلح السابق بين صلاح الدين

(١) ابو شامة ج ٢ ص ١٦ — Lane-Poole Saladin p. 161

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ ،

(٣) انظر هامش هو Leon, Roi d'Arménie ويسمى المؤرخون المسلمون ليفون ولافون وابن لاون . راجع ص ٧٠ من ج ١ قسم ١ من السلوك — ابن شداد ص ٤٢ .

والسلطان اسماعيل ، والقاضية بحضور الأخير إلى الأول بعسكره متى استدعاه[١] ثم نزل صلاح الدين على النهر الأسود وأوغل في بلاد ابن لاون ، وبث الغارات هنا وهناك وأحرق قلعة الناقير وهدمها، ووجد في أرضها صهريجا ملوءا آلات نحاس وفضة وذهب ، عند ذلك بعث ابن لاون يطلب الصلح على مال يحمله إلى صلاح الدين ، وأسارى يطلقهم ، وخمسمائة آخرين يتعهد من أيدى الصليبيين . ثم توسط عز الدين قلج أرسلان لدى السلطان في مصالحة أمراء المسلمين بأسرهم واستقر الصلح في أكتوبر ١١٨٠ (١٠ جمادى الأولى سنة ٥٧٦) على نهر شيخة الذى يصب في الفرات ، ودخل فيه أمراء الموصل والجزيرة وأربل وكيفا وماردين وابن لاون وقلج أرسلان ، متفقين على أن يسود السلام والوئام بين المتحالفين جميعا لمدى سنتين[٢] .

ثم رحل صلاح الدين بعد ذلك إلى حماه فدخلها أواخر نوفمبر (جمادى الثانى) مؤيدا منصورا ، وسار منها إلى دمشق حيث استقبل في ديسمبر (رجب) رسل الخليفة الناصر لدين الله بالتفويض والتقليد والتشريف ، والموافقة على طلب صلاح الدين بامتلاك سروج الرها والرقة وحران والخابور ونصيبين ، وغادر صلاح الدين دمشق إلى مصر لوفاة أخيه نورانشاه بالإسكندرية ، بعد أن استناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه في نهاية ديسمبر سنة ١٨٨٠ (الاثنين ١٨ رجب سنة ٥٧٦) ، فأخذ طريقه على أيله وصدر ووصل القاهرة في يناير سنة ١١٨١ (١٣ شعبان ٥٧٦) وتلقاه الجيش والأمراء والأعيان[٣] . وهكذا أقر الجيش المصرى الأيوبى الأمن في ربوع الشرق الأدنى عامة، بعد أن ضرب على أيدى العابثين به من أمراء المسلمين والصليبيين ، وعقد مع كل من الفريقين هدنة لمدى سنتين تعهد فيها بالمحافظة على السلام .

(١) ابن شداد ص ٤٣ وانظر الفصل الثانى ص ٦٦ و ٧٧

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧ — ابن شداد ص ٤٤ — Lane : Poole : His Hist. p. 286

(٣) ابن كثير ج ١٢ ص ٣٠٦ — وابو شامة ج ٢ ص ٢٠ — ابن الأثير ج ١١ ص ٣١٠ .

الفصل الرابع

فى سبيل تكوين جبهة إسلامية

(يناير سنة ١١٨١ — مارس سنة ١١٨٦)
(شعبان سنة ٥٧٦ — ذى الحجة سنة ٥٨١)

العودة إلى القاهره — غزوة أرناط صاحب الكرك فى بلاد العرب صيف سنة ١١٨١ — تحصين ثغور مصر الشماليه — وفاة الملك اسماعيل بن نور الدين فى ديسمبر سنة ١١٨١ — اخبار اليمن والمغرب سنة ١١٨٢ — اتمام تحصين الثغور وزيارة صلاح الدين للاسكندرية سنة ١١٨٢ — سفره إلى الشام مايو سنة ١١٨٢ — حصار بيروت — المعاهدة الزنكية الصليبية فى مارس سنة ١١٨٢ — حصار الموصل الأول ديسمبر سنة ١١٨٢ — حملة ارناط فى البحر الأحمر سنه ٨٢ — ١١٨٣ — حلف الموصل الإسلامى ابريل سنة ١١٨٣ ، استيلاء صلاح الدين على آمد مايو سنة ١١٨٣ — فتحه حلب يونيو سنة ١١٨٣ — عودته إلى دمشق أغسطس سنة ١١٨٣ — حصاره الكرك المرة الرابعة نوفمبر سنة ١١٨٣ — اجتماع صلاح الدين فى دمشق بسفراء الخليفة العباسى وأمراء المسلمين بالشرق الأدنى مارس سنة ١١٨٤ — حصاره الكرك للمرة الخامسة سبتمبر سنة ١١٨٤ — اتمام بعض تحصينات القاهرة فى غيبة صلاح الدين بالشرق — سور الفسطاط وقناطر الجيزة — حصار الموصل الثانى على يد صلاح الدين مايو سنة ١١٨٥ — استيلاؤه على ميافارقين أغسطس سنة ١١٨٥ — حصاره الموصل الثالث فى نوفمبر سنة ١١٨٥ — صلح حران بين صلاح الدين والموصل فى مارس سنة ١١٨٦ — اتمام وحدة المسلمين .

دخل صلاح الدين القاهرة منتصف يناير سنة ١١٨١ (١٣ شعبان ٥٧٦) وفى نيته التفرغ لشئون مصر الداخلية الجديدة ، بعد أن عقد هدنته مع كل من أمراء المسلمين والصليبيين ، ولعله أحس فى نفسه قوة جديدة بعد أن أتته الخلع الخليفية واتشح بها بتاريخ ديسمبر سنة ١١٨٠ ، فأخذ يستبد بالسلطنة منذئذ (٨١ — ١١٨٢ م) ٥٧٧ على قول المقريزى[1] ، فرتب نوب الطبلخاناه بدار الوزارة التى ظل مقيما بها فى كل يوم ثلاث مرات ، غير أن أحداث الشام الإسلامية والصليبية لم تمهله ، وسرعان ما استجاب لها صلاح الدين وعاد إلى دمشق للقضاء على ما تبقى خارجا عن طاعته من قوى المسلمين ، فدخلت حلب قاعدة الدولة الزنكية القديمة فى حوزته ، وأذعنت الموصل وسنجار وشهرزور وغيرها من الإمارات الإسلامية لطاعته ، ولم يصبح للمسلمين من زعيم غير صلاح الدين . ومن ثم أضاف صلاح الدين إلى هيئة أركان حربه عناصر جديدة ، فيهم عز الدين جورديك النورى ، ومجاهد الدين قايماز ، وفخر الدين مسعود الزعفرانى ، وغيرهم من أكابر الأتراك فى الدولة النورية ، غير أن هـــذه العناصر التركية لم تلبث أن جعلت مجالس صلاح الدين مجالا للنزاع بين الجنسين الكردى والتركى .

وتفاصيل ذلك كله أن صلاح الدين غداة وصوله القاهرة بدأ يكمل أعمال التحصين والانشاء وتقوية جبهته الداخلية بتطهير البلاد من الجواسيس والخونة الذين يتعاملون مع العدو ، فأمر فى مايو سنة ١١٨١ (محرم سنة ٥٧٧) بالحوطة على مستغلات[2] العربان بالشرقية وترحيلهم إلى البحيرة ، كما أمر أيضا بالحوطة على اقطاع جذام وثعلبه بشمال الدلتا لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الصليبيين ، ثم حمل البريد إلى صلاح الدين ما كان يتوقعه دائما من نقض الصليبيين للعهود والمواثيق ، إذ أن أحد فرسانهم المدعو أرناط أمير الكرك ومونتريال — وهو ممن اشتهر بعدائه السافر للمسلمين — اختط القافلة المعروفة باسم Petra Desert والتى

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٧٩ .
(٢) المستغلات جمع المستغل بفتح الغين وهو كل ما أغل من ارض أو عقار أو حانوت أو سوق أو طاحون ، والمستغل بكسر الغين ما يأتى من المال أو غيره من هذه الأشياء — راجع كتاب السلوك وحاشيته ج ١ ص ٧١ .

لا تزال آثارها إلى اليوم ماثلة للعيان على بعد ثلاثين كيلومترا شرق البحر الميت[1] في قلب إمارة الكرك ، وتحتل مكانا استراتيجيا هاما ، كما تشرف على السهل الممتد أمامها وينتهى إلى اربعمائة قرية ، والذى يمر به طريق الحجاج بين مكة ودمشق. لم يكتف ارناط بتحصيل رسوم المرور من قوافل الحجاج المارة بهذه القلعة الجديدة ، ولم يكتف بقطع الطريق على تلك القوافل الآمنة المطمئنة ، وحرمانها من الماء المحمول إليها بحراسة قوات صلاح الدين هناك ، بل ركبه الطيش والغرور وخيل إليه أنه بلغ من القوة ما يمكنه من طعن الإسلام والمسلمين طعنة نجلاء بغزو المدينة المنورة على ساكنها عليه الصلاة والسلام . وخرج ارناط صيف ١١٨١ بقواته مخترقا الصحراء العربية جنوبا ، وتوغل فيها لمسافة ألف كيلومتر حتى وصل تيماء الواقعة في أطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق ، وسلب قافلة غنية وقطع طريق الحج نهائيا . وما أن سمع عز الدين فرخشاه بن أخى صلاح الدين ونائبه بدمشق بذلك ، حتى جمع العساكر الدمشقية وأغار على امارة الكرك ، ونهبها وخربها واكتسح نواحيها ، فقلق أرناط عليها وانشغل عن غرضه وتصدع مشروعه ، وعاد مسرعا إلى الكرك كما رجع فرخشاه إلى دمشق[2] .

وأجاب صلاح الدين على تلك الأخبار بأن عاقب الصليبيين من نوع ما اقترفوا في حق المسلمين ، فاستولى على مركب حجاج صليبية قرب شاطىء دمياط في تلك السنة (١١٨١) ، وكانت تحمل ألفين وخمسمائة من الحجاج فأسر منهم ما يزيد على ألف وخمسمائة وغرق الباقون ، مما أدى إلى مهاجمة المؤرخ الصليبى وليم الصورى لصلاح الدين وتحميله مسئولية خرق الهدنة ، وهى مردودة حقا إلى الصليبيين أنفسهم[3] . واستقبل صلاح الدين فى القاهرة فى خريف تلك السنة (١١٨١) —

(١) Kammerer : La Mer Rouge Vol I p.59.

(٢) ابن خلدون حـ ٥ ص ٢٩٥ — ابن الأثير حـ ١١ ص ٣١٠ ابن جبير ص ٢٦٨ ابو الفدا حـ ٣ ص ٦٦ — Kammerer : La Mer Rouge p. 50

(٣) Lane Poole : Saladin p. 166 حاشية ٥ حيث يشرح المؤلف أن صلاح الدين لم ينقض الهدنة بما فعل لسفينة الحجاج ، بل يقول أن ناقض الهدنة هو ارناط ومن ذهب معه من الصليبيين فى العداء السافر مع المسلمين .

رسول الكسيوس الثانى كومنين امبراطور الدولة البيزنطية ، واحتفل بقدومه ووقع معه صلحا بين البلدين ، أطلق البيزنطيون بمقتضاه مائة وثمانين أسيراً من المسلمين[1] . وكفل صلاح الدين بتلك المعاهدة عدم مساهمة الأسطول البيزنطى فى أية حركة هجومية على مصر[2] . ومن ذلك التاريخ صارت علاقة مصر بالدولة البيزنطية ودية للغاية[3] .

ثم لم يلبث الصليبيون حتى أجابوا على حادثه الاستيلاء على مركب الحجاج إذ غزوا تنيس ، الواقعة بالناحية الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة قرب بور سعيد الحالية ، فى يوليو سنة ١١٨١ (ربيع الأول ٥٧٧) وأخذوا مركبا للتجار ، وخشى صلاح الدين أن يكون ذلك مقدمة لهجوم بحرى كبير فأمر بزيادة الاهتمام بالشواطىء المصرية وتحصينها ، وعلى وجه الخصوص دمياط وتنيس لشدة خوف أهلها من الإقامة بها ، وانتدب أحد أتباعه لعمارة قلعتها وتجديد الآلات بها ، كما قرر لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار[4] ؛

(١) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٧٢ .

(٢) Stevenson op. cit p. 214

(٣) أصل المودة بين المسلمين والبيزنطيين ترجع الى ايام نور الدين محمود الذى عقد صلحا فى سنة ١١٥٩ مع الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠) حين زحف الأخير بجيشه نحو حلب صيف تلك السنة ، ثم ارتد عنها مثلما ذهب إليها جريا وراء السياسة البيزنطية التقليدية التى رمت الى توازن القوتين الإسلامية والصليبية فى الشام ، بحيث لا تطغى احداهما على الأخرى طغيانا يهدد مصالح الإمبراطورية البيزنطية واطماعها فى انطاكية بنوع خاص (انظر نور الدين والصليبيين لحبشى ص ١٤٣) ورغم ذلك كله ظلت صداقة والبيزنطيين للصليبيين أمرا ليس من الحكمة أن يقضى عليه ، فاتفق الطرفان على غزو البلاد المصرية وحوصرت دمياط فعلا سنة ١١٦٩ ودفعهم عنها صلاح الدين (تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى للاستاذ فيشر ص ١٨٦) وتجددت الصداقة بين آمورى ومانويل سنة ١١٧١ ضد نور الدين الذى قابلها بحركة مضادة لها ، إذ دفع قلج ارسلان سلطان سلاجقة الروم إلى غزو اطراف الامبراطورية البيزنطية (حبشى ص ١٤٣) . وظلت بيزنطة منذ ذلك التاريخ فى محنه بعد عز طالما نعمت به تحت حكم الكومنيين إذ غلبت جيوشها فى آسيا الصغرى غلبا جم الخسائر سنة ١١٧٤ على يد قلج ارسلان سلطان قونية (فيشر : ص ١٨٧) وبذلك انشغلت عن الصليبيين الشرقيين واستمرت فى الاحتفاظ بالعلاقة الحسنة مع صلاح الدين نكاية فى الصليبيين

(٤) المقريزى : الخطط حـ ١ ص ٢٩٢ — السلوك ص ٧٤ — Wiet Hist. de La nation. Eg. pp. 318.

أما دمياط فكتب إليها بترتيب المقاتلة على برجها وترميم سورها وإصلاح ما تهدم وكذلك السلسلة التى بين البرجين ، وبلغت النفقه على ذلك مبلغاً كبيراً قيل إنه ألف ألف دينار [١] ، واعتبر سور دمياط بعد ترميمه فكان طواله أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعا وعرضه فى السعة بحيث يمشى عليه خمسة من الخيل . وفى نفس السنة شرع رجال صلاح الدين فى بناء برج جديد لدمياط ، وشدت المراكب المشحونة بالجند إلى السلسلة إمعانا فى استكمال وسائل الدفاع عن البرجين [٢] .

وإذا كانت مشاهدة أبى شامة المؤرخ الصلاحى لدمياط متأخرة لأنها ترجع إلى سنة ١٢٣٠ (٦٢٨ هـ) إلا أنها تعطى المؤرخ الحربى صورة حقيقية عن تحصينات دمياط كلها بعد ترميمها على عهد صلاح الدين ، إذ يقول أن برجها كان عاليا مبنيا بين دمياط ، والبر الغربى فى وسط النيل ، وفى ناحيتيه سلسلتان ، احداهما على النيل إلى دمياط والأخرى على النيل إلى البحيرة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل الديار المصرية ، إذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها ، ومتى لم يكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص واسوان [٣] . وأكمل صلاح الدين حوالى ذلك الوقت كذلك بناء برج بالسويس ، يسع عشرين فارسا ورتب فيه الفرسان لحفظ الطريق التى يجلب منها الشب من الصعيد إلى بلاد الصليبيين ، حيث يستعمل فى أشياء كثيرة أهمها تثبيت صبغ الأحمر [٤] وغيره من الألوان فى الأقمشة . وكان غرض صلاح الدين من ذلك عدم تصدير مثل تلك المواد إلى خارج القطر وإلى الصليبيين بنوع خاص . وزود صلاح الدين تلك الثغور كلها بالجنود البرية

(١) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٢) النويرى : كتاب الالمام جـ ١ ص ٢١٨ — ذيل الروضتين ص ١١٩ .

(٣) يرجع انشاء هذين البرجين والسلسلة التى بينهما على سبيل الترجيح إلى سنة ٢٣٨ هـ (٨٢٥ م) فى عهد الخليفة المتوكل العباسى — المقريزى السلوك جـ ١ حاشية ص ٧٢ — ذيل الروضتين ص ١١٩ — ولا أدل على حصانة دمياط من ان الصليبيين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها سنة ١٢١٩ (٦١٦) إلا بعد حصار دام ستة عشر شهرا عندما إستلمت نفسها للعدو تحت ضغط الجوع — راجع النويرى مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٩ .

(٤) القلقشندى جـ ٣ ص ٢٣٨ — السلوك جـ ١ ص ٧٣ حاشية ٧ .

والبحرية فأنفق فى الأجناد البطالين [١] وجردهم إليها ، كما أنفق فى رجال الشوانى وجردهم للغزو [٢] .

وبينما صلاح الدين يعمل فى هذه الأعمال التحصينية إستعداداً لما عساه يطرأ على الشواطىء المصرية من عدوان الصليبيين ، جاءت الأخبار إلى القاهرة بوفاة إسماعيل ابن نور الدين ملك حلب فى ديسمبر سنة ١١٨١ (٢٥ رجب ٥٧٧) بعد مرض لم يمهله طويلا ؛ وكان صلاح الدين لما علم بمرضه كتب إلى ابن أخيه تقى الدين عمر والى الأقاليم الجزرية ، أن يتوجه إلى منبج وأن يحفظ المغازى ويرابط الفرات ويمنع المعابر ؛ ولمصر هناك بالس وقلعة جعبر ومنبج وتل باشر . ونظم صلاح الدين خطوط بريده الجوية بينه وبين ولاته فى الشام ، فأنهى إلى ابن أخيه تقى الدين عمر بأن يكون حمام حماه فى حلب ، وحمام دمشق فى حماه ؛ وإلى ناصر الدين محمد ابن شيركوه بأن يكون حمام دمشق فى حمص ، وحمام حمص فى حلب ؛ وإلى ولده عز الدين بأن يكون حمام بصرى فى دمشق . وبعث نجابين يكونون ببصرى . وكل ذلك لكى تصل إليه أخبار إسماعيل بن عز الدين على جناح السرعة [٣] وتبع أوامره جميعاً فى نقل خبر الوفاة إليه فى الحال ، وأكد البريد لصلاح الدين أن الملك إسماعيل استحلف أمراء حلب وأجنادها قبل موته لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل . وأن عز الدين بادر إلى التوجه خوفاً من أن يسبقه صلاح الدين إليه . وفى يناير سنة ١١٨٢ (٢٠ شعبان ٥٧٧) وصل عز الدين إلى حلب وصعد قلعتها واستولى على ما فيها من الحواصل ، وتزوج بأم الملك الصالح التى يبدو أنها تطلقت من صلاح الدين فى أحوال لم تذكرها المراجع [٤] ، ومما يوجب الإلتفات هنا أن اجتياز عز الدين مسعود وعسا كره

(١) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها واقطاعاتها نتيجة غضب السلطان ، أو كبر السن أو اضطراراً إلى الاعتكاف والاختفاء أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد — السلوك جـ ١ حاشية ص ٧٣ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) ابو شامة جـ ٢ ص ٣٢ .

(٤) انظر الفصل الثانى ص ٨٤ عن تلك الزيجة .

الموصلية للأراضى التى تحتلها الجيوش الأيوبية المصرية بين الفرات وحلب، أحدث كثيراً من الاضطراب والفتنة بين الحاكمين والمحكومين هناك، بدليل أن تقى الدين عمر وكان وقتذاك بمدينة منبج سار عنها هارباً إلى حماه، فوجد أهلها ثائرين فى وجهه وناقمين على الحكم المصرى يرددون شعار عز الدين مسعود صاحب الموصل، الذى أشار عليه الحلبيون بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من بلاد الشام، وأعلموه محبة أهلها له ولأهل بيته الأتابكى فأجابهم بقوله « بيننا وبين صلاح الدين إيمان وعهود وأنا لا أغدر به »(١). وهكذا أضاع عز الدين مسعود آخر فرصة لإعادة الدولة الزنكية إلى حلب، فربما واتاه النجاح إن صدق الحلبيون فيما قالوا، وكان يوجد حتى تلك السنة من يعطف على بيته ويؤازره لو تحرك ضد صلاح الدين وعلى الخصوص الأمراء الأتراك الذين أصبحوا مناوبين على أمرهم من منافسيهم الأكراد. ولكن يبدو أن تردد عز الدين ومحافظته على العهد يرجع إلى ما أشاعته هيبة صلاح الدين وشخصيته فى قلبه من رهبة وفزع. ولذلك أقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها إلى الرقة حيث جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار، يطلب إليه تسليم حلب على أن يأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار فلم يجبه، فألح عليه فى ذلك وهدده بتسليم سنجار إلى صلاح الدين ثم نجح مجاهد الدين قايماز كبير أمراء الموصل فى السعى بين الأخوين لخوفه من الخلاف بينهما وما يترتب عليه من نتائج غير محمودة، وأقر القاعدة بينهما على مبادلة حلب بسنجار، وتسلم عز الدين عدا سنجار الخابور والرقة ونصيبين وسروج وغير ذلك من البلاد؛ وصارت حلب لعماد الدين كما صار عماد الدين الهدف الأول لصلاح الدين(٢).

والثابت المحقق أن صلاح الدين منذ عودته إلى مصر أحتاط لتلك المشاكل الخارجية كلها، كما هو واضح من نشاطه السابق الذكر فى تحصين الشواطىء

(١) ابو شامة ج ٢ ص ٣١، ٣٢.
(٢) ابن كثير ج ١٢ ص ٣٠٩ — ابو الفدا ج ٣ ص ٦٣ — ابن الأثير ج ١٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨ — Lane — Poole : Saladin p. 165.

المصرية ضد الصليبيين ... من قيامه على ترتيب أحوال العسكر واقطاعاتهم وعددهم وأرزاقهم. من ذلك ما ذكره المقريزى نقلا عن القاضى الفاضل فى متجددات شهر رجب ٥٧٧ (ديسمبر سنة ١١٨١) من أن عدة جيش صلاح الدين استقرت على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارساً، وأمراء مائة أحد عشر، وطواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين، وقرى غلامية(١) ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين، والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف وسبعون ألفاً وخمسمائة دينار، وذلك خارج عن المحاولين(٢) من الأجناد والموسومين بالحوالة على العشر، وعن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة، وعن الكنانيين والمصريين والفقهاء والقضاة والصوفية والدواوين، ولا يقصر ما معهم عن ألف ألف دينار(٣)، وهو إن صح مبلغ كبير من المال لجزء فى الجيش. هذا عدا ما أرسل من الأمراء والجند إلى اليمن فى شوال من تلك السنة لقمع الفتنة بها لما بلغ نوابها خبر وفاة شمس الدولة توران شاه، إذ جرت بين عز الدين عثمان وبين حطان حرب، رام كل منهما أن يغلب الآخر على ما بيده، واشتد الأمر بينهما فخاف صلاح أن يطمع أهل البلاد فسير جماعة من أمرائه منهم، خطلبا والى مصر والياً على زبيد وصحبته خمسمائة رجل والأمير باخل وغيره من الأمراء، وقد بلغت النفقة فيهم عشرين ألف دينار، وكتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل منهم على اليمن إن كان من الأقطاعية، وللبطالين والمترجلة فى الشهر ثلاثة وثلاثون ديناراً، وسيرت خمس حراريق مشحونة بالرماة(٤)، واستولى خطلبا على زبيد وأزال حطان عنها، ثم مات خطلبا فعاد حطان إلى إمارة زبيد وأطاعه الناس لشجاعته وجوده.

(١) انظر الفصل حاشية ص .
(٢) أى من لا عمل له ولا منهم نفع مع التشكك، غير أن المقصود هنا بالمحاولين الذين انحلت عنهم إقطاعاتهم أو رواتبهم فاصبحوا بطالين — المقريزى السلوك ج ١ ص ٧٥ حاشية ٤
(٣) المقريزى: الخطط ج ١ ص ١٣٩ — العينى ج ٢١ قسم ٣ ص ٤٤٠ — السلوك ج ١ ص ٥٣.
(٤) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٢١ ابن حاتم: مخطوط السمط الغالى ص ٧ — السلوك ج ١ ص ٧٧.

ويخرج عن هذا الاحصاء الفرقة القراقوشية التي سيرت إلى بلاد المغرب والتي حاربت في تلك السنة (٥٧٧) عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ، واستفحل أمرها فبسطت سلطانها على بعض قبائل البربر ، ونجحت في اعلان الخطبة على منابر تلك الجهات باسم السلطان صلاح الدين كما ضربت السكة باسمه[1] .

وبالإضافة إلى هذه الاستعدادات العسكرية الكثيرة مهد صلاح الدين لسفره إلى الشام بالقيام بحركة دبلوماسية بارعة ، إذ عقد هدنة مع السكونت ريموند صاحب إمارة طرابلس الصليبية ، وكتب إلى ابن أخيه تقي الدين عمر صاحب حماه وغيره من نواب الحاميات المصرية بالشام بجمع أجنادهم والتأهب ، وكاتب الخليفة الناصر لدين الله ببغداد يسأله ولاية حلب لتكون سفرته إلى بلاد الشام مشروعة في نظر المسلمين[2] . ثم توجه صلاح الدين في فبراير سنة ١١٨٢ (شوال ٥٧٧) إلى الاسكندرية المرة الثالثة ليتفقد تحصيناتها ، ولينظر ما أمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها وقصورها ، واتخذ طريقه تلك المرة على البحيرة . ولما وصل الاسكندرية خيم بظاهرها عند عامود السواري ، وكان ذلك العامود قبيل مقدم صلاح الدين محوطا بنحو اربعمائة عامود ، كسرها قراجا والى الاسكندرية بأمر صلاح الدين ، ورماها بشاطىء البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا أغار على الاسكندرية[3] . وشاهد صلاح الدين الأسوار والعمارات والقصور التي جددها قراجا أو رممها ، وأمره بالاتمام والاهتمام لتوقعه هجوما أو روبيا في هذه الجهة. والحق أن صلاح الدين أعطى ميناء الاسكندرية جزءاً كبيراً من اهتمامه وعنايته يلحظه الباحث فيما كتبه المؤرخون المعاصرون ، وعلى الخصوص ابن جبير الذي زارها في السنة التالية (٥٧٨) وأعجب بمنارها التي رآها وهو في عرض البحر على بعد عشرين ميلا ، ويستطيع المسافر أن يشاهدها على أزيد من ٧٠ ميلا ؛

(١) العيني جـ ٢٥ قسم ٣ ص ٦٤٠ — ابو شامة جـ ٢ ص ٢٠٧ — ابن كثير جـ ١٢ ص ٣١٥ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٧٧ — Reinaud: Extraits. P183 — Wiet Histoire de La Nation Egyptienne p.318

(٣) المقريزي الخطط جـ ١ ص ٢٥٧ — وطبعة فييت جـ ٣ ص ١٠٢٨ .

وإذا كان منارها الحالي يظهر على بعد ٩٠ ميلا رغم التقدم العلمي الحديث ، اتضح للباحث براعة الهندسة المعمارية المصرية وقتذاك في فن بناء المنار . وذرع ابن جبير أحد جوانب المنار الأربعة فأناف على خمسين ذراعا وطوله أزيد من مائة وخمسين قامة ، وفي أعلا المنار مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه[1] .

وأنشأ صلاح الدين بالاسكندرية مكتبا للهجرة والجرك يصعد أمناؤه إلى كل مركب قادمة إلى الميناء « لتقييد جميع ما جلب فيه ، واستحضار جميع من كان فيه من المسلمين ، واحداً واحداً وكتابة أسمائهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، ويسأل كل منهم عما لديه من سلع ليؤدي زكاة ذلك كله[2] » . واشتط أولئك الموظفون في دقة فحص شخصيات القادمين إلى مصر ، وجمع الزكاة مما لديهم إلى حد ضايق الرحالة ابن جبير نفسه . ويدل ذلك على مبلغ عناية صلاح الدين في مراقبة مداخل مصر العسكرية ومنع تسلل جواسيس العدو إليها . ويبدو من وصف مؤرخ آخر عاش في العصر المملوكي أن سور الاسكندرية احتوى على قلعتين خاصتين بخزن الألوف من أرادب القمح في كل سنة ، خوفا من حصار يقع من الصليبيين الواردين إليها في البحر المالح ، فإذا انقضت سنة ولم يستهلك الحبوب بيعت ، وعوض غيرها قمحا جديداً خشية السوس الواقع بها إن تركت سنة على أخرى مخزونة[3] . وفي هذا المعنى يقول القلقشندي أيضاً « أن النظار والغلال يجتهد في تحصيلها بالقلعة ولا تخزن غلة جديدة على غلة عتيقة . وكل هري يخزن فيه غلة يحرر أمرها وتحفظ عينتها في كيس وتوضع في الخزانة ويختم عليها . ولا يصرف من الجديد قبل نفاذ العتيق ، ولا يترك العتيق ويصرف من الجديد . وينبغي أن يكون القمح المخزون بالحصون أسمر اللون صلب الجسم ، قد أحكم جفافه في سنبله ، ويكون مواضع خزنه ناشفة أرضها وحيطانها ليس بها نداوة ، ويجب أن يكون نوافذها وأبوابها

(١) ابن جبير ص ٧ — ٩ المقريزي — الخطط جـ ١ ص ٢٥٤ — جـ ٣ ص ١٢١ من طبعة فييت — ويقول ابن مماتي (قوانين الدواوين ص ٧٨) أن المنار بنتها امرأة وطولها في الهواء مائتين وثمانين ذراعا .

(٢) ابن جبير ص ٨ .

(٣) النويري : الالهام جـ ١ ص ٧٤ .

للضوء إلى جهة الشرق لأنه مهب ريح الصبا وهى أقل الرياح رطوبة وعفنا ... وكذلك يفعل فى الشعير وينبغى أن يخلط فى كل مائة أردب من القمح او الشعير أردب من الرماد الأبيض ليحفظها من السوس وغيره [١]. وبنفس العناية والدقة ادخر العسكريون الأيوبيون اللحم المجفف ، وحفظوه داخل القلاع التى زودوها بكل ما يحتاج إليه رجال الحامية من مؤن وآلات وذخيرة [٢].

وإذ شهد صلاح الدين تحصينات الإسكندرية ومناعتها واطمأن إليها ، عاد إلى القاهرة فى إبريل سنة ١١٨٢ (ذى القعدة ٥٧٧) وشرع فى الاستعداد لمغادرتها إلى دمشق ، فرتب شئون مصر وعهد بها إلى أخيه ونائبه بها الملك العادل ، ثم جمع العساكر والسلاح واستصحب نصف العسكر ، وترك النصف الآخر مع أخيه لحفظ الثغور المصرية والأمن الداخلى [٣]. وعهد صلاح الدين كذلك إلى وزير أشغاله بهاء الدين قراقوش بإتمام الأسوار الدائرة حول مصر والقاهرة . ومن عجب ما يحكى أن صلاح الدين جلس فى سرادقه عشية توديعه لأهل مصر يستمع إلى خطب الشعراء والمودعين ، فاذا بأحدهم ينشد بيتا من الشعر تطير منه الحاضرون أشد تطيره ، لما فيه من إشارة لعدم عودة صلاح الدين إلى مصر بعد ذلك [٤] وكأنما نطق الشاعر بما هو كائن فى الغيب ، إذ لم يعد صلاح الدين بعد ذلك للديار المصرية .

وخرج صلاح الدين من القاهرة يوم ١١ مايو سنة ١١٨٢ (٥ محرم سنة ٥٧٨) قاصدا دمشق عن طريق صدر — أيلة ، متخذا منازله عبر سيناء الوسطى على الجسر ووادى موسى وحشا وعقبة أيلة . وهناك جاءه البريد باجتماع الصليبيين بالكرك لقطع طريقه إلى دمشق ، فاحتاط صلاح الدين للأمر بأن أرسل إلى أخيه عز الدين

(١) القلقشندى ج ١٣ ص ١٣٦

(٢) النويرى : راجع الالمام ج ١ ص ٢٥ عن طريقة تجفيف اللحم وادخاره وهى نفس الطريقة التى يستعملها العلم الحديثة تقريبا فى حفظ اللحوم بالعلب .

(٣) ابن واصل ص ٢٣٠ — العينى ج ٢١ قسم ٣ ص ٦٣٨ — : Stevenson : Op. cit : P. 222

(٤) والبيت المقصود هنا هو :

تمتع من شميم عرار نجد ❊ فما بعد العشية من عرار

ابو الفدا ج ٣ ص ٦٤ . ويقال أن المنشد معلم صبيانه . السلوك ج ١ قسم ١ ص ٨٧ .

فرخشاه نائبه بدمشق يأمره باغتنام فرص اجتماع الصليبيين بالكرك والاغارة على بلادهم ، فسار عز الدين إلى طبرية وعكا ، واستطاع أن يستولى على دبوريه وما يجاورها من القرى ، وكذلك حبس جلدك التى يطلق عليها شقيف ارنون أو Beaufort وهى قلعة حصينة قرب بانياس ذات مركز استراتيجى هام . وفرح المسلمون لفتح هذه القلعة فرحا عظيما ، لأنهم اتخذوها مخفرا على بلاد الصليبيين وطرقاتهم . وأسر عز الدين فرخشاه فى تلك الغارة ألف صليبى وعشرين ألف رأس غنم . أما صلاح الدين فسار من أيلة بالعساكر القاتلة على حين أمر أخاه تاج الملوك بورى بأن يسير بالاثقال وأصحاب المتاجر يمنة منه . ثم أخذ صلاح الدين فى شن الغارات بأطراف بلاد العدو وهو فى طريقه إلى دمشق ، فرمجمى ثم قبة شتار ثم القريتين قرب الشوبك ، وبعد اسبوع التقى صلاح الدين بأخيه تاج الملوك عند بلدة الأزرق قرب الكرك ، ولم يجرؤ أحد الصليبيين من الخروج إليه واستمر ركب صلاح الدين فى سيره حتى لاقيه فى الطريق عز الدين فرخشاه ودخل الجميع دمشق يوم الاثنين ٢٢ يونيو سنة ١١٨٢ (١٧ صفر ٥٧٨)[١] . وكان صلاح الدين عهد — قبل مغادرته القاهرة — إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين مهمة السير إلى بلاد اليمن لوضع حد للفتن القائمة بها وفوض إليه أمرها . فسار إليها طغتكين بعد مسير صلاح الدين إلى الشام ووصل إلى زبيد حيث قضى على فتنة حطان والزنجيلى ، ودانت له زبيد وعدن وغيرها من الحصون والبلاد التى كانت لأخيه توران شاه من قبل ولم ينازعه فيها أحد من النواب [٢] ، أى أن صلاح الدين كان مطمئنا فى جميع النواحى غداة قدومه الشام سنة ١١٨٢ م .

لم يشأ صلاح الدين أن يبدأ الإمارات الإسلامية بالعدوان لما بينه وبينها من هدنة منذ سنة ١١٨٠ ولذا ولى وجهه شطر الصليبيين الذين نقضوا الهدنة ، ولم ينقطع عدوانهم على المسلمين ، فأرسل إلى مصر يطلب إلى أخيه العادل تجهيز الأسطول المصرى لمقابلته على الساحل الصليبى ، وخرج هو من دمشق مغيرا على

(١) السلوك ج ١ ص ٧٧ — ابو شامة ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٣١٦ ابن حاتم : مخطوط السمط الغالى الثمن فى اخبار الملوك الغز باليمن ص ٨ .

نواحى طبريه وبيسان، واجتمع الصليبيون تحت جبل كوكب قرب بصره ورماهم المسلمون بالنشاب فلم يتحركوا لقتالهم بل احتموا بجسيتهم فى عفربلا، وبعد أن اثخن فيهم صلاح الدين عاد إلى دمشق، ثم ركب صلاح الدين إلى بيروت بعد أن بلغه خبر وصول الأسطول المصرى إليها وبدأ بمحاصرتها برا وبحرا فى أغسطس سنة ١١٨٢ واستهدفت المدينة لضربات الأسطول، على حين أخذ العسكر المصرى الأيوبى فى موالاتها بالضرب والنهب من البر، وظلت المدينة تقاوم الحصار عدة أيام وساعدها على ذلك عدم وجود منجنيقات كافية للحصار مع صلاح الدين، ووصول الأخبار إلى بيروت بأن بلدوين الرابع ملك بيت المقدس يعد السفن فى عكا وصور لرفع الحصار عن بيروت، هذا فضلا عما أشيع من أن المواصلة عقدوا معاهدة دفاعية هجومية مع الصليبيين لاشغال صلاح الدين عن قصدهم (١) .

لذلك فضل صلاح الدين الرحيل عن بيروت والاتجاه نحو مسألة توحيد القوى الإسلامية تحت يده قبل أن ينصرف إلى مسائل الصليبيين، وليس معنى هذا أنه لم يشتبك معهم، أو أنه غير قادر على مقابلتهم إذا لزم الأمر، بل إن تلك المدة التى تواترت تسميتها فى كتب التاريخ باسم الرحلة الإسلامية من عهد صلاح الدين لم تخلُ من حوادث صليبية كبرى، قام بها صلاح الدين نفسه أو قواده من إخوته وغيرهم، كما ستوضح الأحداث القادمة .

وكيفما كان الأمر بادر صلاح الدين برفع الحصار عن بيروت ونزل على بعلبك، ومنها اتجه إلى حمص فحماه وبصحبته ابن أخيه تقى الدين عمر قاصدا حلب، وضرب صلاح الدين الحصار على حلب فى سبتمبر (١٨ جمادى الأول سنة ٥٨٨) وهناك جاءه مقدم عسكر المواصلة واسمه مظفر الدين ابن زين الدين على صاحب حران، معلناً انضمامه إلى صلاح الدين وخروجه عن طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل. وأشار مظفر الدين على صلاح الدين بترك حلب وعبور الفرات حتى لا تشغله عن غيرها فاستصوب صلاح الدين رأيه، ورفع حصاره الأول عن حلب

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢١٦ — ابو شامة ج ٢ ص ٣٨ — Stevenson p.227
Lane-Poole Saladin. p. 169

بعد أن أقام عليها ستة أيام وعلى تل خالد ثلاثة أيام أخر. ثم واصل سيره إلى الفرات وخيم عليه غربى البيرة الواقعة على الشاطئ الشرقى للنهر فى نهاية سبتمبر (١) . وتسمى البيرة اليوم بيركاك Birecik .

وعند عبور صلاح الدين الفرات كتب إلى الخليفة العباسى ببغداد كتاباً بخط القاضى الفاضل، أشار فيه إلى طول المسافة التى قطعها من النيل إلى الفرات، وإلى الدوافع التى حركته لهذه الرحلة الطويلة الشاقة، كما أشار على وجه الخصوص إلى المعاهدة الخطيرة التى أبرمها المواصلة مع الصليبيين قائلا « وعقدوا معهم عقداً، أشهده من هو حاضره، ونقله إلىّ من سمعه ومن هو ناظره » . والواقع أن هذه المعاهدة كانت شديدة الخطر على المصالح الأيوبية كلها، إذ تعهد المواصلة بدفع عشرة الاف دينار سنويا للصليبيين وتسليمهم ثغور المسلمين وخصوصاً بانياس وشقيف ارنون، واطلاق سراح الأسرى الصليبيين فى كل بلد بأيدى المواصلة وفى كل بلد يسترجعها المواصلة من صلاح الدين، وذلك مقابل مساعدة الصليبيين لهم إذا ماقصدهم صلاح الدين، وبذا يضطر صلاح الدين أن يقسم عساكره فيجعل بازاء الصليبيين قسما وبازاء المواصلة قسماً . واتفق الطرفان المتعاقدان على وضع خطة هجومية لايقاع صلاح الدين بين « طرفى كماشة » من الشمال والجنوب، إذا تفقا أن يهاجم المواصلة صلاح الدين من جانب وأن يهاجمه الصليبيون من جانب آخر فى الوقت نفسه، ونفذا خطتهما بإحكام « فوصل المواصلة إلى نصيبين مجدين محفلين، وحركوا الصليبيين للخروج إلى الشام متطرفين ومتوغلين » (٢)

وأوقف صلاح الدين الخليفة العباسى على خطته العسكرية التى انتهجها لمواجهة تلك المعاهدة بفتح جهات أربع؛ فرتب فى رأس الماء بدمشق بازاء الصليبيين ابن أخيه فرخشاه، وأبقى عسكر الشام لحماية مدنه وقراه، وأمر أخاه العادل بمهاجمة جنوب فلسطين من ناحية الحدود المصرية، أما

(١) ابو شامة ج ٢ ص ٣٠ — Lane Poole: Saladin P.169
(٢) ابو شامة ج ٢ ص ٣١ .

هو فتحرك بالمسكر المصرى إلى الجزيره حيث هو الآن[١] . ومعنى هذا أن صلاح الدين كان قادراً على منازلة اعدائه من المسلمين والصليبيين فى آن واحد ، وفى أكثر من ميدان معتمداً على موارد مصر من المال والرجال ، ومعناه أيضاً أن صلاح الدين كان بعيد النظر فى أرجائه إعلان الجهاد الحقيق ضد الصليبيين إلى ما بعد تصفية مشاكله المظمى مع أمراء المسلمين ليأمن جانبهم .

ثم رحل صلاح الدين إلى البيره ، فلما وصلها قدم له شهاب الدين محمد بن ايلياس الأرتق مفاتيح قلمتها فولاه صلاح الدين عليها . وبينما صلاح الدين على البيره تقاطرت وفود ملوك الجهات على مخيمه معلنه ولاءها له ؛ فاستقبل رسول نور الدين محمد بن قولا أرسلان صاحب حصن كيفا ، ونزل صلاح الدين على الرهاوبها فخر الدين مسعود بن الزعفران ، فاذعن له وسلمها صلاح الدين إلى مظفر الدين صاحب حران ، وبعد أن رتب حران تركها إلى الرقه وبها قطب الدين ينال بن حسان ، فاستسلم أيضاً ، أما سروج فنزل إليه صاحبها ابن مالك مستأمنا فأمنه صلاح الدين . ورحل صلاح الدين من الرقه إلى مشهد الرمان ثم إلى عرابان . وما أن ذاع خبر وصول صلاح الدين إلى الخابور ، وسمع الناس بعدله فى البلاد التى فتحها حتى فتحت له أبواب رأس عين ودورين وماكسين والشمسانية والفدين والمجدل والحصين . ومن ثم عبر صلاح الدين نهر الخابور إلى نصيبين فاستلمه وعهد بها إلى حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، كما عهد كله إلى جمال الدين خوشترين . وانتهى به المطاف إلى الموصل قاعدة الدولة الزنكية العتيقة ، وعلى مقربة منها خيم عسكره يوم الخميس ١٠ نوفبر سنة ١١٨٢ (١١ رجب ٥٧٨)[٢] . وعقد مجلسا حربيا لدراسة الخطة لحصارها ، بعد أن دار صحبة أمراء جيشه حول سورها وشاهد بنفسه شرفاته مشحونة بالمقاتلة ، واستقر الرأى على توزيع الأمراء على السور ، وعين صلاح الدين لكل منهم مكانه ونزل هو وراء البلد وتقى الدين عمر من شرقيه وأخوه تاج الملوك بورى عند باب العادية . وبدأ الحصار ولزمت الحامية

(١) ابن واصل ص ٢٣٢ — Reinaud : Extraits .... p. 182 — Grousset op. Cit : Vol. II p. 714

(٢) ابو شامة ح ٢ ص ٣٠ — ابن شداد ص ٢٥ ، ٤٦ .

والعامة الأسوار ، وأشار تقى الدين على عمه بنصب منجنيق ، وأجابه صلاح الدين بأن « هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصب أخذه الدافعون ، وإذا خرب برج لا يقدر أحد من المسكر على الدخول لكثره من فى البلد من الخلق »[١] . وعاد تقى الدين إلى إلحاحه فنصب صلاح الدين منجنيقا فخرج جماعة من العامة فأخذوه ودار عنده قتال كثير ، ورمى بعضهم جولى الأسدى مقدم الداوية بعداسه وفيه مسامير كثيرة ، فأصابت صدره وآلمته فأخذها إلى صلاح الدين قائلا « قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعدمثلها »[٢] ، وأصبح من الواضح لصلاح الدين أن الموصل بلد عظيم لا يحصل منه شىء بالمحاصرة على هذا النحو ، ولا سيما أن سنجار وحاميتها من المساكر الموصليه يقطعون طريق من يقصدونه من المساكر المصرية وأصحابها ، وأن صاحب الموصل أرسل يستنجد بشاه أرمن صاحب خلاط ومن حوله من الملوك والأمراء ، وأن المواصلة أرسلوا بهاء الدين ابن شداد مؤرخ السيرة الصلاحية ، وكان بالموصل وقتذاك ، إلى الخليفة العباسى يسألون الشفاعه لهم عند صلاح الدين . وجاء رسول الخليفة يأمر صلاح الدين بالترحل عن الموصل على قول ابن العماد[٣] .

والواقع أن بغداد لم تكن تنظر بعين الرضا والارتياح إلى حركات صلاح الدين وسرعة انتصاراته على أمراء المسلمين ، ولعلها أوجست منه خيفة سيما وأنه قاب قوسين أو أدنى منها ، ولا بأس من أن تكون حريصه كل الحرص على الابقاء على البقية الباقية من البيت الزنكى ، رمزا لرغبتها الكامنة ألا يصبح صلاح الدين قوة تطغى على النفوذ الخليفى ، ولتظل الموصل كما كانت دائما خطا دفاعيا منيعا عن بغداد من ناحية الشمال ، وستكشف الحوادث القادمة بوضوح ما بين بغداد والقاهرة من شعور خفى غير طبيعى ولدته عوامل الحقد والحسد . ولذلك كله رحل صلاح الدين عن الموصل فى ١٥ ديسمبر سنة ١١٨٢ (١٦ شعبان

(١) ابن الأثير ح ١١ ص ٩٩٢ — ابن واصل ص ٢٣٦ — ابو شامة ح ٢ ص ٣٢ .

(٢) ابن الأثير ح ١١ ص ٢٩٩ — ابن واصل ص ٢٣٦ — .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ح ٤ ص ٢٠٥ — ابن شداد ص ٤٦

٥٧٨) متحيرا من حصانتها والألم يملأ قلبه ، بدليل قوله لأصحابه يومذاك « متى بادیناه وعدنا عنه ولم نأخذه ، ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا »[١] .

وستؤكد الأيام القادمة صحة هذا الحكم عن الموصل ومناعتها الحربية وعجز صلاح الدين عن فتحها عنوة . ومن ثم أيقن صلاح الدين أن استسلامها لا يتأتى إلا باتباع أبسط قواعد الحصار ، وهى تدمير وتخريب القرى والحصون التى تمونها بالعتاد والرجال ، وتحطيم مقاومتها المعنوية والمادية بالحصار الاقتصادى لا العسكرى ، ولذلك سارع بالنزول على سنجار ومحاصرتها ، ورمى قلعتها بالمنجنيق حتى أخذها عنوة ، ثم رتب أمور المدينة وقلعتها وولاها الأمير سعد الدين بن مسعود أنر ، وورد صلاح الدين مقدميها وأعيانها وعلى رأسهم شرف الدين أخو صاحب الموصل إلى الموصل معززين مكرمين . وانتقل صلاح الدين بعد ذلك إلى نصيبين ومنها إلى حران حيث أقام بها للاستراحة وعاد كل أمير من أمرائه إلى بلده كما سار تقى الدين إلى حماه[٢] .

وبينما يعانى صلاح الدين هذه الصعوبات فى سبيل تكوين جبهة إسلامية متحدة استعداداً لمواجهة الصليبيين ، كان الصليبيون من ناحيتهم يعملون على تنفيذ الالتزامات العسكرية التى تعهدوا بها للمواصلة فى المعاهدة السابقة الذكر[٣] . وكان أشد الصليبيين حماسة لتنفيذ تلك الالتزامات أرناط أمير الكرك متهزاً فرصة انشغال صلاح الدين بعملياته الحربية فى الشمال ، إذ عاد إلى التفكير فى مشروعه القديم الخاص بغزو مكة والمدينة . وبيان ذلك أن أرناط لم ينس أهمية أيلة العسكرية وضياعها على الصليبيين ، سيما وقد توالت عليه نكايات الحامية المصرية المرابطة بحصن أيلة الواقعة فى وسط البحر ولا سبيل للصليبيين إليها[٤] . وهداه تفكيره أخيراً إلى قطع غابات اقليم الكرك وأكثر نخيل العريش وحمله إلى حصن الكرك منذ نوفمبر سنة ١١٨١ ، وهناك عمد إلى دير الرهبان بصنع بعض

(١) ابن واصل ص ٢٣٥ .
(٢) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٢٧ — ابو شامة حـ ٢ ص ٣٣ .
(٣) راجع ما سبق ص ١٣٧
(٤) ابن واصل ص ٢٤٠ .

المراكب[١] ، كما عمد إلى صليبى عسقلان بصنع البعض الآخر حتى توافر لديه خمس سفن حربية كبيرة ، وعدد كبير من المراكب الخفيفة ونقلها جميعها مفككة على جمال البدويين إلى الساحل بعد أن أغراهم بالمال[٢] . ثم ركب المراكب ودهنها باللون الأسود وشحنها بالرجال وآلات القتال ، وأوقف منها مركبين على جزيرة قلعة أيلة تمنع أهلها استقاء الماء ، ومضى الباقون فى مراكبهم إلى عيذاب[٣] . وفى البر سير أرناط عسكره إلى تبوك ليحول دون وصول أى مدد عسكرى يطلبه نائب القلعة من الشام أو مصر ، وكان حظ أهل القلعة من المطر الساقط فى ديسمبر سنة ١١٨٢ بالجبل المقابل للقلعة بأيلة كبير ، حتى صارت بها مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين[٤] . واتخذ أرناط سبيله فى البحر سلبا ونهباً حتى وصل عيذاب ، وربما وصلت حملته جنوبا إلى

(١) السلوك حـ ٢ ص ٧٤ ابن فضل الله : التعريف ص ١٩٣ .
(٢) Lane—Poole : Saladin p. 1⁄5—Erehier L' Eglise et L'orient : p 113 — Fuller : Decessive battles : p. 234 — Kammerer op. Cit: Vol. I. p. 60.
(٣) ابن واصل ص ٢٤٠ — Lam' : The Flame of Islam 59 عيذاب ميناء مصرى يقع على ساحل البحر الأحمر ومن احفل مراسى الدنيا لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، فضلا عن مراكب الحجاج الصادرة والواردة . زارها ابن جبير (ص ٣٨ ، ٣٩) فى يوليو سنة ١١٨٣ (ربيع الأول ٥٧٩) ولم يستطع احصاء القوافل الواردة والصادرة بها لكثرتها . ويعيش أهلها على تعمير سفن الحجاج وصنع مراكب البحر الأحمر أو بحر الفراعنة كما اسماه المعاصرون ، وتعرف تلك المراكب بالجلاب وواحدها جلبة وتخاط بحبال الليف ولا يستعمل فيها مسمار البتة لكثرة الشعاب المغناطيسية المعترضة فى هذا البحر . ووصف لنا ابن جبير وغيره كيفية عمل الجلاب (راجع ابن جبير ص ٤١ — الخطط المقريزية حـ ١ ص ٣٢٨ — النويرى الالمام حـ ١ ص ٣٧٦) وتسير الملاحة فى هذا البحر وفق قواعد وقوانين خاصة يعلمها الملاحون وهى تختلف كثيراً عن مثيلاتها فى البحر الأبيض لوجود الجبال المغناطيسية بكثرة فى الأول (راجع Kammerer op cit. Vol I p. 67, 73) . والابحار فى هذا البحر من أشق الأمور على المسافرين والبحار معا بدليل قول ابن جبير « وكانت أهوال شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه » .) ابن جبير ص ٤١) وكذا أشارة القريزى (السلوك جـ ١ ص ٨٧) إلى الخبر الوارد من ناظر قوص فى ١٦ إبريل سنة ١١٨٤ (١٢ محرم سنة ٥٨٠) بغرق اربع جلاب بها ألف وثلثمائة رجل من الحجاج غرقوا جميعا .
(٤) القريزى : الخطط حـ ١ ص ٢٩٩ — شقير : تاريخ سينا والعرب ص ١٩٩ .

باب المندب حتى عدن (١) . ويبدو جليا أن المسلمين فزعوا أشد الفزع لأن مشاهدتهم الصليبيين لم تكن إلا مباغتة غير متوقعة وبلية لم يعرفوها ، ولأنهم لم يعهدوا ببحرهم أوروبيا تاجراً ، ولا دخل إليهم صليبي قط (٢) . واحدث الصليبيون حوادث شنيعة (٣) ، وظلوا فى طريقهم عبر الصحراء يريدون المدينة النبوية ، على أنه من الواضح أنه لم يكن فى مقدورهم التماس طريق الحجاز ومعالمه إلا بفضل مساعدة البدو المتمردين من الأعراب لهم (٤) .

ووصلت هذه الأخبار فى كتاب نائب قلعة أيلة إلى صلاح الدين وهو على الموصل ، وقد جاء فى ذلك الكتاب فيما يبدو أن الصليبيين يريدون الزحف جنوبا صوب اليمن (٥) ؛ فبعث صلاح الدين إلى أخيه ونائبه بمصر الملك العادل أبو بكر ابن أيوب بتعمير الأسطول فى مصر والإسكندرية ، وقام العادل على تنفيذ تعليمات صلاح الدين خير قيام ، فسافر إلى السويس بعد أن عهد إلى قائد الأسطول الشيخ حسام الدين لؤلؤ بحمل المراكب مفككة على الجمال إلى تلك المدينة ، وهناك أشرف على تركيبها فى يناير سنة ١١٨٣ ، وتعميرها بالرجال ذوى التجربة فى شئون البحر وعلى وجه الخصوص المغاربه . وفرق لؤلؤ الأسطول إلى فرقتين ، فصارت الأولى إلى قلعة أيلة واستولت على مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها إلا من تعلق بهضبة من الهضاب أو دخل فى شعب من الشعاب ، وأولئك اقتفى العربان آثارهم ، والتزموا إحضارهم فلم ينجُ منهم إلا القليل .

---

(١) السلوك حـ ١ ص ٨٨ — Hasssn Sadek : Sala Din's Fort— p. 118
Kammerer op. cit : vol I p. 61

(٢) الدوادار : كنز الدرر حـ ٧ قسم ١ ص ٥١ . — ابو الفدا حـ ٣ ص ٦٩ — ابن خلدون حـ ٥ ص ٢٩٩ .

(٣) احرق الصليبيون نحو ست عشر مركبا للمسلمين وأخذوا فى عيذاب مركبا يأتى بالحجاج من جدة ، وآخرين كانا مقبلين بتجار وبضائع من اليمن ، وأحرقوا أطعمه كثيرة على ساحل عيذاب كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، هذا فضلا عن حوادث القتل والأسر والتنكيل والارهاب التى ارتكبوها فى البر والبحر — راجع التفاصيل عند القريزى : الخطط حـ ٤ ص ١٣٩ — السلوك حـ ١ ص ٧٨ .

(٤) ابو شامة حـ ٢ ص ٣٧ .

(٥) Kammerer op. cir. Vol. I p. 62

أما الفرقة الثانية فذهبت إلى عيذاب وأطلقت الأسورين من المسلمين وردت عليهم ما سلب منهم ولم تجد الصليبيين هناك . ثم رجع لؤلؤ إلى رابغ وأدرك بعض الصليبيين معتصمين بساحل الحوراء (١) . وكان عددهم ثلثمائة ونيف رجل ، انضم إليهم عدة من العربان . وعندما لحقهم لؤلؤ فرت العربان خوفاً من سطوته ، ورغبة فى عطيته إذ بذل لهم الأموال حتى أنه علق أكياس الفضة على رءوس الرماح . فلما فرت العربان التجأ الصليبيون إلى رأس جبل صعب المرتقى ، وركب عشرة من المسلمين وراءهم خيل العرب (٢) يقتنصونهم أسرى وقتلى ، ومازال لؤلؤ وأتباعه يتبعونهم ليل نهار حتى أدركهم بعد خمسة أيام على مسافة يوم من المدينة ، فأسلموا أنفسهم له وتصادف ذلك أشهر الحج فساق منهم أسيرين إلى منى للذبح على قول المقريزى (٣) أما الباقون وعددهم مائة وسبعون أسيراً فعاد بهم لؤلؤ إلى مصر وفى أرجلهم القيود ، ويبدو أن أولئك الأسرى جئ بهم إلى القاهرة فكان دخولهم لها يوما مشهوداً على قول المقريزى (٤) كذلك ، وتصادف دخولهم الإسكندرية فى ١٦ إبريل سنة (١٠ ذى الحجة ص ٥٧٨) وجود الرحالة المشهور ابن جبير بها ، فشاهد مجتمعاً عظيما من الناس مصفوفين على جانبي الشوارع لمشاهدة أولئك الأسرى وهم راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق (٥) . وتولى قتلهم جميعاً الصوفية والفقهاء تنفيذاً لأوامر صلاح الدين حتى « لا يبقى منهم أحد يخبر عن ذلك البحر وطريقه » (٦) بمعنى أن الغرض من قتلهم لم يكن بدافع التشفى والانتقام وإنما لحكمة فنية عسكرية . وفات مؤرخو العرب أن

---

(١) ابن خلدون حـ ٥ ص ٢٩٩ — ابو شامة حـ ٢ ص ٠٥ — ابن واصل ص ٢٠٤ . — Kammerer op cit : Vol. I p. 61 — Reinaud : Extraits .. p. 178

(٢) القريزى الخطط حـ ٣ ص ١١٨ ابن أيبك درر التيجان تحت أحداث سنة ٥٧٨ هـ — Kammerer op. cit : Vol, I p. 62

(٣) الخطط حـ ٣ ص ١٣٩ .

(٤) الخطط حـ ٣ ١٣٩ .

(٥) ابن جبير ص ٧٩ — Hassan Sadek p. 117 — Lane Poole : Saladin P. 175 — ابن واصل ٢٤٢ — الأحكام السلطانية ص ٥٠ . Wiet, Histoire .... p. 322.

(٦) ابن واصل ٢٤٠ . أبو شامة جـ ٢ ص ٣٥ .

أخطر رجل فى الحملة وهو أرناط استطاع الإفلات من الأسر والعودة إلى حصنه بالكرك ، ليوالى مشاريعه وخططه العدائية من جديد ضد المسلمين [١] » .

ويبدو مما سبق أن أهداف تلك الغزوة الصليبية ثلاثة ، وهى إصابة المسلمين فى مقتلهم بقطع الصلة البرية والبحرية بين مكة والمدينة ، وهما قلبا العالم الإسلامى وبين شرايينه فى مصر والشام ، وضمان سيطرة الصليبيين التجارية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى باحتلال أيلة شمالا وعدن جنوباً ، وإقناع مملكة الحبشة أخيراً بالعمل على المشاركة فى الحروب الصليبية [٢] . وقد كاد أرناط أن يحقق بعض تلك الأهداف لولا البحرية الأيوبية ، وبفضل القواعد والموانى البحرية التى أسسها صلاح الدين على شاطئ البحر الأحمر ظلت سيادة مصر فيه مقررة ومعترف بها طوال العصر الوسيط حتى اختفت تلك السيادة إثر موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ م .

وقبل نهاية تلك السنة (٨٢ — ١١٨٣ م) وصلت أخبار من عند قراقوش التقوى وحملته بشمال إفريقية ، وأنه باستيلائه على مدينة زالوت ، ومحاصرته مدينة طرابلس حصاراً شديداً ، جعل شيخها عبد المجيد بن مطروح يطلب المفاوضة فى الصلح ، غير أن المفاوضة انتهت بالفشل لسوء سلوك أصحاب قراقوش مع أهل طرابلس . ثم أدرك ابن مطروح أن قراقوش لن يرحل عن طرابلس إلا بعد شئ من الاتفاق ، فاتفق معه على مبلغ من المال تؤديه طرابلس إليه فى كل سنة على أن يرحل نهائياً عن طرابلس ؛ فأجابه قراقوش إلى ذلك ورحل عنها متجهاً نحو الغرب بعد أن وصل إليه المدد من مصر حتى بلغ مجموع من معه ثمانمائة فارس من الأتراك ، فسار بهم من جبل نفوسة إلى قابس ثم إلى قلعة قصر الروم وغيره من القلاع والمواقع التى قبلت الحكم المصرى [٣] .

(١) Lamb : The Flame of Islam p. 29

(٢) راجع الفصل الأول ص ٤٣ .

(٣) ابو شامة ح ٢ ص ٣٨ .

وعلم صلاح الدين أثناء مقامه بحران للاستجمام أن عز الدين مسعود صاحب الموصل كون حلفا إسلاميا من ظهير الدين سقمان شاه أرمن صاحب خلاط ، ومن ايلغازى ابن ألبى بن تمرتاش صاحب ماردين ، ومن صاحب أرزن وتبليس وغيرهم ، وأن الحلف اجتمع فى حرزم من أعمال ماردين لمنازلة صلاح الدين . فجمع عساكره واتخذ سبيله نحوهم حتى وصل رأس عين فى إبريل سنة ١١٨٣ (ذى الحجة ٥٧٨) فلما سمعوا بمجيئه « ذهبوا بقلوب النساء وقد جاءوا وهم رجال » . على قول العماد [١] . ونزل صلاح الدين منزلتهم بحرزم ورأى أن يترك أعداءه يعتصم كل منهم بقاعدة ملكه حتى تتاح له فرصة منازلتهم منفردين ، على حين اتجه هو إلى آمد (ديار بكر الحالية) فوصلها فى إبريل سنة ١١٨٣ (الأربعاء ١٧ ذى الحجة سنة ٥٧٨) بعد أن استأذن الخليفة فى محاصرتها وكانت آمد غاية فى الحصانة والمناعة يضرب بسورها المثل ، ويدبر أمرها ابن بيسان الذى ساءت سيرته بين أهلها وعسكرها ، ولذلك أمر صلاح الدين أن تكتب الرقاع للآمديين يعدهم الخير والإحسان إن أطاعوه ويتهددهم إن قاتلوه ، وعلق تلك الرقاع على السهام ورمى بها داخل آمد . على أن صلاح الدين لم يلبث حتى أخذ فى هدم أسوار آمد ، إذ أرسل النقابين لنقبها ، فما زالوا بها حتى نقبوها من عدة نواحى فضلا عن رميها بالمجانيق . فلما رأى جندها وأهلها ذلك بعثوا بنسائهم إلى المخيم يطلبن الأمان فأمنهم صلاح الدين ، وأمهلهم ثلاثة أيام يخرجون بأموالهم وممتلكاتهم دون الذخائر والسلاح . ومن أدب صلاح الدين أن يقعد أصحاب ابن بيسان عن معاونته فى نقل أمواله ، فيبعث إليه صلاح الدين دواباً وثلاثمائة غلام لمساعدته فى نقلها والرحيل بها إلى بعض بلاد الدولة البيزنطية .

ثم تسلم صلاح الدين آمد بأموالها وذخائرها ، ورفع أعلامه على أسوارها يوم ٦ مايو سنة ١١٨٣ (١٤ محرم ٥٧٩) مما يدل على أن الآمديين فضلوا التسليم على المقاومة ، ووجد صلاح الدين فى خزانة كتبها ألف ألف وأربعون ألف مجلد ، وهبها للقاضى الفاضل فتخير منها حمل سبعين جملا . ثم وهب صلاح الدين البلد بما فيه لنور الدين

(١) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٢٧ — ابو شامة ح ٢ ص ٣٨ — ابن شداد ص ٤٧ — Lane — Poole : Saladin p.p. 171-172

محمد بن قرا أرسلان وقد وعده بها من قبل [1] ، وكتب صلاح الدين إلى بغداد يخبر الخليفة العباسي بفتح آمد ، ويعتب عليه تأييده الموصل مبينا أثر ذلك التأييد في تأخير وحدة المسلمين ، إذ « لولا تقليد أمير المؤمنين لما نالت يد مُدّت من مصر فأخذت آمد ومن بآمد ، ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها » [2] .

ثم عزم صلاح الدين على منازلة أعضاء حلف الموصل الواحد تلو الآخر ، مبتدئا بعماد الدين زنكي صاحب حلب لكثرة إتصالاته بالصليبيين فرحل عن آمد وعبر الفرات وتسلم في طريقه إلى حلب تل خالد ، فسلمها إلى بدر الدين دلدرم ، ثم نزل على عين تاب وتسلمها أمانا من صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين . ونزل صلاح الدين أخيرا على حلب في صدر الميدان الأخضر يوم ٢١ مايو سنة ١١٨٣ (١٩ محرم ٥٧٩) وخيم على جبل جوشن ، ونهى أصحابه عن القتال مكتفيا بالحصار والمضايقة . غير أن حزب الشباب في عسكره وعلى رأسه أخيه تاج الملوك بورى رام القتال وأحب النزال ، فنزل صلاح على رأيه وتحقق عماد الدين زنكي أنه لا قبل له بالقوات الأيوبية ، فأشار عليه أحد أمرائه وهو حسام الدين طومان ابن غازى أن يطلب من صلاح الدين بلادا وينزل له عن حلب وما في قلعتها من أموال . واجتمع حسام الدين مع صلاح الدين سرا وانتظم الصلح بينهما على أن يسلم عماد الدين حلب مقابل سنجار ، وزاده صلاح الدين الخابور ونصيبين وسروج ، كما اقطع طومان الرقة مكافأة له على سفارته . وأشترط صلاح الدين على عماد الدين الحضور بعسكره لمجاهدة الصليبيين ، وناب عن عسكر حلب وأهلها في هذا الصلح عز الدين جرديك الأمير النورى ، وزين الدين بلك ، وأقام صلاح الدين لعماد الدين دعوة عظيمة في الميدان الأخضر حضرها جميع أمراء

(١) Lane Poole : Sajadin p 170 — ابو شامة ح ٢ ص ٤١ — ابن الأثير ح ١١ ص ٣٢٠ — وقيل لصلاح الدين أن الحواصل لم تدخل في الهبة ، فقال لا أبخل بها عليه وكان في خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار فامتدحه الشعراء على الصنيع ومن قول أحدهم :

قل للملوك تنحوا عن ممالككم ... فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

ابن كثير ح ١٢ ص ٣١٢ .

(٢) ابو شامة ح ٢ ص ٤١ .

الجيشين وقدم له هدايا كثيرة كما خلع على أصحابه [1] . وغادر عماد الدين حلب مودعا من صلاح الدين أطيب توديع ، ومن الحلبيين أمره وأقساه إذ شيعوه بقولهم « يا حمار بعت حلب بسنجار » [2] ، وصعد صلاح الدين إلى قلعة حلب يوم الإثنين ١٣ يونيو سنة ١١٨٣ (٢١ صفر ٥٧٩) .

أما أهمية تسليم حلب لصلاح الدين من ناحية التاريخ الحربي المصري فهي أنها صارت داخل نطاق الإمبراطورية الأيوبية الشاسعة الأرجاء ، كما صار صلاح بعد تسليمها إليه أقوى ملك بين ملوك المسلمين أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ولعله أحس بأهمية الحادث في نفسه بدليل قوله للمحيطين به عند صعوده قلعتها « والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة ، والآن تبينت أنني أملك البلاد ، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت » [3] بعد أن كان « مزلزلا وعلى شفا جرف هاو » . على قول ابن الأثير [4] . غير أن صلاح الدين فقد أعز إخوته إليه ، وهو تاج الملوك بورى في حلب ، إذ طعن في فخذه أثناء الحصار ، ومات من جراحه ، وأخذ صلاح الدين يردد للحاضرين عند وصول هذا الخبر إليه « ما أخذنا حلب رخيصة بقتل تاج الملوك [5] » ، واعتبر الصليبيون تسليم حلب لصلاح الدين أعظم نكبة حلت بهم لأنها أكدت الروابط الاستراتيجية والعسكرية بين محور مصر — سوريا ، وغدت الممتلكات الصليبية بالشام محصورة بداخل هذا المحور [6] .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٩ — ابن شداد ص ٤٧ ، ٤٨ — ابو شامة ح ٢ ص ٤٢ .

(٢) العينى ح ١٦ قسم ٢ ص ٤ .

(٣) ابو شامة ح ٢ ص ٤٥ — ابن كثير ح ١٢ ص ٣١٣ .

(٤) ابن الأثير ح ١١ ص ٣٢٧ .

(٥) ابن مخرمة ح ٢ مجلد ٢ ص ٧٥٢ — ابن خلكان ح ١ ص ١٣٩ . طبعة باريس .

(٦) Stevenson op cit p 230 — Grousset op. cit : vol. II p. 729 وما أكثر الشعراء الذين حضوا صلاح الدين على فتح حلب وأغروه وهونوا له أمرها ، وما أكثر المهنئين له بهذا الفتح ، سيما المجد بن جهبل الذى كتب ورقة إلى صلاح الدين يبشره بفتح البيت المقدس على يديه ، ويعين فيه الزمان الذى يفتحه فيه وأعطى الورقة للفقيه عيسى =

والواقع أن دولة صلاح الدين بعد أن أضيفت إليها حلب أضحت من حيث السعة والمناعة الحربية والصيت والسمعة أقوى دولة فى الشرق الأدنى كله، إذ شملت جميع البلاد من دجلة إلى النيل وشواطىء إفريقية الشمالية حتى طرابلس ، فضلا عن اليمن والنوبة والحجاز، إلا فى ذلك مدينة حلب عاصمة المملكة الزنكية العتيقة ، وأضحى اسم صلاح الدين موضع التبجيل والاكبار فى جميع البلاد التى دانت له . ولاحظ ابن جبير ذلك فى صلاة الجمعة بمكة فى سبتمبر سنة ١١٨٣ (جمادى الأولى ٥٧٩) أى بعد دخول صلاح الدين حلب بثلاثة أشهر ، إذ دعا الخطيب للخليفة أبى العباس الناصر أحمد ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى الحسنى ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ولولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب ، فلما وصل الخطيب إلى اسم صلاح الدين « خفقت الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان » . ولم يقتصر الدعاء لصلاح الدين على خطبة الجمعة بل دأب المؤذن فى سطح قبة زمزم أن يرفع صوته فى أثر كل صلاة مغرب بالدعاء للخليفة العباسى ولأمير مكة ثم لصلاح الدين « أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن » فإذا انتهى المؤذن إلى ذكره « ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين ، بألسنة عندها القلوب الخالصة

= لعرضها على صلاح الدين فلم يتجاسر وحدث محي الدين ابن زكى الدين القاضى الدمشقى بما فيها وكان كثير الثقة بابن جهبل ، فأخذها بن زكى الدين المعنى ونسج قصيدة مدح صلاح الدين بها حين فتح حلب جاء فيها :

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر ... قضى لكم بافتتاح القدس فى رجب

واختلف المؤرخون فى قائل البيت فمن قائل أنه السعيد ابن سيناء الملك ، ومن قائل أنه فخر الدين المولى (عقد الجمان ج ١ قسم ١ ص ٤) ومن قائل أنه أبو المعالى ابن الحسن القرشى الصياتى ونص البيت عنده :

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر ... مبشر فى فتوح القدس فى رجب

(ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢١٤) والراجح أن الفكرة وليدة ابن جهبل والبيت من نسج ابن زكى الدين اللذين كافأهما صلاح الدين وتعجب من تنبؤهما لأن فتح القدس بعد ذلك وافق الوعد الذى تنبأ به الشاعر — (حمزه أدب الحروب الصليبية ص ١٣٠ — ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٧ — ابو شامة ج ٢ ص ٤٦) .

والنيات الصادقة ، وتخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا ، لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهداؤه فى أرضه » (١) .

هكذا صور ابن جبير منزلة صلاح الدين فى نفوس المسلمين تصويرا واقعيا شهده بنفسه ، وليس عجيبا أن يكتب صلاح الدين إلى البابا ليوسيوس الثالث فى تلك السنة (١١٨٣) وبعد استلامه حلب بشأن بعض الأسرى ناعتا نفسه باسم ملك جميع بلاد الشرق Rex omnium regum oriont alium (٢) .

ولم يكن بعد حلب أمام صلاح الدين من الممالك الاسلامية ما يخافه ، فدولة السلاجقة فى آسيا الصغرى تتودد إليه ، والموصل التى استعصت عليه حتى ذلك الوقت كانت تحسب له ألف حساب ، وتدفع بغداد من حين لآخر لتشفع لها عنده .

ولم تكن انتصارات صلاح الدين سنة ١١٨٣ قاصرة على الجبهة الشرقية الشمالية ، إذ ورد عليه من الجبهة المصرية وهو على حلب بشارتان : تتضمن الأولى خروج الأسطول المصرى يوم ٤ مايو سنة ١١٨٣ إلى عرض البحر ، وملاقاته بطسه صليبية فيها ثلثمائة وخمس وسبعين مقاتل بسلاحهم وأموالهم فى طريقهم إلى ساحل الشام ، فاستولى المسلمون على البطسه وعادوا بالقتلى والأسرى والغنائم إلى دمياط بعد غيبة تسعة أيام . وعلى حين أخبرته البشارة الثانية بخروج الصليبيين إلى نواحى الداروم التى تقع بعد غزه فى الطريق إلى مصر ، وقيامهم بالنهب والتخريب ، حتى خرجت إليهم حاميات الحدود بطريق صدر أيله ومعها والى الشرقية والتقت بهم عند المسيلة قرب العريش فلم يفلت من أيديهم من الصليبيين إلا رجلان (٣) .

وعلم صلاح الدين كذلك وهو على حلب أن اتفاقا تم بين والى حارم وهو أحد مماليك نور الدين ، وبين بوهمند الثالث أمير انطاكية الصليبي على تسليم حارم إليه ، مقابل أن يعصمه الأمير الصليبي من صلاح الدين ، فانفذ صلاح الدين تقى الدين عمر للاستيلاء على حارم ، حتى إذا امتنعت عليه رحل إليها صلاح الدين

(١) ابن جبير ص ٩٦ ، من طبعة ليدن .
(٢) Saladin p. 174 — Lane Peole : Fuler Op. cit : p. 235
(٣) ابن واصل ص ٢٤٩ — السلوك ج ١ ص ٨٩ .

بنفسه وتسلمها ، أما الأمير بيهوموند الثالث الصليبي فارتجف رعباً من صلاح الدين وابتاع صفحه وعفوه بإطلاق جماعة من أسرى المسلمين ، وبعد أن بات صلاح الدين بقلعة حارم ليلتين ، عاد إلى حلب أواخر يونيو سنة ١١٨٣ (٣ ربيع الأول ٥٧٩) حيث أعطى عساكره وقواده أمراً بعودة كل إلى بلده[1] . على حين أخذ هو يدبر أمر حلب ويقطع إقطاعاتها إلى قواده العسكريين ، فولى حاجب نفسها ولده الملك الظاهر غازى وجعلها باسمه على أن يرتب مصالحه بها ، وولى سيف الدين يازكوج قلعتها وولى ديوانها ناصح الدين بن العميد ، وقضاءها محي الدين ابن الزكى ، واقطع تل خالد وتل باشر لبدر الدين دلدرم بن ياروق ، وقلعة عزاز لعلم الدين سليمان بن جندر ، وعين تاب لصاحبها ناصح الدين بن خمارتكين ، وأزال صلاح الدين أخيرا المظالم والمكوس عن حلب[2] .

وفى يوم السبت ٢٤ أغسطس سنة ١١٨٣ غادر صلاح الدين حلب إلى دمشق ، وفى عزمه محاصرة الكرك وتأديب صاحبه أرناط على غزوته البحرية إلى مكة والمدينة ، وكتب إلى أخيه العادل بمصر يأمره بالاستعداد لموافاته على حصن الكرك . ومر صلاح الدين فى طريقه على حماه وحمص وبعلبك ، والعساكر تتبعه من كل الجهات حتى بلغ دمشق فى أوائل سبتمبر ، ولم يطل مقامه بها بل اتجه مغزا إلى بيسان ، فعبر نهر الأردن الفاصل بين المسلمين والصليبيين ، ونزل على بيسان ، فنهبها وأحرقها وتقدم إلى عين جالوت وخيم بها ، على حين تفرقت كشافته فى الطرق المؤدية إلى قلاع الصليبيين ، تستطلع أخبارهم بقيادة جاولى الأسدى وعز الدين جرديك النورى . وصادفت الكشافة عساكر الكوكب والشوبك متجهة إلى نجدة الصليبيين فقصدتها وقاتلتها ، وعاد المملوكان ومعهما ما يزيد على مائة أسير صليبى . أما قوات الصليبيين الحقيقية فاجتمعت بصفورية فى عشرين ألف راجل وثلاثة آلاف فارس ، وسارت لملاقاة صلاح الدين بعين جالوت ، فرتب لهم جيشه ميمنة وميسرة وقلبا ، وأخرج لناوشتهم واجتذابهم

(١) ابوشامة حـ ٢ ص ٤٧ .
(٢) ابن شداد ص ٤٨ — ابو شامة حـ ٢ ص ٤٩ .

خمسمائة جاليشى ، أما العدو فأعطى ظهره إلى الجبل وأحجم عن الأقدام ووقف الجيشان وجهاً لوجه خمسة أيام . ورحل صلاح الدين نحو الطور علهم يخرجون من مكمنهم فإذا بهم ينكصون على أعقابهم إلى الناصرة . وعمل صلاح الدين بمشورة أصحابه بالعودة إلى دمشق فوصلها فى نهاية أكتوبر سنة ١١٨٣ ، بعد أن خرب من الحصون حصن بيسان وكفر بلا وزرعين وجينين ، ومن الأبراج والقرى عشرة[1] .

مكث صلاح الدين بدمشق أسبوعين ، ثم غادرها إلى الكرك وعليها تقابل مع عساكر مصر بقيادة أخيه الملك العادل فى نوفمبر سنة ١١٨٣ ، وتمكن من حصار الحصن والصعود إليه ، ونصب عليه سبع منجنيقات لتقذفه بالحجارة ليلا ونهارا ، وتناوب عليه الأمراء . غير أنه أدرك نقص ما معه من آلات الحصار ، وعلم بتجمع الصليبيين لدفعه عن الكرك فتزحزح عنه عائداً إلى دمشق ومعه أخوه العادل فبلغها فى ٢٥ ديسمبر سنة ١١٨٣ (٢٤ شعبان سنة ٥٧٩) ، بعد أن سير ابن أخيه تقى الدين عمر إلى مصر والياً عليها وبصحبته القاضى الفاضل[2] . ثم أعطى صلاح الدين أخاه العادل مدينة حلب عوضاً عن مصر فتوجه إليها ، وخرج منها الملك الظاهر بن صلاح الدين ومعه يازكوج عائدين إلى دمشق . وأهمية هذه النقلة فى التاريخ الحربى أن صلاح الدين رغب فى أن يكون أخوه العادل على مقربة منه ، ليأخذ رأيه فى أمور السياسة والحرب ، ولتيمنه بمشورته حتى أنه حرص على الكتابة إليه دائماً وهو بمصر ، ويؤخر الأمور إلى أن يرد عليه جوابه ، فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة والجهاد . وقيل إن العادل هو الذى طلب اقطاع حلب من صلاح الدين بأن يكتب له كتابا بها ككتاب البيع والشراء فامتنع صلاح الدين قائلا له : « أظننت أن البلاد تباع ، أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها ، ونحن خزنة المسلمين ورعاة للدين

(١) السلوك حـ ١ ص ٨١ الحنبلى — شفاء القلوب ص ٢٩ — العينى حـ قسم ١ ص ٧ .
(٢) ابن الأثير حـ ١١ ص ٣٣١ — ابن شداد ص ٥١ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٢٩ — Grousset op. cit vol. II, p. 736

وحراس لأموالهم [1] » . وهو تفسير صريح لمعنى الاقطاع الحربي فى نظر صلاح الدين، وهكذا رفض صلاح الدين اعفاء أخيه من مال يحمله إلى خزانة الجهاد ، وجند يرسله إلى ميدان القتال .

وفى مارس سنة ١١٨٤ (١٦ ذى القعده سنة ٥٧٩) استدعى صلاح الدين أخاه العادل من حلب إلى حضور اجتماع إسلامى عقده بدمشق لسفراء الأمراء المسلمين ؛ شهده شيخ الشيوخ صدر الدين وشهاب الدين بشير ، رسولى الخليفة الناصر لدين الله العباسى ، ليصلحا بين صلاح الدين وبين عز الدين صاحب الموصل، والقاضى محيى الدين بن كمال الدين الشهر زورى ، وبهاء الدين بن شداد سفيرى عز الدين مسعود صاحب الموصل ، وسفراء كل من : معز الدين سنجر شاه بن مودود بن زنكى صاحب الجزيرة ، وزين الدين يوسف بن بكتكين صاحب أربل ، وصاحب الحديثه وتكريت ، وشاه أرمن صاحب خلاط ، وعماد الدين زنكى صاحب سنجار ، وقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وطفر بن البهلوان ملك العجم ، وقزل أخى البهلوان . وأهمية هذا الاجتماع السياسى الخطير أنه اعتراف رسمى من أمراء المسلمين باحتضان صلاح الدين لفكرة الجهاد واستحقاقه لتزعم كلمتهم ، كما أنه دل على ما أحرزه من مقام ملحوظ بين امراء المسلمين ولم ينقض عام على تسلمه حلب . ولابد أنه حاول أن يفض مشاكله الإسلامية فى هذا الإجتماع ، ويقضى على الخلافات الداخلية بين امراء المسلمين بالطرق السياسية الودية . ولا بد أيضاً أنه عرض عليه الشئون الحربية بوجه عام فى الشرق الأدنى وخططه المستقبلة بشأن مجاهدة الصليبيين . وقد أيده الحاضرون جميعاً فيما قاله وعرض ، ورضوا عن طيب خاطر أن يكونوا من أوليائه وحلفائه المنتمين إليه . وكتب العادل أجوبة أولئك الرسل جميعاً بصفته مستشارا سياسيا وعسكريا لصلاح الدين . ولم يخرج عن اجماع كلمة المسلمين فى هذا الإجتماع سوى رسول الموصل القاضى محيى الدين الشهر زورى ، الذى ترفع فى أداء رسالته واغلظ القول فى مناقشته مع صلاح الدين بسبب إمارتى أربل والجزيره ، اللتين

(١) ابو شامة ح ٢ ص ٥٢ .

إشترط صلاح الدين أن يختار صاحباها الإنتماء إليه أو إلى عز الدين مسعود ، فعارض رسول الموصل ذلك الشرط وأصر على ذكرهما فى نسخته واقرار تبعيتهما للموصل ، وحاول الرسول أن يزحزح صلاح الدين عن موقفه ازاء هاتين الإمارتين ، ملوحا بأن البهلوان ملك العجم يؤيد الموصل فى سياستها الخارجية هذه تأييدا كليا ، فأسرها صلاح الدين فى نفسه . وهكذا ظلت الموصل شوكة اسلامية فى ظهر صلاح الدين ففاتت عليه فرصة إستغلال هذا الإجتماع الإسلامى فى مبغتة الصليبيين ومجاهدتهم . ولم تأت وساطة بغداد بثمرة لميلها إلى تأييد الموصل فيما طلبته [1] .

ومن ثم أيقن صلاح الدين أن يوم الموصل آت لاريب فيه وينبغى قبل مجيئه أن يفتح حصن الكرك الصليبي إن استطاع إلى ذلك سبيلا، حتى لا يهدد خطوطه الخلفيه مع مصر اثناء غيبته ببلاد الشرق ، فبعث إلى اطراف مملكته يطلب عساكرها وجاءه تقى الدين عمر والقاضى الفاضل بالعساكر المصرية ، والملك العادل بالعساكر الحلبية ، ونور الدين قرا ارسلان صاحب حصن كيفا وآمد ، وصاحب سنجار ، وعسكر ماردين ، وشاهد ابن جبير وكان وقتذاك بدمشق خروج صلاح الدين بجميع تلك العساكر فى سبتمبر سنة ١١٨٤ (جمادى الأولى سنة ٥٨٠) إلى الكرك ومعه من آلات الحصار مايتراوح بين تسعة واربعة عشرة منجنيقا [2] وضرب صلاح الدين الحصار حول الكرك للمرة الخامسة يوم ١٣ أغسطس ، وأخذت المجانيق تدك بحجارتها ابراج الحصن واسواره وستائره حتى تهدمت ، ولم يحل دون دخول المسلمين إلى الحصن إلا خندق واسع يبلغ عمقه ستون ذراعا ، ولاسبيل لاجتيازه إلا بطمه وردمه [3] . فأمر صلاح الدين بضرب اللبن وجمع الأخشاب لبناء سرداب تحت الخندق، وسرعان ما بنى العسكريون ثلاثه سراديب ، مسقفة بالخشب إتخذوها طرقا آمنه يسيرون بداخلها إلى سور الحصن

(١) راجع ابو شامة ج ٢ ص ٥٣ — ابن شداد ص ٥٢ — السلوك ج ١ قسم ١ ص ٨٢ .

(٢) ابن جبير ص ٢٦٨ — Hitti History of The Arabsp. 659

(٣) الحنبلى شفاء القلوب ص ٣١ — ابن خلدون ج ٥ ص ٣٠٢ — Lane Poole Saladin p. 179.

وتسارع المسلمون إلى ردم الخندق واستبشروا بالعمل والنصر[1] ، لولا صدور الأمر إليهم بوقف العمل ، ذلك أنه تصادف وقتذاك زفاف ربيب أرناط وابن زوجته الأمير همفرى الرابع صاحب Toron بالأميرة ازابلا الابنة الصغرى لملك بيت المقدس السابق وأخت الملك بلدوين الرابع ، فانفذت سيدة الكرك وهى زوجة أرناط وأم العريس رسالة إلى صلاح الدين ترجوه هدنة قصيرة حتى تتم حفلات الزفاف ، واشفع أرناط الرسالة بهدية من الكعك واللحوم والخبز إلى صلاح الدين ، معتذراً بأنه لم يعط الوقت الكافى ليقدم مايليق بضيفه الكريم ومكانته ، ولذا أمر صلاح الدين على الفور بوقف العمل . غير أن أرناط إنتهز الفرصة وأنفذ رسله إلى مملكة بيت المقدس وغيرها من القوى الصليبية يستنجدها لدفع المسلمين عن حصنه ، فلم تلبث أن انجدته بمدد من الجند ، وعلم صلاح الدين بأن هذه الجند ، وصلت إلى الوالة قرب قرية حسبان وعلى رأسها ريموند الثالث أمير طرابلس وبلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، فتحرك إلى قرية حسبان لقطع طريقها إلى الكرك ولكنها افلتت منه ، وفتحت الكرك أبوابها لاستقبال بلدوين الرابع استقبال المنتصر المنقذ لها من صلاح الدين[2] .

ولم تشر المصادر العربية إلى هذه القصة كلها ، وانفردت بها المصادر الغربية نقلا عن المؤرخ إرنول الصليبي المعاصر ، وهى تدل إن صدقت على احترام صلاح الدين لمبادىء الفروسية وآداب الحرب ، وعلى نبله وكرم عاطفته الإنسانية وعنايته بالمعنويات دون الماديات ، كما تدل على عمق مبادىء الغدر فى نفس أرناط . على أن موضع الأهمية هنا هو أن الكرك استعصت على صلاح الدين بسبب نجدتها ، فرحل عنها إلى نابلس ونهبها وخربها ، واستنقذ من بها من أسرى المسلمين وأخذ جيفين ثم دخل دمشق فى أكتوبر سنة ١١٨٤ (٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠) ، حيث استقبل ثانية رسل الخليفة العباسى للتحدث معه فى مشروع

(١) ابن واصل ص ٢٥٤ — Stevenson op cit : p. 234

(٢) Lamb : The Flame of Islam p. 59—61 Lane Poole Saladin p. 179 — Fuller p. 234 — Grousset op. cit : Vol II, p. 737

الصلح مع الموصل وهو ما لم يتم إلا بعد ذلك بسنوات[1] ، ولذلك أجاب صلاح الدين طلب ريموند الثالث أمير طرابلس والوصى على بلدوين الخامس ملك بيت المقدس فى عقد هدنة مع الصليبيين فى بداية سنة ١١٨٥ لمدة أربع سنوات . ويبدو أن ريموند كان يأمل من وراء ذلك الصلح معاونة صلاح الدين له فى الحصول على عرش مملكة بيت المقدس ضد منافسيه فى المستقبل ، بدليل اطلاقه سراح أسرى المسلمين بطرابلس واتفاقه مع صلاح الدين على أن يتعاونا اقتصاديا فى التغلب على المجاعة التى حلت بالشرق الأدنى فى تلك السنة (١١٨٥)[2] .

وقبل العودة إلى موضوع الوصل ينبغى الإشارة إلى ما تم من أعمال التحصين والدفاع عن مدينة القاهرة حتى ذلك التاريخ ، للدلالة على سعة الأفق السياسى لدى صلاح الدين واستطاعته القيام بأعمال كثيرة فى وقت واحد ، لأنه كان يرمى إلى هدف واحد وهو الاستعداد داخلياً وخارجياً لجهاد الصليبيين جهاداً عاما فى المستقبل القريب . وقد سبقت الإشارة إلى ما تم على يد صلاح الدين من سورى القاهرة الشمالى والشرقى سنة ١١٧٦[3] . أما السور الجنوبى وهو ما يصل القلعة بجنوبى الفسطاط عند النيل ، فيقول المقريزى أنه شرع فى العمل به فى سنة ١١٨٥ (٥٨١) ولم يبق فقير ولا ضعيف إلا خط فيه ساحة من ضرب الصفا إلى المشهد النفيسى وذلك أثناء نيابة تقى الدين عمر بمصر[4] . وحاول كازانوفا بواسطة النصوص التى أوردها المقريزى أن يعين تخطيط سور الفسطاط تعيناً افتراضيا ، وظلت معالمه مجهولة حتى كشفت عنها الحفريات الحديثة وحققت ظنون كازانوفا وافتراضاته[5] وإذا تتبع الزائر اتجاه سور الفسطاط مبتدئا من القلعة شمالا فإنه

(١) ابن واصل ص ٢٥٤ — Stevenson op. cit : p. 234

(٢) Lane — Poole : Saladin p. 181 — Grousset op. cit : Vol II. p. 760 — Fuller op. cit : p. 236

(٣) انظر الفصل الثالث ص ١٠٣ .

(٤) السلوك ج ١ ص ٩٠ .

(٥) Lane — Poole The Story of C. p. 174 — Casanova La cit adelle : p. 535— 537 بهجت على : حفريات الفسطاط ص ٨٧ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٣٢ ، ١٣٤ .

ويلاحظ اختفاء السور كلية جنوب القلعة ، ثم يأخذ فى الظهور عندما يسمى الآن باب السيدة عائشة أو باب القرافة ، وتقع تلك البوابة حاليا قبل نهاية ترام الإمام الشافعى (رقم ١٣) وإلى الجنوب الغربى من سجن مصر الحالى ، وتلك البوابة ليست من عمل صلاح الدين لأنها تحمل نقشاً باسم السلطان قايتباى ، أما باب القرافة الحقيق والذى يرجع إلى عصر صلاح الدين فقد كشفته إدارة حفظ الآثار العربية حديثاً ويقع على بعد عشرة أمتار تقريباً جنوبى باب السيدة عائشة ، ويجرى السور منها صوب الجنوب الغربى مخترقا قرافة الزمر الحاليـة ، ويتقاطع بعدها مع شارع السيدة نفيسة الحالى والمتجه إلى الإمام الشافعى ، ويظن وجود باب الصفا أحد أبواب السور من ناحية الجنوب عند هذا التقاطع ، ويسير السور حتى مكان يسمى حاليا « سبيل الوسية » وعنده يتفرع إلى فرعين ، أحدهما يسير فى نفس الاتجاه الغربى وينتهى بالنيل عند فم الخليج وهو ما يسمى بقناطر العيون ، على حين يسير الثانى جنوبا وسط خرائب مدينة الفسطاط حتى باب مصر أحد أبواب مدينة القاهرة من تلك الناحية على عهد صلاح الدين ، ويلاحظ أن القسم المتجه من قناطر العيون[1] من سبيل الوسية إلى الشمال والمنتهى إلى القلعة عند باب القرافة ليس من عمل صلاح الدين ، بل أقامه السلطان الناصر بن قلاوون على أساس سور صلاح الدين[2] .

ويستدل من الآثار الباقية بخرائب الفسطاط إلى اليوم وهى ، أربعة قواعد لأبراج نصف مستديرة ، واتجاه السور وأساسه وجميعها تبعد ألف متر إلى الشرق من محطة و كنيسة مارى جرجس الحالية . على أن صلاح الدين بنى سور الفسطاط وسط أطلال المدينة وخرائبها التى تخلفت عن حريق شاور المشهور سنة ١١٦٩

---

(١) قناطر العيون أو قناطر السباع كما أسماها المقريزى أول من انشأها الملك الظاهر بيبرس ، ونصب عليها سباعا من الحجارة لأن رنكه كان على شكل سبع ، ثم جاء الملك الناصر قلاوون فأحب أن يزيلها لتبق القناطر منسوبة إليه ومعروفة به فأمر بهدمها ، وعمارتها أوسع مما كانت بعشرة أذرع وأكثر من ارتفاعها الأول وذلك فى ٧٣٢ هـ — راجع الخطط المقريزية ح ٣ ص ٢٣٨ .

(٢) Casanova La cit adelle: p. 549 — بهجت — حفريات الفسطاط ص ١٣٥ .

بدليل ما يوجد داخل السور وخارجه من آثار لذلك الحريق حتى اليوم ، وذلك ليكون السور مستقيما فى اتجاهه من القلعه إلى باب مصر ، فضلا عن توفير لعملية البناء ، والاكتفاء بحماية الأجزاء المعمورة من المدينة فقط . ويوجد فى صفحتى سور الفسطاط اختلاف جوهرى فى بنائهما ، فالخارجة مبنية من مبدأ الأساس بالحجر الجيد النحت على مثال السور الشمالى الشرقى لمدينة القاهرة ، أما الداخلة فإنها مبنية بالدبش الذى يكاد لا يكفى لمقاومة دفع الأحجار المحشو بها السور ، وإنما كانت تستند إلى التلال التى قامت الشواهد على أنها مخلفة من عهد صلاح الدين ، ولاحظ كازانوفا وجود تشابه كبير فى صنعة البناء بين سور قراقوش شمال شرق القاهر وبين برجين من الأبراج السابقة الذكر .

وكان آخر أعمال التحصين التى قام بها صلاح الدين فى مصر السور الغربى ، فرغ بهاء الدين قراقوش قبل نهاية سنة ١١٨٤ م من بناء حائط كبير خارج القاهرة وعلى بعد سبعة أميال منها صوب الغرب على طريق الاسكندرية الصحراوى ، بقصد إقامة حاجز لحماية القاهرة مما يحتمل أن يقع من إغارة من ناحية الغرب . ولعله كان يخشى — أول قيامه على ملك مصر — إغارة مغربية فى تلك الناحية خصوصا وأن الموحدين Almohades قد عظم نفوذهم فى مراكش وجنوب أسبانيا منذ بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى على قول المؤرخين[1] . وربما خشى صلاح الدين كذلك إغارة الصليبيين على الاسكندرية مرة أخرى ليتقدموا منها إلى القاهرة فتكون الحائط سورا مانعا لتقدمهم . هذا فضلا عن أن المشروع يرمى إلى غرض شعبى وهو الاستفادة من الماء المحجوز أمام السور فى رى أراضى الجيزة ، وآية ذلك أن تصميم بهاء الدين قراقوش أسفر عن إقامة ما ينوب عن أربعين قنطرة على الحائط[2] . وعبارة ابن جبير الذى شهد العمل جاريا فى بناء هذه القناطر أثناء زيارته للقاهرة سنة ١١٩٣ م أبلغ دليل.

---

(١) ابن جبير ص ٧٧ طبعة مصر ، ٤٩ طبعة ڤيت Lane—Poole : His Hist. p. 135 — The Story of Cairo p. 180

(٢) الجوهر الثمين لابن دقماق ص ٩٤ — خلكان ح ١ ص ٦٠٠ — الخطط ح ٣ ص ٢٤٦ — Hist. SC. et Milit. V 2 p. 309

على وصف هذا المشروع ، إذ يقول أن صلاح الدين كان له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمه ، إعداد لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الأسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به ، وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت إن احتيج إلى ذلك »[1].

وكيفما كان الأمر لم يحدث قط فى عهد صلاح الدين أو فى عهد خلفائه أن هدد عدو خارجى مصر من تلك الناحية ، ولم يكن هناك ما يخيفه من الموحدين حتى تلك السنة (١١٨٤) ، لأن جيوشه بقيادة قراقوش التقوى قد وصلت فى زحفها غربا حتى قابس ، وتاخمت حدود مملكة الموحدين التى نكبت بوفاة عاهلها يوسف بن عبد المؤمن وتولية نجله يعقوب فى تلك السنة أيضا ، ولم يكن فى مقدور صليبى الشام القيام بغزوة بحرية إلى الاسكندرية لانشغالهم بحركات صلاح الدين حول الكرك وغيرها ، ولانقطاع العون البيزنطى البحرى عنهم ، منذ أن تحالفت بيزنطة مع صلاح الدين ثم حدث أن تولى أمر تلك القناطر مابين سنتى ١٢٠٠ ، ١٢٠٢ م مهندس قصير النظر دائم الإهمال ، فسدها رجاء أن يحبس الماء لرى الجيزة فقويت عليها جرية الماء ، وزلزلت منها ثلاث قناطر فانشقت ولم تعد صالحة لوقف الماء الجارى على قول السائح البغدادى[2] ، وقيل أن قراقوش عندما شرع فى بناء هذه القناطر بنى رصيفا من الحجارة ، ابتدأ به من جنب النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر التى اتخذ حجارتها من أهرام الجيزة المتهدمه[3] . ولعله استخدم هذا الرصيف لنقل أحجار الأهرام إلى البر الشرقى لاستخدامها فى بناء السور والقلعة .

أما مسألة الموصل ووصول رسل الخليفة العباسى إلى صلاح الدين بدمشق مرة أخرى ، فسببه أنه منذ اجتماع سفراء المسلمين بدمشق فى مارس سنة ١١٨٤ وإخفاق المحاولات للتسوية بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل

---

(١) ابن جبير ص ٢٢ .
(٢) البغدادى الافادة والاعتبار ص ٣٦ .
(٣) الخطط ح ٣ ص ٢١٠ — ح ١ ص ١٧٩ ، ١٩٣ .

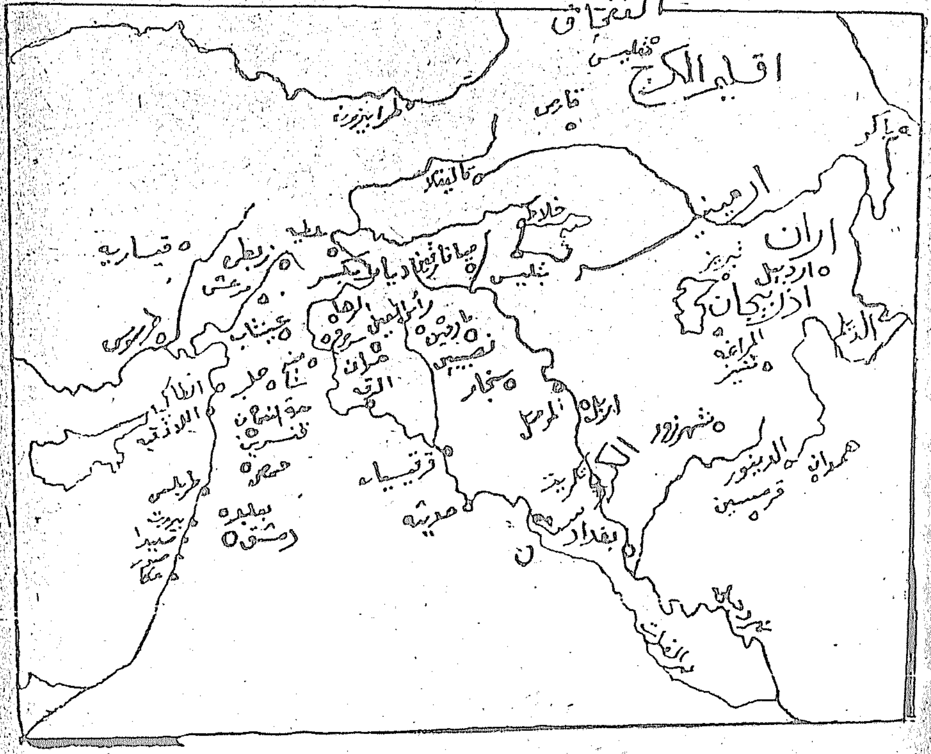

حروب صلاح الدين مع أمراء المسلمين
مابين ١١٨١ — ١١٨٦ م.
(شكل ٦)

عمل عز الدين هذا على تأليب ملوك الشرق ضد صلاح الدين والكيد من الموالين له بالجزيرة ، فارن عزالدين عساكره وعساكر قزل على أربل بقيادة مجاهد الدين قايماز ، واستصرخ صاحبها زين الدين إلى صلاح الدين الذى لبى نداءه وسار من دمشق فى فبراير سنة ١١٨٥ (ذى القعدة ٥٨٠) تاركا بها القاضى الفاضل ، ومتخذاً طريق الغار ، وبيوس البقاع إلى بعلبك حيث انقطع بها العماد الكاتب لمرضه ، وتقدم صلاح الدين إلى حمص وسار منها إلى حماه ، وأقام بها حتى لحقه العماد بعد شفائه ثم سار صلاح الدين من حماه إلى حلب ، وهناك خيم بظاهرها واجتمع بأخيه العادل لوضع خطة الهجوم على الموصل وأحلافها . وبينما صلاح الدين على حلب أرسل إلى معاقل الفرات وقلاعه ونواحيه يأمر أهلها بعمارة كل سفينة وزورق ومركب والتأهب والاستعداد لعبور الفرات .

وفى أوائل مايو ترك صلاح الدين حلب . فلما وصل إلى حران فى اليوم الخامس والعشرين منه قابله مظفر الدين كوكبرى ، وهو الذى طالما أرسل الرسل يستحث صلاح الدين للسير إلى الموصل ويمده بخمسين ألف دينار للانفاق . غير أن صلاح الدين لم ير من مظفر الدين سوى معسول الوعود وحسن الاستقبال ، فارتاب به وظن ميله مع المواصلة ولذا قبض عليه ، ثم خشى عشيرة أهل الجزيرة فأطلق سراحه وأعاد عليه حران والرها . وفى حران دخل صلاح الدين على الشيخ حياه بن قيس الحرانى طالباً منه الدعاء والتوفيق ، فأشار عليه بترك السير إلى الموصل فلم يقبل[1] ، ثم رحل صلاح الدين عن حران فى سبع يونيو إلى رأس عين ، حيث قابله رسول قلج ارسلان سلطان سلاجقة الروم ليخبره أن ملوك الشرق بأمرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد صلاح الدين إن لم يعد عن الموصل وماردين . فأيقن نجاح الوصل فى تحذير أعصاب أصدقائه وأعدائه معاً ، غير أنه لم يعر الرسول اهتماما لكثرة ما انضم إليه من عساكر تلك الجهات ، إذ لقيه نورالدين صاحب كيفا ، ومعزالدين سنجر شاه صاحب جزيرة بن عمر ، وقد انحرف عن عمه عز الدين صاحب الموصل ، ولقيه كذلك عماد الدين أبو بكر

(١) الذهبى ح ٤٦ ص ٥ .

ابن قرى ارسلان بعساكر ديار بكر وآمد نيابة عن أخيه نور الدين المتخلف لمرضه .

وتقدم صلاح الدين بتلك القوات إلى مدينة بلد قرب الموصل ، ومنها بعث ضياء الدين بن عبد الله الشهرزورى إلى الخليفة العباسى بما عزم عليه من حصر الموصل ، لا طمعاً فى توسيع مملكته بل رغبة فى معاقبتهم لنبذهم طاعة الخليفة واتصالهم بملك الأعاجم ومراسلتهم للصليبيين ، ومضايقتهم لأمراء الجزيرة وأربل وتكريت وغيرها[1] .

ونزل صلاح الدين اخيراً حول الموصل بموضع يعرف بالاسماعيليات ، ورتب عساكره نوبا تخرج من كل يوم لمداومة الحصار ، كما شرع فى اقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد ، فسير الأمير سيف الدين على الشطوب الهكارى ومعه الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية لمحاصرتها ، واجتمع عليه كثير من الأكراد الهكارية وضايقوه إلى أن رحل صلاح الدين عن الموصل . كذلك سير جماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر لاستغلال ضياعها . وأنزل مظفر الدين صاحب حران وأخيه زين الدين صاحب أربل بالجانب الغربى من الموصل ، وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقى منه . وحاول عز الدين صاحب الموصل أن يدفع الحصار المصرى الأيوبى عن بلده بالدهاء والحسنى ، فسير نسوة الموصل وعلى رأسهن والدته وزوجته — وهى ابنة نور الدين محمود زنكى — ومعهن جماعة من أعيان دولته إلى صلاح الدين يطلبن منه المصالحة والانجاد بالعساكر ورفع الحصار عن المدينة . فلما أقبل النسوة على صلاح الدين أكرمهن وعقد مشور أصحابه فى يونيو سنة ١١٨٥ (ربيع أول سنة ٥٨١) ، واستشارهم فيما يفعل ، فأشار أكثر الأعضاء بإجابتهن إلى ما طلبن منه ، على حين أشار الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب وغيرهما من الهكارية والأكراد برفض طلبهن ، بحجة أن « مثل

(١) راجع ابن شداد ص ٥٤ — ابو شامة ح ٢ ص ٦١ ، ٦٢ — ابن خلدون ح ٥ ص ٣٠٣ ابن الجوزى مرآة الزمان ص ٢٤٥ النويرى : مخطوط نهاية الأرب ح ٢٦ ص ١١٧ — Wiet : Histoire de La ... p. 320

الموصل لا يترك لأمرأه ، فإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد » ووافق ذلك القول هوى صلاح الدين ، فأعرض عنهن معتذرا بأعذار غير مقبولة ، وأدير عنه النسوة باكيات خايبات وشدد صلاح الدين الحصار على المدينة ، وكان ابن الأثير وقتذاك بداخلها وشهد غضبة المواصلة لرد صلاح الدين نسوتهم حزينات ، كما شهد استماتة جندها فى الدفاع عن أبراجها[1] . وبذل العامة نفوسهم رخيصة غيظا وحنقا إذ كانوا يعبرون دجله فيقاتلون من الجانب الشرقى من العسكر ويعودون ، فأشار أحد البغاددة على صلاح الدين بقطع دجله عن الموصل إلى ناحية نينوى لتعطيش أهلها وتملكها بغير قتال وأيد هذا الرأى المهندسون وأهل الخبرة ، غير أن صلاح الدين أدرك غلطته وقبح القاضى الفاضل موقفه مع نسوة الموصل وعدم اجابته طلبهن فى الصلح ، ورحل صلاح الدين عن الموصل فى يوليو (أواخر ربيع الآخر) إلى خلاط عاصمة أرمينيا الوسطى لوفاة صاحبها[2] .

وللقارىء أن يتساءل هنا لماذا خرج صلاح الدين عن جادة الصواب وهو الذى عرف عنه التسامح مع الصليبيين فى كثير من المواطن . السبب فى ذلك فيما يبدو ، أنه كان قليل الثقة فى إخلاص المواصلة له نتيجة لتجاربه السابقة معهم ، فأراد أن يكون فتح الموصل سيفا لاصلحا حتى لاتقوم لها قائمة بعد ذلك ، ولتكون عبرة لما حولها من الحصون الجزرية والأرمينية ، وحتى يستطيع تصفية مشاكله نهائيا مع أمراء المسلمين بقوة السيف ، بعد أن أعيته قوة المنطق والوقت لا يسمح بالمناقشات والمفاوضات والخير فى المناجزه والسرعة ليتفرغ للصليبيين ، كما أنه أراد أن يضع يده على الموصل ذات الموقع الإستراتيجى الهام ، وليضمن بالتالى مواردها المدفنية فى النفط لما له من الأهمية الإقتصادية والحربية فى حرب النار والحصار كما سيتضح فيما بعد . هذا فضلا عن التطاحن الواضح بين الأتراك والأكراد داخل سوره وخارجه ؛ فالأتراك يكرهون أذى البيت الاتابكى ، والأكراد الموصل

(١) انظر وصف ابن جبير ص ٢١٣ لتلك الأبراج وحصانة بيوتها .

(٢) انظر بن الأثير ج ١١ ص ٢٣٦ — الحنبلى شفاء القلوب ص ٣١ — ابن العماد شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٨ — ابو الفدا ج ٣ ص ٧٣٠ .

وأهلها ويشيرون بملازمة حصارها واذلالها ، فلاغرابة إذاً أن ينساق صلاح الدين وراء المشورة الكردية ، لأنهم هم القوة الكبرى فى أرض الجزيرة من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دنيصر ، يقطعون السبيل ويسعون فسادا فى الأرض ، وسكناهم فى جبال منيعة فلا دفاع لهم ولا مانع الا الله عزوجل ، على قول بن جبير الذى زار تلك المنطقة وشهد كثرة إغاراتهم وأخلالهم بالأمن فى يونيو سنة ١١٨٤ (ربيع الأول سنة ٥٨٠[1] .

وأخيرا أمر صلاح الدين ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين صاحب حران بالسير فى مقدمة جيشه إلى خلاط من أقرب الطرق . وتسابق الجيش المصرى الأيوبى إلى محاصرتها من ناحية الغرب ، وجيش البهلوان صاحب أذربيجان بقيادة شمس الدين أبو جعفر ابن ايلدكز إلى محاصرتها من ناحية الشرق ، واتصل كل من الجيشين المتسابقين بسيف الدين بكتمر أمير عسكر خلاط الذى مال إلى البهلوان وخطب له بعد أن ولاه خلاط وزوجه بابنته . أما صلاح الدين فتحرك بجزء من جيشه إلى ميافارقين وحاصرها ونصب عليها آلات الحصار وقاتلها قتالا عظيما فى أغسطس سنة ١١٨٥ (جمادى الأول سنة ٥٨١). ولما رأى صلاح الدين استماتة أجنادها ومقدمهم أسد الدين برتقش عدل عن القوة والحرب إلى أعمال الحيلة ، فراسل الخاتون ابنة قرأ أرسلان وزوجة قطب الدين صاحب ماردين يعرفها يميل أسد الدين إليه فى تسليم البلد ، كما راسل فى الوقت نفسه أسد الدين يعرفه بميل الخاتون للمقاربة والانقياد إليه . وما زال صلاح الدين بالاثنين حتى لانا وتقرر الصلح بين صلاح الدين وبين الخاتون على زواج ابنه معز الدين إسحاق بإحدى بناتها مقابل ولائها لصلاح الدين وفتحت المدينة أبوابها له[2] .

وبعد ميافارقين عاد صلاح الدين إلى الموصل للمرة الثالثة محاصرا ، وخيم بكفر زمار شهرى نوفبر وديسمبر (شعبان ورمضان) ، عازما على المقام بالموصل واقطاع جميع بلاده وأخذ غلاته ومحاصرته إقتصاديا ، غير أنه فوجىء بما لم يكن فى الحسبان ، إذ مرض مرضا

(١) ابن جبير ص ٢٤٢ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٢٩ — ابن خلدون ج ٥ ص ٣٠٣ — ابن الجوزى مرآة الزمان ص ٢٤٥ .

شديدا نتيجة عناء القتال وصيام رمضان ، وانتهز الواصلا الفرصه لفاتحته في المصالحة ، وترددت الرسل بين صلاح الدين وعز الدين صاحب الموصل حتى عاد صلاح الدين إلى حران ، فاسفروا إليه القاضيين بهاء الدين الربيب وبهاء الدين ابن شداد ، اللذين لحقا به في حران ومهمما الإجابة لما طلب ، وتقررت قواعد الصلح نهائيا في ٣ مارس سنة ١١٨٦ (٩ ذى الحجة سنة ٥٨١) على أن يسلم عز الدين إلى صلاح الدين شهر زور وأعمالها ، وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال ، وولاية بنى قفجاق ، وأن يترك له صلاح الدين الموصل وأعمالها ، على أن تكون الخطبة والسكة باسم صلاح الدين وأن يحضر عز الدين بعسكره في خدمته ، وعاد الرسولان ومعهما الهدايا لعز الدين ولوالدته ولزوجته بما قيمتها عشرة آلاف دينار ، عدا الخيل واللبوس والطيب والأشياء المستظرفة(١) .

والأثر المباشر لهذا الصلح من الناحية الحربية هو القضاء على المعاهدة الزنكية الصليبية نهائيا بعد مضى أربع سنوات من إبرامها ، وأن صلاح الدين استطاع أن يحشد بعدها عساكر الموصل وسنجار والجزيرة وأربل وحران وديار بكر(٢) ، والاكراد وغيرها من مختلف الأجناس ويجمعها في صعيد واحد ، فينفث فيها من روحه ، ويطبعها بطابع النظام والطاعة بعد أن كانت متنافرة متقاطعة والسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس ، ليس فيهم من يناهض صلاح الدين فهذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه بحق(٣) . وبهذا الصلح حقق صلاح الدين الشطر الأول من حلم عماد الدين زنكى ونور الدين محمود فيما يختص بتوحيد كلمة المسلمين معنويا وماديا تحت زعامة رجل واحد .

(١) ابن واصل ص ٢٦٤ — ابو الفداء جـ ٣ ص ٧٣ ابن الأثير جـ ١١ ص ٤٠٠ : — ابو شامة جـ ٢ ص ٦٤ — ابن شداد ص ٦٠ م — Lane ; Wite. Histoire : p. 329
Poole : Saladin p. 197 — Stevenson op. cit : p. 236
(٢) راجع شفاء القلوب ص ٧٥ (ملحق رقم ٣) عن أسماء الحصون التى فتحها صلاح الدين .
(٣) ابن جبير ص ٢٤٢ ، ٢٢٦ .

الفصل الخامس

الجهاد ضد الصليبيين

(إبريل ١١٨٦ — فبراير سنة ١١٨٩)
(محرم سنة ٥٨٢ — محرم سنة ٥٨٥)

شفاء صلاح الدين وعودته إلى دمشق يونيو سنة ١١٨٦ — تنظيم الاقطاعات الحربية بين أهله — أحوال مملكة بيت المقدس عند عودة صلاح الدين — الفلكيون يحكمون بخراب العالم سنة ١١٨٦ — الخصائص الاستراتيجية في بلاد المسلمين وبلاد الصليبيين — ديوان الجيش على عهد صلاح الدين — هيئة أركان الحرب على عهد صلاح الدين — وقعة حطين السبت ٤ يوليو سنة — خطة المسلمين والصليبيين — نتائج حطين — الإستيلاء على قلعة طبرية — قتل أسرى الداوية والاسبتارية — الاستيلاء على عكا ومدن الساحل — إسترجاع بيت القدس يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١١٨٧ — معاملة صلاح الدين لأسرى الصليبيين — حصار صور ٢٨ نوفمبر سنة ١١٨٧ — الوحشة بين صلاح الدين والخليفة — عودة صلاح الدين إلى دمشق ٨ مايو سنة ١١٨٨ — فتح مدن الساحل الشمالية ما بين طرابلس وانطاكية — الهدنة بين صلاح الدين وأنطاكية — أهمية يوم الجمعة في القتال — عودة صلاح إلى دمشق أكتوبر سنة ١١٨٨ — الاستيلاء على الكرك وصفد وكوكب أواخر ١١٨٨ — يناير سنة ١١٨٩ نقطة فاصلة في التاريخ الحربي على عهد صلاح الدين .

أضحى صلاح الدين سلطاناً فى إمبراطورية إسلامية واسعة ، أطرافها دجلة والفرات شرقاً ، وتونس غرباً ، وأرمينية شمالا ، واليمن والنوبة جنوباً . وبينما يخطو صلاح الدين خطواته فى سبيل توحيد هذه الإمبراطورية تحت رايته ، كون جيشاً أقطاعياً قوامه نظام إقطاعى إسلامى نشأ هو بحسبه منذ أيامه الأولى فى خدمة نور الدين[1] ، وبلغ صلاح الدين ذروة المجد والسلطان والنصر على الصليبيين فى ظل هذا النظام — رغم ما به من نقائص يكشف عنها البحث فى مواضع مختلفة من هذا الفصل وما بعده — وإذا عكف على إقطاع الاقطاعات فى غير تقتير ، كما حدث أثناء مقامه بحران مريضاً سنة ١١٨٦ ، حتى أقطع بعض فتوحاته بالجزيرة إلى عدد من رجاله الذين امتازوا عنده بخدماتهم الحربية ، مثل مملوكه مجاهد الدين إياز سربك الذى صار صاحب شهرزور (السليمانية الحالية) فتملكها وشتت من بها من بعض قبائل التركمان . وأقطع صلاح الدين إقليم البوازيج لبعض خواص مماليكه ، وأوقف ضيعة بنافيلا فى البوازيج على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد وهو صدر الدين المتوفى سنة ٨٤ — ١١٨٥[2] . وسير صلاح الدين نوابه إلى سائر البلاد بهذا الإقليم على قاعدة إقطاعية ، وزودهم بنصائحه وتوجيهاته وأوصاهم بإدارتها إدارة نظيمة ، غير أن إسناد تلك الفتوحات إلى الأكراد دون الأتراك تسبب عنه فيما يبدو كثير من الضغينة والفتنة ، ولا سيما بمدينة نصيبين وغيرها حيث تطور الأمر إلى حرب داخلية بين الأتراك والأكراد ، وذهب فيها خلق عظيم لم تشر المراجع إلى أعدادهم البتة[3] . وسمع صلاح الدين وهو بحران منعاة عصمت الدين الخاتون زوج عز الدين مسعود ، وهى التى تزوجها قبله صلاح الدين نفسه بعد وفاة زوجها الأول السلطان نور الدين ، فخاف على ما فى خزائنها من تراث وأمتعة وما خلفته من أملاك وأوقاف . ونعى إليه كذلك ناصر الدين محمد بن شيركوه بن عمه ، فأقر ولده شيركوه على ما كان لوالده أى حمص وما يتبعها من الحصون والقلاع . ولم يتماثل صلاح الدين للشفاء بحران

(١) انظر الفصل الأول ص ٢٧ ومابعدها .

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ٦٤ .

(٣) ابن شداد ص ٨٧ .

إلا بعد وصول أخيه العادل من حلب بصحبة مشاهير أطبائها[1] . ولما أبل صلاح الدين من مرضه تحرك من حران ونزل ضيفاً على حلب فى ٧ أبريل سنة ١١٨٦ (١٤ محرم سنة ٥٨٢) وفرح أهلها بقدمه وأقام صلاح الدين بحلب أياماً رتب فيها العادل نوابه بها ثم رحل صلاح الدين عنها إلى حماة بصحبة العادل .

وفى أثناء مرضه بحران كتب صلاح الدين وصيته بولاية ملكه العزيز عثمان مصر بكفالة ابن عمه تقى الدين عمر ، وولاية أكبر أولاده الملك الأفضل الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب ، وأن مدة الكفالة إلى أن يعلم المسلمون باستقلال كل واحد بالأمر ، ويستقر الكافلان فى خبزيهما وما بأيديهما ، ومن عدم من الولدين قام الأمثل من إخوته مقامه ، أومن الكافلين قام الباقى منهما مقام الآخر ، واستحلف صلاح الدين الحاضرين من أمرائه آنذاك على تنفيذ تلك الوصية من بعده[2] . ويبدو أن هذه الوصية ذاعت بين خاصة صلاح الدين ، بعد شفائه من مرضه وأن بعض شروطها لم ترق فى عين بعض رجاله ، ومنهم علاء الدين سليمان ابن جندر أحد أمراء حلب الذين لم يحسن العادل معاملتهم فى ولايته الحلبية رغم ما لبعضهم من مقام كبير قديم عند صلاح الدين ، وكان سليمان بن جندر هذا ممن خرج مع صلاح الدين إلى حماة ، وتطور الحديث بين السلطان والأمير الصديق إلى الوصية . قال ابن جندر لصلاح الدين « بأى رأى كنت تظن أن وصيتك تنفذ ، كأنك كنت خارجاً إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك . أما تستحى أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة . قال صلاح الدين وهو يضحك « وكيف ذلك ؟ » قال ابن جندر « إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصد أعالى الشجر ليحمى فراخه ، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض ؛ هذه حلب — وهى أم البلاد — بيد أخيك ، وحماة بيد ابن أخيك ، وحمص بيد ابن عمك أسد الدين ، وابنك الأفضل مع تقى الدين (ابن عمك) بمصر يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك فى خيمة يفعل به

(١) أبو شامة ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٨٥ .

ما أراد » . فقال له صلاح الدين « صدقت فا كتم هذا الأمر »(١) .

ترك ذلك الحديث أثرا عميقا فى نفس صلاح الدين وأرجأ أمره إلى أن يصل دمشق ، ثم واصل سيره إلى حمص وأقام بها أياما ، أقر فيها المجاهد أسد الدين ناصر الدين شيركوه بحمص وبسلميه وتدمر ووادى بنى حصين والرحبه وزلبيا ، ورتب معه أرسلان بوغا أحد الأمراء الأسديه ولاه قلعة حمص ، وكان عليها بدر الدين ابن شرون الهكارى الذى نقل إلى قلعة حلب . ورحل صلاح الدين بعد ذلك إلى دمشق فدخلها فى يونيو سنة ١١٨٦ (٢ ربيع الأول ٥٨٢) وهو يوم لم تر دمشق مثله ، فرحا وسرورا وحفاوة بقدم صلاح الدين بعد غيبة امتدت خمسة عشر شهرا . وفى دمشق اجتمع صلاح الدين بالقاضى الفاضل يراجعه ويستشيره فى أمور دولته الداخلية ومشاكلها الاقطاعية ، وعلى الخصوص ما يتعلق منها بتوزيع الاقطاعات الحربية على أولاده وأهله ، ابتغاء تعديل ما وضح له من أخطار على أولاده فى وصيته ، وتقرر استدعاء ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين على من مصر إلى دمشق لنافرة بينه وبين ابن عمه تقى الدين عمر ، وإقرار ولده الملك العزيز عثمان على مصر ومعه العادل أتابكا ، وكذا ولده الملك الظاهر على حلب وفى خدمته الشحنه حسام الدين بشاره والوالى عيسى بن بلاشوا . وشق ذلك الأمر على الملك المظفر تقى الدين عمر وحدثته نفسه بتملك الديار المصرية وامتنع عن العودة إلى الشام ، وهم بملاحقة مملوكه قراقوش الذى استولى على برقه وبلاد المغرب ، فسير إليه صلاح الدين الفقيه عيسى الهكارى لمراجعته ، وكان عيسى مهابا مطاعا بين الجنود المصرية فنجح فى إقناع تقى الدين عمر بالخروج إلى دمشق ، حيث استقبله صلاح الدين استقبالا حارا بمرج الصفر (٢٣ شعبان ٥٨٢) وأقطعه حماه ومنبج والمعرة وميافارقين(٢) . وسواء كانت تلك الحركة التى شملت أولاد صلاح الدين وأهله بإيعاز من الأمير علم الدين بن جندر الحلبى أم لم تكن ، أو كان مصدرها خوف صلاح الدين على مستقبل أولاده من بعده ، فإنها ترمى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠ — ٣١ — ابن واصل ص ٢٧٠ .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٣٤ — الذهبى ج ٢٦ ص ١٢٨ — ابن أيبك درر التيجان ص ٣٨٥ — ابن شداد ص ٥٩ — Stevenson op. cit p239-grousset Vol.II P. 762.

كذلك إلى خطط حربية مرتبطة كل الارتباط بحركات صلاح الدين المقبلة مع الصليبيين . ذلك أن المعروف أن الأعمال الحربية فى الشام الأعلى هدأت غداة صلح صلاح الدين مع المواصلة سنة ١١٨٦ (٥٨١ هـ) ، وأن صلاح الدين عقد النية بعد ذلك على الانتقال إلى الجبهة الجنوبية تأهبا لمنازلة الصليبيين فى فلسطين ، وأنه لم يؤخره عن ذلك سوى مرضه بحران حتى سنة ١١٨٦ . فلما أبل من مرضه وعاد إلى دمشق أصبح من الضرورى أن يكون نائبه بمصر شخصية كأخيه العادل الخبير بأمورها السياسية والحربية وطباع أهلها ، سيما وقد أثبتت الحوادث خشونة تقى الدين وسوء تصرفه فى إدارة شئون مصر .

ولم تكن مشاكل دولة الأيوبيين الداخلية فى الواقع أكثر خطرا من مثيلاتها عند الصليبيين ، إذ حدثت لهم أثناء غيبة صلاح الدين بالشرق حوادث ذات أثر بعيد فى أحوالهم الداخلية . ففى أوائل ١١٨٥ توفى الملك الأبرص بلدوين الرابع وورثه فى العرش ابن اخته سيبلا Sybella وهو طفل فى الخامسة عشر من عمره واسمه بلدوين الخامس . وقام ريموند الثالث صاحب طرابلس فى الوصاية على الملك الطفل كما قام قبلا فى الوصاية على خاله الأبرص . غير أن الملك الطفل توفى صيف ١١٨٦ وتزوجت أمه الملكة سيبلا من جى دى ليزجنان وهو المعروف فى معظم المراجع العربية باسم « كى » وانفرد ابن خلدون بتسميته « ابن غنم »(١) فتعقد الموقف تماما إذ أصبح كل من ريموند الوصى وجى زوج الملكة سيبلا يريد أن يكون له الأمر فى مملكة بيت المقدس ، ثم زاد الموقف تعقيدا قيام أصحاب جى ومنهم أرناط(٢) بإعلان جى ملكا على بيت المقدس ، وتنازلت له سيبلا عن الملك بشهادة البطريق هرقل ، والاسبتارية والداوية والبارونة إشيف Echive صاحبة طبريه وزوجة ريموند الثالث ، ثم طلب جى إلى ريموند أن يؤدى له حساب عن إقطاعات الملك الطفل بلدوين الخامس أيام كفالته ، فغضب واستعان بصلاح الدين واستنجد به ، ووافق جماعة من الصليبيين ريموند على

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٤٧ — ابن خلدون ج ٥ ص ٣٠٥ .
(٢) راجع الفصل الرابع ص ١٢٥ .

استنجاده بصلاح الدين لشدة كراهيتهم للملك جي الذى كان فى نظرهم دخيلا عليهم . وأهمية هذا الاختلاف الصليبي فى التاريخ الحربى أن صلاح الدين استطاع بفضل صداقته مع ريموند أن يبث السرايا والعيون إلى بلاد مملكة بيت المقدس من ناحية طرابلس وطبريه ، فتقوم بأعمالها الاستكشافية ، أو تغير على بعض الضياع الصليبية ، وتعود آمنة . وكان ذلك من أعظم الأسباب المؤدية لتسهيل الاستيلاء على الكثير من مدن مملكة بيت المقدس فيما بعد(١) .

غير أن صلاح الدين لم يشأ أن ينقض الهدنة بينه وبين بيت المقدس رغم خلوه من جميع مشاكله الإسلامية واستطاعته الانصراف إلى الصليبيين بقوات كبيرة . ومع هذا قال جي وأنصاره ومنهم أرناط بنقضها ، لأن صاحبها والمتسبب فى عقدها هو ريموند صاحب طرابلس ، الذى أضحى فى نظرهم عدوا لهم وخائنا للفكرة الصليبية التى تحتم دائما الحرب مع المسلمين ، ولأن المنجمين والعرافين قالوا بأن ساعة الحرب بين الصليبيين والمسلمين اقتربت ، بدليل اجتماع الكواكب السيارة الخمسة والشمس والقمر فى برج الميزان فى الأيام الأخيرة من سبتمبر سنة ١١٨٦ (الثلاثاء ٢٩ جمادى الآخر ٥٨٢) وحدوث ريح شديده مثل ريح عاد . والواقع أن تحليل الموقف لم يكن بحاجة إلى المنجمين والعرافين ، فإن صلاح الدين كان على أهبه للحرب لتحقيق ما تمناه مرارا فى رسائله للخلافة العباسية منذ سنة ١١٧٤ م ، وأن الصليبيين حزب الحرب كانوا يريدون نقض الهدنة فى أقرب فرصة قبل أن يستعد صلاح الدين كل الاستعداد . وكيفما كان الأمر فالمعروف أن أخبار المنجمين والعرافين ملأت قلوب الناس من المسلمين والصليبيين ذعرا ، لتوقعهم خراب العالم ونهايته ، ومثال ذلك تأهب بعض المواصلة بحفر مغارات وأسراب فى الأرض ، وتزويدها بالأكل والشرب(٢) .

---

(١) أبو شامة ج ٢ ص ٨٤ — العينى ج ١ قسم ١ ص ٣٦ — العماد : الفتح القسى ص ١٤ — ابن الأثير ج ١١ ص ٣٤٨ Lane-Poole : Saladin 181-Grousset op cit VII P 765-Lane poole: His. His. P 207.

(٢) Michaud V. IV. p. 309 العينى ج ١ قسم ١ ص ٢٧ — ابن الأثير ج ١١ ص ٣٨ يشير ابن جبير ص ٣٨ الى إعتقاد ملك صقلية فى ذلك العهد بالمنجمين وشدة حرصه على الاجتماع بهم ، حتى أنه متى ذكر له أن منجماً اجتاز بلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه . مما يدل على أن عادة تصديق أقوال الفلكيين كانت شائعة بين عامة الناس وخاصتهم فى الشرق والغرب سواء .

وذهب بعض المنجمين المسلمين إلى حد القول لصلاح الدين « تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة » فأجابهم « رضيت أن أفتحه وأعمى »(١) وكان أن فتحه دون أن يصيبه شيء من العمى .

على أن موضع الأهمية هنا هو أن حزب الحرب فى مملكة بيت المقدس مازال يقدم من المبررات والوسائل حتى أسرع أرناط إلى نقض الهدنة نقضا صريحا فى ربيع سنة ١١٨٧ (٥٨٣) بأن استوقف قرب الكرك قافلة مصرية تحرسها فى طريقها إلى دمشق فرقة من الجيش المصرى ، واستولى على جميع متاعها ورجالها مدنيين وعسكريين ، والقى بهم أسرى فى حصن الكرك ، وكانت هذه هى المرة الثالثة من نوعها واحتج صلاح الدين احتجاجا شديدا يفسره المؤلفون الفرنجيون بأن أختا لصلاح الدين كانت بالقافلة ومن بين الاسرى(٢) ، وهو تفسير ليس فى المراجع العربية ما يؤيده ، ولم يعر أرناط هذا الاحتجاج الشديد أية أهميه ، ولم يذعن إلى أوامر الملك جى بإطلاق سراح القافلة ، بل هدد بترصد القوافل فى المستقبل . وأقسم صلاح الدين ليقتلن أرناط إذا وقع فى يده يوما ما(٣) . والثابت المحقق أن أخت صلاح الدين التى زعم وليم الصورى أسرها لم تكن فى القافلة ، وإنما كانت فى قافلة أخرى جاءت فيما بعد صحبة ولدها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين .

ولابد من الإشارة إلى الخصائص الإستراتيجية الصليبية والإسلامية قبل الدخول فى تفاصيل النزاع الحربى بينهما . فالمعروف اولا أن الصليبيين من البداية حتى النهايه لم يحتلوا الأجزاء الإسلامية الداخلية ، بل كان كل ماقاموا به هو احتلال الأجزاء التى تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج ، وعلى سلسلة القلاع الضخمة لضمان الحماية والدفاع ضد أى هجوم ، فاستراتيجيتهم تنحصر فى الحصون للحماية والدفاع ، وفى البحر للتموين والأمداد .

ومن ثم لم تكن مصادفة أن صارت الصحراء فى الجنوب هى الحد الفاصل

---

(١) ابن العماد شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٥ .

(٢) Grousset VII. P 776-Lanp Poole : His His P. 208.

(٣) Recuiel des Hist. occid : V.2v 34-Fuller op. cit. op cit : P 237. Brehier : op.cit. p.114

لمملكة بيت المقدس الممتدة من البحر المتوسط إلى البحر الميت، وجعل الصليبيون على طول هذا الحد الجنوبى سلسلة من القلاع الحصينة المبتدئة من ذعيرة على الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية، ثم كرك المآب ومونتريال وساموا والكرمل وبيت جبريل وداروم، وخلف هذا الخط الأول كانت قلاع بوفورت وشطنوف ووقوار وصفد والقسطل وغيرها، وهى تحمى وديان بحيرة طبرية . أما فى الشمال فتوجد حصون عكا وحصن الكرك التى تقع غربى حمص وبازين التى تشرف على سلسلة جبال لبنان . وتقع هذه القلاع جميعا على بعد يوم سفر على الدابة من بعضها، ولم يعد بعض هـذه القلاع أن يكون أكثر من قرية مسورة بحائط ذى برج مربع (١) — هذا فيما عدا المدن الساحلية الكبيرة أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وطرسوس والمرقب وبيروت وعسقلان ويافا وغيرها، وهى أطراف القوى الصليبية من ناحية الغرب والبحر، ويقابلها من ناحية البر مرج عيون وبانياس وجسر يعقوب وبيسان وطبرية وغيرها . وامتازت هذه الحدود الصليبية بأن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية مما سبقت الإشارة إليه (٢)، من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية وصحية . فحصن مرقب مثلا كان بداخله كنيسة وحمامات وصهريج المياه، ومخازن مؤنة تكفى الحامية خمس سنوات ومساكن كبيرة إرتفاعها تسع وعشرين مترا من طابقين تسع ألف رجل (٣) . على حين وسع حصن الكرك مركز قيادة الداوية خمسة آلاف مقاتل وحظيرة لألف حصان (٤) . وبلغت مسافة سور أنطاكية اثنى عشر ميلا، كما بلغ عدد أبراج هذا السور مائة وستة وثلاثين برجا، وعدد شرفاته أربع وعشرين ألفا على قول ابن الجيعان (٥) .

(١) Fuller op. cit p231-Ray : Etude sur lses monuments p 4.

(٢) راجع الفصل الثالث ص ١٠٧ .

(٣) Rey : Les Colonies Franques p 120-Lavisse et Ram. VII p 319.

(٤) Lamb : The Flame p 58.

(٥) ابن الجيعان القول المستظرف ص ١٠ .

أما تنظيم هذه الأوضاع الاستراتيجية فألزمت مملكة بيت المقدس كل إقطاع كبير فى جغرافيتها بتقديم مائة فارس للخدمة الحربية، أما الاقطاعات الصغيرة مثل مارون فكان نصابها خمسة عشر فارسا، والأصغر منها مثل داروم فارسين فقط . ويبدو أن هذه الأنصبة تفاوتت بتفاوت الاقطاعات فكان نصاب بيت المقدس أربعين فارساً، وعكا ثمانين فارساً، فضلا عن تقديم عدد معين من الرجالة، عددهم خمسمائة رجل من عكا، وخمسون رجلا من كل من قيصرية وحيفا . ويضاف إلى تلك القوات جميعها ما يأتى إليها من أوروبا فى كل ربيع وخريف من قوات صليبية أوربية للقتال من أجل الصليب (١) . ويبدو كذلك أن إمارة طرابلس الصليبية التى تملكت على ما لا يقل عن عشرين أقطاعيا كان نصابها مائة فارس، مثلها فى ذلك مثل إمارة انطاكية (٢) .

أما الخصائص الاستراتيجية الإسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقا وغربا بقواعد آمنة للتموين فى سرعة، ففى الشمال حلب وحماه، وإلى الشرق منهما الموصل وقلاع الجزيرة، وكلها مدن حصينه، وفى الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب والنوبة واليمن . ثم إن القاهرة غدت منذ غادرها صلاح الدين الأيوبى فى مايو سنة ١١٨٢ قاعدة لتدريب الجند وإعداده وتموينه، وإليها ترسل الجرحى والأسرى، ومنها يطلب الإمداد لسد النقص فى ميادين القتال . على حين غدت دمشق منذ استقر بها صلاح الدين سنة ١١٨٢ مسرحاً لنشاط سياسى، وساحة لحركات عسكرية مستمرة، ومعملا لدراسة الخطط الحربية، وآية ذلك قول صلاح الدين فى وصف دمشق وقتذاك، بأنه ما بقى له دار إلا هى، حتى « يقضى الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكين (٣) » .

ولم يكن معروفاً على وجه التحديد عدد الفرسان والرجالة التى يقدمها كل أمير إلى صلاح الدين للخدمة الحربية، ولا نوع التنظيمات العسكرية فى الإقطاع

(١) Kings ford the crusades : p 361.

(٢) Ray : Les Colonies Fr. P 111.

(٣) أبو شامة ج ٢ ص ٧ وراجع ما كتب عن أهمية موقع دمشق فى : Fuller op cit P 232 Lane poole Saladin q 182.

الإسلامي الشرقي ومرجع ذلك أن أحداً من المؤرخين المعاصرين لم يفرد الجيوش والعساكر بتأليف خاص على قول المقريزى[1]، وإن كان المعروف أن شئون الجيش من تجنيد وعتاد على عهد الأيوبيين، أشرفت عليها إدارة إسمها ديوان الجيش وأحياناً ديوان الإقطاع[2]، والتسمية الأولى هى الشائعة الاستعمال فى المصر الأيوبى، والثانية تدل فى صورة قاطعة على مبلغ اعتماد النظام الحربى الأيوبى — أو معظمه على الأقل — على التوزيع الإقطاعى. أما الفاطميون فاطلقوا على ذلك الديوان إسم ديوان المستوفى وإن كان من المعروف أنهم استعملوا تعبير ديوان الجيش كذلك، والمستوفى هو الذى يقابل صاحب الجيش فى العهد الأيوبى وناظر الجيش فى عصر المماليك[3]. ويبدو أن هذه التسمية الأخيرة صارت هى المصطلح منذ عصر الأيوبيين، لتقاصر منصب الوزارة بمصر منذ عهدهم ومشاركة النظار للوزير فى أعماله وتصريفه، وتنوعت ألقاب النظار بحسب النظارات التى آلت إليهم، فناظر الجيش مثلا هو المختص بديوان الجيش وينظر فى أمواله وحسابه ويعرف أحياناً بصاحب ديوان الجيش[4] ويساعده فى مهمته موظف يعرف بكاتب الجيش[5].
وكان القاضى الفاضل ممن اشتغل فى ديوان الجيش الفاطمى زمن الوزير العادل بن رزيك الفاطمى، أى على عهد الخليفة العاضد لدين الله ثم نقله شاور أيام وزارته إلى ديوان المكاتبات، فظل على وظيفته بهذا الديوان حتى أيام أسد الدين شيركوه[6] ثم صار القاضى الفاضل وزيراً أيام صلاح الدين وكان ابن مماتى — واسمه المهذب الخطير — كاتب ديوان الجيش أواخر أيام الفاطميين. غير أن أسد الدين شيركوه علم أنه نصرانى أسيوطى يتحزب للنصارى، وأمر بصرفه عن الديوان، فبادر

(١) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ١٤٧.
(٢) ابن فضل الله: التعريف ص ٨٩.
(٣) المقريزى: الخطط جـ ٣ ص ٣١٣ — ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٦٧ — السلوك جـ ١ حاشيه ص ٥٣.
(٤) راجع ذيل الروضتين ص ٢٠٣ — القلقشندى جـ ١١ ص ٩٣ — كتاب فهرست الكتب ص ٣٢ لمعرفة اختصاصات ناظر الجيش.
(٥) راجع النويرى جـ ٦ ص ٢٠٠ عن اختصاصات كاتب الجيش.
(٦) عمارة: النكت العصرية جـ ١ ص ٥٣ — ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٧.

الخطير وأولاده للإسلام على يده، وبذا استقر على الديوان مدة قيام شيركوه فى الوزارة، وظل فيها مدة أخرى أوائل أيام صلاح الدين[1]. وخلفه فى ديوان الجيش مدة طويلة ابنه الأسعد ولقبه ابن خلكان بالقاهرة وهو على ولاية ذلك الديوان[2]. ولعل أبو المهذب الخطير وابنه الأسعد المصريان الوحيدان اللذان توليا منصباً خطيراً فى دولة صلاح الدين، إذ المعروف أن صلاح الدين أسند المناصب الكبرى فى الجيش المصرى وإدارته إلى الأكراد وغيرهم من غير المصريين. ولهذا كثرت الدسائس والمؤامرات التى حيكت حول هذا الرجل وولده من غير ما سبب واضح، فإن قيل لتعصبهما للنصرانية، فإن خلكان يدفع عنهما هذه التهمة ويقر صدق إسلامهما وإطعامهما لفقراء المسلمين خاصة[3]. وإن قيل لمصريتهما وتشيعهما للفواطم، فياقوت يدفع عنهما هذا بدليل إسناد ديوان المال، وهو أجل ديوان من دواوين مصر إلى الأسعد فى الأيام الصلاحية والمعزية، فضلا عن ديوان الجيش[4]. وكان فى قدرة صلاح الدين أن يسند هذه المناصب إلى سواهما، واختياره دليل الثقة والكفاءة، وهما فى حد ذاتهما كفيلان بإثارة الحسد والغيرة فى نفوس موظفى الدولة، أمثال ابن شكر وابن الحجاج وغيرهما ممن مشى بينهما وبين صلاح الدين[5]. ومن معاصرى ابن مماتى وابنه كذلك القاضى عبد الجبار بن يوسف أبو المجد المقدسى الذى ولى ديوان الجيش بمصر بعد الأسعد بن مماتى، وظل متولياً هذا الديوان حتى وفاته فى فبراير سنة ١١٨٧[6] (١٧ ذى القعدة سنة ٥٨٢) ثم القاضى ضياء الدين بن أبى الحجاج الذى وصفه

(١) ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٦ — ابن مماتى — قوانين الدواوين ص ٢٤، ٢٧.
(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٠٠.
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٩٩.
(٤) ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٨.
(٥) ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٩، ٢٥١.
(٦) الذهبى جـ ٢٦ ص ٣٧ — واستتبع نقلة صلاح الدين إلى دمشق إنشاء فرع من ديوان الجيش بها، وأسند ولاية ذلك الفرع إلى والى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة (ابن واصل ص ٢١٤) وتنقسم الخدمة فيه قسمين، قسم لأمور الأجناد واقطاعهم وقسم للرواتب وأسماء كل مرتزق (الخطط جـ ٢ ص ٢٤٢).

أبو شامة بأنه أعلم الناس بشئون الأجناد ، وكان متولياً إحدى وظائف الدولة زمن صلاح الدين ، وعاش حتى صار صاحب ديوان الجيش أواخر دولة الايوبيين ، ومات قتيلا فى واقعة المنصورة(١) سنة ١٢٤٨ (٦٤٧ هـ) .

تلك أحوال الأيوبيين والصليبيين أوائل سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) عندما نقض أرناط الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس باعتراضه القافلة المصرية قرب الكرك . وكيفما كان الأمر فالمعروف أن صلاح الدين اعتبر حادثه القافلة إعلانا بالعدوان وانتهاء الهدنة ، ولا سيما حين أعلن أرناط كذلك أنه سوف يعترض قافلة الحجاج هذا العام ، بل إنه سوف يمنع العسكر المصرى من الوصول إلى صلاح الدين بدمشق . ولذا أرسل صلاح الدين فى طلب الجند من مصر وسوريا وحلب والجزيرة وديار بكر ، واستنفر الناس للجهاد ، وتهيأ الرأى العام الإسلامى للحرب التى أعلنها صلاح الدين رسميا على الصليبيين . وخرج صلاح الدين يصحبه ولده الأكبر الملك الأفضل من دمشق مسرعا إلى الجنوب فى ١٣ مارس سنة ١١٨٧ (أول المحرم ٥٨٣) وترك الأفضل عند رأس الماء قرب دمشق فى انتظار اجتماع العساكر الجزرية والشامية ، وتقدم هو إلى موضع اسمه قصر السلام قرب بصرى والكرك ليمنع أرناط من اعتراض الحجاج ، فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من الكرك لم يتحرك بل أقلع عما هدد به ، ووصل الحاج ومعهم أخت صلاح الدين سالمين إلى دمشق فى ١١ مايو سنة ١١٨٧ (نهاية صفر ٥٨٣)(٢) .

أما القوات التى استنفرها صلاح الدين للجهاد ، فأولها قدوما عليه جموع العساكر البرية من مصر بقيادة الملك العادل الذى خرج من مصر على طريق أيله والتقى بصلاح الدين على القريتين(٣) قرب الكرك بتاريخ مايو سنة ١١٨٧ ، فزحف معه نحو الكرك فى يونيه من هذه السنة لإنذار أهلها بما سوف يكون من أمر صاحبهم أرناط . وحوالى ذلك الوقت خرج الأسطول المصرى فى خمسة عشر شينيا بقيادة الأمير لؤلؤ إلى الاسكندرية استعدادا للجهاد(٤) .

(١) ذيل الروضتين ص ١٠٤ ، ٢٠٣ .
(٢) أبو شامة جـ ٢ ص ٧٥ — ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٤٩ .
(٣) خلاف القريتين التى بين تدمر ودمشق .
(٤) السلوك جـ ١ ص ٩٣ .

أما الملك الأفضل فاجتمعت عنده فئات الجيش من كثير من البلاد ، فجعل على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران ، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق ، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمى . غير أنه ضجر من طول الانتظار ، وربما كان من تعليمات أبيه إليه إذا لم يمد إليه سريعا أن يتقدم بمن يجتمع إليه من الجيوش إلى عكا ، بدليل اتجاهه نحوها بعد أن وافق ريموند صاحب طرابلس وصديق صلاح الدين على مرورها ببلاده وضياعه بطبريه فى شكل مظاهرة حربية ، لا تستغرق أكثر من اثنتى عشر ساعة وبشرط الا تتعرض للبلاد والقرى المارة بها(١) . ومرت المظاهرة فى سبعة آلاف فارس من المسلمين ، وتقابلت فى طريقها عند صفورية بكوكبة من فرسان الملك جى ، عددهم مائة وخمسين فارسا يوم الجمعة أول مايو سنة ١١٨٧ ، فكان النصر للمسلمين فى تلك المقابلة الفاجئة ، ومات مقدم الاسبتار على حين أفلت زميله مقدم الداوية ، ووقع الباقون فى الأسر والقتل وعلم صلاح الدين بهذا النصر وهو لا يزال على الكرك ، فتحرك لساعته حتى وصل طبريه فى منتصف يونيو وتقابل مع ولده الملك الأفضل وعسكر بعشترى ، حيث تلاحقت إليه جميع الأمراء والعساكر بمختلف بلاد العالم الإسلامى(٢) . أما الملك العادل فعاد بعساكره إلى مصر بعد أن اتفق مع أخيه صلاح الدين على مشروع غزو فلسطين .

وفى عشترى اجتمع صلاح الدين بهيئة أركان حربه ، وهى تتكون من صلاح الدين رئيسا ، ومن عضوية أخيه وأولاده وأولاد أعمامه ، والرفاق القدامى والاتباع الجدد ، والقاضى الفاضل والعماد الكاتب وبهاء الدين بن شداد قاضى الجيش ، وكان انضمام بهاء الدين إلى هذه الهيئة بعد قليل . وكان لكل من أولئك حق إبداء الرأى فى صراحة تامة ، وإن كان من المقطوع به أنه لم يحدث مطلقا

(١) Recueil des Hist. Occid . VII P. 37-Lane poole : Saladin P. 201
العماد ص ١٣
(٢) أبو شامة جـ ٢ ص ٧٥ Fuller op. cit. P.237—Grousset op. cit. V.II P. 782.

أن علا صوت أحد الأعضاء وانفرد بالمناقشات دون الآخرين بغية التأثير على صلاح الدين . والمقطوع به كذلك أن عقلية صلاح الدين وإرادته كانتا مسيطرتين على المجلس ، على أن صلاح الدين اهتم دائما بمشورة أخيه العادل إن حضر مجلسه فإن لم يكن حاضرا ، لم يقطع أمرا حتى كاتبه بجلية ليسمع رأيه فيه[١] . وفى هذا المجلس عرض صلاح الدين عزمه على غزو فلسطين والساحل من ناحية طبريه على قاعدة البدء بالهجوم ، وشرح خططه العسكرية التى تكفل تحقيق هذا الفرض ، وأقر مشورهم خطة الهجوم ، إذ من الثابت عسكريا أن القيام بالهجوم قبل العدو يجعله منقادا لرغبات المهاجم ويجعل مصائب الحرب على بلاد العدو[٢] .

ثم أخذ صلاح الدين يوم ٢٤ يونيو فى عرض عساكره النظامية وعددها إثنى عشر ألف فارس من أصحاب الاقطاعات والرواتب ، على حين بلغ مشاته ثلاثة عشر ألفا عدا جيشه الاحتياطى والمتطوعة وهم كثيرون[٣] . ورتب صلاح الدين الاطلاب والأمراء والمقدمين والجاليشية ، فجعل على الميمنة ابن أخيه تقى الدين عمر ، وعلى الميسرة مظفر الدين كوكبرى ووقف هو فى القلب ، وجعل بقية العساكر فى الجناحين ووزع عليهم أحمال النشاب وآلات القتال . ثم رحل صلاح الدين بهذا الجيش يوم الجمعة ٢٦ يونيو سنة ١١٧٨ (١٧ ربيع الآخر سنة ٥٨٣) من العشترى . ونزل على الأردن بالأقحوانة قرب طبرية وجعل ظهره إلى بحيرة الجليل[٤] ، وهو موقف من الناحية الاستراتيجية جد خطير على صلاح الدين لأنه لم يدبر طريق التقهقر وإن كان قد حال بين الصليبيين وبين ورودهم ماء الأردن وينابيع المياه الموجودة بالوديان حول البحيرة . ولم يقف الصليبيون مكتوفى الأيدى أمام ذلك الخطر الإسلامى الذى هدد طبرية ، فاجتمع مجلسهم الحربى فى عكا وصالح ريموند صاحب طرابلس الملك جى وحزبه[٥] ، وأعلن إستعداده للخدمة معه

(١) Lane-Poole : Saladin p. 260-His Hist. P. 196.

(٢) طه الهاشمى ، الجغرافية العسكرية ص ١٦ وراجع Recueil V.II p.p.38-41.

(٣) أبو شامة جـ ٢ ص ٧٦ -Stevenson 243-Lane Poole : Saladin 204
Recueil V. II. p. 47.

(٤) King : The Knights p. 125.

(٥) توسط فى الصلح بينهما جوزيف أسقف صور وباليان صاحب بيت جبريل ورينولد صاحب صيدا الذين أحضروا ريموند من طبرية إلى عكا حيث كان جى وحزبه
Recueil V II p. 39,45.

واستقر رأى المجتمعين على الانتقال بجموعهم إلى صفورية التى تبعد ستة عشر ميلا عن عكا .

ولما علم صلاح الدين باجتماع الصليبيين بصفورية استشار قواده فيما يفعل ، فأشار فريق الأكثرية عليه بترك اللقاء وإتباع الخطة القديمة من إغارات متكررة ونهب وسبى فى بلاد العدو حتى تضعف مقاومته أولا ، ثم يضرب المسلمون الضربة القاضية . وأشار فريق الأقلية بالدخول سريعا فى معركة فاصلة لأن الأخذ بالخطة الأولى يزعزع ثقة الجند بصلاح الدين ، ولا سيما جند البلاد الشرقية الذين جاءوا للجهاد والحرب الحامية السريعة لا الباردة البطيئة المملة ، ورجح صلاح الدين الخطة الثانية ولذا رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من وصوله إليها وهو الخميس ، يوليو (٢٣ ربيع الآخر) ونزل قرب بلدة الصنبرة غرب بحيرة طبرية قبالة الصليبيين ، وهم وقتذاك عند صفورية ، ثم دار صلاح الدين بجزء من جيشه وهاجم طبرية ليلا ونهبها واحرقها وامتنعت القلعة عليه ، واستنجدت صاحبتها الأميرة إشيف زوجة ريموند بالصليبيين المجتمعين بصفورية[١] . وكان الصليبيون وقتذاك بصدد إحدى خطتين : إحداهما دفاعية وصاحبها ريموند المشكوك فى ولائه للصليبيين ، خلاصتها يجتمع الصليبيون فى صفرية حتى يزحف صلاح الدين نحوهم إذا شاء وتنتاب جيوشه متاعب الطريق وقلة الماء فى البادية ما بين طبرية وصفورية وطوله ½ ١٥ ميلا[٢] (ش ٧٠) . والواضح أن هذا الرأى لم تشبه شائبة من عدم الإخلاص ، فقد قال به ريموند وهو عالم أن طبرية ستذهب إلى صلاح الدين ، وأن الحكمة تطلب الانتظار حتى يزحف المسلمون نحو الصليبيين ، ومال إلى هذا الرأى أخيرا معظم الحاضرين . أما الخطة الثانية فكانت هجومية وصاحبها ارناط وجيرارد مقدم الداوية ، وخلاصتها أن يتقدم الصليبيون من صفورية لمقابلة صلاح الدين[٣] ، وحجتهم فى ذلك أن رأى ريموند فاسد لعدم إخلاصه للفكرة الصليبية . وهنا يذكر العينى بعض ما قاله ارناط إلى ريموند فى صدد خطته ، ونصه « قد أطلت

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ٢٠١ — العماد ص ١٨ فريد أبو حديد ص ١٣٢
Belloc p. 288-Fuller p. 241-Grousset V.II p. 793, Lamb p. 66.

(٢) Belloc p. 280 وانظر الخريطة عن استراتيجية حطين .

(٣) Campbell-op. cit. p. 253.

فى التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وقولك أنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب »[1] . ثم إن أرناط وجيرارد اختليا سرا فى منتصف ليلة ٣ يوليو بالملك جى واقنعاه بخطتهما الهجومية ، وبأن ريموند يريد ضياع المملكة ، فأصدر جى على الفور أوامره بالتقدم دون أن يستشير أحدا[2] ، وزحف الصليبيون من صفورية صوب طبرية صباح الجمعة ٣ يوليو (٢٤ ربيع الآخر) فى عشرين ألفا أو إحدى وعشرين ألفا من الفرسان والمشاه[3] . وقيل فى خمسين أو ثلاث وستين ألفا[4] فسارت مقدمتهم بقيادة ريموند ومعهم عساكر طرابلس والجاليل ، وتحرك خلفها القلب بقيادة الملك جى ومعه بطريق عكا حاملا خشبة الصليب المقدسة ، وتكونت المؤخرة من فرسان الداوية والاسبتارية[5] . ووصل خبر ذلك إلى صلاح الدين ففرح قائلا « جاءنا ما نريد »[6] إذ قصد بمحاصرة طبرية مغادرة الصليبيين لصفورية واجتذابهم نحوه ، ليتمكن من قتالهم — على قول ابن الأثير —[7] فى معركة مكشوفة على أرض خالية من كل شىء عدا حرارة الشمس المحرقة والرمال الحصى . واشتغل صلاح الدين طول ذلك اليوم وليلة (الجمعة) باعداد العدة لملاقات الصليبيين ، فمين الجاليشية من كل طلب ، وفرق أربعمائة حمل من النشاب على رجاله ، وأعد سبعين جملا يأخذ منها من خلت جعابه أثناء الوغى . وأخبرته طلائعه بحركة الصليبيين نحو قرية لوبيه (Marescalla) وأن مقـــدمة الجيش الصليبى بقيادة ريموند جاوزتها إلى وادى الملقة El Muallakah على بعد ثلاثة أميال من البحيرة ، وعسكرت فى منحدرات التل المعروف بقرون حطين ، وعندها قبر النبى شعيب عليه السلام وارتفاعها

---

(١) العينى ج ١ قسم ١ ص ٣٣ — ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٣ — راجع تفاصيل مناقشة مجلس الصليبيين لخطتى ريموند وأرناط ، وردود كل منهما على الآخر فى الـ Recueil V. II p.p 48, 49.

(٢) King op. cit : p. 125.

(٣) Rey : Les Colon. p. 113-Fuller p. 340.

(٤) العينى ج ٢ قسم ٥ ص ٣٣ — Brehier op. cit : p. 115

(٥) King p. 129.

(٦) أبو شامة ج ٢ ص ٧٦ .

(٧) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٢ .

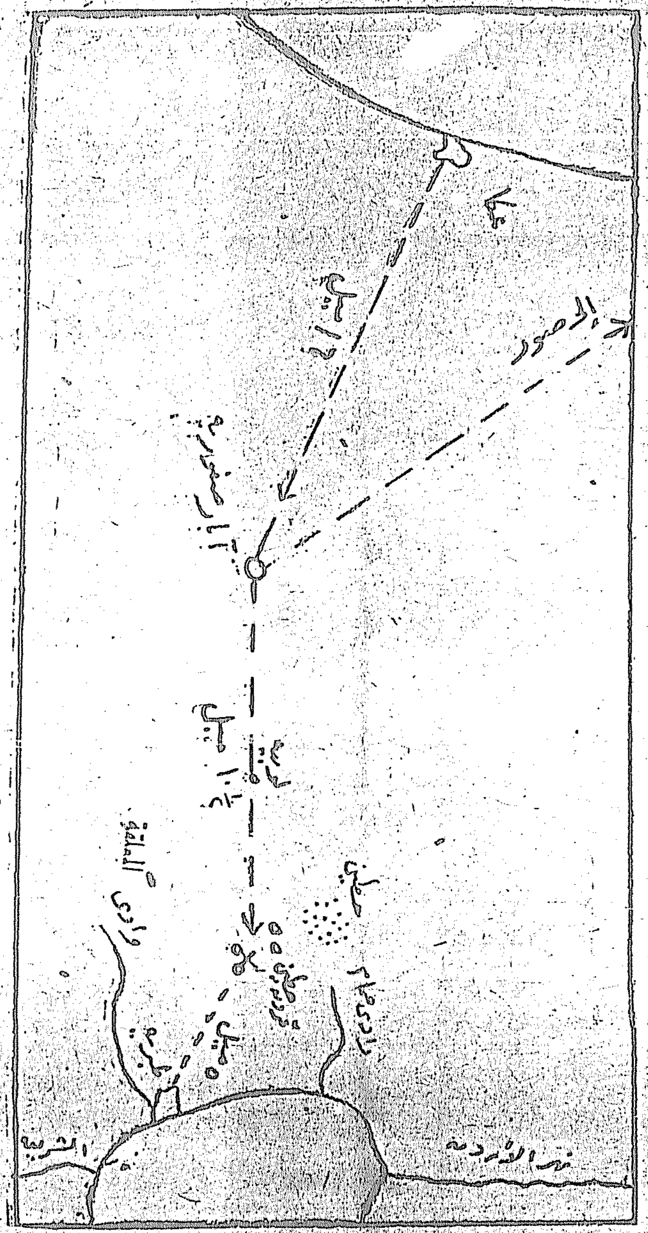

٣١٦ مترا (١١٩١ قدما) فوق سطح البحر والتى تحتها تقع قرية حطين مباشرة (ش ٧٠) وعلى بضعة ساعات من قرية مارسكاليا التى اضطر القلب بقيادة جى أن يقف جنوبها. أما مؤخرة الصليبيين فعجزت عن اللحاق بالمقدمة والقلب لشدة مقاومة المسلمين لها على طول الطريق[١]. وانتهى يوم الجمعة ٣ يوليو وبات الصليبيون ليلة السبت حائرين لإنعدام الأكل والماء والنوم. على حين علت روح المسلمين المعنوية، وزادت ثقتهم بالنصر قبل اللقاء الفاصل، وباتوا ليلتهم فى تكبير وتهليل وصلاح الدين يراقب نظامهم ويوقف كل فرقة مكانها إستعدادا للغد، ثم جاء الغد (السبت ٤ يوليو — ٢٥ ربيع الثانى) ونشب القتال وصبر الفريقان، وحاول الصليبيون التقدم للوصول إلى ماء البحيرة وينابيع المياه الموجودة بوادى حمام حول قرية حطين على مسافة ثلاثة أميال من الميدان فمنعهم صلاح الدين وحاصرهم، وأحدث إرتباكا بين فرسانهم ومشاتهم، وفصل مؤخرتهم عن بقية الجيش. وأمر صلاح الدين الزراقين[٢] فزرقوا هشيم الحشيش بالنار فتأجج تحت أقدام حوافر الخيل[٣]، وقيل إن بعض المتطوعة ألقى النار على الحشيش[٤]، كما قيل أيضا أن مظفر الدين كوكبرى صاحب أربل هو الذى أضرمها[٥].

وكيفما كان الأمر إجتمع حر الشمس، وحر العطش، وحر النار والدخان، وحر زئبق السهام على الصليبيين، فلما رأى ريموند شدة الأمر حمل من ناحيته على جيوش المسلمين بقيادة تقى الدين عمر ومظفر الدين كوكبرى صاحب أربل، فافسح هذان القائدان الماهران له طريق التقدم كى يخرج واصحابه من دائرة حصار المسلمين،

---

(١) King p. 126 — Grousset V. II p. 793 — Fuller p. 241.

(٢) الزراق عود من خشب مجوف أو ليطة وهى القصب الفارسى، ووصفه صاحب التدبيرات السلطانية (مخطوط ص ١٦) بقوله «وهذا الزراق يمكن أن يكون من قنا يعمل بطول الرمح، وفيه سنان فيكون كهيئة رمح لكن مجوف وفيه الماء المهلك، وهذا الرمح يمكن ان يطعن به ويزرق بما فيه وهو من خدع الحرب، وإذا زرق به الزراق فلا يقصد إلا الفرسان ويكون الزروق كافرا».

(٣) ابن منكلى: الأحكام الملوكية ص ٥٤.

(٤) Carman p. 14 — أبو شامة ج ٢ ص ٧٧ — Campbell P. 254 — Stevenson p 247.

(٥) العينى ج ١ قسم ١ ص ٢٣.

فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصراً، ثم ما لبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت بمهارة مظفر الدين كوكبرى الذى «لو لم يكن [له] إلا واقعة حطين لكفته» على قول ابن خلكان[١]، ولم يجد ريموند سبيلا للخلاص بعد ذلك سوى محاولة الأفلات والهرب إلى صور ومنها إلى أمارته طرابلس، ففنيت جنوده وضعفت صفوف الصليبيين لخروجه، ولحق به وليم بورل رئيس الاستبارية، وباليان أمير بيت جبريل، ورينولد أمير صيدا، وريموند الصغير ابن صاحب انطاكية[٢]. ومال المسلمون نحو طائفة ثانية من الصليبيين فابادوها جميعا. أما جى ومن معه فادرك أن لا نجاة له من الموت إلا بالقتال، فحمل على الجنود الإسلامية المحاصرة حملة المستميت، ولكن المسلمين ظلوا محيطين به وبسائر الصليبيين إحاطة الدائرة بقطرها. ثم حاول جى محاولته الأخيرة حين صعد بجنوده إلى تل حطين، وأراد نصب خيامه للاقامة فى مكان مرتفع حتى تأتيه النجدة وشهد صلاح الدين هذه المحاولة النهائية، فأمر جنوده بالصعود إلى التل خلف الصليبيين، فلم يلبثوا أن اشتبكوا معهم حتى سقطت خيمة جى واستولى المسلمون عليها[٣]، ونزل الصليبيون عن التل رافعين أيديهم للتسليم، فأسرهم المسلمون عن بكرة أبيهم ومعهم الملك جى الذى أسره درباس الكردى.

وهكذا كانت خاتمة حطين. وسجد صلاح الدين شكرا وهو يبكى من شدة الفرح. وكان من الأسرى جفرى أخو الملك جى، وأوك (Huch) صاحب جبيل، وابن المنفرى Humphrey، وابن صاحب اسكندرونة، وصاحب مرقية، وأرناط صاحب الكرك الذى أسره غلام الأمير ابراهيم المهرانى، وجيرارد مقدم الداوية، وجماعة من فرسان الداوية والإستبارية، وكثر القتل والأسر فى صفوف الصليبيين، فمن رأى القتلى لا يظن أنهم قتلوا أحداً على قول ابن الأثير[٤]، الذى اجتاز أرض المعركة بعد حدوثها

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٨٠.

(٢) King op. cit : p. 127.

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٦٣ — ابن شداد ص ٦٢ Lavisse V. II p. 326.

(٤) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٤ وانظر Recueil V. II p. 64.

بهام فرآها ملأى بعظام القتلى[1] وأما الأسرى فلم يوجد من حبال الخيم مايكفى لقيدهم جميعا ، ورأى العماد المؤرخ الحربى للمعركة فى حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفى بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس . وجلس صلاح الدين فى دهليز سرادقه لعرض أكابر الأسرى وأحضر الملك جى وأرناط ، وأجلس جى إلى جانبه وقد أهلكه العطش ، فسقاه صلاح الدين ماء مثلوجا ، وأعطى جى فضلة الماء لأرناط فشرب أيضا . فقال صلاح الدين لجى « إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى » . ثم وبخ أرناط وضرب رقبته بيده وفاء لنذره القديم[2] وارتعدت فرائص الملك جى لقتل أرناط على هذه الصورة ، فسكن صلاح الدين جأشه وطيب قلبه بقوله : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ماجرى[3] . وأما الكونت ريموند فمات كمداً بعد وصوله طرابلس بأسبوعين[4] . وأما الملك جى واخوه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابر الأسرى ، فوضعت القيود فى أرجلهم وأيديهم ، وسيقوا إلى سجون دمشق ، حيث تولى أمر الإحتياط عليهم الصفى بن القابض والى القلعة . وقدر المؤرخون عدد الأسرى جميعا بثلاثين الفا ، والقتلى ثلاثين أيضا[5] .

وحطين كانت هزيمة مادية ومعنوية للصليبيين ؛ فمن الناحية المادية خاض صلاح الدين المعركة فى جيش قوى ومهارة منقطعة النظير ، وأحسن صلاح الدين اختيار أرض المعركة وزمن وقوعها ، فخيم بعسكره على طبرية حائلا بين العدو وبين الماء ، واعلن جهاده فى يوليو اشد شهور السنه حرارة وأقلها ماء فى الصهاريج والغدران ، حتى أصبح العطش من أقوى الأسلحة بيديه إذ « ليس مع العطش صبر ولا حرب » . على قول صاحب آثار الأول[6] . فلا عجب أن أهلك العطش

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٣ .

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ٨٠ — أبو الفدا ج ٣ ص ٧٦ — Recueil V. II p.326

(٣) ابن شداد ص ٦٤ — Fuller p. 243 — Grousset V. II p. 798 .

(٤) Campbell p. 256 — Wiet : Histoire.. p. 325.

(٥) Belloc p. 289 — هامش Lamb p55

(٦) الحسن بن على : آثار الأول فى ترتيب الدول ص ١٧ — وانظر Campbell p. 246

منهم عشرة الاف رجلا[1] . ثم إن أرض المعركة أدت إلى عجز المشاة عن أداء واجبهم على الوجه الأكمل ، وهو حماية فرسانهم من رماه المسلمين[2] . ومن الناحية المعنوية[3] كانت حطين هزيمة للصليبيين ، لأنهم فقدوا جميع قادتهم فيها أسر أو قتلى ، ولأن جميع القلاع والمدن الصليبية أمست خلوا من الجيوش ، ولا أمل لها البتة فى تكوين جيوش جديدة فى سرعة للوقوف فى وجه صلاح الدين .

والبرهان على ذلك كله وعلى أن واقعة حطين نفسها كانت ضربة قاضية يكفى تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم ٤ يوليو ، وبعد أن أحصى مخلفات المعركة من أسرى وقتلى وجرحى وغنائم . إذ رجع صلاح الدين يوم الأحد (٥ يوليو) إلى طبرية ، فاستولى على قلعتها فى غير عناء ، وأرسلت الأميرة إشيف صاحبة طبرية تطلب الامان لها ولاولادها وأصحابها ومالها ، فأجابها صلاح الدين إلى ذلك كله ، وسارت آمنة إلى زوجها ريموند بطرابلس قبل وفاته بأيام . وأقطع صلاح الدين طبرية للأمير صارم الدين قايماز النجمى . ونادى صلاح الدين وهو مقيم بطبرية بإستحضار جميع الأسرى من فرسان الداوية والإستبارية ، ومنح خمسين دينارا لكل من عنده أسير منهم ، فإجتمع لديه مائتان وقيل مائتان وثلاثين[4] من الطائفتين ، فأمر بقتلهم وكتب صلاح الدين إلى الصفى بن القابض والى قلعة دمشق أن يضرب أعناق الأسرى من الداوية والأسبتارية بسجون دمشق إلا من اسلم ، ولم يتجاوز أولئك الآحاد . وإستثنى صلاح الدين من القتل واحدا فقط من رجال هاتين الفئتين الدينيتين وهو جيرارد رئيس الداوية الذى شفع له الملك جى

(١) Hitti op. cit. p. 947.

(٢) Camb. Med. Hist. V. II p. 792

(٣) وهناك عامل نفسى آخر كان سببا فى تحطيم قوتهم المعنوية وهو وقوع صليبهم الأعظم فى يد جيوش صلاح الدين أثناء المعركة وقبل أن يتقرر مصيرها ، وبه فى زعمهم قطعة من الخشب التى صلب عليها المسيح عليه السلام ولذلك يسمونه صليب الصلبوت (ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٣) . أحضر هذا الصليب الحقيق إلى بيت المقدس الإمبراطور هرقل فى سنة ٦٢٩ بعد أن استرده من كسرى . (ذيل Recueil V. II p. 46) فلما فقده الصليبيون فى المعركة انطفأت جذوتهم « وعظم مصابهم ووهت أصلابهم » . (العماد ص ٢٣) .

(٤) King p. 128 Oman V. II p.332.

عند صلاح الدين (١) ، أما بقية الأسرى فامتلأت بهم أسواق دمشق وشوارعها لكثرتهم ولعجز إدارة السجون عن الإنفاق عليهم ، فبيعوا بأبخس الأثمان . وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، واشترى بعض الفقراء أسيرا بنعل ، وعوتب صلاح الدين على ذلك فقال « أردت هوانهم (٢) » .

وليس من المعروف تماما ، لماذا أفرد صلاح الدين فرسان الداوية والاسبتارية بالقتل دون بقية الأسرى ، وربما كان سببه — على قول أبو شامة — أنه « ما جرت عادتهما بالفداء ، ولا يقلعان عن العداء ، ولا يخدمان فى الأسر (٣) » على أنه من المعروف تماماً ، أن هذه الحادثة الشنيعة هى الوحيدة التى يمكن إلصاقها باسم صلاح الدين ، والتى علق عليها أحد المؤرخين الغربيين بقوله « إنه قتل الأسرى بلا ريب ، ولكننا لا نعرف سببا لهذه المعاملة » (٤) ، وفاته أن فرسان هاتين الهيئتين قد تنكروا للمبادىء الإنسانية التى كرسوا حياتهم لخدمتها ، فخلعوا زيهم الدينى الأسود ، واتشحوا بالوشاح العسكرى الأبيض والشارة الصليبية الحمراء وأصبحوا فى زمرة المحاربين ، وامتلك كل منهم ثلاثة من الخيل وسلاحداراً يتبعه ، وصار منهم ضباطاً عظاما يحملون الألقاب والرتب العسكرية ، ويجيدون حبك سياسة الغدر بالمسلمين ونقض العهود والمواثيق (٥) . ومهما كان الأمر فعلى المؤرخ الحربى أن يضع فى حسابه من البداية ، أنه يؤرخ لعصر لا يعرف اتفاقية دولية كاتفاقية جنيف مثلا الخاصة بمعاملة الأسرى ، ولا جمعيات دولية إنسانية كالهلال الأحمر والصليب الأحمر والصحة الدولية ، للاشراف والإناطة بمنكوبى الحرب من أسرى وجرحى ومرضى ؛ وإنما ترك العصر والعرف مصير أولئك جميعاً — وهم عبء ثقيل ولا شك — تحت رحمة الغزاة المنتصرين ، يتصرفون فيهم قتلا واسترقاقاً ، بيعا وشراء كيفما شاءوا وأنى شاءوا .

(١) السلوك جـ ١ حاشية ٩٢ — ابن واصل ص ٢٧٨ — King p. 129
(٢) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٣٣ .
(٣) أبو شامة جـ ٢ ص ٧٩ .
(٤) Stevenson op. cit : p. 248.
(٥) Rey : Les Colonies p. 115

وبعد ثلاثة أيام من إقامته على طبرية اتجه صلاح الدين شطر المدن الساحلية لأهميتها الاستراتيجية العظيمة فى حماية مملكة بيت المقدس ، وعزم على الاستيلاء عليها جميعاً إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليمنع ما قد يصل المملكة من نجدة أوروبية بحرية ، وليؤمن باستيلائه عليها خطوط المواصلات بين ممتلكاته فى الشام ومصر . ولذلك كتب صلاح الدين إلى أخيه العادل بمصر يأمره بالزحف على الجنوب الغربى من فلسطين ، أما هو فسار إلى عكا ليحكم طوق الكماشة على بيت المقدس من الشمال إلى الجنوب . ورحل صلاح الدين عن طبرية يوم الثلاثاء ٧ يوليو ونزل بأرض لوبية فبات بها ، ثم أصبح يوم الأربعاء سائرا إلى عكا وصحبته أمير المدينة النبوية عز الدين بن فليته الحسنى والعماد الكاتب الأصفهانى . ثم وصل صلاح الدين عكا وخيم بقربها وراء التل ، وانبثت عساكره فى الوعر والسهل . وأصبح يوم الخميس ٩ يوليو فأوقف عساكره صفوفاً بأزاء البلد للحصار ، وفزع أهلها من الحصار ، فخرجوا إليه يطلبون الأمان والتسليم ، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال وتسلم المدينة بغير قتال يوم الجمعة ١٠ يوليو (٢ جمادى الأولى) ، وأقطع صلاح الدين عكا بضياعها وقلاعها لإبنه الأفضل نور الدين على ، وأعطى جميع ما للداويه من إقطاع وضياع للفقيه عيسى الهكارى ، وأطلق جميع من كان بها من أسرى المسلمين وعددهم أربعة آلاف . ودخل صلاح الدين عكا وكان قد حضر من دمشق آنئذ القاضى الفاضل ، فرتب فى كنيسة عكا منبراً وقبلة ، وأقيمت أول جمعة بهذه المدينة ذاك اليوم ، بعد أن عين صلاح الدين الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ للامامة والخطابة والقضاء (١) . وأقام صلاح الدين مخيما على تل عكا أياماً معدودات ، على حين انتشر قادته وعساكره فى سائر بلاد الساحل فاتحين غازين غانمين ؛ فزحف أخوه العادل من مصر الشرقية إلى ساحل فلسطين الجنوبى ، فاستولى على حصن مجدل يابا الواقع قرب الرمله وغنم ما فيه ، وأسرع إلى مدينة يافا ففتحها عنوة (٢) ؛ أما مظفر الدين كوكبرى فكانت وجهته الناصرة

(١) أبو شامة جـ ٢ ص ٨٦ — الحنبلى : شفاء القلوب ص ٣٦ — Stevenson op. cit. p. 247.
(٢) King p. 129

فاستولى عليها بعد مقاومة ، وجيء بالأسارى بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، ثم خرج مظفر الدين على صفورية فوجدها صفرت من سكانها ؛ وتوجه فى نفس الوقت بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف ، وسلمت بعدها حيفا وارسوف ، وطلب الأمير حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين من خاله صلاح الدين أن يقطعه نابلس وأعمالها وضياعها ونواحيها إذا هو فتحها ، فأجاب طلبه وسار إليها مارا ببلدة سبسطية ، وفيها مشهد زكريا عليه السلام فأعاده مسجدا ثم أناخ على نابلس نفسها وحاصرها ، وما زال على حصارها حتى سلمت . ومن البلاد التى سلمت للأمير حسام الدين كذلك بلده حصن الفولة وهو حصن الداوية الحصين ومخبأهم المكين ، فتسلم الحصن بما فيه من الذخائر والنفائس ، وتسلم حسام الدين كذلك جميع ما كان فى تلك الناحية من البلاد مثل دبوريه وجينين وزرعين والطور واللاجون وبيسان والقيمون ومعليا والبعنه واسكندرونة ومنوات[1] وكلف صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر أن يقصد حصن تبنين وهى بلدة صغيرة بين دمشق وصور ، وتقع فى جبال بنى عامر المطلة على بلد بانياس ويسكنها رجال أبطال شديدون فى دينهم ، وعلم تقى الدين أنه سوف يلقى هناك مقاومة شديدة ، ولذا كتب إلى عمه صلاح الدين أن يحضر إليها بنفسه ، فوصل إليها على ثلاث مراحل يوم الأحد ١٦ يوليو (١١ جمادى الأولى) . ونصب صلاح الدين المجانيق على تبنين وأخذ فى ضربها حتى سأل أهلها الأمان فأمنهم وأمهلهم خمسة أيام لينزلوا بأموالهم ، وسير معهم بعض جنوده لإيصالهم إلى صور ، وأطلق سراح مائة أسير مسلم ، وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم إلى أوطانهم . ورتب صلاح الدين فى تبنين مملوكه سنقر الدوى وأوصاه بالشدة واليقظة وتجديد السور والخندق ، لأن أهل تبنين وإن كانوا مسلمين فإنهم كانوا أعوانا للصليبيين ، ثم مال صلاح الدين على صرخد ففتحها يوم ٢٩ يوليو ، ثم أعقبها بفتح صيدا ، ومنها رحل مع الساحل على

(١) العماد ص ٢٧ — ٢٩ — السلوك ج ١ ص ٩٤ — ٩٥ — وراجع
Histoire Sc. et. Mil. de L'... V. II p. 312.

سمت بيروت فوصلها ونازلها محاصرا ، وضايقها ثمانية أيام إلى أن طلب أهلها الأمان فأجابهم ، وأملى العماد كتاب الأمان وهو على فراش مرضه ، ودخلها صلاح الدين يوم الخميس ٦ أغسطس . ووصل صلاح الدين وهو على بيروت كتاب الصفى بن القابض نائبه بقلعة دمشق يتضمن ما عرضه أوك صاحب جبيل أحد أسرى حطين يطلب فك أسره مقابل تسليمه جبيل . فأمر صلاح الدين بإحضار أوك فى قيده إلى بيرت ، واستمع إلى حديثه ، وأطلق سراحه بعد أن تسلم منه جبيل . وبذلك أعاد صلاح الدين لأهل صيدا وبيروت وجبيل — وجلهم مسلمون — عزتهم الدينية[1] .

أما صور فلما أحس صاحبها الكونت ريموند بقرب صلاح الدين منها آوى إلى طرابلس فعصمته من صلاح الدين ولم تعصمه من أجله المحتوم . واتفق حوالى ذلك الوقت وصول المركيز كنراد دى مونتفرات إلى ميناء عكا فى سفينة صليبية من القسطنطينية مغضوبا عليه من بلاطها بعد خدمة طويلة[2] ، وكان ذلك بعد سقوطها فى يد صلاح الدين بثلاثة أيام ، فلما أرسى كنراد سفينته بالميناء لاحظ عدم دق نواقيس الكنائس ترحيبا بمقدمه كما جرت به عادتهم ، ولاحظ أيضا أن زى رجال الساحل غير الذى ألفه ، فارتاب وارتاع ، واحتال فى طريقة يخرج بسفينته ، وأرسل إلى الملك الأفضل نائب عكا فى طلب الأمان ، وما زال يردد الرسل ويدبر الحيل حتى هبت الريح فأقلع هاربا إلى صور ، وقد اجتمع فيها أهل البلاد المفتوحة الذين أمنهم صلاح الدين . وأهمية وصول المركيز إلى صور وقتذاك أنه غير الموقف الحربى بالنسبة للصليبيين ، إذ وجدوا فيه زعيما التفوا حوله وعقدوا عليه آمالهم بعد أن ذهب عنهم زعماؤهم وقادتهم فى واقعة حطين . والواقع أن وصول المركيز إلى صور كان نقطة تحول فى تاريخ الحوادث الصليبية ، إذ كان فى عزم أهل صور مكاتبة صلاح الدين فى طلب الأمان وتسليم البلد إليه ، فلما جاءهم المركيز ردهم عن ذلك العزم وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ البلد[3] .

(١) ابن واصل ص ٢٨٤ — ابن شداد ص ٦٥ — ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٨ .
(٢) Barker : the Crusades : p. 785 — King p. 129
(٣) ابن واصل ص ٢٨٦ — Paris : La Legende de Sal. p. 488 .

لذلك لم يفعل صلاح الدين بصور أثناء مروره بها وهو فى طريقه إلى بيروت شمالا أكثر من المبيت ليلة واحدة فى ضواحيها ، ثم عاد إليها عابراً ، عارضاً على كنراد تسليمها مقابل اطلاق سراح والده دوق مونتفرات الذى كان من أسرى حطين [١] . غير أن كنراد أجاب على ذلك العرض فى سخرية أن والده عاش طويلا ، وأنه ليس مستعداً للتضحية بصور من أجل والده طويل العمر . ولذلك مر صلاح الدين بصور مسرعا إلى ما هو أهون تاركا حامية ترقبها [١] . غير أن ابن شداد يشير إلى نزول صلاح الدين على صور أملا فى الاستيلاء عليها وأنه عجز عنها لتفرق عساكره فى الساحل وراء الغنائم ، وأنهم سئموا القتال وضرسوا النزال على قول الراجح [٣] ، ومهما كان الأمر سار صلاح الدين حوالى ٢٠ أغسطس صوب الجنوب إلى عسقلان ، فاستولى فى طريقه إليها على الرملة ويبنى وبيت لحم والخليل ، واصطحب معه الملك جى وخمسة عشر أميراً صليبيا من المأسورين فى قيودهم ، ليستعين بهم على فتح تلك البلاد الباقية ، إذ وعدهم باطلاق سراحهم مقابل تسليم هذه البلاد له دون قتال ، واجتمع صلاح الدين بأخيه الملك العادل وولده العزيز عثمان على عسقلان يوم الأحد ٢٣ أغسطس سنة ١١٨٧ (١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٨٣) ، وضرب عليها الحصار ، وباشر النقابون نقب أسوارها واشتد القتال على الباشوره . ولما طالت مقاومة العسقلانيين طلب صلاح الدين إلى الملك جى أن يتدخل ، فأشار عليهم بالتسليم قائلا لهم « لا تخالفوا ما به أشير وأطيعونى ما استطعتم [٤] » . وما زال صلاح الدين على حصارها حتى سلمت يوم ٧ سبتمبر مقابل اطلاق سراح جى بعد مضى سنة من هذا التاريخ ، وخرج أهلها بأموالهم سالمين إلى بيت المقدس بعد حصار دام أربعة عشر يوما ، استشهد فيه ابراهيم بن حسين الهرانى أحد الأمراء الكبار . أقام صلاح الدين بعسقلان

(١) Recueil V. II p. 67

(٢) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٧٩ — العماد ص ٣٦ — Campbell p. 257 — Stevenson p. 251.

(٣) ابن شداد ص ٦٥ .

(٤) العماد ص ٣٨ King op. cit. p. 130 .

حتى تسلم حصون الداوية بجنوب فلسطين ، وهى غزة والقطرون وبيت جبريل مقابل اطلاق مقدم الداوية جيرارد بنفس شروط عسقلان [١] . وبينما صلاح الدين بعسقلان قدم الاسطول المصرى بقيادة الحاجب لؤلؤ المشاركة فى الجهاد ، غير أنه يبدو أنه وصل السواحل الشامية متأخراً ، إذ كان من المعقول أن يصل لمساعدة صلاح الدين فى الاستيلاء على صور مثلا [٢] .

واجتمعت العساكر البرية المتفرقة فى الساحل ، واضحى صلاح الدين مستعداً تمام الاستعداد للزحف على بيت المقدس ، وفى يوم الأحد ٢٠ سبتمبر ١١٨٧ (١٥ رجب ٥٨٣) وصل صلاح الدين بهذه العساكر إلى ظاهر بيت المقدس ، وأخذ يطوف بأسوارها خمسة أيام لتقرير خطته ، ثم خيم فى الجهة الشمالية يوم ٢٧ سبتمبر (الجمعة ٢٠ رجب) . وكان مقدم الصليبيين باليان بن بارزان والبطريق الأعظم لبيت المقدس على علم بقرب قدوم صلاح الدين إلى بيت المقدس بعد استيلائه على عسقلان ، فأخذا فى تعميق الخندق وإمداد الأبراج بالمقاتلين ورماة المجانيق . ونصب صلاح مجانيقه فى الناحية الشمالية من المدينة ، كما أخذ النقابون فى نقب السور مما يلى وادى جهنم ، وذات يوم خرجت خيالة الصليبيين إلى ظاهر البلد تتحدى المسلمين ، فانبرى أفراد منهم الأمير عز الدين عيسى بن مالك لمقابلة التحدى بمثله ، ولم يلبث الأمير عيسى أن وقع قتيلا ، فحمل المسلمون حملة رجل واحد ، ورموا بالصليبيين إلى داخل البلد . ثم تطور الأمر إلى قتال عام ، إذ رفض المسلمون الرجوع إلى قواعدهم ، بل أخذوا فى ردم الخندق والتصقوا بالسور وفى عزمهم نقبه ، على حين أخذ رماة المجانيق يوالون الرمى . ثم حشى بعض النقابين ثغره فى السور بالاحطاب والاتبان ، وأشعلوا فيها النيران ، فامتلأت بيت المقدس دخانا ونيرانا حتى طلب أهلها الأمان والتسليم . وتم التسليم — بعد حصار دام أربعة عشر يوما — على قاعدة أن يعطى كل رجل من الصليبيين عن نفسه عشرة دنانير مصرية ، وكل امرأة خمسة دنانير ، وكل صغير

(١) صفاء القلوب ص ٣٤ — King op. cit. p. 130 .

(٢) راجع السلوك ج ١ ص ٩٦ — Lane poole — Saladin p. 224

أن صغيرة ديناران ، وضمن ابن بارزان والبطريق ومقدم الداوية والاستبارية هذا الشرط . وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار على الفقراء واستمهل صلاح الدين أربعين يوما لتوفيقه هذا المبلغ ، على أنه سلم بيت المقدس ليلة الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ (٢٧ رجب) وهى ليلة المعراج من سنة ٥٨٣ هـ[١] .

غير أن هذا الشرط المالى لم يعد على صلاح الدين بكثير من المال ، لأن بعض رجاله رأوا فى هذا الفرصه وسيلة لجمع المال لأنفسهم ، فادعى مظفر الدين كوكبرى أن من الأسرى ألف نسمة من أرض الرها وهى بلده ، وطالب بأعفائهم تمكينا لمستقبله فى أمارته ، كما ادعى صاحب البيرة أن خمسمائة أرمنى من بلده وصلوا القدس للحج والزيارة ، فطالب بإعفائهم أيضاً . ثم إن كثيراً من نواب الدواوين الذين قاموا بجمع هـذه الأموال قبل السماح لدافعيها بالخروج من بيت المقدس جمعوا هذه الأموال لأنفسهم . يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين عامل الأسرى من الشيوخ والنساء والأطفال معاملة تنطوى على كثير من السخاء والـكرم والرجولة والشهامة ، إذ من على ملـكه مسيحية كانت مقيمة بالقدس مترهبة بالخروج بمن معها ومالها من المال والجوهرات ، وكذلك فعل مع زوجة الملك جى وسمح لها بالإقامة مع زوجها فى أسره ببرج نابلس . وتعهدت أم الهنفرى — وهى زوجة أرناط بتسليم حصنيها الـكرك والشوبك مقابل خروجها بأموالها من بيت المقدس واطلاق سراح ابنها الهنفرى المعتقل بدمشق ، فاستحضر لها صلاح الدين ولدها وأرسل معها بعض رجاله ليتسلم منها الحصنين ، فامتنع أهلها عن التسليم ، وذهبت أم الهنفرى إلى صور على حين أعيـد ابنها إلى سجنه[٢] .

وسمح صلاح الدين للبطريق الأعظم هرقل أن يحمل معه ماقيمته مائتى ألف دينار من تحف ثمينة نادرة وبجوهرات كنسية غالية ، على حين بخل هذا البطريق

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٩٢ — ابو شامة جـ ٢ ص ٩٤ — ابو الفدا جـ ٣ ص ٧٩ — Hist. Sc et milit. VII P. 313—King op. cit p. 130 Lavisse v. 2 p.326.

(٢) العماد ص ٤٩ — ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٤٦ .

على بنى جنسه ببعض هذا المال لافتكاكهم من الأسر . وبعد مضى المهلة التى طلبها ابن بارزان ، تبين أن ثمانية آلاف من النساء والصبيان وسبعة آلاف من الرجال لا يستطيعون دفع الفدية المقررة ، وأن ليس هناك من يدفعها عنهم . وهنا يقرر المؤرخ الصليبى أرنول أن العادل طلب إلى أخيه أن يمنحه ألف أسير فلما أجيب إلى طلبه أطلق سراح هذا العدد الـكبير احتسابا لوجه الله ؛ وطلب كل من البطريق وباليان بن بارزان ألفا آخر فأجابهما صلاح الدين إلى ذلك ، وبذا صار ثلاثة آلاف أحرارا بدون فدية ؛ وقال صلاح الدين لمن حوله « لقد قدم أخى صدقته وكذلك فعل البطريق وباليان وها انذا فاعل » . ثم أمر المنادين بالمناداه فى شوارع المدينة بمعافاة العاجزين عن الدفع وأنهم طلقاء يذهبون أنى شاءوا[١] . واتجه بعض أولئك إلى طرابلس ، فأغلق صاحبها بوهمند الرابع أبوابها فى وجوههم ، وسلبتهم حاميتها أمتعتهم ؛ على حين اتجهت جماعة أخرى إلى صور فرفض كونراد إدخالهم المدينة حتى لا يتحمل مسئولية إطعامهم والدفاع عنهم ؛ ورغبت جماعة ثالثة الابحار إلى أوروبا فاعتذرت سفن المتاجر الإيطالية الراسية فى الاسكندرية عن حملهم بدون أجر لو لا إرغام السلطات المصرية لتلك السفن على حملهم[٢] . وما أشد تأثر صلاح الدين عندما اجتمعت نسوة وبنات الفرسان الصليبيين المأسورين والمجروحين يسألنه الرحمة والاشفاق بهن والانفاق عليهن ، فأعاد للنسوة اللائى أسر أزواجهن حرية الأزواج وأطلق سراحهم . أما اللاتى فقدن رجالهن فخصص لهن مجمولا من دخله الخاص يقل ويكثر حسب قدرهن وحالتهن الاجتماعية[٣] . وبلغ من اختص بشروط الرق خمسة عشر ألفا فى رأى العماد ، وإحدى عشر ألفا فى رأى أرنول ، من عدد الذين أخرج من بيت المقدس ويتراوح بين المائة ألف والستين ألف . وحسب الباحث أن يذكر هنا ما اقترفه الصليبيون من مجازر بشرية أقاموها يوم دخولهم القدس فاتحين فى ١٥

(١) انظر ذيل Lane-poole Saladin p.332

(٢) Lane-Poole Saladin p. 231 - Stevenson p. 254 وراجع grousset V. II p. 823 عن مصير عرش إمارة طرابلس بعد وفاة صاحبها ريموند الثالث .

(٣) لينبول Saladin p. 233 نقلا عن ارنول المعاصر .

يوليو سنة ١٠٩٩ (الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ) فوصلوا بخيولهم إلى معبد سليمان، وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم، وقتلوا من المسلمين بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كثيرة من أئمتهم وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف[1].. وبعث جودفرى خطابا إلى البابا يصف له تلك المذابح الشنيعة بقوله « إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتيها في بحر من دماء الشرقيين في إيوان سليمان ومعبده »[2] .

وجلس صلاح الدين بقبة الصخرة متواضعاً لاستقبال التهنئة بفتح بيت المقدس، وجلس حوله الفقهاء والعلماء والشعراء؛ واستمع إلى قصائد ومدائح عرفت بالقدسيات، نسبة إلى يوم القدس وأكثرها من نظم الشعراء المصريين[3]. ثم أمر وزيره العماد بكتابة سبعين رسالة إلى أنحاء العالم الإسلامي بالمشرق والمغرب تبشر المسلمين باسترجاع بيت المقدس من الصليبيين[4] . وفرق صلاح الدين ما قبضه من مال الفداء وهو ثلثمائة ألف دينار مصرية تقريباً على العلماء والصوفية، الذين حضروا معه الفتح وكانوا زهاء عشرة آلاف عمامة على قول المراجع — على ما به من مبالغة واضحة، وخلص من الأسر ثلاثة آلاف أسير وأعادهم إلى أوطانهم بعد أن صرف لهم ما يتبلغون به من كسوة وزاد[5]. وفي الجمعة التالية ٩ أكتوبر (٤ شعبان) أقام المسلمون صلاة الشكر الجامعة في المسجد الأقصى، بإمامة القاضي محيي الدين بن زكي الدين الذي عينه صلاح الدين من ثم خطيباً للمسجد، مكافأة له على صدق نبوءته بفتح القدس في رجب[6]، واهتم صلاح الدين بترخيم المحراب العمري القديم، وإزالة ما هنالك من آثار مسيحية، وغسل الصخرة بماء الورد العطر، وآية ذلك الاهتمام ما يقرأه الزائر اليوم منحوتاً «أمر بتجديد المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبدالله ووليه يوسف بن أيوب

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٤، حمزة : أدب الحروب الصليبية ص ٣٠ .
(٢) Barker p. 779 — Lavisse V. II p. 359.
(٣) راجع تلك القصائد في أبي شامة ج ٢ ص ١٠١، ١٠٧، ١١٦، ١١٩ :
(٤) العماد ص ٥٩ .
(٥) ابن الجوزي مرآة الزمان ص ٢٠٢ الحنبلي : شفاء القلوب ص ٣٥ .
(٦) راجع حاشية ص ١٤٨ .

أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عند ما فتحه الله على يديه في شهور سنة ٥٨٣ »[1] .. وأمر صلاح الدين بعمل منبر للمسجد الأقصى، فقيل له « إن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبراً، أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون في عدة سنين، لم يعمل في الإسلام مثله[2] » فأمر صلاح الدين بإحضاره، فحمل من حلب ونصب بالقدس، ثم أقطع صلاح الدين بيت المقدس للفقيه عيسى الهكاري، وأخذ في ترتيب شئونه العسكرية استعداداً لما عساه يكون الخطوة التالية من مشروع الجهاد.

ووضحت هذه الخطوة التالية تمام الوضوح حين جاءت إلى صلاح الدين كتب الأمير سيف الدين المشطوب نائب صيدا وبيروت تحرضه على حصار صور وتستحثه على متابعة خطة الحرب الخاطفة ومباغتة العدو وإلحاق النصر بآخر قبل أن يستجمع العدو قواه. ومما يؤثر عن المشطوب أنه استعجل صلاح الدين بعبارة نصها « الفرصة تدرك بالحث وتفوت باللبث »[3]. فلبى صلاح الدين ورحل عن القدس يوم الجمعة ٣ أكتوبر سنة ١١٨٧ (٢٥ شعبان سنة ٥٨٣) بعد أن ودع ولده العزيز ورده إلى مصر، وبعد أن سبقه إلى عكا ولده الأفضل وابن أخيه تقي الدين عمر. ووصل صلاح الدين عكا صحبة العادل وأقام بها أياما يتفكر ويتدبر، ثم سار نحو صور يوم الجمعة ١٥ نوفمبر (٩ رمضان) فنزل بعيدا عن سورها ومكث أياما حتى يواصل المدد، واجتمعت آلات الحصار في عكا وغيرها، وكانت صور مدينة حصينة ثلاثة أرباعها في البحر، وقد وسع المركيز مونتفرات خندقها، واغتنم إشتغال صلاح الدين بفتوحاته بعد حطين فرمم أبراجها، ورتب رجالها. هكذا وجد صلاح الدين مدينة صور حين ضرب عليها الحصار يوم الخميس ٢٨ نوفمبر (٢٢ رمضان)، ولذلك وزع الأفضل والعادل وتقي الدين وكبار الأمراء على أسوار

(١) Reinaud : Extraits des Hist. p. 218 وراجع Wiet Repertoire V. IX p. 159.
(٢) أبو شامة ج ٢ ص ٩٦ — Lane-Poole - Saladin 235
(٣) العماد ص ٦٢ .

المدينة ، ووكل كل منهم بناحية منها ، ووصل إليه بعد أيام ولده الظاهر غازى بعسكر حلب ، فنصب خيمته وراء خيمة أبيه . وأمر صلاح الدين بقطع أشجار الفياض وتنظيم الستائر ، وبدأ المسلمون القتال برمى الأسوار بالمجانيق والعرادات والجروح ، ومهاجمتها بالدبابات ، فلما لم تسعفهم هذه الوسائل الخاطفة التى ألفوها منذ حطين فى الإستيلاء على صور لمناعتها ، ابتكر صلاح الدين أسلوبا تاكتيكيا جديدا بأن قسم العسكر ثلاثة أقسام ، وقسم القتال بحيث كان لكل قسم منها وقت معلوم من النهار ، حتى يتصل القتال على أهل البلد فلا يستريحون ، وهذه هى طريقة التناوب التى إبتدعها صلاح الدين[1] ، ولم تنجح هذه الطريقة فى الاستيلاء على صور لسببين أحدهما طوبوغرافى ، وهو ضيق الموضع الذى قاتل فيه المسلمون ، وثانيهما وجود شوانى وحرقات صليبية فى البحر ، وهذه كانت ترمى المسلمين المهاجمين بالزنبورك[2] ،

(١) عرف المسلمون الأوائل تلك الطريقة ثم أهملت نوعا ، وقد استخدمها الخليفة المعتصم فى حصار مدينة عمورية الرومية فى نهاية القرن الثانى الهجرى ، بأن جعل الحرب مناوبة بين جيوشه الثلاثة يحارب كل جيش يوما ويستريح يومين ، فبدأ بالحرب أشناس ومعه جيش الميسرة وفى اليوم الثانى ، باشر الافشين القتال بجيش الميمنة ، وفى اليوم الثالث قام بالهجوم جيش المعتصم فانتصر فى النهاية (البستانى معارك العرب فى الشرق والغرب ص ٩٤) وفى هذا المعنى يشرح مخطوط التدبيرات السلطانية (ص ٢٢) طريقة التناوب بقوله « ويجب أن يجعل طائفة من العسكر ذخيرة لا يباشرون الحرب ، بل مستريحة لوقت الحاجة والأمر الضرورى فإن الحرب ربما طالت وتعب المقاتلة فتأتى الذخيرة مستريحة وربما كان الظفر على يديها » . ولعله يقابلها فى العصر الحاضر الجيش الاحتياطى .

(٢) الزنبورك عبارة عن سهم فى سمك الابهام وفى طول الذراع ، وله أربعة أوجه ، وحده من الحديد ، وطلقته سريعة تخترق رجلين جالسين ، أحدهما خلف الآخر بزيهما العسكرى ودروعهما ثم تلتصق بالأرض أخيرا ، وإذا صوبت الطلقة إلى حجر الحائط اخترقته ، ولذلك أصبح الزنبورك سلاحا مخيفا فى العصور الوسطى ، واطلق عليه اسم quadrellus & Carellus عرفه الصليبيون فى الحرب الأولى ثم حرم البابوات استعماله بين المسلمين فاختفى ، ولم يشر إليه مؤرخو العرب فى مؤلفاتهم إلا فى حصار صلاح الدين لصور ، واستمر استعماله بعد ذلك فى حصار عكاء واستخدمه ريتشارد فى الحملة الصليبية الثالثة وظل جيشه محتفظا به بعد عودته إلى أوروبا ، ومن ثم انتشر فيها من جديد وقتل ريتشارد نفسه بطلقة من الـ Carreau . ولم يستعمل المسلمون الزنبورك إلا متأخرين منذ أن ذكره مؤرخهم تحت حوادث سنة ٦٣٣ هـ وشاع استعماله فى الشرق من ذلك التاريخ ، وأفرد له العثمانيون فرقة خاصة فى الجيش تسمى الزنبوركية Zembourekgi وانظر ذيل Reinaud : L'art milit. p 211—Extraits des Hist, pp. 255—256, 643

والجروح ، فكانت سهامها تحدث خسائر كثيرة لضيق الموضع الذى تركزت فيه المعجنات الإسلامية[1] . ولذلك إستدعى صلاح الدين عشر شوانى وقيل أربع عشرة شينيه من قطع الأسطول المصرى الرابض بميناء عكا وكذلك بعض مراكب بيروت وجبيل ، واستطاعت جميعها أن تمنع شوانى الصليبيين من استمرار الرمى على المهاجمين المسلمين .

ثم جاءت الاقدار بما ليس فى الحسبان ، عندما عهد إلى خمس قطع من شوانى المسلمين بالمبيت إحدى ليالى شهر ديسمبر (٢٩ ديسمبر — ٢٧ شوال) مقابل ميناء صور ، لحراسة البلد ومنع الخروج منه والدخول إليه ، وكان رئيس البحريين عبد السلام المغربى الموصوف بالحذق والشجاعة ، ومقدمهم بدران الفارسى ، فلما جاء وقت السحر أمن البحارة فناموا ، فبغتتهم الشوانى الصليبية ، وهاجمتهم وقتلت كثيرا من بحارتهم ، وأسرت منهم عددا عظيما ، والمسلمون فى البر ينظرون إليهم . ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر ، فمنهم من سبح فنجا ، ومنهم من غرق وأكثرهم من المصريين ، لقلة خبرتهم بالملاحة ولتقصير نواب مصر فى تدريبهم وإعدادهم على قول العماد[2] ، وأمر صلاح الدين الشوانى الباقية بالمسير إلى بيروت [illegible] فتبعتها الشوانى الصليبية من الخروج ، وخشى البحارة أن يلحق بهم مثلما لحق بأخواتهم فى مياه صور فلاذوا بالنجاة إلى البر ، وتركوا شوانيهم لمعاول الصليبيين[3] . وهنا تقول الرواية الغربية المعاصرة إن تحطيم الأسطول فى صور يرجع إلى خدعة حربية دبرها كنراد مونتفرات بالاتفاق مع أحد الخونة المسلمين ، وخلاصة هذه الخدعة أن هذا المسلم إتصل بصلاح الدين وأوهمه بانهيار مقاومة الصليبيين وعزمهم على ركوب البحر ومغادرة صور ، وأن حراس الميناء فتحوا مدخلها برفع السلسلة تظاهرا برحيل السفن الصليبية إلى أوروبا ؛ فصدق المسلمون الخبر واندفعت خمس قطع من شوانيهم داخل الميناء ، فبغتتها سفن

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣١٦ — ابن كثير جـ ١٢ ص ٣٢٧ — النويرى : نهاية الارب جـ ٢٦ ص ١٢٤ — ابن واصل ص ٣٠٦ — Reinaud : Extraits p 222

(٢) العماد ص ٦٢ — ٦٩ — ابن شداد ص ٧٥ — Stevenson p 254

(٣) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٦٦ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨ .

الصليبيين ٠ و . ٠ وهذه الرواية تشل صلاح الدين فى الاستيلاء على صور من ناحية
البر إلى مكيدة مشابهة ، وخلاصتها كذلك أن الصليبيين داخل صور تظاهروا
بالوقوف عن المقاومة ، فتراخى المسلمون فى الحصار ، ثم هاجمهم الصليبيون على
حين غره ، وهكذا حلت الهزيمة بالمسلمين فى البر والبحر (١) .

ومهما كان أمر إختلاف الروايتين المعاصرتين إسلامية وصليبية فالنتيجة
الحتمية لمعركة صور واحدة ، وهى تعزو الاستيلاء عليها ، وضجر بعض الأمراء من
ضرورة طول محاصرتها وإلحافهم فى المطالبة بالرحيل . وعقد صلاح الدين المشور واتقاليب
الرأى ، وقال فى وصف صور «هذه بلد حصين ، فى البحر ثلاثة أرباعها ، ومن أحكام
العزم تكميل الآلات والأبراج والدبابات ، واستحضار كل ما يراد للحصار ، وما عذرنا
إلى الله وإلى المسلمين إذا تركناه » (٢) . وناقش الأعضاء قوله وانقسموا فريقين :
فرأى أحدهما رفع الحصار لكثرة القتلى والجرحى وقلة الأموال ومجىء الشتاء ،
على أن يعودوا فى الربيع وهو قول الأغنياء خوفا من أن يقترض منهم صلاح الدين
ما ينفقه فى المعسكر ؛ ورأى الفريق الآخر ومنهم صلاح الدين والأتقياء من الأمراء
الثابرين الصابرين ، كالفقيه عيسى الهكارى وحسام الدين طمان بن غازى وعز الدين
جرديك النورى ، مصابرة البلد ومضايقتها حتى تسقط . وتغلب الفريق الأول ،
وكان لتغلبه أثر سىء فى العمليات الحربية التالية ، لأن رفع الحصار عن صور يوم
أول يناير سنة ١١٨٨ (أو القعدة سنة ٥٨٣ هـ) كان نقطة تحول خطيرة فى تاريخ
مصر الحربى وفى إنتصارات صلاح الدين (٣) .

غير أن ابن الأثير أرجع ذلك كله إلى صلاح الدين نفسه ، بقوله
« وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره ، فرحل
عن صور ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين ، فإنه هو جهز
إليها جنود الفرنج ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان

(١) Grousset op. cit V. III p. 7
(٢) العماد ص ٧١ .
(٣) أبو شامة جـ ٢ ص ١٢٩ — ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٦٨ — Lane-Poole Saladin p. 241

والقدس وغير ذلك » (١) . ونهج المؤرخون ومن بينهم لينپول نهج ابن الأثير
فى نقد صلاح الدين ، غير أن لينپول لم ينس طبيعة تكوين جيش صلاح الدين
الاقطاعى وأثره فى عملياته الحربية (٢) . أما إطلاق الأسرى الصليبيين مقابل تسليم
المدن والحصون ، وهو ما أخذه ابن الأثير على صلاح الدين فالواجب على الباحث
ألا ينكر فضل هذه الخطة ، إذ أتاحت لصلاح الدين فى شهور قليلة فرصة
الاستيلاء على معظم مملكة بيت المقدس ما عدا صور . فهل كان أمام صلاح الدين
سياسة أخرى أكثر نفعا منها ؟ ولو أن صلاح الدين عمد إلى فتح البلاد التى
فتحها لا عن طريق التسليم مقابل الأمان ، بل عن طريق الحصار والمصابرة لطال
أمد الكفاح ، وهذه سياسة غير مأمونة العواقب على كل حال ، ثم إن صلاح الدين
إختار سياسة التسليم مقابل الأمان عملا بالشريعة الإسلامية السمحة ، وأصر على
هذا الاختيار بعد أن وضحت له نتائجه الطيبة ، على قول ستيفنسن (٣) .

وعلم صلاح الدين وهو على حصار صور ، أن قلعة هونين طلبت الأمان من
الحامية الإسلامية المحاصرة لها ، فندب الأمير بدر الدين دلدرم الياروق لتأمين
أهلها ، فسار إليها واعطى الأمانة لأهلها وسلمت المدينة بما فيها . ومعنى ذلك
أن صلاح الدين أضحى سيدا على جميع مملكة بيت المقدس ما عدا صور ، وقلعتى
أبى الحسن وشقيف أرنون من أعمال صيدا ، وصفد وكوكب من أعمال طبريه .
وكان صلاح الدين قد وكل بصفد فرقة الناصرية (٤) ، ومقدمهم مسعود السلستى

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٦٨ — وراجع Gibb. The arabic Sources p.67
(٢) Lane-Poole Saladin p. 243
(٣) Stevenson p, 255—256
(٤) قسم صلاح الدين جيشه إلى عدة فرق — تشبهها الوحدات واللواءات فى الوقت
الحاضر — تنسب كل منها إلى أحد القواد العظام ، فيقال الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه ،
والصلاحية أو الناصرية نسبة إلى صلاح الدين (راجع الفصل الأول ص ١٦) ، والنورية نسبة
إلى نور الدين محمود ومن أكابر أمرائها جرديك النورى (ذيل الروضتين ص ١/٩) ، وأخيرا
الطائفة الكردية نسبة إلى الإكراد وكبيرهم سيف الدين بن غازى بن المشطوب (بن خلكان
جـ ١ ص ٨٦) ، وتفرع من الطائفة الكردية طوائف أخرى مثل الهكارية والمهرانية والحميدية
والزرزارية (كنز الدرر جـ ٧ ص ٧١) . وانظر Carman p. 23 وتنقسم هذه الفرق بدورها
إلى أقسام بعضها كبير والآخر صغير ، ليعرف كل أمير وجندى رتبته فى الجيش . وإذا كانت =

وبكوكب فرقة الأسدية بقيادة الأمير سيف الدين محمود أخى جاولى الأسدى . غير أن هذه البلاد ظلت على مقاومتها حتى يوم رحيل صلاح الدين عن صور ، بل إن الأمير سيف الدين الوكل بكوكب استشهد ، فندب صلاح الدين الأمير صارم الدين قايماز النجمى فى خمسمائة فارس للمرابطة عندها[1] .

وقبل رحيل صلاح الدين عن صور ورد إليه تاج الدين أبى بكر حامد أخى عماد الدين الأصفهانى ، موفدا من بغداد يحمل رسالة عتاب من الخليفة العباسى الناصر ، خلاصته : أن صلاح الدين أرسل البشارة بفتح القدس مع جندى بغدادى اسمه الرشيد بن البوشجى وفى ذلك تحقير للخلافة ، وإن من هرب من بغداد ولجأ إلى صلاح الدين الجاه ، وإن صلاح الدين شارك الخليفة الناصر فى لقبه . واختتم الخليفة العباسى رسالته فى لهجة شديدة نصها : « يفتخر علينا بالقدس وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته »[2] . وفى ذلك انكار وجحود لجهاد صلاح الدين وتضحياته ، واجتمع صلاح الدين بجماعة من كبار الأمراء ، وأطلعهم على رسالة الخلافة ، فانكروا ما فيها من لوم وجحود ، ورغبوا إلى

= المراجع الأيوبية قد خلت من ذكرها إلا أن الباحث يستطيع أن يقرر ما جاء فى دولة المماليك وهو عصر اكمال ونضج النظام الحربى المصرى ، طالما كانت الأصول والقواعد الحربية المرعية واحدة لكل من دولتى الأيوبيين والمماليك . فأكابر الأمراء من له إمرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس (ويقابله حالياً الكتيبة) ومن هذا القبيل يكون أكابر النواب وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين ، ثم أمراء الطبلخانات ومعظمهم من يكون له إمرة أربعين فارساً وقد يزيد إلى السبعين (ويقابله حالياً السريه) ، ولا تكون الطبلخانات لاقل من أربعين ، ثم أمراء العشراوات (ويقابلها الجماعة) ومنهم من يكون له عشرون فارساً ولا يعد إلا فى أمراء العشرات ، ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل أربعين نفر منهم مقدم (ويقابلهم الفصيلة) ليس له حكم عليهم إلا إذا خرج العسكر كانت مرافقتهم معه وترتيبهم فى موقفهم إليه على قول السيوطى (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣) ، وشاع تقسيم الجيوش على تلك الصورة بين دول الشرق والغرب وقتذاك ، فرتب المغول جيوشهم ألوفاً ومئات وعشرات (تاريخ الغازانى ج ٢ ص ٢٧١) وكذلك فعل الانجليز نقلا عن المسلمين فيما يبدو (Fortescue p. 30.) . ويلاحظ أن مناشير جند الحلقة والأمراء من السلطان ، أما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم ، وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الاقطاع ولاجناده الثلثان ، فلا يكن لأمير ولا مباشريه أن يشاركوا احدا من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم (الخطط ج ١ ص ٣٥٠) .

(١) ابو شامة ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) الحنبلى شفاء القلوب ص ٤١ .

صلاح الدين إعلان العصيان على الخليفة ، وكادت الجبهة الإسلامية تتصدع بالرسالة الخليفية ، لو لا ما أبداه العماد من مهارة فائقة ودبلوماسية رفيعة فى تهدئة الخواطر ، وتصوير ما جاء إنما هو من صنع الكاتب ومن دس المغرضين[1] .

وقبل نهاية هذه السنة الهجرية (٥٨٣) حدثت بالحجاز حادثة بين حاج العراق وحاج الشام شرحت ما بين الخليفة العباسى وصلاح الدين من صراع نفسى مكبوت . ذلك أنه خرج فى هذه السنة جم غفير من أهل ديار بكر والجزيرة والشام للحج ومعهم الأمير شمس الدين بن المقدم بوصفه أمير الحج المصرى الشامى ، فلما بلغ عرفات رفع علم صلاح الدين وضرب الكوسات فانكر عليه طاشتكين أمير الحج العراقى ، وقال لا يرفع هنا إلا علم الخليفة وركب كل من الأميرين بمن معه من الجند والاتباع ، والتقيا وجرت بينهما وقفات ، قتل فيها جماعة من بينهم ابن المقدم ، فلما بلغ صلاح الدين مقتل ابن المقدم قال « قتلنى الله إن لم انتصر له » . وتأكدت الوحشة بين صلاح الدين والخليفة على قول الذهبى ، رغم استنكار الخليفة للحادث استنكارا شديدا[2] .

ويبدو من ذلك كله أن نهاية هذه السنة الهجرية ٥٨٣ جاءت بكثير مما عكر صفو الانتصارات والتوقيمات الأيوبية ، فالأسطول المصرى تحطم فى ميناء صور وصور نفسها امتنعت على صلاح الدين ، وها هى الخلافة أضحت تنظر شذراً إلى سمة دولة صلاح الدين . على أن نهاية هذه السنة لم تخل من بعض الانتصارات والتوقيمات الأيوبية ، إذ أكمل الملك المعز طغتكين بن أيوب السيادة المصرية الأيوبية على جميع بلاد اليمن ، عدا صنعاء التى ظل سلطانها على بن حاتم وأخوه بشر على المقاومة . ثم صالح هذا السلطان طغتكين أخيرا على قدر معلوم من الدنانير والخيول سنويا ، ودخلت بلاد جنب إلى طاعة طغتكين[3] . أما بهاء الدين قراقوش التقوى فاستولى فى نفس السنة على القيروان ، وهزم ابن عبد المؤمن

(١) العماد ص ٨٤ — أبو شامة ج ٢ ص ١٨٧ .

(٢) الذهبى مجلد ٣٦ ص ٤٢ — ابن العماد شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٦ .

(٣) ابن حاتم : مخطوط الصمت الغالى الثمن ص ١٠ ، ١٣ .

سلطان المغرب قرب تونس ، وأقام الخطبة فى تلك البلاد لصلاح الدين (١) . ثم إنه مع التسليم بفشل صلاح الدين فى الاستيلاء على صور ، فإنه استطاع أن يجاوزها إلى عكا دون أن يلحق الصليبيون بجيوشه هزيمة تحدث فى الروح المعنوية الأيوبية شيئا ، إذ أمر بفك آلات الحصار وحرق بعضها وحمل الآخر إلى صيدا وعكا ، فعاد تقى الدين عمر مودعا إلى دمشق على طريق هونين ، وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر . ووصل صلاح الدين بباقى الأمراء والعساكر إلى عكا فى ثلاث مراحل مخيما على بابها بجانب التل ، وهناك ودع ولده الظاهر عائدا إلى حلب ، وودع أخاه العادل عائدا إلى مصر ، أما الأفضل فأقام بعكا مع أبيه .

وبينما صلاح الدين يرتب أمور عكا ويهذبها فى حضور واليها الجديد الأمير عز الدين جرديك ، وردت عليه رسل الملوك بالتهنئة من الروم (٢) وخراسان وهمذان واذربيجان واران والرى بفتح القدس ، فأكرمهم وأحسن استقبالهم (٣) .

وفى منتصف مارس سنة ١١٨٨ (محرم ٥٨٤) غادر صلاح الدين عكا فى عساكره الخاصة لمحاصرة حصن كوكب ، فوجده منيعاً يتطلب المصابرة ، فأقر بقاء الأمير صارم الدين قايماز النجمى فى خمسمائة فارس عليه ، ووكل بصفد الأمير طغرل الخازندار فى خمسمائة فارس ، وبعث إلى الكرك والشوبك الأمير سعد الدين كمشبه الأسدى لمراقبته ، وقدم على صلاح الدين وهو بكوكب الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى من مصر ففوض إليه عمارة عكا ، وشرع الأمير المهندس فى تجديد سورها وتعلية أبراجها ، بمن قدم به معه من مصر من الأسرى والابقار

(١) السلوك ج ١ ص ٩٩ .

(٢) لم يوجد من البيزنطيين جنود فى حطين (فيشر تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٨٧) ولذلك أرسل صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس إلى أمبراطور الدولة البيزنطية إسحاق الثانى بعثاً ، ليخبره بما تم على يديه من الفتوح ، وليسلم إليه مائة وتسعين رجلا من رعايا الدولة البيزنطية ، كانوا قد وقعوا فى يده أثناء حروبه ضد الصليبيين ، ونتج عن هذا البعث أن عقد حلف بين صلاح الدين وإسحاق الثانى سنة ١١٨٩ (٥٨٥) كما سيجىء (السلوك حاشية رقم ١ ص ٩٨) .

(٣) السلوك ج ١ ص ٩٩ .

والآلات والدواب (١) ، واشتغل صلاح الدين وهو على كوكب كذلك بلقاء بقية رسل الواصلين للتهنئة بفتح بيت المقدس ، ومنهم اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، والصلاح قتلغ أبه أتابك قطب الدين سكمان بن نور الدين أرسلان صاحب آمد ، وعرض هذا الرسول رغبة سيده فى الزواج من ابنة الملك العادل فكتب لها صلاح الدين عقد الزواج (٢) ، وفرح صلاح الدين وهو على كوكب بقدوم القاضى بهاء الدين ابن شداد عائدا من حجه ، واعتمده صلاح الدين فى خدمته من ذلك التاريخ قاضيا للجيش ، فضلا عن كونه مؤرخا حربيا ومؤلفا لحياة صلاح الدين العسكرية والمدنية ، مثله مثل العماد الكاتب الأصفهانى (٣) .

ورحل صلاح الدين عن كوكب مستهل مايو سنة ١١٧٨ قاصداً دمشق فدخلها ٨ مايو (الخميس ٦ ربيع الأول) ، واستبشر الناس بقدومه لأنه غاب عنهم سنة وشهرين ، وجلس بدار العدل يهذب أحوال دمشق ، فلاحظ أن نائب ديوانه بها ، واسمه الصفى بن القابض استجد داراً على بعض أبراج قلعة دمشق لينزل بها صلاح الدين ، فاعتبر هذا الاجراء إسرافاً فى أموال المسلمين وعزله من الديوان وأبقاه على الخزانة وحدها ، وفوض ولاية الديوان إلى بدر الدين مودود المعروف بالشحنة والى دمشق (٤) . ويدل هذا على يقظة صلاح الدين وشدة حرصه على تدبير أموال المسلمين للجهاد ، ومحاسبته كبار رجال دولته حساباً عسيراً عما ادخروه من مال ، ومن أين لهم به .

(١) العماد ص ٩٤ ، ٩٧ ابن شداد ص ٧١ Gibb : Ar, Sourcet p. 58 .

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ١٣٤ — العماد ص ٩٨ .

(٣) يشرف على الشئون الدينية فى الجيش قاضى العسكر ، ومعه كاتب يكتب للناس ، وجماعة من العدول يختارهم من الجند للشهادة . وجرى العرف ان تكون خيمة قاضى العسكر من بين الاعلام السلطانية ، وان يكون له موضعا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر ، وان يكون متولى قضاء العسكر مستعدا للاحكام التى يكثر فصلها فى العسكر ، كالغنائم والشركة والقسمة والمبيعات والرد بالعيب ، وان يسرع فى الفصل بين الخصوم لئلا يكون فى ذلك تشاغل عن مواقع الحرب ومقدماته . وجرت العادة على زمن القلقشندى أن يكون قضاة العسكر فى اربعة من كل مذهب قاض — راجع ابن فضل الله : التعريف ص ١٢٣ — البغدادى الافادة والاعتبار ج ٨ ص ٦٤ — القلقشندى ج ٥ ص ٣٦ ، ج ١١ ص ٩٦ .

(٤) ابن واصل ص ٣١٤ .

ولما وصل خبر اجتماع عساكر الشرق بحلب لفتح بلاد الساحل الشمالية ، أرهف صلاح الدين عزمه على الرحيل يوم ١٢ مايو (١١ ربيع الأول) لمقابلتها ، مودعاً القاضي الفاضل ومزوداً بدعواته ونصائحه . اتخذ صلاح الدين طريق جبل نابوس إلى عين الجر إلى اللطمين على البقاع ، فوصل بعلبك وخيم بمرج عدوسة ، ورحل منها إلى سمت اللبوه والزراعة ، حيث علم بنزول عماد الدين الزنكي صاحب سنجار ومظفر الدين كوكبرى مخيمين على بحيرة قدس التي يخرج منها نهر العاصي . فحط صلاح الدين رحاله هناك واختلط المسكران اختلاط الأصدقاء ، واستضاف كل منهما الآخر وتبودلت الهدايا . واتفق صلاح الدين وعماد الدين على خطة حربية موحدة في الزحف على الساحل . فتحركا سويا ونزلا على عرقا مفتاح طرابلس . غير أنه اتفق وقتذاك أن وصلت شواطىء الشام نجدة صليبية بحرية من عند وليم الثاني ملك صقلية ، عدتها ستين قطعة تحمل خمسمائة فارس وخمسمائة راجل ، بقيادة أمير البحر واسمه المرغريط على قول العماد . وألقت هذه النجدة مراسيها بميناء طرابلس ، ولم يشأ صلاح الدين أن يضيع وقته في حصارها وهو لا يستطيع الاشتباك في معركة بحرية ، وبذا أفلتت طرابلس من احتمال الوقوع في قبضة المسلمين ، ثم رحل صلاح الدين يوم ٥ يونية (أول ربيع الآخر) إلى البقيعة قرب حصن الأكراد ، بعد أن اكتملت لديه جموع العرب والأتراك والأكراد ، وأغار على نواحي هذا الحصن واستولى على يحمور وسامة الدمور ، وهما على مسافة قريبة من حصن الأكراد[1] .

ومكث صلاح الدين في هذه النواحي عشرة أيام ، فوفد عليه أثنائها منصور ابن نبيل قاضي جبلة ، وأشار بالزحف على جبلة واللاذقية وما حولها من الحصون والمعاقل الشمالية ، فصادف هذا الاقتراح هوى في نفس صلاح الدين ، وسار لمحاولة الاستيلاء عليها وغيرها من البلاد ، فوصل إلى انطرسوس وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الشامية الساحلية يوم ٨ يوليو (٦ جمادى الأولى) وأحدق بها من

(١) العماد ص ١١ ؛ Rey : Etudes. p. 38—Michaud V. II p. 92 — ابن الأثير ج ١٢ ص ٢ .

البحر للبحر ، وعسكر قبالتها بقلب جيشه ، على حين نزلت ميمنته ومقدمها مظفر الدين كوكبرى على جانب البحر ، ونزلت ميسرته ومقدمها عماد الدين زنكي على الجانب الآخر ، واستطاع صلاح الدين أن يدخل أنطرسوس عنوة بتاريخ ١٠ يوليو ، غير أن برجيها امتنعا مدة عن التسليم ، فما زال مظفر الدين بأحدهما حتى أسلمت حاميته ، على حين ظل البرج الثاني وهو للداوية ممتنعاً لشدة مقاومة جيرارد مقدم الداوية الذي كان من أسرى حطين ، وأطلق صلاح الدين سراحه مقابل وعد بعدم المشاركة في حرب ضده في المستقبل ، وهو وعد بذله جيرارد والملك جي وغيرهما من الأسرى دون أن يفي به أحد منهم ، وما زال هذا البرج يقاوم حتى رحل صلاح الدين عن أنطرسوس في منتصف يوليو بعد أن قوض العسكر أسوار المدينة ، ومنذئذ صار برج الداوية بأنطرسوس خزانة اسجلات هيئة الداوية وذخائرها حتى عصر سلاطين المماليك[1] .

ثم ولى صلاح الدين وجهه شطر اللاذقية ، ماراً بحصن المرقب الاسبتاري الحصين الذي يقع في منتصف الطريق الضيق الواصل بين أنطرسوس وجبلة واللاذقية . ولما سمع المرغريط قائد الأسطول الصقلي بقرب مرور صلاح الدين بحصن المرقب[2] استوقف شوانيه في البحر ليمنع الطريق على المسلمين برميهم بالسهام ، فأفسد صلاح الدين عليه خطته هذه لمنع المسلمين من الوصول إلى اللاذقية ، بأن وضع الطارقيات والجفتيات على الطريق مما يلي البحر من أوله إلى آخره وجعل وراءهما الرماة ، وبذا اجتاز المسلمون إلى مدينة بامينياس ، ووصلوا جبلة يوم ١٥ يوليو (الجمعة ١٨ جمادى الأولى[3]) دون أن يستطيع الأسطول الصقلي أن يعطل سيرهم . وتوسط قاضي جبلة منصور بن نبيل في ترتيب شروط الأمان والتسليم ، وتسلم

(١) ابن واصل ص ٣١٨ Rey : Les Colonies.. P 11 et Etudes . p. 80

(٢) أسس المرقب أحد أمراء المسلمين سنة ١١٤٠ م وهي على شكل مثلث في موقع إستراتيجي هام ، يحميها البحر من ناحية ويفصلها الخندق من الجبال من ناحية البر . قلعتها ذات دوائر مستديرة ، إستولى عليها هيئة الإستبارية سنة ١١٨٦ من عائلة منصور العربية واسم مرقب معناه مكان الحراس — راجع Rey : Les Colonies

(٣) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢

المسلمون جبلة دون قتال ، فأقطعها صلاح الدين إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وزحف صلاح الدين بعد جبلة إلى اللاذقية ، وصابحها يوم الخميس ٢١ يوليو فلاذ أهلها بقلاعها الثلاث المتلاصقات . واشتد الزحف حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور . وتواصل القتال حتى صار عسكر صلاح الدين وجنود اللاذقية يترامون بالحجارة ، وكل ذلك والنقابون يعملون في الأسوار حتى بلغ طول النقب عشرين ذراعا وعرضه أربعة أذرع . ثم طلب أهل اللاذقية إلى قاضي جبله أن يتوسط لهم قاعدة الأمان والتسليم ، فأجيبوا وخرجوا بأموالهم وأولادهم ودوابهم وآلاتهم إلى أنطاكية . وتسلم المسلمون اللاذقية يوم الجمعة ٢٢ يوليو وأقطعها صلاح الدين لمملوكه سنقر الخلاطي ، وقيل لابن أخيه تقي الدين عمر (١) . وبينما صلاح الدين واقف على شاطىء البحر باللاذقية يتفقد ميناءها ، صعد إليه المرغريط مستأمناً ، وقال له على لسان الترجمان « أنت سلطان عظيم وملك رحيم وقد شاع عدلك وذاع فضلك » (٢) . وطلب منه إعادة البلاد إلى أصحابها إجتنابا لمجيء حملات صليبية من وراء البحار تكرهه على إعادتها ، ولم يهتم صلاح الدين بتهديده ، ودل على اطمئنانه لما هو بصدده حين سمح للقسس بالعودة إلى كنيستهم العظيمة باللاذقية .

وبعد أن قرر صلاح الدين أمور اللاذقية ، اتجه صوب صهيون وهي حصن من أعمال حمص قرب ساحل البحر ، فخيم عليها يوم ٢٦ يوليو ، وتقع قلعة صهيون هذه في طرف جبل ، وخنادقها أودية عميقة واسعة ، فضلا عن خندق حفره الصليبيون حولها من جانب واحد طوله ستون ذراعاً ، وله ثلاثة أسوار كأنهـا حصاب . وأنزل صلاح الدين ولده الظاهر غازي صاحب حلب على المكان الضيق من الوادي برجاله الحلبيين الشجعان ، ونزل صلاح الدين نفسه إلى جانب الجبل . ثم هدم منجنيق الملك الظاهر قطعة عظيمة من السور صعد فيها المسلمون ، فبدأ الرشق بالسهام من قسي اليد ، الجرخ ، والزنبورك والزيار ، حتى وضح أن الحصن

(١) أبو الفدا ج ٣ ص ٧٨ — ابن شداد ج ٧٢ . Grousset V. II p. 825—826.

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ١٢٨ — العماد ص ١١٧ .

على شفا التسليم . فخرج أكثر من به ، وعند ذلك أمر صلاح الدين بالزحف من كل ناحية وازدحم الجند يوم الجمعة ٢٩ يوليو (٢ جمادى الآخرة) نحو الأسوار حتى استولوا على ثلاثتها وما فيها من مال ، وسلم الحصن أخيرا بالأمان ، وأقطع صلاح الدين هذا الحصن بجميع أعماله إلى الأمير ناصر الدين منكورش ابن خمارتكين وسلمت بعده حصون بلاطنس ، والعيد ، والجماهرين المحيطة بصهيون (١) . وصارت صهيون فيما بعد عاصمة رئيسية لولاية عربية كبيرة تشمل فامية وكفر طاب وأنطاكية واللاذقية وبلاطنس (٢) .

وتقدم صلاح الدين بعد ذلك نحو حصن بكاس وحصن الشغر القريبين من أنطاكية ، وهما على رأس جبلين بينهما واد كالخندق ، وواصل صلاح الدين رمى هذين الحصنين بالمنجنيق وضيق عليهما الحصار حتى سلم أولهما يوم الجمعة ٥ أغسطس (٩ جمادى الآخرة) والثاني يوم الجمعة ٢ أغسطس (١٦ جمادى الاخرة) واقطع صلاح الدين الحصنين إلى غرس الدين قليج . وبعد استيلاء صلاح الدين على هذين الحصنين سير ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية فهاجمها هجوماً متصلا عنيفاً حتى سلمت يوم الجمعة ١٩ أغسطس (٢٣ جمادى الآخرة) .

ثم تحول صلاح الدين إلى حصن برزية الواقع جنوب سرمانية وشمال أفاميه ، وشرع في مهاجمته على طريقة التناوب بعد أن أدرك مناعة الحصن لوقوعه على قمة جبل شاهق يضرب به المثل في الاستراتيجية العسكرية ، إذ تحيط به الأودية من جميع جوانبه وارتفاع قلعته يزيد على خمسمائة وسبعين ذراعا (٣) ، لذا قسم صلاح الدين العسكر ثلاثة أقسام ، وتقدم عماد الدين زنكي صاحب سنجار وصاحب النوبة الأولى وهاجم الحصن هجوما شديداً في أرض صعبة المرتقى ، والصليبيون يرمونه بالنشاب والحجارة التي كانت تتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شيء ، ثم استوفى هذا القسم نوبته وتراجع ليستريح ، فتسلم صلاح الدين بنفسه النوبة

(١) ابن واصل ص ٣٢٠ — العماد ص ١١٨ — ابن الأثير ج ١٢ ص ٥ . Grousset V. II p. 827

(٢) Rey : Etudes sur.. p. 112-113

(٣) ياقوت ج ٢ ص ١٢٦ .

الثانية ، ولحقت به الثالثة فامتزجت مع الثانية ، وأعقبهما رجال النوبة الأولى وقد عاد لهم نشاطهم ، وما زالوا جميعا حتى صاروا قاب قوس أو أقل من الحصن ، وعند ذلك أخذت الحامية فى الصعود إلى سطح الحصن ، وأخذوا معهم أسرى المسلمين وأرجلهم فى القيود والخشب المثقوب . غير أن ذلك لم يقلل من عزم صلاح الدين ، بل أمر النقابين بالتقدم نحو السور لنقبه ، فأخذ النقابون يعملون وهم يهللون ويكبرون ، وسمع الأسرى تكبيرهم فى نواحيها ، فكبروا ، فظن الصليبيون أن المسلمين صعدوا إلى السطح فطلبوا الأمان وأمنهم صلاح الدين ، وأرسل صاحبة الحصن وهى اخت سيبل زوجة الأمير الصليبى بيهوموند الثالث صاحب انطاكية إلى شقيقتها . والمعروف عن سيبل أنها كانت على صلة بصلاح الدين ، وإنها كانت عينا له على الصليبيين ، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم ، وصلاح الدين يكرمها لذلك ويهديها أنفس الهدايا[1] . ولذا سير صلاح الدين إليها أسرى برزيه مجاملة لها دون فديه ، فشكرته ودامت مودتها له . وتسلم صلاح الدين حصن برزيه يوم ٢٣ أغسطس ، واقطعه للامير عز الدين بن المقدم[2]

ثم نزل صلاح الدين يوم الجمعة ١٢ سبتمبر (١٨ رجب) على قلعة دربساك القريبة من انطاكية ، وحاصرها ونقب برجها ، فطلبت الأمان ورفع عليها العلم المصرى الايوبى يوم ١٦ سبتمبر ، وأقطعها صلاح الدين للأمير علم الدين سليمان بن جندر . وانتقل صلاح الدين من دربساك إلى قلعة بغراس التى تقع على بعد أربعة فراسخ من انطاكية ، وقاتلها قتالا شديداً حتى طلبت الأمان ، فدخلها يوم ٢٦ سبتمبر (٢ شعبان) . وأثناء مقام صلاح الدين على بغراس بعث إليه الأمير الصليبى بيهوموند الثالث صاحب انطاكية رسولا يسأله الصلح ، فصالحه صلاح الدين لضجر عسكره من القتال ، ولرغبة عماد الدين زنكى فى العودة إلى سنجار ، وتقرر أن يكون الصلح لمدة سبعة أشهر وقيل ثمانيــة ، وتعهدت انطاكية مقابل ذلك

(١) العماد ص ١٢٥ — ابن الأثير حـ ١٢ ص ٨ Grousset V II p. 829

(٢) ابن واصل ص ٣٢٢ — الحنبلى شفاء القلوب ص ٤٣ — أبو شامة حـ ٢ ص ١٣١ — ابن كثير حـ ١٢ ص ٣٣٠ .

الصلح أن تسلم أسرها إلى صلاح الدين ، إلى أن تأتى إليها نجدة من وراء البحار[1] .

ومن عجيب الاتفاق ، أن يفتح صلاح الدين ست قلاع ومدن ، فى ست جمع متتالية هـذه السنة (١١٨٨/٥٨٤) ، مع أن هذه القلاع كانت فى أيدى أشجع الصليبيين وأشدهم عداوة للمسلمين ، وجميعها من أعمال انطاكية ، وها هى حسب ترتيبها الزمنى :

١ — جبلة : يوم الجمعة ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٨٤ (١٥ يوليو ١١٨٨)

٢ — اللاذقية : يوم الجمعة ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٨٤ (٢٢ يوليو ١١٨٨)

٣ — صهيون : يوم الجمعة ٢ جمادى الآخر سنة ٥٨٤ (٢٩ يوليو سنة ١١٨٨)

٤ — بكاش : يوم الجمعة ٩ جمادى الآخر سنة ٥٨٤ (٥ أغسطس سنة ١١٨٨)

٥ — الشغر : يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخر سنة ٥٨٤ (١٢ أغسطس سنة ١١٨٨)

٦ — سرمانية : يوم الجمعة ٢٣ جمادى الآخر سنة ٥٨٤ (١٩ أغسطس ١١٨٨)

ومن هنا يتضح حرص صلاح الدين على لقاء الصليبيين أيام الجمعة بعد الصلاة ، تبركا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر ، لأنه اعتبر ذلك اليوم من أسعد أيام الأسبوع عنده . غير أن القلقشندى يعتبر القتال والحروب من خصائص يوم الثلاثاء ، إذ قتل فيه قابيل أخاه هابيل ، أما الجمعـة فهو يوم خلوة وصلاة جامعة[2] .

وكيفما كان اختلاف المؤرخين فى أنسب أيام الأسبوع للقتال ، فإن صلاح الدين بعد أن انتظم الصلح بينه وصاحب انطاكية ، ودع عماد الدين زنكى صاحب سنجار ومن معه من العساكر الشرقية ، ثم رحل يطلب دمشق ماراً بحلب استجابة لدعوة ولده الملك الظاهر . ووصل صلاح الدين حلب فى ٥ أكتوبر سنة ١١٨٨ (١١ شعبان سنة ٥٨٤) وأقام بقلعها ثلاثة أيام ، ثم رحل عنها إلى حماه فى دعوة من ابن أخيه تقى الدين عمر ، سالكا طريق المعره ، ومتيمنا بزيارة

(١) أبو الفدا حـ ٣ ص ٨٩ — ابن شداد ص ٧٧ — Grousset V II P 830

(٢) القلقشندى حـ ٢ ص ٣٥٧ — Lane-Poole —Saladin 247

الشيخ أبى زكريا . وهو مقيم فى مسجده على فراسخ من الطريق . وبات صلاح الدين ليلة واحدة فى ضيافة ابن أخيه بجاه ، وسره ما استجده تقى الدين عمر من استحكامات بجاه ، إذ عمق خندقها فى الصخر ، ورمم قلعتها بحجارة قطعها من الجبل ، ولذا كافأه صلاح الدين باقطاعه جبله واللاذقية . وواصل صلاح الدين سيره إلى حمص ، فبعلبك حيث أقام ببرجها يوما ، ودخل دمشق فى نهاية أكتوبر (أوائل رمضان) .

وفى دمشق جاء البريد إلى صلاح الدين بتسليم حصن الكرك المنيع للمسلمين ، وهو الحصن الذى امتنع على صلاح الدين قبل حطين وبعدها ، واضطره إلى تكليف الأمير سعد الدين كمشبه الاسدى بالإقامة عنده منذ أوائل سنة ١١٨٨ [١] ، وتكليف العادل منذ تلك السنة أن يقيم فى عشرة آلاف فارس فى تبنين ، ليكون على مقربة لنجدة الأمير سعد الدين . وأعقب أخبار الكرك تسليم الشوبك وهرمز والوعيرة ، والسلع (أى بطرا) وهو حصن بوادى موسى عليه السلام قرب بيت المقدس [٢] ، ورأى صلاح الدين أن يستغل ما انتشر فى دوائر الصليبيين بسبب هذه التوفيقات المتتالية ، وأن يسير بنفسه لقصد حصنى صفد وكوكب ، رغم ما أبداه صحبه من رغبة فى قضاء شهر الصيام بدمشق ، وأشاروا عليه للراحة والاستجمام . فرحل مسرعا إلى صفد حيث قابله أخوه العادل قادما من تبنين ، وكانت صفد قلعة منيعة يملكها فرسان الداوية ، يحيط بجانبها أودية عميقة ، فحاصرها صلاح الدين حصاراً أشرف عليه بنفسه ، حتى سلمت المدينة أماناً ، وقيل صلحاً يوم ٦ نوفبر (١٤ شوال) [٣] .

أما كوكب ، وهى قلعة الاسبتارية ، فوكل صلاح الدين حصارها إلى الأمير صارم الدين قايماز قبل رحيله إلى صفد ، فألفاها الأمير صارم الدين منيعة ،

(١) انظر الفصل الخامس ص .

(٢) ابن الأثير ح ١٢ ص ١٢ — السلوك ح ١ ص ١٠١ Rey: Etudes Sur. P 62—Oman V II P 31

(٣) ابو الفدا ح ٣ ص ٧٩ — العينى ح ١ قسم ١ ص ٦٠ .

وألفى حاميتها تعتمد على مهاجمته ليلا فى عدد كبير من الفرسان ، ثم انتهى صلاح الدين من أمر صفد ، فانتقل عنها إلى كوكب والشتاء فى أوائله ، فوجد الأمير صارم الدين فى اسوأ حال بسبب غزارة الأمطار ، وكثرة الأوحال ، وشدة البرد ، وفقدان ماء الشرب ، وهبوب الرياح ، على أن ذلك لم يفت فى عضد صلاح الدين ، بل رتب عساكره للزحف دفعات متناوبة فى يوم واحد ، ولم يلبث الصليبيون أن أزعنوا للتسليم يوم ٧ ديسمبر سنة ١١٨٨ (١٥ ذى القعدة سنة ٥٨٤) [١] . وعرض صلاح الدين القلعة على جماعة فلم يقبلوها لسبب لم تبينه المراجع ، فولاها الأمير قايماز النجمى عن كراهة على قول العينى [٢] . وعلم صلاح الدين وهو على كوكب ، أن جماعة من الفاطميين اغتنموا غيبة العادل عن مصر ، واستخفوا أمر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، ونظموا مظاهرة شعبية سارت مسلحه ليلا فى مسالك القاهرة ودروبها تنادى للفاطميين ، ظناً بأن القاهريين يلبون الدعوة ويطعنون صلاح الدين طعنة خلفية بإعادة دولة الفواطم ، ولكن أحداً لم يستجب لهذه الدعوة ، بل استطاع العزيز أن يقبض على زعماء المتظاهرين ، وأن يلقى بهم فى السجون . غير أن هذه الأخبار أزعجت صلاح الدين ، وأغضبته على مصر وأهلها ، حتى أنه طرد بعض وفود المصريين بباب خيمته ، ووافق ذلك دخول القاضى الفاضل ، فأمره صلاح الدين بالذهاب فوراً إلى مصر ، ليكون له عينا وللعزيز عونا ، حتى يرجع العادل إلى القاهرة [٣] .

ثم تحول صلاح الدين إلى صحراء بيسان وأقام بها بقية الشهر ، واستقر الرأى بينه وبين أخيه العادل أن يعطى الأمراء والأجناد دستور الانفصال ، والقيام بجولة تفتيشية على جميع المعاقل والحصون بفلسطين ، للنظر فى تحصيناتها ومقوماتها الدفاعية . وسار صلاح الدين يوم الجمعة ١٩ يناير سنة ١١٨٩ (مستهل ذى الحجة سنة ٥٨٤) إلى القدس ، ومعه أخوه العادل فوصلها يوم الجمعة ٢٧ يناير (٨ ذى الحجة)

(١) العماد ص ١٣٦ — ابن شداد ص ٧٩ — ابن الأثير ح ١٢ ص ١٤ .

(٢) العينى ح ١ قسم ١ ص ١١ [illegible]

(٣) السلوك ح ١ ص ١٠١ — العينى ح ١ قسم ١ ص ٦٧ — ابن الأثير ح ١٢ ص ١٥ .

وعيّد بها يوم الأحد الأضحى ، وغادرها يوم الاثنين ٣٠ يناير إلى عسقلان ، وهناك ودع أخاه العادل وجهزه إلى مصر لمعاضدة الملك العزيز عثمان ، وعوضه بالكرك عن عسقلان . واتجه صلاح الدين بعد ذلك صوب عكا على طريق الساحل ، متفقداً أحوال البلاد التى مر بها فوصل عكا فى فبراير سنة ١١٨٩ (محرم ٥٨٥)(١) .

وقبل بداية العام الهجرى الجديد (٥٨٥ — ١١٨٩) بعث صلاح الدين إلى بغداد تقريراً عسكرياً عن نتائج عملياته الحربية منذ أعلن الجهاد رسمياً فى سنة ١١٨٧ ، جاء فيه « والآن فقد خلص لنا جميع مملكة القدس ، وحدُّها فى سمت مصر من العريش ، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك ، وتشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت ، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور » . وحقق أيضاً « جميع إقليم أنطاكية ومعاقلها التى للفرنج والأرمن ، وحده من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاوون ، وبقيت إنطاكية بمفردها » . أما إقليم طرابلس فلم يفتح منه إلا مدينة جبيل(٢) . والواضح أن صلاح الدين فتح بعض تلك الحصون سيفا ، بمعنى أن تصبح الأرض ملكا للفاتح وتبقى فى أيدى أصحابها فى نظير الجزية وهم طلقاء ؛ وبعضها أماناً ، أى تكون أرضها مماثلة لأرض الصلح إلا أن الملكية تبقى فى يد صاحبها ، يبيعها ويورثها كيف يشاء مع دفع الجزية ؛ وبعضها الآخر تسليما ، أى بلا قتال وتقرر قواعدها بين الفاتح والمفتوح ، ويبدو أن جميع تلك الحصون عوملت من الناحية العملية معاملة واحدة — رغم أنها لا تمس الأهلين فى شىء — من حيث أن صلاح الدين أقطع المدينة أو الحصن لأحد أهله أو قادته الحربيين ، مقابل محصول معين من الجند والنقد يقدمه لديوان الجيش على النحو المتبع فى نظام الإقطاع الحربى الإسلامى .

وهنا يستطيع المؤرخ الحربى أن يقسم مرحلة الجهاد الصلاحى قسمين ، تفصل بينهما بداية سنة ١١٨٩ ، وأحدهما عهد الفتح والغزو والغنائم ، وثانيهما عهد

(١) أبو شامة ح ٢ ص ١٣٨ — ابن الأثير ح ١٢ ص ١٠٥ .
(٢) أبو شامة ح ٢ ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

الدفاع والتحصين والمقاومة ، اتضح ذلك عاماً لصلاح الدين نفسه منذ بداية تلك السنة ، حين وصلت مجهوداته إلى نقطة التشبع ، ولم يقو بعدها على مغالبة بقايا المقاومة الصليبية فى صور بزعامة كنراد ، وفى طرابلس بزعامة جى دى لوزجنان وفى إنطاكية التى أوشكت مدنها على النهاية بزعامة بوهيموند الثالث . ولذا تحول صلاح الدين فى خطته العسكرية منذ بداية سنة ١١٨٩ من جانب الهجوم إلى الدفاع ، وهى خطة اتفق عليها فيما يبدو مع أخيه العادل فى اجتماع صحراء بيسان ، ودلت عليها رحلته التفتيشية للمدن الداخلية والحصون الساحلية . ورتب صلاح الدين العادل والعزيز عثمان لحماية مصر وسواحلها ، والأفضل على لحماية جنوب فلسطين وسواحلها ، وتقى الدين عمر لمراقبة إمارة طرابلس وما حولها ، أما هو فعزم على منازلة إمارة إنطاكية غداة انتهاء الهدنة معها(١) .

ويمكن القول أن صلاح الدين وصل إلى قمة مجده السياسى والعسكرى فى نهاية سنة ١١٨٨ وبداية سنة ١١٨٩ ، كما دلت عليه عبارته الواردة فى كتابه إلى أخيه سيف الدين طغتكين نائبه باليمن ، يبشره بتلك الفتوحات ويطلب نجدته للقضاء على البقية الباقية من المقاومة الصليبية ، ونص تلك العبارة « إن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً »(٢) ، غير أن أوربا الصليبية لم تعطه الفرصة ليحقق ما وعد به أخاه والخليفة العباسى والمسلمين عامة ، كما سيتضح فى الصراع بين الشرق الإسلامى والغرب الصليبى مرة أخرى بمجىء الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة إلى سواحل الشام .

(١) راجع ابو شامة ح ٢ ص ١٣٦ ، ١٣٧ — Stevenson p. 260—261
(٢) القلقشندى ح ٧ ص ٢٣ — ابو شامة ح ٢ ص ١٣٦ .

الفصل السادس

عكا والحملة الصليبية المعروفة بالثالثة

(مارس ١١٨٩ — أغسطس ١١٩١) — (صفر ٥٨٥ — رجب ٥٨٧)

أخبار حطين فى اوربا — السلطان صلاح الدين والإمبراطور ذو اللحية الحمراء (بار باروسا) — خروج صلاح الدين من دمشق لمراقبة حركات الصليبيين تجاه صور — اليزك — واقعة اليزكية ٦ يونيو سنة ١١٨٩ — طريق الكمائن — الحلف الأيوبى البيزنطى أغسطس ١١٨٩ — بدء حصار عكا ٢٨ أغسطس ١١٨٩ خطة صلاح الدين عند عكا فى معركة ٤ أكتوبر ١١٨٩ — ضجر أمراء صلاح الدين من طول القتال وتقهقرهم إلى تل الخروبة — مكاتبات صلاح الدين إلى الخليفة وأمراء المسلمين — الانتقال إلى تل كيسان — إحراق الأبراج الصليبية الثلاثة عند عكا مايو ١١٩٠ — بداية وصول الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة — أثر وصول بقايا جيش فردريك بربروس فى خطة صلاح الدين — الواقعة العادلية — واقعة عين الماء — أحوال المعسكرين الإسلامى والصليبى شتاء ٩٠ — ١١٩١ — سفارة صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن يناير سنة ١١٩١ — وصول فيلب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد ملك انجلترا إلى عكا ربيع ١١٩١ — استيلاء الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة على عكا يوليو ١١٩١ — مذبحة ريتشارد لاسرى المسلمين — الحياة بالمعسكرين الإسلامى والصليبى والعلاقات السلمية بينهما .

اقتصرت الحرب فى فلسطين حتى سنة ١١٨٩ على صلاح الدين والصليبيين الشرقيين ، وأحرز صلاح الدين انتصارات عسكرية عظيمة خاطفة أفزعت أوروبا المسيحية ، فاستجابت لصرخة الصليبيين الشرقيين ، وتحرك ثلاثة هم أعظم ملوكها وقتذاك بجيوشهم الإقطاعية نحو الشرق . وتهيأ الشرق والغرب لحرب صليبية عامة جديدة ، ووقفت الحضارتان الإسلامية والمسيحية بماديتهما وروحانياتهما وجها لوجه حول مدينة عكا ، التى أضحت سهولها ووديانها وتلالها لأكثر من عامين ، مقراً بهيجا لبلاط ملوك الشرق والغرب معا ، ومدرسة عسكرية لدراسة فنون القتال واستراتيجيته وتاكتيكه ، وميدانا حربيا لتنافس فرسان الإقطاع الحربى فى الشرق والغرب ، وسوقا تجاريا لتبادل منتجات الشرقيين والغربيين ؛ وما أفزع مالقيت عكا من مآس أثناء هذين العامين ، وما أقسى مالقى صلاح الدين من ضروب العنت والإرهاق من أمراء المسلمين الإقطاعيين ، وما أفدح ما نزل بالدولة الأيوبية يوم فقد عكا ، وانقلاب ريتشارد ملك انجلترا إلى محاولة استرجاع بيت المقدس من صلاح الدين ؛ غير أن الرجلين تهادنا آخر الأمر دون أن يكون لأحدهما على الآخر نصر تام .

وتفصيل ذلك ، أن الصليبيين الشرقيين أحسوا بضعف صلاح الدين عليهم منذ أوائل سنة ١١٨١ أى بعد حادثة استيلاء المسلمين على حصن بيت الأحزان ، ودخول أسطولهم ميناء عكا واستيلائه على عدة من مراكب العدو[١] . فأسفروا إلى روما وليم رئيس أساقفة صور فى إبريل من تلك السنة ، لإنهاض البابوية والحكومات الأوربية لنجدتهم[٢] . غير أن البابا وقتذا ، وهو لوسيوس الثالث اكتفى بمكاتبة صلاح الدين سنة ١١٨٣ بشأن معاملة الأسرى الصليبيين[٣] . ثم استولى صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ بعد سلسلة من الانتصارات الأيوبية الباهرة[٤] فوضح الخطر الأيوبى على الصليبيين تمام الوضوح ، وبعث كنراد مونتفرات بعد

---

(١) أنظر ما سبق تحت احداث سنة ١١٨١ وما بعدها

(٢) Grousset V II p 747 .

(٣) Michaud : op. cit. V. IV p. 183 وراجع الفصل الرابع ص ١٤٩ .

(٤) تفاصيل ذلك فى الفصل الخامس .

أن استقر فى صور (١) رئيس أساقفة هذه المدينة، وهو جوزيف وخليفة وليم الصورى المؤرخ المعروف، رسولا شخصياً إلى أوربا ليصور لها محنة مملكة بيت المقدس، وليدعو الرهبان والفرسان والبطارقة إلى لبس السواد، وليحث ممالك الغرب وشعوبها على الانخراط فى حملة صليبية جديدة (٢)، وكان الجالس على كرسى البابويه وقتذاك أربان الثالث الذى يقال إنه توفى (٢٠ أكتوبر سنة ١١٨٧) من أثر أخبار سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين، وخلفه البابا جريجورى الثالث الذى لم يكد يبدأ دعوته إلى ملوك أوربا لإيقاف منازعاتهم الداخلية والتفرغ لإنقاذ بيت المقدس حتى توفى بعد شهرين من تولية منصبه أى فى ١٧ سبتمبر سنة ١١٨٧ (٣). على أن خليفته كليمنت الثالث نجح فى إعلان هدنة عامة بين ملوك أوروبا وأمرائها لمدة سبع سنوات، تقف خلالها الحروب الأهلية من أجل إنقاذ بيت المقدس (٤)، فأنهى الخلاف القائم بين بيزا وجنوه، وعقد صلحا بين البندقية وهنغاريا، وأقنع فيليب أغسطس ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا بوجوب إيقاف الحرب المستمرة بينهما (٥)، كما أقنع الإمبراطور فردريك بربروسا بضرورة الإقلاع عن محاربة أعدائه فى ألمانيا، ابتغاء الانصراف إلى المشاركة فى حملة صليبية عامة.

وحدث أن مات هنرى الثانى سنة ١١٨٩ وخلفه على عرش انجلترا ابنه ريتشارد الأول، فأيد الملك الجديد ما تعهد به والده، وأخذ يستعد للحملة بالاشتراك مع فيليب أغسطس، الذى فرض على أهالى بلاده ضريبة للاستعانة بها على إعداد هذه الحملة عرفت « بالعشر الصلاحى » نسبة إلى صلاح الدين، وجباها

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٤ — المقريزى: سلوك ج ١ قسم ١ ص ١٠١
Reinaud: Extraits des.. p. 223 & 249

(٢) Grousset: op. cit V. III p. 8.

(٣) Wiet: Histoire de La.. p. 327—Campbell: op. cit. p. 286

(٤) La visse: Histoire generale V. II p. 303

(٥) وكان رسوله إليهما هرقل بطريق بيت المقدس الذى ركع أمام هنرى الثانى يستدر عطفه كى ينهض لإنقاذ بيت المقدس — Cox: p. 113.

من جميع الطبقات على اختلاف مراتبهم، عدا الحاملين لشارة الصليب أى المشتركين معه فى الذهاب إلى الشرق، وهى لذلك أول ضريبة عامة فى تاريخ أوربا الاقتصادى (١). ونجم عن جمع التبرعات للانفاق على تلك الحملة إنشاء المصارف (البنوك) بواسطة اليهود والتجار الإيطاليين والمنظمات العسكرية (٢). ومما تجدر ملاحظته هنا أن الألوف من المحاربين من مختلف البلاد الأوربية، انضموا إلى هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة فراراً من ضريبة العشر الصلاحى (٣). وهكذا نجحت البابوية ودعاتها من الكرادلة وغيرهم من رجال الكنيسة فى حمل ملوك أوربا وأمرائها المتنافرين على دفن أحقادهم وخلافاتهم الداخلية ابتغاء الاشتراك فى حملة صليبية ضد المسلمين.

وكان وليم الثانى ملك صقلية أول من لبى الدعوة لهذه الحملة، فبعث بنجدته فى مارس سنة ١١٨٨، بقيادة مرغريط الذى اشترك قبلا فى حروب الصليبيين بفلسطين، وأنقذ طرابلس من الوقوع فى يد صلاح الدين سنة ١١٨٨ (٤)، وتسلح الكثير من المتطوعين رجالا ونساء من الإيطاليين على وجه الخصوص، ولا أدل على ذلك من القصة التى رواها أحد الأسرى الصليبيين، أن والدته ليس لها ولد سواه ولا تملك من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيراً، وتصور تلك القصة الباعث الدينى والنفسانى عند المسيحيين، وخروجهم على الصعب والذلول براً وبحراً من كل فج عميق مضحين بالنفس والمال من أجل عقيدتهم الدينية (٥).

أما الإمبراطور فردريك بربروسا فلم يشأ الخروج على آداب الفروسية وتقاليدها بمفاجأة صلاح الدين بحملة صليبية ألمانية. وكان بينه وبين صلاح الدين

(١) Brehier: op. cit. 118 — Campbell: op. cit p. 271 — سرهنك: حقائق الأخبار ج ٣ ص ٧٧، ٧٨.

(٢) Fuller: op. cit, p. 247

(٣) Barker: The Crusades. p. 783

(٤) أنظر ما سبق بالفصل الخامس ص ٢٠٤ — وراجع Grousset: op. cit V. III p. 8, Brehier op. cit p. 118

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٠ — Reinaud: Extraits p. 241.

بشيء من الودة منذ قدوم سفارة ألمانية من عنده، على رأسها جيرارد إلى القاهرة قبل سنة ١١٨٧ فيما يبدو، واستقبال بربروسا فى بلاطه حوالى ذلك التاريخ سفراء مصريين من عند صلاح الدين، فلما عزم فردريك على الذهاب إلى الشرق لاسترجاع بيت المقدس بعث إلى صلاح الدين مع سفير اسمه هنرى أواخر سنة ١١٨٨ رسالة، كلها فروسية اقطاعية ونصها « وإذا لم ترجع ما استوليت عليه فى مدى اثنى عشر شهراً من بداية نوفبر فسنخوض حرباً ضدك » . وعدد بربروسا لصلاح الدين أسماء الشعوب الأوربية الخاضعة لسلطانه، وعددها سبع وعشرون شعباً سوف يشتركون معه فى تلك الحرب، ومما يوجب الالتفات فى هذه الرسالة أن فردريك أغفل الإشارة إلى الانجليز والفرنسيين، مما يرجح عزمه على أن يسلك سبيله منفرداً إلى بيت المقدس، على قاعدة أنها جزء من الإمبراطورية الرومانية القديمة التى هو رمزها فى العصور الوسطى(١)، وأجاب صلاح الدين على فردريك فى نفس السنة (١١٨٨ م — ٥٨٤ هـ) برسالة مطولة جمعت بين حزم البداوة الكردية والدبلوماسية الأيوبية المصرية، جاء فيها « لا يمكن حصر المسلمين، وفى قدرة البدو وحدهم مواجهتكم، وعلى التركمان إبادتكم، وإذا دعونا الفلاحين حاربوكم بشجاعة » ، ولم يفت صلاح الدين أن يذكر فردريك بسوء المصير الذى لقيه الصليبيون، يوم أن حدثتهم نفوسهم بغزو دمياط والإسكندرية فى عامى ١١٦٩ و ١١٧٤، حين كان صلاح الدين يعمل على تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر، وأكد له تصميمه على أخذ صور وطرابلس وانطاكية عنوة إذا لم يستسلم أمراؤها للمسلمين، وأشار عليه بنصيحة أولئك الأمراء بذلك مقابل إرجاع خشبة الصليب التى استولى عليها صلاح الدين غداة استيلائه على بيت المقدس. وتحرير جميع الأسرى المسيحيين وعودة الرهبان إلى أديرتهم، والسماح للمسيحيين بالحج والزيارة إلى بيت المقدس، وأشار صلاح الدين كذلك إلى عزمه على عبور البحر، ليغزو أوربا نفسها إذا أصر فردريك على تهديد السلام

(١) راجع Bercovici : The Crusades. p. 227—Michaud: op. cit V iv p. 146—Nicolas Histoire des croisades p 124—Brehier: op. cit P120—Lamb The Flame p. 88

والأمن فى الشرق الأدنى بعدم الموافقة على تلك الشروط(١).

وفى يوليه سنة ١١٨٩ أجمعت التقارير الواردة إلى صلاح الدين بعكا من الاسكندرية والثغور المغربية ومن اسحاق الثانى امبراطور الدولة البيزنطية، تنذر « بأن العدو قد أجمع أمراً وحاول نكراً، وغضبوا زادهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب » على قول أبى شامة نقلا عن العماد(٢)، وأكد صدق هذه التقارير ماورواه التجار البنادقة الذين حرصوا على الاحتفاظ بعلاقاتهم التجارية مع صلاح الدين، بأنهم شهدوا تجمعات السفن فى موانى إيطاليا الجنوبية وعلى طول ساحل فرنسا الغربى(٣). ولذا عمد صلاح الدين إلى تقوية حصون عكا، وعين الأمير حسام الدين بشاره واليا عليها، وأمر مهندسه الكبير بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء سورها واستكمال قواعد التحصين والدفاع. ثم سار صلاح الدين إلى طبريه ودخل دمشق يوم ٢٠ مارس سنة ١١٨٩ (مستهل صفر)، حيث وفد عليه ضياء الدين ابن سكينه رسول الخليفة الناصر بولاية العهد بالخلافة لأبى نصر محمد بن الخليفة، فأقيمت له بمصر والشام، وعاد الرسول ومعه ضياء الدين الشهرزورى سفير صلاح الدين إلى الخليفة، ومعه الهدايا والتحف والأسرى من الصليبيين، فضلا عن تاج مملكة بيت المقدس وخشبة الصليب(٤).

ثم خرج صلاح الدين من دمشق يوم الجمعة ٢١ ابريل (٣ ربيع الأول) قاصدا حصن شقيف أرنون، فعبر على بانياس وخيم على مرج عيون قرب الشقيف يوم الجمعة ٥ مايو (١٧ ربيع الأول) فلم يلبث صاحب الحصن وهو أرناط أن نزل إليه مستسلما، يطلب هدنة حتى يجمع أهله من صور، فأكرمه صلاح الدين وهادنه لمدة ثلاثة أشهر، ليستطيع التفرغ لإمارة إنطاكية وأميرها بيوهمند الثالث الذى

(١) راجع — Bercoveci p, 228—231—Michaud V iv p, 177 ويقول لنبول (Saladin 174) أن صلاح الدين أرسل خطابين إلى فردريك وان خطابا واحدا وصله من فردريك.

(٢) ابو شامة ج ٢ ص ١٣٦ ، وانظر Oman p.p. 274 — 276

(٣) Lamb : The Elame of islam p 89

(٤) العماد كتاب الفتح ص ١٣٩ — ١٤٠ .

أوشكت هدنته على الانتهاء ، وتوقع منه صلاح الدين حركة عاجلا أو آجلا . غير أن أرناط لم يكن مخلصا فى مهادنة صلاح الدين ، بل راوغ وطلب هدنة جديدة لمدة تسعة أشهر أخرى ، وبدا منه ما يدل على سوء نية ، فعمل صلاح الدين حتى استطاع القبض عليه وأرسله مقيدا إلى سجن الاسرى بدمشق ، كما رتب بعض أمرائه لحصار شقيف أرنون حتى تقبل التسليم بالإمان العام ، ثم رحل صلاح الدين عن شقيف أرنون وانصرف إلى غيرها من شئون الجهاد[١] .

وجرت العادة فى حروب العصور فى الشرق حسبما أوردتها المراجع ، أن يسبق المعركة حركة استكشاف ، وهو اليزك فى مصطلح الدولة الأيوبية ، والكشافة فى مصطلح الدولة المملوكية[٢] ؛ واليزك لفظ فارسى معناه الطلائع وتستعمل للدلالة على الفرقة التى تكلف بعملية الكشف ، ويمرن أفرادها تمرينا خاصا على جلب الأخبار من معسكر العدو[٣] . وشبيه باليزك فرق الإستطلاع فى الحروب الحديثة . واستطاع اليزك أن يخبر صلاح الدين أثناء مقامه على حصار شقيف أرنون بتجمعات عدائية على الساحل فى المنطقة الواقعة بين طرابلس وصيدا ، وعلى رأسها الملك جى دى لوزجنان الذى جاء إلى طرابلس بعد أن أطلق صلاح الدين سراحه فى يوليو سنة ١١٨٨ مقابل تسليم عسقلان فى السنة السابقة ، على ألا يشهر جى فى وجه صلاح الدين سيفا أبدا . ذلك أن جى نكث العهد غداة وصوله طرابلس ، والتف حوله جماعة من الصليبيين من أجناس مختلفة وممالك عديدة[٤] . فسار بهم من طرابلس نحو صور ، فرفض حاكمها المركيز كنراد دى مونتفرات السماح له بدخولها خشية منافسته فى التملك عليها ، مدعيا أنه نائب الملوك الذين وراء البحار ، وأنه لا يستطيع أن يسمح للملك بدخولها إلا بإذنهم . ولذا ظل جى أربعة أشهر مخيما على باب صور حتى كثرت جماعته من الصليبيين ، واستقرت القاعدة

(١) ابن شداد ص ٧٩ — أبو شامة حـ ٢ ص ١٣٩ .
(٢) راجع الخطط المقريزية حـ ٣ ص ١٩٠ .
(٣) السلوك حـ ١ حاشية ص ٥٠١ — العينى حـ ١ قسم ١ ص ٥٩ — Sabahudden Islamic Cult, V xx No, 2 p, 155.
(٤) راجع Nicolas : op. cit p, 123

بين الطرفين على أن يبقى كنراد بصور ، ويتحرك جى بجماعته صوب عكا لمنازلة المسلمين وإخراجهم من ذلك الثغر الهام . وتحرك جى فعلا يوم ٦ يونيو تجاه الجنوب على رأس سبعمائة فارس وتسعة الاف راجل ، فوصل إلى قرب صيدا واصطدم باليزك الإسلامى عند نهرها إصطداما أوقف سيره[١] . وهنا دارت واقعة كبيرة إستشهد فيها مائة وثمانون من المسلمين ، منهم الأمير غازى إبن سعد الدين مسعود بن البيطار ، وكان يوما على المسلمين ولهم على قول العماد أيقظ المسلمين من رقدة الغره ، فقرر صلاح الدين عبور الجسر الواصل إلى الصليبيين ودفعهم إلى التقهقر مكرهين إلى صور . ثم رجع صلاح الدين فمر على عكا ليرى ماتم من تحصين سورها ، ومر كذلك على تبنين وعاد أخيراً إلى معسكره بمرج عيون[٢] .

واستعمل صلاح الدين كذلك ضد الصليبيين ماهو معروف باسم قتال الكمائن فى مصطلح ذلك العصر ، ومن ذلك أنه علم وهو على مرج عيون أن بعض الصليبيين من مدينة صور ، إعتادوا الخروج إلى جبل تبنين للاحتشاش والإحتطاب فى حرسية قوية من الخيل ، فرتب هو كمينا لهم يصلح للقاء الجميع ، بأن يخرج عسكر تبنين فى نفر يسير من العربان ، فإذا تبعهم الصليبيون ينهزمون أمامهم إلى جهة عينها لهم ، كما ارسل إلى عسكر عكا أن يكونوا على أهبة ، فإذا تحرك الصليبيون فى نصره أصحابهم ، هجم عسكر عكا على خيمهم وركب هو بعسكره إلى الجهة التى عينها لعسكر تبنين . وبعد أن رسم صلاح الدين الخطه على هذه الصوره رتب العسكر ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طلب عشرين فارسا وأمرهم أن يناوشوا أمام العدو ، ثم ينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ، ففعلوا ذلك ونشبت الحرب بين الطائفتين ، واستشهد أربعة من ربيعة هم : الأمير زامل بن تبل أمير النفره ، والأمير جحا بن منصور ، والأمير مطرف بن رفيع ، ورابع لم تشر المراجع إلى اسمه ، وقتل من المماليك الخواص مملوك تركى ، وجرح

(١) ابو شامة حـ ٢ ص ١٤٠ — Rey : Notes d'.., p, 210—Kingsford op, cit P. 316
(٢) العماد ص ١٤٨ .

زميل له أسمه أيبك الساق زاده[١] . وستوضح الأحداث القادمة مبلغ الخسائر التي كبدتها الكمائن الإسلامية للصليبيين .

وطريقة الكمين سلجوقيه الأصل على قول ابن القلانسي[٢] ، وساعد صلاح الدين على استعمالها تضاريس الشام ، إذ جمعت بين الأودية والشعاب والجبال والهضاب ، وكلها ستائر طبيعيه يستطيع الكمين أن يختفي فيها بعيداً عن عين العدو مع قربه من معسكره . وبلغ من أهتمام صلاح الدين بقتال الكمين ، أنه كان يركب وصحبته ابن شداد قاصداً جهة الكمين متشوقاً أخباره ونتائجه[٣] . ومن الشروط الواجب توفرها في الفارس المنتخب للكمين ، أن يكون على قول بكتوت الرماح « مقدماً جرياً للاهوال ، راكباً لاشغب له ، ولا سعال به ، ولا كثرة عطاس ، يجاوز نفسه ويبلوها ، ولا خرير بصدره ، ولا حشرجة بحلقة ، ولا بحوحة بصوته متيقظاً ليس بنوم ، ولا عند السهر بخوار ، ولا البليد قلباً ، ولا بالكليل طرفاً ، سميعاً لوقع الجرس وإن كان خفيفاً ، نهوضاً عند وقت المناداة والشدة ، لا كسل به ولا لماعه ولا فشل . شديد المناداة في تمكن ورويه واستمداد ، ويختاره من السلاح الحصين المعمود النافذ ، ليس بالمفلول الشديد الوقع والنكاية »[٤] . وأتى صلاح الدين أن العرب اصلح من غيرهم في قتال الكمائن ، لخفة اسلحتهم ، وسرعة اندفاعهم أمام العدو ومهارتهم في التظاهر بالإنهزام والضعف[٥] : ويشترط في دواب الكمين قلة الشغب ، لاصهيل لها ولا حمحمة ، ولا غبير ولا نفار ، صابرة لا تضجر ، حسنة الأخلاق لا تصول ، ساكنة لا سعال بها ولا خراط ، ولا منع الإسراج والألجام ، ولا رغاوة بها[٦] .

---

(١) ابو شامة ج ٢ ص ١٤١ — العماد ص ١٤٩ — ابن شداد ص ٩٣ .
(٢) ابن القلانسي ص ٢٥٩ .
(٣) ابن شداد ص ١٩٤ وانظر Michaud : op, cit. V iv P. 166 .
(٤) بكتوت الرماح السؤال والأمنية مخطوط ص ١٩١ — كتاب فهرست الكتب ص ٥٨ .
(٥) ابن واصل ص ٣٤٠ . ابن شداد ص ٩١ ، ١٩٣ .
(٦) السؤال والأمنية ص ١٩١ — كتاب فهرست الكتب ص ٥٨ .

وجاء صلاح الدين الخبر أن جي وأصحابه تحركوا من صور إلى النواقير تجاه عكا يوم ٢٣ أغسطس سنة ١١٨٩ (٨ رجب ٥٨٥) ، وأنهم نزلوا عين بصه بل وصلت مقدمتهم إلى الزيب ، مما دل على أنهم يقصدون مهاجمة عكا ، فسار صلاح الدين حتى اقترب منهم وجمع أفراده واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بتركهم يسيرون إلى عكا والاجتماع عليهم عندها ومقاتلتهم ، أما هو فأشار بالسير في محازاتهم ومقاتلتهم عبر الطريق ، لأنهم إذا نزلوا بعكا لصقوا بالأرض وتعلقوا بها وصعب على المسلمين زحزحتهم . غير أن الأمراء خالفوه في رأيه فنزل على رأيهم كارهاً ، وكان ذلك أكبر خطأ[١] .

وترك صلاح الدين الصليبيين يسيرون في طريقهم من صور إلى عكا دون أن يتعرض لهم ، إذ اتجه هو بمعسكره إلى عكا على طريق طبرية لا تساعه ، ونزل على منية صبيح واجتمع ببقية المعسكر الذى كان أنقذه على طريق تبنين بمرج صفوريه ، وأشرف على العدو من الخروبة ، فألقاه نازلاً على عكا من البحر إلى البحر أى أن الحامية الإسلامية بها باتت محصورة ، وليس لصلاح الدين طريق إليها . ولذا تحرك صلاح الدين في حذر حتى ضرب خيمته على تل كيسان تجاه عكا يوم ٣١ أغسطس أى بعد نزول العدو بثلاثة أيام ، وامتدت ميمنة صلاح الدين إلى تل العياضية وتل بروى على مسافة أربعة أميال ونصف جنوب شرق عكا ، وامتدت ميسرته إلى تل داعوق مع ارتكازها على نهر عكا أو نهر أنامين ، بحيث أصبح الصليبيون محصورين بدورهم من الشرق والجنوب[٢] .

وكان صلاح الدين قبل مغادرة مرج عيون ، استقبل في أغسطس سنة ١١٨٩ (رجب ٥٨٥) سفير إسحاق الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية[٣] . ويبدو أن هذا الرسول كان مفوضاً من لدن الإمبراطور بالاتفاق مع صلاح الدين على عقد معاهدة دفاعية هجومية ضد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وفردريك

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢١ — Lamb- The Flame P 92 .
(٢) ابن شداد ص ٨٨ Reimaud-Extrails p, 245-Grousset op, cit V III p,21
(٣) راجع الفصل الخامس ص ٢٠٢ حاشية ٢ — ابن الفرات ج ٨ تحت أخبار ٥٨٦ — ابن شداد ص ١١٦ .

بربروسا امبراطور المانيا ، وتعهد صلاح الدين مقابل هذه المعاهدة بمنح البيزنطيين حق إشراف بطريق القسطنطينية على كنيسة القيامة والأماكن المسيحية المقدسة فى أراضى الدولة الأيوبية . فضلا عن تسليم خشبة الصليب . وكان من آثار تلك المعاهدة ازدياد عداء ملوك غرب أوربا للدولة البيزنطية وعلى الخصوص فردريك بربروسا[1] .

وبعد أن دقت الجيوش الأيوبية أوتادها فى تل كيسان ، أرسل صلاح الدين البريد لاستدعاء العساكر الموزعة فى المسالح للجهاد ، فمسلحة تقابل انطاكية وسعند ، ومسلحة بحمص لتحفظها من أهل طرابلس ، ومسلحة تقابل صور ، ومسلحة بدمياط والإسكندرية[2] ، وأرسل صلاح الدين كذلك البريد إلى الأطراف ، فجاءه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ، وجاءه تقى الدين عمر ابن أخيه من حماه ، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب حران والرها ، وظلت البعوث من عساكر المسلمين تصل بملوكهم ، وأمرائهم تترى ، وأصبح الصليبيون المحيطون بعكا محصورين بدورهم بين المسلمين داخل عكا وخارجها ، وجرت بين الفريقين على عكا حروب كثيرة بين صغيرة وكبيرة ، منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك ، على قول ابن الأثير[3] ، وأولها قيام المسلمين فى ١٥ سبتمبر (أول شعبان) بهجوم عام على العدو فى خارج عكا وداخلها لفتح الطريق إليها من ناحية البر ، وحمل صلاح الدين على الصليبيين ساعة صلاة الجمعة حملة منكرة فأزاحهم عن مواقفهم ، واستمر القتال إلى اليوم التالى ، وملك تقى الدين عمر بعض هذه المواقف والتصق بالبلد ، فتقهقر الصليبيون ، إلى تل الصليبيين ، وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش ، ودخل صلاح الدين عكا بكميات من الذخائر والأموال والسلاح والغلال ، ودخل معه من رجاله جماعة منهم الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، ثم عاد صلاح الدين إلى معسكره

(١) راجع Cambridge Med, Hist, V iv p, 384 - Brehier p, 120 - The Lamb : The Flame p, 88- Grousset V III p, 10

(٢) ابن خلدون جـ ٥ ص ٣١٩ الحنبلى شفاء القلوب ص ٤٤ .

(٣) ابن الأثير جـ ١٢ ص ٢٢ — العينى جـ ١ قسم ١ ص ٧٠ .

بتل كيسان ومعه أحد أبنائه وكان محصوراً داخل المدينة[1] .

وفى يوم الجمعة ٢٢ سبتمبر (٨ شعبان) خرج العدو راجلهم وفارسهم إلى التلول ، وقاربوا خيام اليزك الإسلامى ، أملا فى سد الثغرة التى أحدثتها المعركة السابقة ، وأعاد الحصار التام حول عكا ، وبقى الطريق إلى عكا مفتوحاً ، والمسلمون يدخلون عكا منه ومن بينهم القاضى بهاء الدين بن شداد حتى يوم ٢٥ سبتمبر (١١ شعبان) ، ثم رأى صلاح الدين تقصير خطوط مواصلاته الخلفية ، وتوسيع الدائرة للعدو لعله يطمع فى الزحف نحوه ، وبذا يخف الحصار عن الحامية الإسلامية فنقل جيوشه إلى تل العياضية المقابلة لتل الصليبيين ، وأكمن صلاح الدين جماعة من العرب يوم ٣٠ سبتمبر (١٦ شعبان) استعداداً لما سوف يقوم به الصليبيون بعد انتقاله إلى تل العياضية ، غير أن الصليبيين هاجموا عكا عشية ذلك اليوم ووقع قتال كبير بين العدو وبين أهل البلد ، ذهب فيه كثير من الفريقين[2] .

وينبغى الإشارة هنا إلى نظام المعسكر الإسلامى فى المعارك الحربية على عهد صلاح الدين ، وهو نظام لم يختلف فيما يبدو عما سبقه أو لحقه من العهود الإسلامية على العموم ، إذ تألف الجيش من عسكر المقدمة ، ثم عسكر القلب حيث يكون السلطان بجنوده ، ثم عسكر آخر من ناحية اليمين عن موقف السلطان وعلى ميمنته ويسمى الميمنة ، ثم عسكر آخر من ناحية الشمال ، ثم عسكر آخر من وراء المعسكر كله يسمى الساقة أو الخلف ، أى أن يقف السلطان وأصحابه فى القلب أو الوسط بين هذه الأربع . وهذه هى الأصول التى أجمع عليها الخبيرون فى ترتيب جيوش المسلمين ، وتلك الأصول فى نظرهم كالفروض الواجبة ، أما الفروع كالطلائع والكمناء ، فهى كالنوافل الغير لازمة لاختلافهم فيها[3] .

والتعبئة على هذه الصورة معناها أن يقف كل عسكر فى موضعه ، ويعرف كل أمير منزلته استعدادا للزحف على العدو[4] . بحيث تمتد الميمنة فى مقابلة ميسرة

(١) العماد ص ١٥٦ — ابن الأثير جـ ١٢ ص ٢٢ — Michaud op, cit p, II 96 .

(٢) ابن شداد ص ٩١ — Kingsford op, cit p, 319- Stevenson op, cit p,262

(٣) Cahen : page 23 .

(٤) راجع مقدمة ابن خلدون صفحة ٢٢٧ .

العدو ، والميسرة فى مقابلة ميمنة العدو . وتنقسم كل من الميمنة والميسرة إلى جناحين أيمن وأيسر ، أو إلى ذراعين أيمن وأيسر ، بالمثل القلب فيقال الذراع الأيمن للقلب والذراع الأيسر للقلب ، وتتكون المؤخرة من المطبخ والخزينة والدفمية والدواليب والفائض من الخيول والمال والأسرى والجرحى [1] .

وتنطبق هذه الصورة النظرية على ما تواتر فى الروايات المعاصرة عن التعبئة الصلاحية بالمركة المعروفة « بالمصاف الأعظم » أو الواقعة الكبرى (ش . ٨) التى حدثت يوم الأربعاء ٤ أكتوبر سنة ١١٨٩ (٢١ شعبان) عندما خرج الصليبيون جميعاً بتعبئة القتال نحو معسكر صلاح الدين بتل المياضية ، وذلك غداة وصول كنراد بعساكره من صور ، ووصول سفن صليبية من أوربا ، تحمل أقواماً مختلفة من السكندناويين والألمانيين وغيرهم ، وكان على رأس هذه التعبئة الصليبية العامة الملك جى ومعه فرسان الأسبتارية بجنودهم فى القلب ، وقد حمل الإنجيل بين يديه على قماش أطلس أربعة أشخاص ماسكين بأطراف القماش ، واصطف الاسكندناويون وبعض الألمان والبنادقة فى الميمنة التى امتدت إلى نهر عكا (أنامين) ، وتكونت الميسرة من كنراد بعسكره ومعه بعض الأسبتارية ، أما الساقه فوقف بها فرسان الداوية وبقية الألمان وغيرهم ومعهم جفرى أخو الملك جى ، ومهمتهم فضلا عن حراسة الخيام والثقل منع حامية عكا [2] ، من الاتصال بالجيش الصلاحى ، وكان صلاح الدين على أهبة لهذه التعبئة الصليبية ، فأوقف فى الميمنة ولده الأفضل بعسكره ، ثم عسكر الواصلة وعليهم ظهير الدين بن البلتكرى ، ثم عسكر ديار بكر والجزيرة وعليهم قطب الدين صاحب حصن كيفا ، ثم حسام الدين عمر بن لاچين صاحب نابلس ، ثم الأمير قايماز النجمى ، ثم المظفر تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين ، وهو آخر الميمنة وموقفه قبالة طرف الميسرة الصليبية . وأما الميسرة الإسلامية فتألفت من الأمير سيف الدين على بن أحمد الشطوب ، والأمير مجلى على رأس الأكراد من المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين برنقش مقدم عسكر

(١) Sabahudden : islamic Cult. Vol, xx No, 2 page 155,158 .

(٢) Grousset : Vol, III page 24 . .

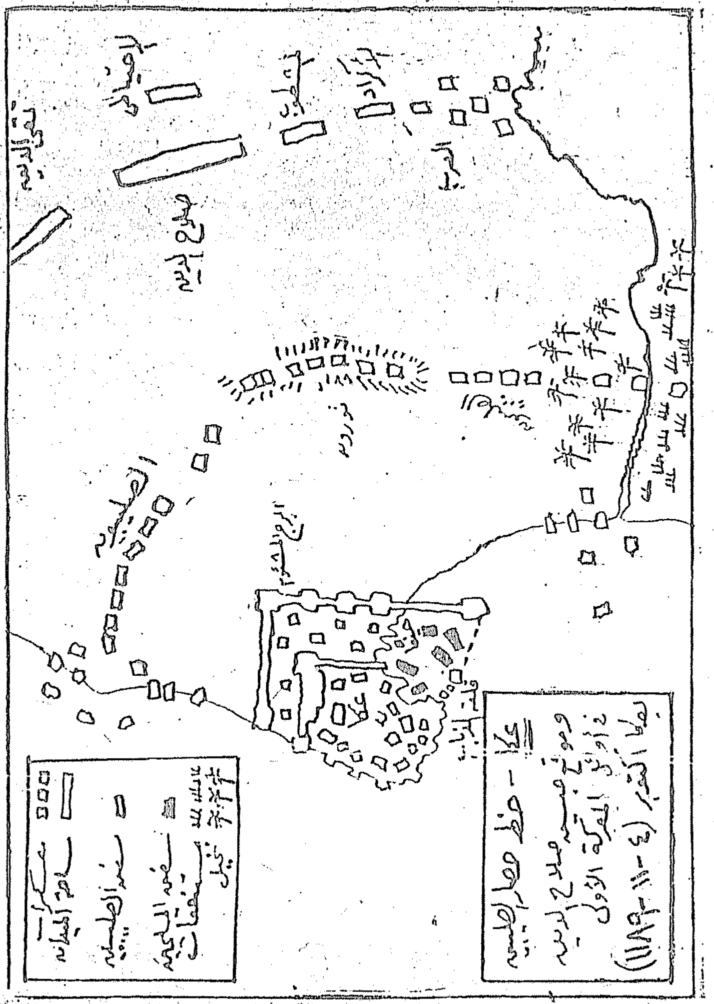

نقلا عن كتاب « الحروب الصليبية » لرينيه جروسيه

(شكل ٨)

سنجار وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين ابن زين الدين بعسكره ، ثم كبار المماليك الأسدية سيف الدين يازكوج ، ورسلان بُغا في جندهم الذي يضرب به المثل ، ثم العرب وهم طرف هذه الميسرة ، وموقفهم قبالة ميمنة الصليبيين عند نهر أنامن ، أما القلب فوقف فيه صلاح الدين في مخيم كبير وإلى جانبه الفقيه عيسى الهكارى(١) (ش ٨) .

وفى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، حملت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فتراجع طرفها حيث كان المظفر تقى الدين عمر ليجذبهم إليه حتى يتمكن منهم ، وظن صلاح الدين هذا التراجع ضعفاً ، فأمد تقى الدين بفرسان من احتياطى القلب ، فتراجعت ميسرة العدو إلى حيث كانت . عند ذلك تحركت فرقة من القلب الصليبي لتقوية الميسرة الصليبية المتراجعة ، وعاد الهجوم على الميمنة الإسلامية مرة أخرى ، ولقيت عساكر ديار بكر والجزيرة هذا الهجوم الثانى ، ولم تكن هذه العساكر على خبرة بقتال الصليبيين على قول الدوادارى ، فانكسرت وانكسر معها معظم الميمنة والقلب الإسلامى(٢) . ولحق العدو بالمنهزمين إلى تل العياضية ، ثم صعدت فرقة صليبية بقيادة الكونت دى بار إلى التل الذى عليه مخيم صلاح الدين ، حيث كان العماد الكاتب واقفاً يسجل ملاحظاته عن المعركة وتطور القتال ، فتقهقر العماد مع المتقهقرين حتى وصل معهم إلى الأقحوانة قرب طبرية ، بل بلغ بعضهم عقبة فيق قرب دمشق ، كما بلغ البعض الآخر دمشق من شدة الفزع .

واستشهد من المسلمين فى هذه الواقعة جماعة كثيرة ، منهم الأمير مجلى بن مروان والظهير والى القدس وهو أخو الفقيه عيسى ، والحاجب خليل الهكارى ، والشيخ جمال الدين أبو على بن رواحة الحمدى ، واسماعيل الصفوى الأموى المكبسى . وانحدر العدو إلى الجانب الآخر من التل ، فأمعنوا فى القتل كذلك . أما صلاح

(١) أبو شامة جـ ٢ ص ١٤٤ — العماد ص ١٦٠ — Lamb — The Flame, P. 97

(٢) الدوادارى : كنز الدرر ص ٧١ .

الدين نفسه فإنه لم يشأ أن يرضى بالهزيمة ، بسبب انهيار القلب والميمنة من جيشه ، فترك خيمته صائحاً فى أطلابه بصوت جهير «يا للإسلام ! أنى كأحدكم ، ولا يطلب اليوم أحد منكم غير رضا ربه(١) » ولحق بالميسرة الإسلامية وليس معه سوى خمسة جنود ، وحمل بهذه الميسرة المكونة من عساكر سنجار والأسدية على ميمنة العدو . أما تقى الدين عمر (ش ٨٠) فعاد بعسكره إلى الميمنة الإسلامية وأمرائها قايماز النجمى وحسام الدين بن لاجين ، ووضع السيف فى ميسرة الصليبيين ، وحاولت الحامية الإسلامية بعكا أن تخرج لتشترك فى هذه المرحلة من القتال بالهجوم على ساقة الصليبيين فصدها جفرى دى لزجنان .

وفى الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم ، تقرر مصير هذه المعركة بانتصار المسلمين(٢) . وقيل بحق أن صلاح الدين أدار القتال فى ذلك اليوم من الهزيمة إلى النصر بألفى فارس ضد قوات صليبية كبيرة ، كان نصيب الفارس الإسلامى منها قتل خمسين وأكثر على قول مرجع متأخر(٣) ، وكان فى جملة الأسرى مقدم الداوية الذى أسره صلاح الدين قبلاً ثم أطلقه ، فلما ظفر به الآن لم يبق عليه . وقرر العماد أن القتلة من الصليبيين فى هذه المعركة خمسة آلاف ، على حين قرر ابن شداد أن قتلة الميسرة الصليبية فقط أربعة آلاف ومائة . ولم تتجاوز خسارة المسلمين على قول العماد مائة وخمسين قتيلا ، على حين اعتبرها ابن شداد ألف وخمسمائة(٤) . وأمر صلاح الدين بإخراج جثث قتلى المسلمين من بين قتلى الصليبيين ، والصلاة عليهم ومواراتهم التراب بدمائهم ، أما جثث قتلى الصليبيين فأمر بحملها على عجل وإلقائها فى النهر ، وبلغ عدد الجثث الملقاة فى النهر خمسة آلاف جثة على قول مؤرخ معاصر(٥) .

(١) أبو شامة جـ ٢ ص ١٤٤ — الدوادارى : كنز الدرر ص ٧١ — مخطوط كشف الكروب الباب السابع .

(٢) العماد ص ١٦١ — ابن شداد ص ٩٣ — Lamb The Flame p. 98

(٣) الدوادارى : كنز الدرر ص ٧٢ .

(٤) العماد ص ١٦٢ ، ١٦٤ — ابن شداد ص ٩٦ — Lane Poole — Saladin p. 254

(٥) ابن واصل ص ٣٥٣ — ابن الأثير جـ ١٢ ص ٢٥ — العماد ص ١٦٨ .

وعزم صلاح الدين على استغلال هذا النصر بمواصلة القتال ومهاجمة القوات الصليبية حول عكا، علهم يفزعون إلى رفع الحصار، ولكن حال دون تحقيق ذلك عجزه عن ترتيب جيوشه في سرعة، بسبب انقسامها إلى منتصر ومنهزم، وقيام أوباش المسكر بنهب الخيام الإسلامية قبل أن يضع الفدويه فيها، وكان ذلك أعظم من الهزيمة وقعا في نفوس الجاريين، وفات بذلك ما أراد صلاح الدين من استمرار القتال، إذ أضاع يوما وليلة في استرداد الأنهاب والأسلاب إلى أصحابها(١).

على أن صلاح الدين لم يقطع الأمل في مهاجمة القوات الصليبية حول عكا في أسرع وقت، فعقد يوم الخميس ١٢ اكتوبر (٢٩ شعبان) مجلس مشوره الحربي داعيا أمراءه إلى مواصلة الحرب، وشهد الاجتماع ابن شداد والعماد، وخاطب صلاح الدين الحاضرين بقوله «أعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، قد نزل في بلادنا وقد وطىء أرض الإسلام»، وحذرهم من التواكل والتسويف في أمر الصليبيين، إذ «لابد من الاهتمام بقلعه، الله قد وجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليس وراءنا نجده ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل.» والرأى هو «مناجزة العدو قبل أن يفتح البحر(٢)» أي قبل أن تأتى أساطيل الغرب بالجند والمؤونة، وانقسم أعضاء المجلس إلى مؤيدين رأى صلاح الدين ومعارضين، فأيد الأولون ومن بينهم العماد استمرار القتال قبل أن يجمع العدو شمله ويضمد جراحه وتنجده النجدات من البحر على قول صلاح الدين. ورأى المعارضون أرجاء القتال، وجلاء المسكر إلى تل الخروبه على مسافة اثنى عشر ميلا جنوب شرق عكا، وحجتهم في ذلك أنهم حرموا النوم خمسين يوما وهم على ظهور جيادهم، وأن الشتاء حل ببرده وأمطاره، ومن الخير لهم أن يستجموا ويعيدوا تنظيم صفوفهم مدة الشتاء، وبذا يستطيع العادل أن يصل بقواته لتقويتهم، ويستطيع صلاح الدين أن يرسل إلى خلافة بغداد وأمراء المسلمين يطلب النجده، وتغلب المارضون ونزل صلاح الدين عند رأيهم، واستهجن العماد موقفهم وأنبرها.

(١) ابن خلدون ح ٥ ص ٣٢٠ — ابن الأثير ح ١٠٢ ص ٢٠٥ — Michaud vol 2 p. 99

(٢) ابو شامه ح ٢ ص ١٤٩ — العماد ص ١٦٩.

صلاح الدين في نفسه وأصابته حمى، أو «التياث مزاجي» على حد تعبير ابن شداد(١).

وانتقل المسكر الإسلامي إلى الخروبة يوم ١٥ اكتوبر (٣ رمضان) على حين ظلت جنود اليزك معسكرة على تل العياضية على مسافة أربعة أميال ونصف ميل فقط إلى الجنوب الشرقي من عكا لمراقبة حركات الصليبيين، وسواء أكان انتقال معظم الجيش الصلاحي إلى الخروبة بسبب قلق أمراء الأقطاع ورغبتهم في العودة إلى أوطانهم، أو بقصد إعادة ترتيب الجيش وتنظيمه وتقويته، أو لحلول رمضان شهر الصيام، أو لمجيء الشتاء بأمطاره وبرده، أو لغيبة الملك العادل بمساكره المصرية، أو للحمى التي أصابت صلاح الدين(٢). فالمعروف أن تقهقر المسلمين إلى الخروبة جر عليهم عواقب وخيمة، إذ مكن الصليبيين من اكمال تحصيناتهم وارسال البعوث لنجداتهم، على حين قطع الصلة بين صلاح الدين والحامية الإسلامية بعكا، ولو صبر أمراء صلاح الدين وعملوا بما رأى لكان خيرا لهم وللمسلمين.

الواقع إن الصليبيين اغتنموا فرصة هذا الشتاء الهادئ، فحفروا خندقا حول معسكرهم من البحر إلى البحر، وأداروا حولهم من وراء الخندق سورا مستورا بالستائر، ورتبوا على أبواب هذا السور جماعات مزودة بأدوات الحصار التي أخرجوها من مراكبهم، وبذلك امتنع وصول صلاح الدين إلى الحامية الإسلامية داخل عكا، وزاد في سوء الموقف ما وصل صلاح الدين من تقارير عيونه وجواسيسه بشمال الشام وبلاد الأرمن والروم، بقرب وصول الأمبراطور فردريك بربروسا في ثلثمائة الف مقاتل الى الشرق، ولذا سير صلاح الدين يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١١٨٩ (١١ رمضان ٥٨٥) القاضي بهاء الدين بن شداد بكتب الى أمراء سنجار والجزيرة والموصل واربل، ثم الى الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ببغداد

(١) ابن شداد ص ٩٨ — Michaud V II p. 101 —Lane Poole—Saladin P. 266

(٢) الدوادارى كنز الدرر ص ٧٣ العماد ص ١٧١ Grousset op. cit V III p. 26 — Stevenson op. cit. p. 266 — Kingsford op. cit. p. 320

يطلب النجده السريمة ، وأشار صلاح الدين فى كتابه الى بغداد بما تم من معارك حربية مع الصليبيين منذ بداية حصارهم عكا فى أغسطس الماضى ، والى استماتة المدو فى القتال ، ودوام مجىء المدده من الرجال من وراء البحار ، وأنه « لم يبق له مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة الا جهزت مراكبها »[١] لمحاصرة الحامية الإسلامية فى عكا ، وأشار صلاح الدين بنوع خاص الى وصول مراكب صليبية الى عكا تحمل ثلثمائة امرأة ، جىء بهن خصيصاً للترفية عن الجنود الصليبية ، ولصرف العساكر الإسلامية عن القتال على قول العماد ، على حين قام غير هن « فوارس لهن دروع وقوانس » ممتطيات الجياد فى زى الأجناد لمحاربة المسلمين[٢] . ولم يكتشف أمرهن إلا بعد القتل أو الأسر . وكتب صلاح الدين كذلك الى مظفر الدين قلج ارسلان صاحب اذربيجان ، كما كتب الى حسن بن قفجاق صاحب الولاية القفجاقية ، والى مملوكه مجاهد الدين أياز بشهرزور[٣] . كما كتب الى أخيه سيف الإسلام طغتكين باليمن يطلب منه الإعانة بالمال دون الرجال ، لانشغال طغتكين فى تلك السنة (١١٨٩ — ١١٩٠) بمحاصرة السلطان عمر بن على بن حاتم بحصن كوكبان المنيع[٤] .

وكان العادل أول الواصلين بالنجدة إلى صلاح الدين يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١١٨٩ (منتصف شوال سنة ٥٨٥) ، وفى نهاية ديسمبر سنة ١١٨٩ (١٥ ذى القعدة ٥٨٥) وصل الأسطول المصرى إلى ميناء عكا ، فى خمسين قطعة وزهاء عشرة الآف بحار مصرى بقيادة الشيخ حسام الدين لؤلؤ ، وظفر هذا الأسطول فى طريقه إلى عكا ببطستين صليبيتين كبيرتين ، فاستولى على ما فيهما من غلال وأموال . واستطاع هذا الأسطول المصرى بعد رسوه فى الميناء أن يحمل بناء

(٦) العماد ص ١٧٩ .

(٢) ابو شامة ج ٢ ص ١٤٩ — العماد ص ١٨٤ — Bercovici op cit p. 154 — Michaud od. cit V II p. 126

(٣) ابو شامة ج ٢ ص ١٥٠ — السلوك ج ١ ص ١٠٣ — ابن شداد ص ٩٨ — Stevenson op. cit p. 263

(٤) راجع بن حاتم : مخطوط السمط الغالى الثمن ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ .

على أمر صلاح الدين جماعة من الأمراء والأجناد ، ومعهم الميرة والذخيرة والأسلحة الكثيرة إلى الحاميه الإسلامية بعكا ، وقويت بذلك روح العكاويين المعنوية والمادية ، ووصل إلى صلاح الدين أيضا وهو بالخروبة من عز الدين مسعود صاحب الموصل كميات كبيرة من التروس والرماح وآلات الحصار المختلفة من أجود الاصناف وأقومها ، فضلا عن أحمال من النفط الأبيض على ندرته ، فكتب إليه صلاح الدين يشكره على استجابة دعوته بهذه النجدة[١] .

وحل العام الهجرى الجديد (٥٨٦) يوم ٨ فبراير سنة ١١٨٩ وصلاح الدين بالخروبة ، ولم يكن باستطاعته أو باستطاعه الصليبيين القيام بعمل حربى كبير والشتاء على اشده ، وحوالى ذلك الوقت توفى الفقيه عيسى الهكارى كبير الأمراء الأكراد ، بعد تاريخ طويل حافل بالجهاد والتضحية ، ففقد صلاح الدين صديقا قديماً جليل الخدمات للدولة الأيوبية منذ نشأتها . ثم جاءت الأخبار بتسليم حصن شقيف أرنون بعد حصار طويل ، فأطلق صلاح الدين سراح صاحبه أرناط ولم يلبث أرناط أن خرج إلى صور بأهله واتباعه . ثم انقضى الشتاء وهدأ البحر وبدأ موسم العمليات الحربية بعودة كنراد مونتفرات إلى عكا من صور فى خمسين سفينة مسلحة ، وخرج الأسطول المصرى الأيوبى للحيلولة دون دخول مونت

(١) لم يكن النفط الأبيض مجهولا فى الحروب أو معدوما فى مصر العصور الوسطى ، بل استخرجه الفاطميون من ساحل بحر القلزم حيث يسيل من جبل لعله جبسه الحالية ، فتأتى العرب لحمله الى خزائن السلاح (القلقشندى ج ٣ ص ٢٨٨) واعتنى الفاطميون بجمعه وخزنه بكميات وافرة ، وانتفعوا به كثيرا فى حروبهم ، كما إستعمله صلاح الدين فى حروبه (الخطط ج ٢ ص ٣١١) . ولم يكن النفط مستعملا فى حالته الخاصة ، بل أضاف إليه المشتغلون بالصناعات الحربية تركيبات تجعله أشد فتكا ، ولذا كانت النفوط أنواع كثيرة فمنها الأبيض والأزرق وملح النفط وتيار النفط (راجع كتاب فهرست الكتب ص ٧٧ ، ٧٨) ، وبعضها لم تكن تحتوى على شىء من النفط المعدنى ، ومنها على عهد صلاح الدين نفط يؤخذ من الأترج وهو من الأسرار العسكرية الخطيرة الأثر ، وطعمه مر ويوجد بكثرة فى ثغر الاسكندرية وطريقه صنعه « أن تقشر قشرة الأعلا ويترك إلى أن يذبل ويعصر زيته كما يستخرج الزيت ، ثم يطبخ على النار الى أن يغلى غلايات عديدة ، وتأخذ من النار عدة تضاف إليه أوقية دهن بلسان ويستعمل ، فإنه من العجائب » . (Cahen p, 20) ويحفظ الحربيون اليوم البترول فى خزانات خرسانية مبنية تحت الأرض ، كما حفظه المسلمون من قبلهم فى القرب (الخطط) ج ٢ ص ٢٧٩) .

فرات ميناء عكا ، وحدثت بين الأسطولين معركة بحرية عند مدخل برج الذباب ، المبنى وسط البحر على جزيرة صخرية تقع عند مدخل الميناء يوم ٤ مارس سنة ١١٩٠ ، وأسفرت هذه المعركة عند دفع الأسطول المصرى إلى داخل الميناء ، ولم يقم للاسطول الأيوبى قائمة بعد هذا التاريخ ، ثم أنزل الأسطول الصليبى حمولته إلى البر ، وأكد الحصار البحرى لعكا[1] .

وفى نهاية إبريل فرغ الصليبيون من بناء ثلاثة أبراج متحركة ، أحضروا خشبها وحديدها من بعض الجزر القريبة لعلها قبرص أو رودس أو صقلية ، واستغرق إعداد هذه الأبراج سبعة أشهر ، وبلغ طول الواحد منها ستون ذراعا وبه خمس طبقات يسع سطحها منجنيقا ، ومن المقاتلة مايزيد على خمسمائه رجل وفى أركان البرج الواحد خمسون ذراعاً ، وهى مكسوة بجلود البقر المضمخة بالخل والطين لمنع النار من إحراقها .[2] ثم شرع الصليبيون فى طم الخندق حول سور عكا ، لا الخندق الذى حفروه حول معسكرهم من ناحية المعسكر الصلاحى ، وسحبوا الأبراج المتحركة إلى قرب السور ، وضيقوا الحصار على المدينة حتى انقطعت أخبارها عن صلاح الدين ، وندب صلاح الدين السباحين يحملون بعض الأقوات للحامية المحصورة على ظهورهم فى البحر ونصب الصليبيون الشباك فى الماء لاصطياد أولئك السباحين ، ووقع فيها كثير منهم .[3] ولذا عمد صلاح الدين إلى الإتصال بحامية عكا عن طريق الحمام الزاجل .

وفى يوم ٢٣ إبريل وصل الشريف فخر الدين رسول الخليفة العباسى ومعه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا ، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنار ، فضلا عن توقيع بعشرين الف دينار على الخليفة العباسى ، يتسلمها صلاح الدين من بعض التجار . فاستاء صلاح الدين واستصغر تلك الكميات من

(١) Lamb — The Flame p. 105—Grousset V III p. 31

(٢) ابو الفدا حـ ٣ ص ٨٢ — ابن الأثير حـ ١٢ ص ٢٨ — The Flame p. 106 — Kingsford p. 321 ولم تشر المراجع إلى فائدة الاسطوانات التى بالأبراج ولعلها تستخدم فى قذف النفط التيار على الحامية الاسلامية .

(٣) شفاء القلوب ص ٤٦ .

الأسلحة ، لأنه يستهلك أضعافها يومياً ، وأراد أن يعتذر للخليفة ويشكره عما فعل فأشار عليه أصحابه بأخذ النفط للغزاة ورد التوقيع[1] ففعل . وأكرم صلاح الدين وفاده الرسول وأوقفه على خططه ومشروعاته الخاصة بالجهاد . ثم تتابعت عساكر المسلمين إلى الخروبة ، فوصل ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وعز الدين إبراهيم بن المقدم ، ووفد معهم جموع كثيرة من أعيان العرب والتركمان ، فتشجع صلاح الدين بقدومهم ، ورحل بهم من الخروبة إلى موضعه القديم على تل كيسان ، وذلك يوم الأربعاء ٢٥ إبريل (١٨ ربيع الأول) وفى تل كيسان رتب صلاح الدين عسكره ميمنة وميسرة وقلبا ، فانزل تقى الدين عمر فى الميمنة ، وأخاه العادل أبو بكر فى الميسره ، وولديه الأفضل والظاهر معه فى القلب[2] .

وبينما يرتب صلاح الدين جيوشه عند تل كيسان ، اقترب الصليبيون من أسوار عكا يوم ٢٧ ابريل بأبراجهم الثلاثة ، وأخذوا يعملون ثمانية أيام متوالية أملا فى هدم الأسوار ، ولم تنفع محاولات صلاح الدين فى مهاجمه معسكر الصليبيين لتخفيف ضغطهم على عكا . ثم انبرى شاب دمشقى اسمه على بن عريف النحاسين ، له خبرة وأسعة بعمل قدور النفط[3] ، وطلب إلى صلاح الدين السماح له بالدخول

(١) ابن واصل ص ٣٤٨ بن الجوزى مرآة الزمان ص ٢٥٧ — العماد ص ١٩٥ — Grousset V III p. 31

(٢) العماد ص ١٩٣ .

(٣) القدور التى يصنع فيها النفط لها اسماء عدة ، مثل القدور والقوارير والكراديز والبيض والقرارات ، وتصنع من مواد مختلفة كاللباد والخشب والنحاس والزجاج والحديد والجاو والفخار ، وهناك اختلاف بين أنواع القدور المختلفة ، مثل قدورة العراق والمغربية والشامية والعجمية والمخرمة وقدوره الزير وغيرها (راجع فهرست الكتب ص ٧٧ ، ٧٨) . أما المواد الكيماوية التى تدخل فى صناعة النفط ونسب تركيبها فعديدة وصغيرة ، حسب نوع النفط المراد صناعته ونوع الغرض المراد إستخدامه فى احراقه ، فبعض النفط يعد لحرق المراكب ، والآخر لحرق الأبراج والحصون ، وثالث يستعمل على ظهر الخيول (راجع التفاصيل فى Cahen p. 20—23) واختلف المؤرخون كذلك فى ارجاع مواد الاحتراق الى أصولها الأولى ، وهل هى اغريقية أم رومانية أم عربية أم صينية أم صليبية (أنظر أثر الشرق فى الغرب ص ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ — Oman p. 48) .

إلى عكا لمساعدة حاميتها فى إحراق الأبراج بطريقة اخترعها وشرحها لبهاء الدين ابن قراقوش ، وكان بعكا كميات كبيرة من النفط ، وكانت طريقة هذا الشاب فى غاية البساطة ، فأعجب بها صلاح الدين ، وأذن لصاحبها بالدخول إلى عكا لتطبيقها . أما هذه الطريقة كما قام بها صاحبها داخل عكا ، فهى أنه رمى أولا قدور نفط لا نار فيه على أحد الأبراج ليسقيها ، وعجب الصليبيون من البلل الذى أصابها ، ثم قذف قدوراً نارية فاشتعل البرج من طرفيه الأدنى والاعلا ، واحترق ما فيه من الآلات والرجال ، وانتقل الشاب الدمشقى إلى البرج الثانى فالثالث وأحرقهما يوم السبت ٥ مايو (٢٨ ربيع الاول) ، وبذا انتهت هذه المرحلة من حصار الصليبيين عكا ، بانتصار صلاح الدين ، وخرج العكاويون إلى سور المدينة ، فأصلحوا ما أحدثه العدو به من ثغرات ، وحفروا خندقه وعمقوه وغنموا ما وصلت إليه أيديهم وعادوا[1] .

وفى يوم ٢٩ مايو (٢٢ ربيع الثانى) وصل عماد الدين زنكى صاحب سنجار بعساكره ، فاستقبله صلاح الدين واكرم مقدمه ، وبسط له ثوباً أطلس عند دخوله خيمته ، وأنزله بعسكره بجانب النهر إلى جوار الملك العادل والعساكر المصريه ، ووصل بعده ابن أخيه عز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى صاحب الجزيره ، فانزله صلاح الدين إلى جانب عماد الدين . وعلم صلاح الدين يوم الخميس ١٥ يونيو بوصول بعض قطع الأسطول المصرى من مصر ، مزودة بالذخيره والميره والرجال ، وان مراكب صليبية خرجت من الميناء لتحول دون وصول هذا الأسطول إلى عكا . فانتهز صلاح الدين هذه الفرصه وركب بعساكره لمهاجمة الصليبيين فى البر ، وتحركت الحامية الإسلامية والعكاويون معه داخل عكا لنفس الغرض ، على حين دار القتال فى البحر بين الفريقين ، واسفر عن استيلاء المسلمين على مركب صليبية واصلة من عرض البحر ، وفقدان المسلمين مركبا مماثلة . على أن الأسطول المصرى استطاع أن يدخل إلى ميناء عكا وصحبته مراكب أخرى آتية من

(١) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٢٨ — ابو شامة حـ ٢ ص ١٥٣ — العماد ص ١٩٧ — Hitti op. cit : p. 620—Stevenson op. cit : p. 263

الساحل السورى وبها ذخائر واسلحة ورجال ، فطابت نفوس العكاويين بمقدمهم وانشرحت صدورهم وخفت ضائقتهم[1] . ووصل يوم ١٦ يونيو علاء الدين ابن عز الدين مسعود صاحب الموصل نائبا عن والده ، ففرح صلاح الدين بوصوله وقدم له أفخر الرياش والتحف ، وأمر بضرب خيمته فى الميمنة بين ولديه الأفضل والظاهر . ووصل أخيرا زين الدين يوسف صاحب أربل فانزله صلاح الدين فى الميسرة عند أخيه العادل .

على أن حشد العساكر الاسلامية على هذه الصوره لم يدم طويلا ، اذ اضطر بعض هذه العساكر الى العودة الى أطراف الشام الشمالية بسبب ما تواتر من الأخبار باقتراب الأمبراطور فردريك بربروسا من هذه الأطراف . ذلك أن الأمبراطور خرج من مدينة راتسبون الألمانية فى ١١ مايو سنة ١١٨٩ ومعه مائه الف مقاتل ، وتلمس طريقه الى الشرق بعدة اتفاقات ، عقدتها بعوث سبقته الى ملوك الصرب وهنغاريا وصقلية ، واسحاق الثانى امبراطور الدولة البيزنطية ، وقلج ارسلان سلطان سلاجقة الروم ، لتمهيد سبيل العبور فى بلادهم فى أمان . ولذا اخترق بربروسا وجنوده بلاد الصرب وهنغاريا فى غير صعوبة[2] ، غير أن اسحاق الثانى امبراطور الدولة البيزنطية وضع العراقيل فى طريقه ، ولم يسمح له بالإقامة فى القسطنطينية ، بل طلب اليه سرعة العبور الى آسيا الصغرى ، وقيل أن اسحاق الثانى قدم للحملة مؤونة ودقيقا بها سم بإيعاز من صلاح الدين ، الذى كان بينه وبين الدولة البيزنطية معاهدة مرعية الشروط[3] ، ومن ثم أرسل فردريك بربروسا إلى ابنه هنرى ونائبه على العرش فى نوفمبر سنة ١١٨٩ يأمره بإعداد حملة كبيرة فى إيطاليا لغزو بلاد الدولة البيزنطية ، وأمره الإتصال بالبابا ليعاونه فى إعداد

(١) ابن خلدون حـ ٥ ص ٣٢٣ — ابو شامة حـ ٢ ص ١٥٤ — ابن شداد ١٠٥ — ١٠٦ — العماد ٢٠٤ و ٢٠٥ ،

(٢) Michaud V IV p. 177 — Campbell p. 288 — Grousset V III p. 10—12—Brehier p. 120

(٣) راجع ما سبق ص ٢١٩ و ٢٢٤ .

تلك الحملة[١] . ثم عبر فردريك بربروسا وجنوده الدردنيل عند ميناء غاليبولى أواخر مارس سنة ١١٩٠ إلى آسيا الصغرى، وسار نحو شمال الشام ، مترسما طريقا وسطا بين الطريق الذى سلكه الصليبيون فى الحملة الأولى سنة ١١٩٧ ، وبين الذى سلكه اخوانهم فى الثانية سنة ١١٤٨[٢] .

واعترض بربروس فى طريقه جموع كثيرة من التركمان الأوجيه[٣] وعواصف شديدة من البرد والثلج ، وفنى بسبب هذا وذاك كثير من الألمانيين . ثم بلغ بربروس أطراف مملكة قلج ارسلان ، فوجد مقاومة من ابن قلج ارسلان ، وهو قطب الدين ملكشاه الذى حجر على ابيه لكبر سنه وسوء تصرفه ، وكانت هذه المقاومة على غير انتظار ، لسابق الاتفاق مع قلج ارسلان على تسهيل عبور الحملة الألمانية فى بلاده . لكن الالمان اندفعوا نحو قونيه ودخلوها عنوة واتصلوا بقلج ارسلان وحصلوا منه على الميرة اللازمة[٤] . ومازال فردريك فى طريقه حتى وصل ارمينية الصغرى، حيث استقبله ملكها ليفون (ليون الثانى) ابن اسطفان ابن لاون ، مقدماً له فروض الطاعة والولاء فى طرسوس . وعند عبور الحملة نهر سالف أو طرسوس (طشاء الحالى) على أطراف أرمينية ، سقط بربروس عن فرسه وهو يعبر النهر من مخاضة ضيقة ، فغرق يوم ١١ يونيو سنة ١١٩٠ ونجا ابنه

(١) Belloc p. 233 — Brehier p. 122 — Campbell p. 288 — ويلاحظ الأستاذ فيشر استحكام العداء بين اللاتينيين وبين اباطرة الدولة البيزنطية من أسرة كومنين فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، لاعتقاد الأولين بنظريتهم القديمة القائلة بأنه لن يستطيع مقاومة المسلمين إلا دولة لاتينية ، تحل محل البيزنطية فى عاصمتهم على البسفور (تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٨٧) وهذا يفسر العداء بين صقلية ومسيحيي اليونان وعلى رأسهم بطريق بيزنطه وبين الأباطرة الشرقيين وميل الأولين إلى مساعدة الحملة الألمانية — راجع Nicolas p. 126

(٢) Nicolas p. 124, 126 انظر — Barker p. 785 عن العراقيل التى واجهت الحملة أثناء عبورها بلاد الدانوب والبلقان .

(٣) الأوجية نسبة إلى أوج وهى قرية صغيرة لطائفة من الاتراك سماها ياقوت (معجم البلدان ح ١ ص ٣٩٧ طبعة أوربا) الحرخلية ، ومساكنها الاصلية فيما يبدو وراء نهر سيحان .

(٤) ابن الاثير ح ١٢ ص ٣٠ — العماد ص ٢٨٠ — Nicolas p, 127

فردريك سوابيا الذى آلت إليه قيادة الحملة إلى عكا[١] . وأهمية ذلك الحادث أن جزءاً كبيراً من هذه الحملة عاد إلى أوربا ، وأن الصليبيين فقدوا بموت بربروسا شخصية، لو أنها وصلت عكا لوجد صلاح الدين من يستطيع معارضته سيفاً بسيف وقوة بقوة ، ولاختلفت النتائج اختلافاً تاماً أكبر الظن ، وهو مالم يحدث[٢] .

وعلم صلاح الدين بهذه الكارثة التى حلت بالحملة الألمانية من كتاب مفصل ، بعثه إليه قس مسيحى كاثوليكى من بلدة آنى، وهو الذى أسمته المراجع العربية بركرى كور بن باسيل ، مقدم الأرمن بقلعة الروم الواقعة على نهر الفرات[٣] .

وكان صلاح الدين أصدر قبل ذلك أوامره إلى أمراء وعساكر الشام الشمالية بالإسراع إلى بلادهم ، استعداداً لمقاومة الحملة الألمانية ، فغادر عكا ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر صاحب منبج ، وعز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب ، وبارزين ، ومجد الدين بهرام صاحب بعلبك ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وسار إلى دمشق الأفضل بن صلاح الدين ومعه واليها بدر الدين ، واتجه إلى حلب الظاهر بن صلاح الدين لكشف أخبار العدو ، ولضبط الأمن وتهدئة خواطر الحلبية ، وكان آخر الراحلين من الأمراء تقى الدين عمر وجهته اللاذقية[٤] . وكتب صلاح الدين حوالى ذلك الوقت إلى الخليفة العباسى يشرح كل صغيرة وكبيرة ، يعلمها عن حملة فردريك بربروسا وما اتخذه هو من خطط عسكرية لمواجهتها على أطراف الشام الشمالية ، ولم تفته الإشارة إلى أن قلج أرسلان لم يكن صادق الوعد . ووصف صلاح هذه الحملة الألمانية بأنها حادث فاجع لأهل الحمية فى الدين ، وزاد من فجيعته ما أشيع من أن بابا روما ، استخدم سلطته الروحية فى إثارة مسيحيي أوربا لتخليص بيت المقدس من المسلمين، وأنه وعدهم بالرحيل بشخصه فى الخريف القادم على رأس جيش كبير . وحث صلاح

(١) السلوك ح ١ حاشية رقم ٢ ص ١٠٣ — Stevenson p. 264

(٢) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ص ١٨٨ .

(٣) ابن شداد ص ١٠٩ — Lamb: The Flame p. 110

(٤) ابن شداد ص ١٠٩ — العماد ص ٢١١ .

الدين الخليفة على النهوض بإدراكه، وألا يتركه منفرداً فى حمل هذا العبء الفادح[1] .

على أن موضع الأهمية هنا، هو أن جيش صلاح الدين خفت قوته لكثرة الراحلين منه، واضطر صلاح الدين إلى تغيير ترتيب المسكر بحيث يكون أقدر رجاله عند أكبر مواضع الخطر، ولذا نقل العادل بعساكره المصرية إلى الميمنة من الجيش، حيث كانت منزلة تقى الدين عمر. ومن باب الاستعداد لمواجهة الحملة الألمانية أمر صلاح الدين بتخريب الحصون والمدن الواقعة فى طريقها، فهدم أسوار صيدا وجبيل، ونقل سكانهما إلى بيروت، وذكر العماد مدناً أخرى شملها قرار الهدم والتخريب، وهى طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية[2]، ولكن الهدم اقتصر تلك السنة على أسوار مدينتى صيدا وجبيل، وتأجل هدم أسوار المدن الأخرى إلى ما يجد من تطور حربى.

وأحس الصليبيون المحاصرين لعكا بأن صلاح الدين أضحى فى قلة من العسكر فركبوا الحربة يوم الأربعاء ٢٥ يوليو، (٢٠ جمادى الآخره)، وهجموا على طرف ميمنته وبها أخوه الملك العادل ودخلوا الخيام ونهبوا مابها. فركب العادل واستركب من الأمراء صارم الدين قايماز النجمى، وعز الدين جرديك النورى، وخاتل العادل العدو حتى أوغله فى المخيم الإسلامى وأشغله بالنهب والسلب، ثم ضرب كؤوسه حربيا، وحمل على العدو حملة شديدة. وأشفق صلاح الدين على أخيه من الصليبيين، فسير جماعة من أمراء مقدمته، واستنهض امراء ميسرته فتحرك علاء الدين بن عز الدين زنكى صاحب الموصل بعساكر والده، وسنقر الحلبى بفرقة من العساكر المصرية، غير أن عساكر الميسره لم تقم بنصيب يذكر فى المعركة، لأن الميمنة كانت إنتصرت وقررت مصيرها بنفسها. ووصل صلاح الدين إلى ميدان المعركة، فسره ماأصاب العدو من الخسائر. وركب خلفه العماد

(١) العماد ص ٢١٤ — ابو شامة جـ ٢ ص ١٦٧ — Michaud V II. p. 103

(٢) السلوك جـ ١ ص ١٠٤ — ابو شامة جـ ٢ ص ١٥٧ — العماد ص ٢١١ — Stevenson p. 264

وابن شداد، وشهد المؤرخان جثث القتلى، فقدرها العماد بعشرة الاف. واستشهد من المسلمين عشرة أنفس على قوله، وكتب فى هذا المعنى بخط يده ماينيف على أربعين بشارة إلى الأقطار الإسلامية[1]. أما ابن شداد فاعترف بعجزة عن عدد القتلى من الجانبين، لكنه سأل جنديا يسعى بين الجثث، فأخبره أنه أحصى من صفين اثنين ماينيف على أربعمائة وستين قتيلا[2]. وانتهزت الحامية الإسلامية بعكا خلو خيام الصليبيين من الجند الحرسية، فخرجت اليها ونهبت الكثير من الأقمشة، والقدور والأسلحة، والنساء أيضاً. ولو عكف المسلمون على القتال ثانى يوم لتلك الوقعة التى اشتهرت بأسم العادلية لتم لهم النصر النهائى، ولكنهم فرحوا بما أصابوا من الغنائم، ورضوا بما عرضه عليهم الصليبيون من هدنة، واشاروا على صلاح الدين بالانسحاب، بسبب وصول نجده أوربيه جديدة بقيادة صليبى كبير اسمه هنرى دى تروى، ومعه عشرة الاف مقاتل، ورضى صلاح الدين بهذا القرار كارها. وتمت عملية انسحاب المسلمين إلى الخروبة للمرة الثانية يوم الأربعاء أول أغسطس (٢٧ جمادى الآخره)، بعد أن رتب صلاح الدين يزكه على تل العياضية قبالة العدو الف فارس بالنوبة كل يومين[3]. وتنفس الصليبيون الصعداء لرجوع صلاح الدين إلى الخروبة، ولوصول المدد إليهم بقيادة هنرى دى تروى، فأعادوا إقامة المنجنيقات قبالة عكا، بفضل ماقدمه إليهم هنرى من الأموال، وأقاموا الستائر من التراب. لكن الحامية الإسلامية بعكا أتلفت هذه الإعدادات باشعال النار فيها يوم ٤ سبتمبر (أول شعبان)[4]. وبينما صلاح الدين على الخروبة وصلت إليه كتب العكاويين، بواسطة الحمام تخبر بنفاذ الميرة، فأنفذ صلاح الدين إلى الأمير عز الدين أسامة نائبة ببيروت، يأمره بإعداد بطسة مملوءه بالأقوات

(١) العماد ص ٢١١ — ابو شامة جـ ٢ ص ١٥٧ — ابن واصل ص ٣٦٠ — السلوك جـ ١ ص ١٠٤ ابن الحنبلى شفاء القلوب ص ٤٤ — Stevenson p. 264.

(٢) ابن شداد ص ١١٤ — ابو الفدا جـ ٧ ص ٨١ — Michand VII P103- Saladin p. 269

(٣) ابن الأثير جـ ١٢ ص ٣٣ — Lane-Poole; His Hist. p. 209- Stevenson p.265 — العماد ص ٢٢٢ .

(٤) ابو شامة جـ ٢ ص ١٥٩ — Michaud V II p. 107 .

والالحوم، فوصلت هذه البطسة عكا قبل نهاية الشهر، وبها أربعمائة غرارة قمح، وقطيع من الأغنام وأنواع الطعام، وأحمال النشاب والنفط. ويرجع الفضل في وصول هذه البطسة سالمة إلى عكا، إلى احتيال بحارتها البيروتيين، إذ تزيوا بزي الصليبيين ورفعوا على البطسة الصلبان، تظاهرا بأنها مركب صليبية في طريقها إلى عكا (١). وفي يوم ٨ سبتمبر (١٤ شعبان) وصلت كذلك إلى عكا ثلاث بطس مصرية، محملة بالذخيرة والغلال من الأسكندرية، وانبرت مراكب الصليبيين لمنعها من دخول الميناء، لكنها شقت طريقها في عنف سالمة، وبذا نجا العكاويون من المجاعة التي حلت بهم، وصادف ذلك انتصار بحرى آخر للاسطول المصرى بنواحي الأسكندرية، إذ اعترض بطسة صليبية في طريقها إلى عكا، فأخذها بمن عليها من المقاتلين، وعددهم ألف وما معهم من السلاح والعتاد (٢). وهالت هذه التوفيقات البحرية قوات الصليبيين في الميناء، فعزموا على أحراق المراكب الصلاحية مها كلفهم الأمر، وأعدوا يوم ٢٤ سبتمبر (٢٢ شعبان) برجا على بطسه وملأوه حطبا، وأعدوا بطسه ثانية بها حطب ووقود أيضا، وبطسة ثالثه بها كثير من المحاربين مستورين تحت قبوبها، ثم حركوا الاولى نحو برج الذباب الذى يتحكم فى الميناء نفسها، واشعلوا النار فيها ليمتد اللهب إلى برج الذباب فيحرقه، ثم اشعلوا النار فى البطسة الثانية، ودفعوها بين البطس الاسلاميه لتشتعل أيضا، غير أن الطبيعة شاءت أن ينعكس الهواء على هذه البطس الثلاث، فتحول إتجاه النار، فاحترقت هذه البطس الصليبية بمن فيها (٣).

ثم أخذ الموقف يتطور بوصول الجنود الباقين من الحملة الألمانية إلى الشام، بقياده فردريك صاحب سوابيا بن بربروسا، إذ نزل أولئك الجند على انطاكية، واعترضتهم صعوبات كثيرة قبل وصولهم هذه المدينة، وتبرم بهم أميرها الصليبي بوهموند الثالث، ودفع بعضهم صوب حلب، فذابوا فى طرقاتها، إذ تلقفهم العسكر الحلبي حتى قتل منهم وأسر زهاء خمسمائة. واتجهت من أولئك الجند

(١) ابن واصل ص ٣٦٤.
(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٣٤ — ابو شامة ج ٢ ص ١٦١
(٣) ابن شداد ص ١٢٣.

فرقة إلى حصن بغراس، ظنا أنه لايزال بيد الداوية، فأسر المسلمون من هذه الفرقة فقط ما يزيد على مائتين، وتحركت بقية هذه الحملة بعد ذلك صوب الجنوب على طريق الساحل، فاعترضتها حاميات جبلة واللاذقية الإسلامية. ثم وصلت هذه البقية إلى طرابلس، وكان فى انتظارها هناك مونتفرات الذى جاء من المعسكر الصليبي بعكا للقائها، فأركب عساكرها فى عدد من المراكب، غرق منها ثلاثة فى طريقها إلى صور بسبب الرياح، ولذا لم يصل من هذه الحملة الألمانية إلى عكا فى ١٧ أكتوبر سنة ١١٩٠ (٦ رمضان سنة ٥٨٦) وقيل فى ٢٠ يناير سنة ١١٩١ سوى عدد يسير لا يزيد على الف مقاتل (١). على أن هذا المدد على قلته وسوء مانزل به من وعثاء الطريق، لم يلبث أن دل على شجاعة جنده، بمهاجمة تل العياضية حيث توجد خيم الزكية والحلقة الصلاحية وبعض المواصلة، فصدهم المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا. ولذا انقلب فردريك إلى مهاجمة أسوار عكا بدبابة هائلة، داخلها كبش له قرنان فى طول رمحين كالعمودين الغليظين (٢). وأقام العكاويون المجانيق قبالة هذه الدبابة، وأطلقوا على الألمان سهام الجروخ، واحجار المنجنيق وأقواس الرمى والنيران، فاحرقوا الدبابة وكبشها وقرنيها، ونهبوا مائة قنطار من الحديد يوم ١٥ اكتوبر سنة ١١٩٠ (٣).

وبعد وصول الألمان بأسبوعين إلى عكا، قدم إلى المعسكر الصلاحى أمراء شمال الشام بعساكرهم، يتقدمهم الملك الظاهر صاحب حلب، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين بن المقدم، وحسام الدين حسين بن باريك. وكان صلاح الدين قد تحول عن الخروبة إلى منزلة جديدة بشفرعم عشية الإثنين ٢٠ أكتوبر (١٩

(١) ابو شامة ج ٢ ص ١٥٦ — Barker p. 785 — Nicolas p. 128.
(٢) ابن شداد ص ٢٠٦ — العماد ص ٢٣٣ — Stevenson p. 265.
(٣) ابو شامة ج ٢ ص ١٦٤ — ابن الفرات ج ٨ تحت أحداث ٥٨٦ — Kingsford p. 323: يلاحظ أن حلقة اتصال العكاويين بصلاح الدين انقطعت وقتا ما على أثر غرق العوام عيسى فى ليلة مظلمة، وقذف به اليم على ساحل عكا ميتا غريقا، وعلى ظهره ما كان يحمل من كتب ونفقات الحامية — ابو شامة ج ٢ ص ١٦٢.

رمضان) ، لإفساح الطريق للعدو حتى يخرج إلى المروج ، ويستطيع المسلمون أن يهاجموا فى أرض أوسع . ونزل القادمون من الشمال فى منازلهم ومواضعهم ، التى كانت لهم فى الجيش الصلاحى قبل رحيلهم سابقاً .

وبينما تتخذ هذه الجيوش مواضعها فى الجيش الصلاحى ، توفى زين الدين صاحب أربل يوم ٢٩ أكتوبر بعد مرض طويل ، فأقر صلاح الدين على ولاية أربل وأعمالها مظفر الدين أخى زين الدين ، ومنحه شهرزور على أن يخدم بخمسين ألف دينار يحضرها نقداً ، وأن ينزل عن ولايته بحران والرها وسميساط للملك المظفر تقى الدين عمر صاحب حماه ، وهو ابن أخى صلاح الدين ، وأن يبقى فى منزلته بالمسكر الصلاحى حتى وصول تقى الدين ليحل فى هذه المنزلة بجنده . وأضاف صلاح الدين إلى تقى الدين فضلا عما نزل عنه مظفر الدين من أعمال جميع ما وراء الفرات من بلاد [1] ، وأساء بذلك إلى كثير من أمراء هذه الجهات . ومنذئذ أخذ أولئك الأمراء يكيدون لصلاح الدين ، وأول من فتح سلسلة هذه المكايد معز الدين سنجر شاه بن زنكى صاحب جزيرة بن عمر ، الذى طلب الإستئذان من صلاح الدين فى الرحيل بمساكره ، وصلاح الدين يعتذر إليه بقوله « ومتى فتحت هذا الباب إقتدى بك غيرك » [2] . راجياً منه البقاء . غير أن معز الدين أمر أصحابه بقلع الخيام وإلقاء قدور الطعام ، وغادر المعسكر الصلاحى فى غير دستور ، غداة يوم عيد الفطر المبارك ٢ نوفمبر (أول شعبان ٥٨٦) . وأرسل صلاح الدين وراءه نجابا يحمل مكاتبه صلاحية ، جاء فيها « قلقت هذا القلق ، وتحركت هذه الحركة ، وانصرفت عن غير طيب نفس ، وغير فصل حال مع العدو ، فانظر لنفسك ، وابصر من تنتمى إليه غيرى ، واحفظ نفسك ممن يقصدك ، فما لى إلى جانبك التفات » [3] . غير أن معز الدين سنجر شاه لم يأبه لما أحتوته مكاتبة صلاح الدين من وعيد وتهديد ، وسار لا يلوى على شىء حتى لقيه المظفر تقى الدين عمر ، وهو عائد من الشمال إلى عكا ، وفهم انفصاله من غير إذن عمه ، وقيل أن صلاح الدين كتب إلى تقى الدين يطلب إليه اقناع معز

(١) ابو شامة حـ ٢ ص ١٦٤ .
(٢) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٣٩ .
(٣) ابن شداد ص ١٣٠ .

الدين بضرورة العودة إلى المعسكر الصلاحى ، فاقتنع ، وصفح عنه صلاح الدين وأنزله فى حماية تقى الدين وبجواره . وحذا عماد الدين زنكى صاحب سنجار حذو ابن أخيه معز الدين السابق الذكر ، فى طلب الدستور والعودة إلى بلاده ، وألح فى طلبه وصلاح الدين يعتذر إليه حتى رضى بالبقاء على مضض [1] .

وبينما هذه الحوادث الداخلية تجرى فى معسكر صلاح الدين عند شفرعم ، كان الصليبيون يعدون العدة لمهاجمة المسلمين فى منزلتهم الجديدة ، ثم لم يلبثوا أن خرجوا من معسكرهم يوم الإثنين ١١ نوفمبر (١٠ شوال) ، وباتوا ليلتهم الأولى على مقربة فى آبار حفرها المسلمون قبلا على تل العياضية . وكان صلاح الدين أمر بتركه حوالى ذلك الوقت بالتراجع من العياضية إلى كيسان ، وأصبح العدو يوم الثلاثاء مجداً فى السير لملاقاة المسلمين ، الذين رتبهم صلاح الدين ميمنة وميسرة وقلباً ، وسار بهم حتى وقف على تل الخروبة ، فبلغت آخر خيمته آخر التل ، وبلغت آخر ميسرته مصب نهر أنا من بقرب البحر . وأنزل صلاح الدين على جانبى الحلقة الصلاحية ولده الأفضل صاحب دمشق ، وولده الظاهر صاحب حلب ، وولده الظافر صاحب بصرى ، وعلاء الدين ابن عز الدين صاحب الموصل ، وعز الدين جرديك النورى فى القلب . ووقف العادل ويليه حسام الدين بن لاجين بن أخت صلاح الدين ، ثم صارم الدين قايماز النجمى ، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس ، ومعه بدر الدين دلدرم الياروقى فى الميمنة . ووقف على الميسرة عماد الدين زنكى صاحب سنجار ، وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة ، وتقى الدين عمر صاحب حماه فى طرفها ، ويليه سيف الدين بن المشطوب وخشترين ، والأمراء الهكارية والمهرانية والحميدية والزرزارية ، وأمراء القبائل الكردية [2] .

وعندما اقترب الصليبيون ، أمر صلاح الدين الميسرة أن تستدير بهم حيث يقع آخرها على البحر ، وأن تستدير الميمنة بالنهر من الجانب الشرقى ، وأن يمضى الجاليش فى الرمى بالنشاب . وهدف صلاح الدين من ذلك أن يقطع صلة الصليبيين بخيامهم المضروبة حول عكا . وبات الصليبيون ليلتهم على هذا الحال ،

(١) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٣٩ .
(٢) ابن واصل ص ٣٧٠ — ابن الأثير حـ ١٢ ص ٣٤ — العماد ص ٢٢٥ .

وأحسوا صياح الأرماء بتوطهم وضعفهم مراكزهم ، فركبوا عائدين والنهر عن يمينهم والبحر عن يسارهم ، وصلاح الدين واقف على رأس تل الخروبة ، يشهد علمهم مرفوعا على عجلة ، تسحبها البغال ولونه ابيض ، وفي وسطه علامة الصليب الحمراء ، وهم يتقهقرون . ومازال الصليبيون في تقهقرهم حتى نزلوا ليلة الخميس على جسر داعوق ، وقطعوه لمنع عبور المسلمين إليه ، وأبلى فرسان الجاليش والحلقة الصلاحية بلاء مشكورا في هذه المعركة ، وجرح منهم أياز الطويل وسيف الدين يازكوج . وانفصلت الحرب ، وعاد صلاح الدين متعبا لما به من غم ومرض بالحمى الصفراوية[1] .

وفي يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر أكمن صلاح الدين عدة مختارة من عساكره في سفح تل كيسان شمالي عكا ، بعيداً عن المعسكر الصليبي ، فباتوا ليلتهم ، ثم سار جماعة منهم في الصباح نحو المعسكر الصليبي ، فخرج اليهم العدو في أربعمائة فارس وقيل مائتان ، عند ذلك أخذ المسلمون في التقهقر ، والصليبيون في أثرهم حتى وصلوا إلى الكمين الإسلامي ، فخرج الكمناء يقتلون ويأسرون ، ولم يفلت منهم أحد ، وجيء بالأسرى إلى صلاح الدين ، فأطعمهم وكساهم ، ونقلهم إلى معتقل دمشق[2] .

ثم توقفت العمليات الحربية بعد ذلك التاريخ ، بسبب هطول الأمطار وحلول فصل الشتاء بزمهريره ووحله ، فارتبكت لذلك الأحوال بالمعسكرين الإسلامي والصليبي ارتباكا واضحاً ، وتوفي حوالي ذلك الوقت فردريك سوابيا بن بربروس . وقضى الصليبيون شتاء ٩٠ — ١١٩١ في ضنك ، بسبب شدة الغلاء ، وقلة الاقوات إذ بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري ، والبيضة الواحدة بستة دنانير ، وامعاء الحصان بعشرة ، وحمل الجوع كثيرا من نبلاء الصليبيين على أكل الحشائش والنباتات ، بل طاف كثير منهم حول معسكرات المسلمين بحثاً وراء الطعام ، واستأمن جماعة أخرجهم الجوع إلى صفوف المسلمين ، فأسلم بعضهم

(١) ابو شامة حـ ٢ ص ١٧٩ — ابن واصل ص ٣٠٧ — ابن شداد ص ١٣٢ — فريد أبو حديد ص ١٦٥ — ٦٦ .

(٢) ابن خلدون حـ ٥ ص ٣٢٣ — ابن واصل ص ٢ ٣٠٧ — Lane-poole: Saladin p. 276

وحسن إسلامه ، وخدم البعض الآخر فوافق استخدامه ، وركب آخرون سفن المسلمين ، وعادوا ظافرين بمراكب تجارية صليبية ، فمنحهم صلاح الدين جميع ما غنموه فيها[1] . وانتهز أمراء صلاح الدين الاقطاعيين فرصة المجاعة بالمعسكر الصليبي ، فحملوا الطعام والغلال من بلادهم لبيعها بأثمان مرتفعة ، وممن أولئك ، الأميران عز الدين أسامة صاحب بيروت ، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب نائب صيدا . ولولا مسلك أولئك الأمراء لهلك الصليبيون جوعا ، على قول ابن الأثير[2] ؛ خصوصاً في الشتاء عندما انقطعت عنهم مراكبهم لهياج البحر[3] .

ولم يكن المعسكر الصلاحي خلوا من متاعبه الخاصة ، إذ ألحف الأمراء الاقطاعيون في طلب الدستور للعودة إلى أوطانهم للراحة والاستجمام على قولهم ، وبعض الحقيقة على الأقل غير ذلك[4] . وأذن لهم صلاح الدين في الانصراف على أن يعودوا في الربيع ، فرحل عماد الدين زنكي صاحب سنجار في منتصف نوفمبر ، وتلاه ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، ولحق بهما علاء الدين بن صاحب الموصل في نهاية الشهر ، وأفاض صلاح الدين عليهم جميعاً الكثير من التشريف والأنعام والتحف . وفي نهاية يناير سنة ١١٩١ رحل كذلك الملك الظاهر بعساكره إلى حلب ، ولحق به في مارس (صفر ٥٨٧) تقي الدين عمر لتسلم البلاد التي أضيفت إليه شرق الفرات ، وهي ديار بكر وحران والرها والموزر وسميساط وضياعها ، وميافارقين وحصونها وقلاعها ، أو بعبارة أخرى ليكون فيما يبدو على مقربة من بلاد الأمراء الراحلين ، وليرى بنفسه ما سوف يكون في موقفهم العام حيال الدولة الأيوبية ، ولا سيما بعد أن بلغ عدد الأمراء الراحلين

(١) ابو شامة حـ ٢ ص ١٨١ — Archer: The Crusades of rich. p. 18 — Michaud V II P 109-IV p157—Campbell P 293

(٢) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٣٥ .

(٣) ابن خلدون حـ ٥ ص ٣٢٣ — بن الحنبلي شفاء القلوب ص ٤٦ — العماد ص ٢٤٧ — Kingsford P 324

(٤) انظر ما سبق ص ٢٤٣

عشرين (١) . وكيفما كان الأمر لم يكن من السهل ولا من الهين على صلاح الدين، إبقاء هذه الجيوش المختلفة الأجناس والعادات فى حالة حرب أمام القلاع والحصون أعواما متصلة، على غير مألوفها من الحرب والغنيمة السريعة ثم العودة السريعة إلى أهلها ، ولم يكن هناك من نظم بريدية ما يهون على الأمراء طول البقاء ، لأن نصيب الأجناد من نظام البريد يكاد يكون معدوماً فى تلك العصور ، لاقتصاره على الأغراض الحكومية (٢) .

أما الحامية المحصورة بداخل عكا، ويبلغ عددها زهاء عشرين ألف رجل ، من أمير ومقدم وجندى وأسطولى وبحرى ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال ، فلم تكن أقل قلقاً من الجيوش التى أذن لها صلاح الدين فى الرحيل من معسكره إلى بلادها ، وأشير على صلاح الدين أن يستبدل بهذه الحامية غيرها ، وعهد إلى العادل بالإنتقال إلى حيفا ، للاشراف على جمع السفن اللازمة لإتمام عملية إدخال حامية جديدة إلى عكا وإخراج الحاميه القديمة منها (٣) . ودخل الأمير سيف الدين المشطوب على رأس البدل الداخل عكا يوم ١٤ فبراير سنة ١١٩١ (١٦ محرم ٥٨٧) . غير أن هذا البدل لم يكن سوى عشرين مقدما وأميرا عوضا عن ستين أميراً ، خرجوا مع مقدمهم الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، ثم إنه لم يبق من الحاميه القديمة سوى الأمير بهاء الدين قراقوش .

ومما يدعو إلى الإلتفات هنا ، أن صلاح الدين لم يعمد إلى تجنيد المصريين لسد النقص الذى حدث بجيوشه ، بسبب رحيل الراحلين إلى بلادهم ، وبسبب تردد الذين جندهم للاندماج فى الحامية الجديدة بعكا (٤) . والواقع أن صلاح الدين حرم المصريين من التجنيد ، ولم يمكنهم من الجهاد بالقدر الذى سمح به لغيرهم ، بل لم يكن التطوع ميسوراً للمصريين كل اليسر ، لأن بلادهم فى حكم المفتوحة بالسيف

(١) ابو شامة حـ ٢ ص ١٨٣ ، العماد ص ٢٤٦ — Stevenson p. 266—Lane-Poole-Saladin, P277

(٢) راجع خاتمة رسالة نظام البريد للدولة الاسلامية للمؤلف طبعة ١٩٥٣ .

(٣) العماد ص ٢٤٧ .

(٤) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٣٦ — Stevenson P 266 .

وقد أقطعها صلاح الدين لأهله وأمرائه ، ورضى المصريون كرهاً أو طوعا بالفلاحة والإلتصاق بالأرض (١) . ولم يكن صلاح الدين حراً فى إبعاد المصريين عن التجنيد ، لأن المصر لا يعرف جيشاً قوميا أو تدريبا لأبناء الأمه على حمل السلاح ، ولو أنه قرر تجنيد المصريين كما فعل محمد على الكبير ، لوفر على نفسه الجهد المميت الذى بذله فى تأليف جيوش مختلفة الأجناس والعادات والأساليب على النحو الواضح فى مواطن كثيرة من هذا البحث .

ومهما يكن من شىء ، فالمعروف أن صلاح الدين لم يكن مطمئنا إلى جميع ماحدث فى جيشه من التغييرات والتعديلات داخل عكا وخارجها ، بدليل ما كتب إليه القاضى الفاضل من القاهرة (٢) . بشأن ضجر الأمراء من طول الإقامة للجهاد ، وخفف القاضى الفاضل على صلاح الدين أمر هذا الضجر الطبيعى ، ودعاه إلى المثابرة والإعتماد على أموال مصر التى جعلها الله له عوضاً عنه ، وسهل له منها «مالا من غير جهة ، وحمى منها بلاداً بغير جند ، وسكن فيها رعية بغير ولاة (٣) » . ووصف القاضى الفاضل اختلاف أمراء صلاح الدين فى الرأى بقوله «والمشورات تتنوع بمجلسك ، فقائل لم لا نتباعد عن هذه المنزلة ، وآخر لم لا نميل إلى المصالحة ، ومقسم على فائت ما كان فيه حظ ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد ، ومشير بالتخلى عن عكا (٤) » . ونصح القاضى الفاضل صلاح الدين بسعة الصدر ، بل رأى أخيراً أن يكون إلى جواره ناصحاً ومشيراً ، فغادر القاهرة إلى عكا فوصلها فى يناير ١١٩١ (ذى الحجة ٥٨٦) .

وكتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسى بخط القاضى الفاضل ، يشرح له أحوال المسلمين والصليبيين حول عكا ، فأشار كذلك إلى ضجر أصحابه الأمراء وأن « المدة الطويلة والكلف الثقيلة ، قد أثرت فى استطاعتهم لا فى طاعتهم ، وفى

(١) انظر الخطط المقريزية حـ ١ ص ١٣٨ .

(٢) سبقت الإشارة (الفصل الخامس ص ٢١٢) إلى سفر القاضى الفاضل الى مصر سنة ١١٨٩ بصحبة الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ليرتب أموره المدنية والعسكرية بها .

(٣) ابو شامة حـ ٢ ص ١٦٥ .

(٤) ابو شامة حـ ٢ ص ١٧٠ .

أحوالهم لا فى شجاعتهم ، فالبرك[٣] قد أمضوه ، والسلاح قد أحفوه ، والدرهم قد أفنوه» . أما الصليبيون فعلى العكس من ذلك ، لأن البحر « يمدهم بمراكب أكثر عدة من أمواجه . . . فإذا قتل المسلمون واحدا فى البر بعث البحر عوضه ألفا ، وإذا ذهب بالقتل صنف منهم ، أخلف بدله صنفا[٤] » . وأهمية هذا الخطاب فى التاريخ الحربى ، أنه يشرح إحساس صلاح الدين بأهميـــة القوة البحرية فى الحروب ، وأنه يدل على أن تفوق الصليبيين فى البحر مكنهم من الانتصار ، رغم ما لحق بهم من خسائر مادية ومعنوية فى المعارك البرية المكشوفة . ولذا اتجه صلاح الدين إلى المنصور أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، سلطان المغرب للإستعانة به فى سد هـذا النقص ، وأسفر إليه شمس الدولة ابن منقذ ، وهو عم أسامة بن منقذ الفارس المعروف ، برسالة ذكر فيها أدوار جهاده مع الصليبيين ، وأخذه بيت المقدس والمدن الساحلية ، وأن أوربا المسيحية تألبت عليه براً وبحرا حول عكا حتى اشتد عليه الخطب ، وكان المتوقع أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين ، ولكن لقيناهم بأصدق منا عزمه ، والقليل مع العزم الصادق كثير[١] » . ولم يخاطب صلاح الدين ابن عبد المؤمن بأمير المؤمنين فى هذا الكتاب . وأقلع شمس الدين من الاسكندرية فى شينى به مائة وعشرون من الحاشية والبحارة يوم ١٥ أكتوبر سنة ١١٩٠ (١٣ رمضان ٥٨٦) ، واستقبله ابن عبد المؤمن بمراكش يوم ١٨ يناير سنة ١١٩١ (ذى الحجة ٥٨٦) أحسن استقبال[٢] ، غير أنه

(١) ابو شامة حـ ٢ ص ١٧٢ — وانظر Nicolas op, cit p. 130

(٢) ذكر صاحب نفح الطيب (حـ ٤ ص ٧٣) وصاحب الأحكام الملوكية (ص ٤٢٣) تاريخ تلك السفرة سنة ٥٨٥ هـ .

(٣) البرك المتاع الخاص من ثياب وقماش — راجع حاشية رقم ٦ حـ ١ ص ١٣٤ من السلوك .

(٤) القلقشندى حـ ٧ ص ١٢٨ .

غضب فى قرارة نفسه ، لخلو كتاب صلاح الدين من وصفه بأمير المؤمنين[١] .

تلك أحوال الصليبيين والمسلمين خلال شتاء ١١٩٠ — ١١٩١ . فلما أقبل الربيع وفدت الامدادات والعساكر على صلاح الدين ، وأول من قدم من العساكر الإسلامية ، الأمير علم الدين سليمان بن جندر صاحب قلعتى عزاز وبغراس فى ابريل سنة ١١٩١ (١٢ ربيع أول ٥٨٧) ، ثم الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك بمماليكه الترك ، وقدم بعدهما فى نفس الشهر بدر الدين مودود والى دمشق[٢] .

أما الصليبيون فكانوا فى انتظار وصول فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد ملك انجلترا ، اللذين تقابلا فى Vezelay بفرنسا فى يوليو سنة ١١٩٠ ومنها تحركت أساطيلهما فى مائتى سفينة ، معظمها للدانيين والبيازنة ، ونزلا جزيرة صقلية فى سبتمبر حيث قضيا الشتاء التالى بها ، فى انتظار هبوب الرياح العكسية إلى الشرق . ثم غادر فيليب صقليه إلى عـكا ، فوصلها فى ٢٠ ابريل فى ست بطس ، واستقبله الصليبيون استقبالا كبيرا ، وأشعلوا له النيران والمشاعل ترحيباً بقدمه[٣] . أما ريتشارد فعرج على جزيرة قبرص ، لأن بعض سفنه ألقت بها الرياح إليها ، ولم يجد ريتشارد من ملكها اسحاق كومنين ترحيباً أو استعداداً للمعونة ، فانقلب ريتشارد إلى فكرة الإستيلاء على الجزيرة ، ليجعل منها قاعدة لعملياته ، واستعان ريتشارد بالصليبيين الشرقيين المجتمعين حول عكا ، ووصلته نجدة منهم بقيادة الملك جى ، وقيل بقيادة أخيه جفرى والبارون همفرى صاحب تورون ومعهما مائة وستين فارسا ، واستطاع ريتشارد بفضل هذه النجدة أن يهزم الملك اسحاق ، ويقبض عليه ويرسله مكبلا

(١) راجع مقدمة بن خلدون ص ٢١٣ — ذيل الروضتين ص ٩٥ — نبذ من مؤلفات أسامة ص ١٠٢ — شفاء القلوب ص ٤٦ — Grousset V III p 32 — ابن منقذ ص ٣ نشر فيليب حتى — مع ملاحظة أن بن منكلى ص ١٢٣ أشار إلى مخاطبة صلاح الدين لابن عبد المؤمن بامير المؤمنين ؛ ويلاحظ أيضا أن كلا من العماد وابن شداد لم يتعرض إلى هذه السفارة المنقذية على حين نقل ابوشامة الرسالة عن بعض الثقاة ، وذكر أنها لم تكن بخط القاضى الفاضل أو موافقته (أبوشامة جـ ٢ ص ١٧٠ — ١٧٤)

(٢) العماد ص ٢٥٨ .

(٣) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٤١ — حقائق الأخبار حـ ٣ ص ٨٧ — فريد أبو حديد ص ١٥٦ — Encyclop. Brit : Sicily Vxx p, 611 - Campbellp. 301

فى القيود إلى فلسطين ، وهكذا إحتل ريتشارد جزيرة قبرص فى يونيو سنة ١١٩١ (١)

ثم وصلت مقدمات الأسطول الإنجليزى مياه بيروت فى مايو سنة ١١٩١ بسبب اتجاه الرياح ، فاعترضها الأمير عز الدين اسامة متولى بيروت ، واستولى على خمسة مراكب مملوءة رجالا ونساء وأموالا ، وطراده بها أربعون رأسا من الخيل . وكان صلاح الدين حين علم بقرب وصول ريتشارد إلى عكا ، قد أرسل إلى بيروت بإعداد بطسة كبيرة مملوءة بالرجال والآلات ، لتقوية حامية عكا استعداداً لمنع ريتشارد من النزول إلى البر . وخرجت السفينة إلى عرض البحر قاصدة عكا ، فاعترضها ريتشارد مصادفة ، تحمل علما فرنسيا للتضليل يوم ٧ يونيو (جمادى الأولى) وذلك بعد أن أفلت هو من سفن الأمير عز الدين . ولم تجد السفينة مخرجا من مأزقها ، فقاتلت حتى يئس مقدمها يعقوب الحلبى من الخلاص والأفلات ، ونزل إلى اسفلها وخرقها خرقا واسعاً حتى لا يظفر الإنجليز بها فغرق جميع ما فيها (٢) . وقيل إن السفينة كانت تحمل مجموعة من الثعابين والافاعى ليطلقها المسلمون بالمسكر الصليبي بعكا (٣) .

ثم وصل ريتشارد عكا يوم السبت ٨ يونيو (١٧ جمادى الأولى) فى أسطول مكون من خمس وعشرين قطعة كبيرة ، منها ثلاثة مملوءة حجرا بركانيا أسود ، أحضره من مسينا خصيصا ليستعمله فى حرب المنجنيق (٤) . وضاق المسلمون ذرعا بقدومه ، أما الصليبيون فاستقبلوا ريتشارد استقبالا حاراً ، وباتوا ليلتهم

(١) Davis : England. p. 296 — 298 Nicolas : op: cit : p. 128 — Encyclop. brit : Cyprus p. 701 Grousset : op. cit : V III p. 47 — Rec. Hist. occ. V. II p. 163

(٢) ابن الأثير ح ١٢ ص ٤٢ — ابن واصل ص ٣٧٦ — ٣٧٠ — Rec. Hist Kingsford : op. cit. p. 365occ. V. II p. 169

(٣) Grousset : op. cit V. III p. 30 — Michaud : op. cit : V II P 122 — Campbell : op. cii. p. 394

(٤) ابن الأثير ح ١٢ ص ٤٢ — Hitti : op. cit : p. 650 — Archer : op. cit p. 82 Kingsford, op cit p. 351

يرقصون رقصة الظافرين ويشعلون النيران العظيمة ، وأنساهم مقدمه ما أنزله بهم صلاح الدين من خسائر سابقة (١) .

وقبل وصول الملكين ريتشارد وفيليب ، زحف الصليبيون نحوا سوار عكا بسبعة مجانيق ابتغاء اقتحامها وتصفية حاميتها ، ولم يكد هذا الخبر يصل إلى صلاح الدين حتى أمر عسكره بالرحيل من منزله شفرعم إلى تل العياضية ، وتمت عملية الإنتقال فى سرعة ، ليكون المعسكر الصلاحى على مقربة لنجدة الحامية الإسلامية بأى ثمن . وكان الصليبيون قد عملوا على طم الخندق المحيط باسوار عكا مرة أخرى ، واستخدموا لذلك جثث وجيف الخنازير والدواب . أما الحامية الإسلامية فانقسمت أقساما ، قسم ينزل إلى الخندق ويقطع الموتى والدواب الملقاه فيه قطعا يسهل نقلها ، وقسم ينقلها ويلقى بها فى البحر ، وقسم يدافع عن الأسوار ، وقسم للمنجنيقات وحراسة الأسوار . وكلما ازداد العدو فى قتال تلك الأقسام إزداد صلاح الدين فى الهجوم على المعسكر الصليبي ، وكانت العلامة بينه وبين الحامية أنه متى زحف الصليبيون عليهم ، دقوا كؤوسهم حربيا فتدق كؤس صلاح الدين إجابة لهم (٢) . ولم يخفف عن الحامية سوى إحراق دبابة عظيمة هائلة يوم ١٠ يونية ، وكانت هذه الدبابة ذات أربع طبقات من الخشب والرصاص والحديد والنحاس على التوالى ، الصقها العدو بمن فيها إلى سور البلد ، ثم استبدل الصليبيون الدبابة بأقامة حائط من التراب لم يكن للمسلمين فيه حيلة ، فعظمت مصيبتهم بسببه (٣) . ولاعجب هنا أن يشير صلاح الدين فى كتابه إلى بغداد عن أساليب الصليبين المتنوعة فى القتال ومكائدهم التى فتت فى معنوية المسلمين ، ونص ماقاله صلاح الدين « إنهم قاتلوا مرة بالأبرجه ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفه بالدبابات ، وتابعه بالكباش ، وآونه باللوالب ، ويوما بالنقب ، وليلا بالسرايات وطورا بطم الخنادق ، وآنا بنصب السلالم ، ودفعه بالزحوف فى الليل والنهار ،

(١) ابن شداد ص ٤٨ — Bercovici : op cit p. 253

(٢) ابو شامة ح ٢ ص ١٨٤ .

(٣) ابن الأثير ح ١٢ ص ٤٢ — Stevenson p 266

وحالة فى البحر بالمراكب . ثم شرعوا . فاقاموا فى وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة ، مدورة ، ورفعوها بالأخشاب وعالوها بالحجارة[١] » .

أما الملكان ريتشارد وفيلب ، فأخذ كل منهما يعد عدته للاشتراك فى حصار عكا ، وأقام فيلب منجنيقه الذى عرفته المراجع الأوربيــة باسم الجار السيء Malevoisine ، فعطلت الحامية الإسلامية حركاته بمنجنيق مشابه له عرف باسم القريب السيء Malecousine . أما رتشارد فأقام برجا خشبياً كبيراً أمام بوابة عكا ، سمته المراجع Matteegriffin وكان رتشارد أعد أجزاء هذا البرج فى مسينا[٢] .

وقبل أن يظهر أثر هذه الآلات الجديدة تجددت الأحقاد القديمة بين الملك جى والأمير كنراد عقب وفاة الأميره سيبل زوج الملك جى ، ومطالبة كنراد وهو زوج شقيقتها الصغرى إزابلا بالعرش : واحتدم الخلاف بين الرجلين ، وأيد ريتشارد جى لأنه من اتباعه الإقطاعيين ، على حين أيد فيلب كنراد لنفس السبب[٣] .

ورحل كنراد على الفور إلى صور ، ولم يعد الا بعد أن اتفق الملكان على بقاء جى ملكا طول حياته ، على أن يخلفه كنراد . وأصيب ريتشارد بعد رحيل كنراد بحمى ، انتشرت آنذاك فى المعسكر الصليبى ومرض بعده بقليل فيلب ، وتعطلت الأعمال الحربيه الصليبية بسبب ذلك تماماً[٤] . على أن صلاح الدين أرسل الى ريتشارد أطباء وفاكهة وثلجاً عندما اشتدت عليه وطأة المرض ، وقلق صلاح الدين بحق على غريمه قلقا بينا[٥] .

وخلال مرض الملكين وتعطيل الأعمال الحربيه الصليبية ، وصلت أمداد أخرى الى صلاح الدين . فى ٢٥ يونيو وصل عسكر سنجار ومقدمها الأمير مجاهد

(١) ابو شامة ج ٢ ص ١٨٠ .
(٢) Kingsford p 351 — Campbell p 300 — Brehier p 130
(٣) راجع التفاصيل فى Nicolas p 130—131
(٤) Archer p 87 — Barker p 735 — Kingord p 324
(٥) Bercovici p. 262

الدين برتقش ، فأنزله صلاح الدين تجاه العدو من جانب البحر . وفى يوم ٢٧ من هذا الشهر وصل جماعة من الأمراء بعساكرهم المصرية . . منهم علم الدين كورجى وسيف الدين سنقر الدووى ، فانزلهم صلاح الدين فى القلب . وفى عصر اليوم نفسه وصل علاء الدين بن صاحب الموصل بعساكره ، فأنزله صلاح الدين على ميمنته وفى اليوم التالى وصلت كتيبة مصرية أخرى[١] . فأضافها صلاح الدين للقلب كذلك . على أن صلاح الدين لم يشأ أن يهاجم المعسكر الصليبى وقادته فى فراش المرض ، ولذا اقتصرت الحرب على أعمال فردية ، مثل تسلل بعض المسلمين الى المعسكر الصليبى فى ظلام الليل ، وعودتهم ببعض الصليبيين أسرى الى المعسكر الإسلامى . والواقع أن المعسكريين من الطائفتين كثيراً ما نسوا ما بينهم من عداوة مرة وقتال حار ، فأنس البعض إلى البعض ، وأقاموا حفلات الرقص والغناء والألعاب الحربيــة خارج خيامهم ، وربما رقص المسلمون على نغمات المغنيين الصليبيين ، أو رقص الصليبيون على نغمات العرب الموسقية ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة[٢] . وسئم الكبار يوما القتال فدعى الصغار ليكون لهم فيه نصيب ، وتبارز صبيان مسلم وصليبي ، وكانت الغلبة للمسلم فأسر غريمه ، وافتداه الصليبيون بدينارين[٣] .

ثم عرض ريتشارد بعد شفائه من مرضه على صلاح الدين أن يقابله شخصياً ليفاوضه فى الصلح ، مقلداً فى ذلك فردريك بربروس عندما حاول قبل وصوله إلى الشام أن يصل الى تسوية ما بين المسلمين والصليبيين بالطرق الدبلوماسية ، فاعتذر صلاح الدين للرسول بقوله « أن الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الحرب بعد الإجتماع والمواكلة[٤] » . ذلك أن صلاح الدين أحس أن غرض

(١) العماد ص ١٧١ — ابو شامة ج ٢ ص ١٨٦ .
(٢) Michaud V II p. 123 — ابن شداد ص ١٥٣ .
(٣) ابو شامة ج ٢ ص ١٤٣ .
(٤) ابن شداد ص ١٥١ .

ريتشارد هو « تفتير العزمات ، وتضييع الأوقات على المسلمين[١] » . لا الصلح والقسوية السلمية .

ويبدو أن رفض المفاوضة ، جعل ريتشارد يجمع أمره على الحرب بجميع ما لديه ولدى سائر الصليبين من قوة ، إذ هاجم الحامية الإسلامية المحصورة بعكا هجوما عنيفا يومى ٢ ، ٣ يوليو . وهددت الحامية صلاح الدين بالتسليم إذا لم ينجدها ، بل أسفرت مقدمها سيف الدين المشطوب إلى الملك فيليب لطلب الأمان والتسليم ، غير أن فيليب لم يجب المشطوب إلى طلبه ، بحجة أن البلد بمن فيها وما فيها له ، دون حاجة إلى التسليم[٢] فرد عليه المشطوب رداً جافيا ، وعاد الى صحبه فاخبرهم بنتيجة مفاوضاته ، وتسرب اليأس إلى كثير من أمراء الحامية ، ومنهم عز الدين أرسل ، وحسام الدين تمرتاش بن جاولى ، وسنقر الوشاق وثلاثتهم من الأمراء الأسدية ، وعبد القادر الحلبي نقيب الجاندرية الناصرية ، فاستقلوا مركبا صغيرا وفروا فيه بأنفسهم ليلا من عكا[٣] . أما العكاويون فازدادوا خوفا على خوف ، وألقى بعضهم بنفسه من شرفات الحصن ، وهرب البعض الآخر إلى معسكر العدو ملتمسا اعتناق المسيحية[٤] ، وبذا تحقق صلاح الدين من ضياع عكا ، واستقر الرأى على جلاء حاميتها الإسلامية سرا ، تحت ستار الظلام من ناحية البحر ، وأرسل عواما ليخبر الحامية بذلك . غير أن اثنين من الغلمان الهاربين من حامية عكا خرجا الى العدو وأخبراه بهذا السر ، ففشلت محاولات صلاح الدين فى اجلاء حامية عكا سالمة .

وفى صباح الجمعه ٥ يوليو ، تفاوض أرناط صاحب صيدا مع نجيب الدين العدل مندوب صلاح الدين دون الوصول إلى قاعدة أساسية[٥] . ووصل صلاح الدين يوم ٧ يوليو (١٢ جمادى الآخره) كتاب من العكاويين ، جاء فيه « انا قد تبايعنا على الموت ، فاياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له ، فأما نحن فقد فات أمرنا » .

---

(١) ابو شامة ح ٢ ص ١٨٦ .

(٢) العماد ص ٢٧٧ — Rec. Hist. Occ. V II p 172

(٣) ابن الأثير ح ١٢ ص ٤٣ — ابن خلدون ح ٥ ص ٣٣٥ .

(٤) العماد ص ٢٠٨ — Lane Poole- Salapin p 290 - 297

(٥) Stevenson p 299

فشحذ هذا الخطاب عزم صلاح الدين ، وأعاد تنظيم صفوفه بعدد جديد من العساكر جاءه على غير انتظار ، اذ وصل الأمير سابق الدين عثمان صاحب شيرز بعساكره يوم ٩ يوليو ، والامير بدر الدين أيوب بن كنان يوم ١٠ منه ومعه عدد كبير من التركمان المرتزقة ، والأمير أسد الدين شيركوه فى يوم ١١ يوليو (١٦ جمادى الآخره[١]) وبذا تهيأت الفرصة لصلاح الدين ماديا ومعنويا لمنازلة الصليبيين بعد ما أصابه من وهن وضعف : غير أن الامير بهاء الدين قراقوش كبير أمراء حامية عكا خرج الى خيمة الملك فيليب ، واتفق معه بحضور ريتشارد وجميع البارونات على قاعدة تسليم المدينة ، مع دفع فدية مالية مبلغها مائتى الف دينار ، وخمسمائة أسير صليبى مجاهيل الاحوال ، ومائة أسير معينين ، وصليب الصلبوت وأربعة عشر الف دينار لكنراد ، على أن يخرج أهل عكا سالمين بأموالهم وعائلاتهم وممتلكاتهم الخاصة[٢] .

وجمع صلاح الدين المشور لتقليب الرأى فى هذه الشروط وانكرها ، ولكنه فوجىء ظهر يوم الجمعه ١٢ يوليو سنة ١١٩١ (١٧ جمادى الآخره سنة ٥٨٧) بارتفاع أعلام الصليبيين على أسوار عكا[٣] . اذ دخل كنراد البلد ونصب أربعة أعلام لملوك أوربا ، أولها على القلعة ، وثانيها على مئذنه الجامع ، وثالثها على برج الداوية ، ورابعها على برج القتال . فحزن صلاح الدين حزنا بالغا ، لأنه لم يخسر معركة ما منذ أربعة عشر عاما بعد هزيمة الرملة ، ولأن جيشه لايزال سليما عددا وعدة ، ولأن عكا حوت جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب[٤] . عدا ما بها من مصانع السلاح وحواصل الغلال والتموين . نسب صلاح الدين الهزيمة بعد قضاء الله وقدره الى ابن أخيه تقى الدين عمر ، الذى تركه فى أحلك أيامه الى اقطاعاته بالجزيرة على أن يعود مسرعاً إلى المعسكر الصلاحى ،

---

(١) ابو شامة ح ٢ ص ١٨٨ — العماد ص ٢٠٨ — Lane Poole : Saladin p 295 - 297

(٢) ابو شامة ح ٢ ص ١٨٨ — ابن شداد ص ١٦١ — King : p. 147 Rec. Hist. Occ. V II p. 173 — وذكر العماد (ص ٢٨٢) أن الخارجين لخيمة فيليب هما سيف الدين المشطوب وحسام الدين بن باريك .

(٣) Michaud V II p. 120 - Lamb : The Flame p 156

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٢٦١ .

فاشتغل بإخضاع خلاط الثائرة عليه ، وأثار فى ديار بكر الاختلال والاختلاط[١] ودخل الصليبيون مدينة عكا واقتسم الملكان ما تحتويه من الأسرى والأطعمة والاسلحة والقصور[٢] .

أما صلاح الدين فانتقل صباح ١٣ يوليو الى منزلة شفرعم Shafraamm ، وهناك قدم عليه أقوش حاجب الأمير بهاء الدين قراقوش ومعه ثلاثة رسل من الصليبيين ، ليرتبوا معه وسائل تنفيذ شرط معاهدة التسليم ، وباتوا ليلتهم بمعسكر صلاح الدين ، وساروا الى دمشق لمشاهدة أسراهم ، وظل السفراء يتنقلون بين المعسكرين الأسلامى والصليبى ، يكتبون الملاحظات والقوائم الكاملة بأسماء الأسرى ، ويمهدون الطريق لوضع قواعد لمعاهدة سلام دائم بين الطرفين . واستمر الحال كذلك نحواً من شهر ، والجيشان يواجهان بعضهما فى حاله عدائية قلقة[٣] .

أحتدم الخلاف بين فيلب وريتشارد لأسباب ليس فى الإمكان هنا الخوض فى تفاصيلها ، ومنها الأطماع الشخصية ، والمنازعات القومية التى انتقلت مع الإنجليز والفرنسيين الى الشرق[٤] وموقف كل من الملكين من لقب ملك مملكة بيت القدس ، الذى أصبح منذئذ لقبا رمزياً يحمله ملوك الصليبيين وهم بعيدون عن مدينة بيت القدس ، وكان من رأى فيلب أن يكون حامل هذا اللقب كنراد ، على حين رأى ريتشارد أن جى أحق به من كنراد[٥] . ومهما كان من أمر النزاع بينهما ، غادر فيلب عكا الى صور نهاية يوليو (٩ رجب) ، ومنها الى فرنسا ماراً بروما ؛ تاركا الجزء الأكبر من جيشه بقيادة دوق برغنديا ليواصل عمله بالشرق ، ونزل فيلب عن نصيبه من أسرى المسلمين الى كنراد ، ثم نزل كنراد عن أولئك الأسرى بدوره الى دوق برغنديا ، بسبب رحيله هو الآخر الى صور فى أول أغسطس

(١) العماد ص ٢٨٢

(٢) Kingsford p 426

(٣) ابن شداد ص ١٦٢ ، ١٦٣ — Lane Poole- Saladin p 301 - 303

(٤) Kingsford p 516 - 319

(٥) Nicolas p 133- ibid p 330

بعد أن يئس من تأييد ريتشارد له فى حقوقه لتاج مملكة القدس . ومن ثم بدأ كنراد يرعى مصالحه فى صور ، ويفاوض صلاح الدين منفردا لحسابه الخاص[١] .

وفاوض ريتشارد صلاح الدين مفاوضة منفردة كذلك ، وقاعدتها أن يكون دفع الفدية المالية المقررة على أقساط ثلاثة ، يدفع كل منها أول كل شهر ، ويكون استحقاق القسط الأول فى نهاية يوليو . وحضر مندوبو ريتشارد يوم ١١ أغسطس (١٨ رجب) لاستلام القسط الأول ، فطلب صلاح الدين منهم إعطاءه أسرى عكا مقابل القسط الأول ، على أن يعطيهم رهائن مقابل القسطين الأخيرين ، فأبى المندوبون وتشكك كل فريق فى نية الآخر . وأحضر صلاح الدين مائة ألف دينار وستمائة أسير ، وأحضر كذلك خشبة الصليب ، أى ما استحقه القسط الأول عدا الاسرى المعينين ، واشترط فى تسليم ذلك ضمان الداوية فى اطلاق أسرى المسلمين عند تمام دفع المال ، غير أن مقدم الداوية أبى الضمان ، وأصر الصليبيون على دفع المال كله قبل إطلاق أسرى المسلمين ، فشك صلاح الدين فى نيتهم .

وفى عصر يوم الثلاثاء ٢٠ أغسطس سنة ١١٩١ الموافق ٢٧ رجب ٥٨٧ هـ خرج ريتشارد إلى الآبار الواقعة جنوبى تل العياضيه ، ومعه أسرى المسلمين ، وأمر بذبحهم وعددهم ألفان وسبعمائة ، ولم يسلم من هذه المذبحة سوى كبارهم ، ليفتدى بهم ريتشارد بعض أسرى الصليبيين[٢] . وحذا حذوه دوق برغنديا فى الأسرى الذين عنده فى نفس اليوم والساعة على ما قيل ، وعددهم ألفان وسبعمائة[٣] ، وليس هناك سند تاريخى يؤيد هذا القول ، فابن شداد المعاصر للحوادث لم يخص إلا ريتشارد وحده بتلك الحادثة ، وأيده Borcovici القائل باستنكار الفرنسيين لسلك ريتشارد ، ورفضهم مجاراته فى معاملة من معهم من أسرى المسلمين ، وشدة

(١) ابو شامة جـ ٢ ص ١٨٩ Stevenson p 274 — Davis 1303-304-Lane Poole Saladin p 303 - Cox p 127 .

(٢) ابن واصل ص ٣٨٦ — ابو شامة جـ ٢ ص ١٨٩ — Lavisse V II P. 316 Lane Poole : Saladin p 306

(٣) ذيل Rec. Hist. Occ. V II p 178 — Cox p. 127 - Kingsford p331

حرصهم في المحافظة على حياتهم(١) . وشهد ذلك الأسلامي الأسرى يذبحون أمام أعينهم ، ولا يستطيع الباحث هنا إلا أن يعجب لصلاح الدين ، إذ أرجع أسرى الصليبيين إلى دمشق سالمين مع شدة غضبه وحنقه ، ولم يأخذهم بجريرة إخوانهم(٢) ، بل « لطم على رأسه ونتف لحيته » وبكى بكاء شديداً على غدر الغادرين(٣) .

وما أكثر ما كتبه المؤرخون تعليقاً على هذه الذبحة البشرية ، فحاول بعضهم أن يبرر ارتكاب ريتشارد للجريمة نقلا عن روجر هودن Roger Howden ، فيؤكدون أن صلاح الدين ذبح بعض الأسرى المسيحيين قبل حادث ريتشارد بيومين ، أي يوم ١٨ أغسطس بعد أن توقفت المفاوضات بين الطرفين . ثم إن القول بأن ريتشارد قتلهم ثأراً لفرسان الاسبتارية والداوية الذين قتلهم صلاح الدين بعد حطين فيه إسراف ومغالطة تاريخية ، لأن أولئك أسروا في ساحة الوغى ، وهؤلاء سلموا أنفسهم رهائن بشروط معينة(٤) . ولعل ريتشارد شعر بالخطر الذي يتهدده إذا احتفظ بهذا العدد الكبير من الأسرى(٥) ، على أن هذا لا يبرر هذه الفعلة الشنيعة التي تناولها المؤرخان لينبول وستيفنسن بلاذع النقد والاتهام بالتعصب الديني ، على حين أثنيا على صلاح الدين وما انطوت عليه نفسه من روح التسامح وسعة الصدر والحلم ، والمحافظة على الوعد(٦) .

وكيفما كان اختلاف المؤرخين حول مذبحة الأسرى المسلمين بعكا ، فإن المدينة استسلمت لرتشارد بعد أن قاومت حصار الصليبيين سنتين كاملتين (٢٧ أغسطس سنة ١١٨٩ — ١٢ يوليو سنة ١١٩١) شهدت خلالها أضخم عمليات حربية

(١) ابن شداد ص ١٦٩ — Bercovici p 165

(٢) فريد أبو حديد ص ١٧٢ — King p 147

(٣) مرآة الزمان ص ٢٦٢ .

(٤) Stevenson p. 272

(٥) حاشية Michaud VII p.130

(٦) راجع — Stevenson p.131—175 Lane Poole—Saladin p 307—Brehier P. 132

اشترك فيها الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندي(١) . وامتاز الصليبيون خلال هذا الحصار بأسطول قوي ، وآلات حربية ضخمة ، على حين امتاز المسلمون بوحدة القيادة الكفيلة بالانتصار ، ولولا ما تسرب إلى صفوف المسلمين من ضجر في المعسكر الصلاحي ، وملل من طول الحصار في جند الحامية المحصورة بعكا(٢) .

والواضح أن المسلمين فقدوا عكا لأسباب سياسية وعسكرية ، وأولها ضعف قوتهم البحرية ، ثم فقدان الروح المعنوية عند أمراء صلاح الدين ، واختلافهم معه في الرأي أكثر المناسبات الحربية ، ثم عدم إنجاد الخليفة العباسي لصلاح الدين بنجدة معنوية أو مادية كبيرة ، ومما تجب الإشارة إليه ما شهدت عكا من قيام مدينتين عسكريتين خارج أسوارها أثناء مقاومتها ذلك الحصار الطويل المدى ، إحداها إسلامية شرقية ، بها خصائص وتقاليد الحياة الدينية والاجتماعية والعسكرية الموروثة ، وصفها الرحالة عبد اللطيف بن يوسف البغدادي بعد زيارته لها سنة ١١٩١م (٥٨٧) وهو في طريقه إلى مصر ، ونصه : « كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكا عظيما ، ذا مساحة فسيحة ، فيه مائة وأربعون دكان بيطار ، وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً ، كل قدر تسع رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق ، وأظنها سبعة آلاف دكان ، وليست مثل دكاكين المدينة ، بل دكان واحد مثل مائة دكان ، لأن الحوائج في الأعدال والجوالقات . ويقال إن المعسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام ، فلما ارتحلوا غرم بعيد وزن عمان أجرة نقل متاعه سبعين دينارا . وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يبهر العقل . وكان في المعسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة ، يجتمع منهم إثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطا ، ويسترونه بحطب وحصير ، ويقطعون حطباً من البساتين التي حولهم ، ويحمون الماء في قدور ، وصار

(١) Lamb : Iron Men p 293

(٢) راجع Knox : Saladin P. 866 — Hitti p 650

حماماً يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر»[١].

أما المدينة الأخرى فصليبية غربية ، بها خصائص المدينة الأوربية ، إذ حوت الحرف والصناعات المختلفة والفنون والكنائس والأسواق والدكاكين التي تعرض منتجات الشرق والغرب معاً ، ويسير النشاط التجاري والصناعي جنباً إلى جنب مع النشاط الحربي وقعقعة السلاح ، واستخدم الصليبيون طواحين اليد في طحن القمح ، وأدارها لهم المسلمات اللاتي وقعن في الأسر ، واستبدلت هذه الطواحين اليدوية أثناء حصار عكا بطواحين ضخمة اخترعها الألمان ، يديرها الخيل فتحدث صوتاً رهيباً ، ظنه المسلمون صوت آلة حربية[٢] . على حين احتفظ العرب بطواحين اليد ، كما هو مستنتج من البقايا المتناثرة لطواحين اليد التي كشف عنها البحث على قلعة صلاح الدين بصدر[٣] . وامتازت المدينة الصليبية بتأسيس عدد كبير من الجمعيات الخيرية للإشراف على معالجة المرضى والجرحى ودفن الموتى ، فأنشأ راهب إنجليزي مكتباً لدفن الموتى ومقبرة بداخلها كنيسة للصلاة على أرواحهم ، كما أسس أربعون من أمراء الالمان جمعية لمعالجة المرضى والجرحى اتخذت خيامها من شراع المراكب ، وبذا وضعت المبادئ التي سار على مقتضاها الفرسان التيوتون زمن الحروب الصليبية ، وزمن الاستعمار الألماني في شرق أوربا أواخر العصور الوسطى ، وكانت شارتهم بيضاء عليها علامة الصليب السوداء .. وحذا فرسان الداوية والاسبتارية حذو الألمان في إنشاء المستشفيات والإنفاق عليها[٤] .

وكانت العلاقات الإجتماعية السلمية بين الأيوبيين والصليبيين ودية عموماً ، رغم ما بين الفريقين من حرب ، يشهد بذلك قول ابن جبير في مذكراته بصدد عكا التي زارها حوالي سنة ١١٨٤ — ١١٨٥ أي قبل سقوطها في يدي المسلمين

(١) المقريزى ج ١ ص ٤٩ نقلا عن كتاب البغدادى وهو الإفادة والإعتبار ص ٨ .
(٢) Brehier p. 128 — Michaud V II p. 125 III p. 156
(٣) Hassan Sadek p. 116
(٤) Campbell 293 — Cox p. 122 Michaud V II p. 126 — Lavisse V II p. 320

ونصه : « إن الإتفاق بين الشعبين والاعتدال واضح في جميع الأحوال ، فالصليبيون يشركون المواطنين العرب معهم في إدارة مزارعهم ، والعلاقات الإقتصادية مقررة بين الطائفتين ، والأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً ، فأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب»[١] .

وقد تدفعهم العلاقات الودية إلى تبادل الهدايا فيما بينهم ، كما حدث حين عالج صلاح الدين ريتشارد أثناء مرضه ، وحين اجتمع أفراد الطائفتين حول حلقات الرقص والغناء كلما سئموا القتال[٢] . هذا فضلا عن تزاوج الحضارتين الشرقية والغربية تزاوجاً جنت الإنسانية ثمراته فيما بعد[٣] .

(١) ابن جبير ص ٢٦٨ — Grousset V II p. 752 — 754
(٢) راجع ما سبق ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .
(٣) Grousset V III p. 29

الفصل السابع

صلاح الدين بعد عكا

(سبتمبر سنة ١١٩١ — مارس سنة ١١٩٣) (شعبان ٥٨٧ — صفر ٥٨٩)

موازنة بين المعسكرين الإسلامى والصليبى من الناحيتين الحربية والمعنوية بعد عكا — خطة رتشارد — خطة صلاح الدين — زحف الصليبيين إلى يافا — خطة المسلمين والصليبيين يوم أرسوف — تخريب عسقلان وغيرها من الحصون والقلاع — مفاوضات رتشارد — العادل ، وصلاح الدين — كنراد مونتفرات — فشل الزحف الصليبى الأول على القدس — تعمير حصون القدس — مقتل كنراد ابريل سنة ١١٩٢ — أثر خروج ناصر الدين عمر عن طاعة صلاح الدين — فشل الزحف الصليبى الثانى على القدس — مشروع غزو مصر — عودة سفير صلاح الدين فى المغرب — معركة يافا — صلح الرملة ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ — طواف صلاح الدين بمملكته فى فلسطين والشام — ذهابه إلى دمشق — وفاة صلاح الدين ٤ مارس سنة ١١٩٣ .

انتهت الجولة الاولى الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة باستيلاء رتشارد وفيليب على عكا ، وأسفرت عن فوارق واضحة بين القوى الإسلامية والصليبية من الناحيتين المادية والمعنوية ؛ ومنها أن ضياع عكا أفقد صلاح الدين نفرا كبيراً من امرائه وعساكره ، الخبيرين بشؤن الجهاد وقواعد القتال وفنه بسبب القتل والأسر ، فضلا عن مذبحة رتشارد[1] . كما أفقده ما امتلات به عكا من مخازن السلاح ومصانع اعداده ، وحواصل الغلال ومواد التموين[2] . وافقده ضياع عكا كذلك ، ما كان له من السيادة البحرية على الساحل الشامى ، وما كان بين المحاربين فى الجيش الأيوبى من روح قوية من الناحيتين المعنوية والمادية ، إذ دب بين امرائه وقادته الخلف ، وفرقتهم العصبية شيعا وأحزابا ، وبهظتهم نفقات الأجناد والجهاد ، وأخذ الأتراك ينفرون من سيادة الاكراد ، والاكراد يكيدون للأتراك ما إستطاعوا إلى ذلك سبيلا . وامتد خطر ذلك إلى الولايات الجزرية على وجه الخصوص ، فاندلعت هناك الثورات والفتن ، واجتذبت فرقا من الجيش الصلاحى . على أن صلاح الدين ظل محتفظا بوحدة القيادة فى جيوشه وبقوة الروح التى أثارها فيمن تبقى حوله من عساكر المسلمين ، كما ظل قادرا على تجييش عدد كبير من الجند من مختلف الاقطار الواقعة تحت سلطته المباشرة ، وعلى الحصول على ما يلزم لذلك ، من المال والرجال والأسلحه والغلال من مصر .

أما الصليبيون ، فلم يكن استيلاؤهم على عكا سوى انتصار حربى قيمته فيما كشف من مواطن ضعفهم وقوتهم ؛ وأهمها الخسائر الفادحة فى الأموال والأرواح والذخائر ، لتفوق المسلمين عليهم فى المعارك المكشوفه ، ولحسن تعاون رماة المسلمين مع فرسانهم ، ولجهل الصليبيين بطبيعة بلاد الشرق الجغرافية ، ولشدة وطأة حصار المسلمين الاقتصادى عليهم ، هذا فضلا عن تعدد جنسيات المحاربين الصليبيين ، وعدم توحيد قيادتهم ، واحتدام الخلاف بين رتشارد وفيليب ، لأسباب

(١) انظر ما سبق ص ٢٥٩ .

(٢) انظر ما سبق ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

إقطاعية سبقت الإشارة إليها(١). غير أن استيلاء الصليبيين على عكا أكسبهم على أية حال، قاعدة استراتيجية هامة مكنتهم من السيطرة على البحر، فأمدهم بما عساه يصل إليهم من نجدات صليبية أوربية، ووحد ريتشارد صفوفهم أخيراً تحت قيادته بعد أن غادرهم فيليب إلى أوربا؛ ومن ثم تهيأت الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة، للقيام بجولتها الثانية للوصول إلى هدفها الذى جاءت من أجله إلى الشرق، وهو استرداد بيت المقدس من المسلمين.

وكانت خطة ريتشارد لتحقيق ذلك الهدف، أن يزحف والساحل جنوبا من عكا إلى عسقلان(٢)، سالكا الطريق الرومانى القديم، ودلت هذه الخطة على تفوق ريتشارد على صلاح الدين فى فهم الاستراتيجية(٣)، لأنه سلك طريقا جنبه الاصطدام مع الجيش الصلاحى فى معركة مكشوفة، وجعله على مقربة من أسطوله الذى اعتمد عليه فى حماية ميمنته من ناحية البحر، فضلا عن أنه أمده بالمؤن والرجال والعتاد. وفى يوم الجمعة ٢٢ أغسطس سنة ١١٩١ (أول شعبان ٥٨٧) عبر ريتشارد نهر بيلوص الواقع جنوبى عكا فى مائة ألف جندى، وقيل فى ثلثمائة ألف(٤)، وعسكر على الجانب الجنوبى من هذا النهر. غير أن ذلك الطريق الساحلى اعترضته سلسلة من التلال الرملية المنخفضة ذات الغابات الكثيفة والمليئة بالحيوانات الضارة، فضلا عن الحشرات والناموس القاتل والأفاعى والثعابين وحرارة الشمس المحرقة(٥). على أن الجيش الصليبى لزم الساحل فى نظام عسكرى محكم فى ثلاث فئات، يحمى الأسطول ميمنتها، فكانت الفئة الأولى إلى جانب البحر، وبها دواب الحمل والمشاه حاملين الثقل والمرضى، وتليها الفئة الثانية، وبها فرق الفرسان على مسافات معينة، وهى فى الواقع القوة الحقيقية

(١) انظر ص ٢٥٨.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٤٥.

(٣) Knox op. cit p. 866

(٤) Norgate : Richard . . . p. 176

(٥) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٣ ص ٧٩ — Michaud op. cit. V. II p. 232—Stevenson op. cit p. 275 — Lane Poole : Saladin p. 309

للجيش الصليبى الزاحف، وتلى هذه الفئة الثالثة، وتتكون من المشاه وحملة الأقواس والسهام الذين ساروا فى خط منتظم، ومهمتهم حماية الصفين الأول والثانى من هجمات المسلمين(١).

واشتمل هذا الجيش على اثنتى عشر فرقة من المشاة ومثلها من الفرسان، وكونت هذه الفرق الصغيرة خمسة مجاميع كبرى؛ وسار فى المقدمة اللاتجى وبعض فرق الداوية والاسبتارية، وفى الوسط — أى القلب — رتشارد والفرنسيون الباقون بالشرق بعد رحيل ملكهم إلى فرنسا، وفى المؤخرة بقية الداوية والاسبتارية وغيرهم من المحاربين(٢)؛ وشهد ابن شداد وسط هذا الجيش الصليبى الزاحف عربة، يجرها أربعة خيول يرفرف عليها العلم الإنجليزى(٣). وتحرك رتشارد بهذا الجيش فى بطء، بمعدل ثمانية أميال أو عشرة فى اليوم الواحد، قطعها الجند فى الصباح الباكر، وأعطى جيشه يوما كاملا للراحة فى الأيام التى تم البدل فيها بين فرق المشاة(٤). وجعل رتشارد على طول الجناح البرى من هذا الجيش عجلا، يحمل رماة الزنبورك، ومهمتهم حماية جيشه من سهام المسلمين(٥)، كما أصدر أوامر صارمة بعدم خروج العسكر عن الصفوف، مهما كانت هجمات المسلمين عليهم، وهدد الخارجين على النظام بالموت فى أسر المسلمين، لأن صلاح الدين أمر بقتل كل أسير صليبى، يقع فى يده بعد مذبحة عكا(٦).

أما خطة صلاح الدين، فاستلهمها من التطورات الحربية الأخيرة بعد ضياع عكا، فكتب فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ فيما يبدو إلى قطب الدين بن نور الدين بن قرا أرسلان، وإلى مظفر الدين صاحب أربل وغيرها من الأمراء السرحين يستدعيهم بأجنادهم وأموالهم ومعداتهم(٧). وكتب رسالة بخط القاضى الفاضل

(١) Lamb — The Flame . . . p. 134

(٢) Norgate : op. cit : p. 182 — Oman op. cit : V. I p. 306

(٣) Oman V I p. 306

(٤) ابن شداد ص ١٧١ — Oman V I p. 307

(٥) ذيل Reinaud : Extraits p. 325

(٦) Campbell p, 312

(٧) الهاد ص ٢٨٣ — ٢٩٠.

إلى شمس الدولة ابن منقذ سفيره لدى البلاط المغربى ، يشرح له امور السياسة والحرب التى أحاطت المسلمين بعكا ، ويعتب على تأخير وصول النجدة المغربية بقوله « وأحوج ما كنا إلى النجدة البحرية والأساطيل المغربية ، فإن عاديتنا به ترد ، وعاديتنا بها تشتد »(١) . وكان أمل صلاح الدين كبيراً فى وصول تلك النجدة ، واستعجل عودة سفيره إلى مصر حاملا بشرى وصولها(٢) .

وظن صلاح الدين أول الأمر أن العدو سوف يسلك أحد طريقين ؛ ويتجه أولها شرقا إلى طبرية ودمشق ، على حين يتجه ثانيهما صوب الجنوب الشرقى إلى الناصرية وبيت المقدس ، ولذلك أعد جيشاً برياً كبيراً لتوزيعه على هذين الطريقين إذا لزم الأمر ، وحشد هذا الجيش البرى على تل شفرعم المشرف على الطريقين معا ، فلما تبين له خطأ هذا الظن ، استقرت خطته على ترك الصليبيين يسيرون مع الساحل والمسلمون فى محاذاتهم على أهبة القتال « الراجل فيها أمام الفارس ليكون له كالحصن المانع . وينصب أمام كل راجل منهم جنوية أو طارقة أو ستارة تكف عنه شر من يرومه بسيف أو رمح أو سهم واقع . وليجعل بين كل راجلين من هؤلاء الرجالة رام ، إما بقوس يد أو جرخ أو نبالة ، ليرمى إذا لاحت له فرصة فى الأعداء ، أو تبين له من الجمع المضاد إختلاله . وليرد بسهامهم حملة الحامل عليهم إذا أشرعوا وأوجهوا إليهم ، فإن رشقهم بالسهام يكفهم عن مرادهم ، ويعيدهم على أعقابهم ، ويعرج بهم إلى سوادهم . ولتكن الخيالة والأبطال من ورائهم وقوف ، مزاحون العلة والجاه ، والشجعان من خلفهم ينتظرون للحملة ، فإذا حموا بها وعلقوا سببها ، فتح لهم باب يحملون منه بانضمام الرجالة بعضها إلى بعض . وليكن ذلك بهدوء وسكينة ودعاء الله بالنصر وإطراق وغض . وعند ما تعود الفرسان من حملتها وتنكفئ إلى مراكزها وحملتها ، تعود الرجالة إلى أماكنها على ذلك الكيان ، وترتص فى مراكزها كارتصاص البنيان »(٣) .

(١) ابن واصل ص ٣٨٤ — ابو شامة ﺣ ٢ ص ١٨٨ .
(٢) سيأتى الحديث عن المغاربة فيما بعد .
(٣) Cahen p. 54

ويدل هذا القول دلالة واضحة على مدى الإرتباط الفنى والتعاون التام بين رماة المسلمين وفرسانهم ، وعلى عظمة التاكتيك الصلاحى وتفوقه على الصليبى فى تلك الناحية العسكرية الهامة . ومن التدابير التى اتخذها صلاح الدين فى المسير أنه قسم جيشه إلى أقسام أربعة : أحدها أصحاب المقدمة ، وهم القائمون بتمهيد الطريق بعد الأمراء المرتبين لأعمال الحل أو الارتحال ، والثانى اصحاب الساقه ، وهم الذين يسيرون فى المؤخرة يراعون المنقطعين والمتخلفين للجيوش والعساكر ، ويحطيون الشاد من ذلك والخارج من العسكر والداخل إليه ، ثم القسمان الآخران وهما اصحاب اليمين والشمال ، ويراعوان حول الجوانب مثل ما يراعى القسمان المقدمان . ووضع صلاح الدين الجلابة والسوقة والرجالة وخزائن السلاح والاموال والحمولات من الثقل والاقامات والمؤن ، واصحاب الأعمال من الكبار والنظار والدواوين وما يتعلق بهم خلف اصحاب المقدمة الأول ، وبذلك تكون العساكر محيطة بالأموال والخزائن ، ويقوم الأمراء بمراعاة أحوالها وحفظها . ونصب كل أمير جماعة من أصحابه للحرس والحفظ فى الليل ، وانقسم الحرس فى الليل فى غالب الأحوال قسمين : فيكون أحدهما لحراسة النصف الاول من الليل ، والآخر للنصف الآخر منه(١) ولم يدع صلاح الدين — بفضل هذا الترتيب المحكم — الصليبيين يسيرون سيرا عسكريا منتظما . بل عهد إلى ولده الأفضل والأمير علم الدين سليمان ابن جندر ، وسيف الدين يازكوج ، وعز الدين جرديك ، وغيرهم من شجعان الامراء بالتقدم مع اليزك الإسلامى ، الذى قسمه إلى فرق صغيرة تتكون الواحدة منها من ثلاثين إلى خمسين فارسا ، كما عهد إليهم بمناوشة الصليبيين وازعاجهم دون الإشتباك معهم ولكشف المواضع التى يؤمل مقاتلتهم فيها(٢) .

ولما علم صلاح الدين من اليزك أن العدو أشعل النيران إيذانا بالرحيل من منزلته على نهر بلوص يوم ٢٥ أغسطس ، وأن ساقته تحركت فعلا صوب الجنوب ، وأن الفرصة أصبحت مواتيه لمنازلته ، أمر بالاستعداد لمهاجمة الساقة الصليبية

(١) بكتوت الرماح : مخطوط السؤال والامنية ص ١٨٨ .
(٢) العماد ص ص ٢٩٤ — Oman V I p. 309

غير أن فريقا من قادته اعتذر عن القتال بحجة أنهم على عزم المسير لاغير ، وبذا أضاعوا الفرصة على صلاح الدين ، وسرعان ما أسرع رتشارد إلى حماية ساقته بطريقة عجيبة خاطفة . ثم نزل الصليبيون حيفا يوم ٢٤ اغسطس ، ونزل المسلمون على مسافة منهم في قرية القيمون ، وسبقهم الثقل إلى منزلة عيون الأساود . وتحرك رتشارد بعد ذلك حتى صار على مقربة من قيسارية ، فأمر صلاح الدين أطلابه بمهاجمة الجيوش الصليبية قبل أن تفلت منه جنوبا ، وأخرج جاليشه فأمطر الصليبيين بوابل من النشاب سقط على رجالتهم ، وشهد ابن شداد في ظهر الواحد منهم النشابة والاثنين والثلاثة ، في غير انزعاج لاحكام اللبود الثخينة ، والزرديات السميكة حول أجزاء جسمه ، ولم يزل المسلمون يقاتلون الصليبيين من الإمام والخلف واليسار ، ويحملون عليهم وهم يكرون بين أيديهم ويفرون إلى أن أتوا نهر القصب الواقع قرب قيسارية ، وشربوا من أعلاه يوم أول سبتمبر (١٠ شعبان) واستشهد في ذلك اليوم أياز الطويل أحد الخواص المشهورين بالشجاعة والبسالة ، واتصلت الحرب بين الفريقين وكثر الأمر بينهما ، وألح صلاح الدين في المسير وسبق العدو في الوصول إلى غابة أرسوف ، ومساحتها ميلان مربعان تقريباً ، وتقع شمالي ارسوف نفسها (ش ٩) ، ولحقت به عساكر المسلمين عند قرية « دير الراهب » وركب يبتغي موضعاً يصلح للقاء الصليبيين ، أما الصليبيون فأرسلوا في طلب النجدة من عكا ، فوصلتهم عند منزلة نهر القصب في ثماني بطس كبار[1] .

وبينما كل من الفريقين يستعد للقتال ، خطر الملك ريتشارد احتمال تسوية ما بينه وبين صلاح الدين في صلح ، واجتمع يوم ٥ سبتمبر بالملك العادل ، وتحدث معه في الجلاء عن الشرق ، على قاعدة إعادة مملكة بيت المقدس بحدودها القديمة إلى الصليبيين وترجم الحديث بينهما الهمفرى صاحب تورون ؛ فرفض العادل هذا العرض أساساً للمفاوضات[2] . غير أن صلاح الدين اتخذ من المفاوضات وسيلة لاكتساب الوقت ، حتى تتجمع عساكره حوله ؛ وآية ذلك قوله لأخيه العادل

(١) ابو شامة ج ٢ ص ١٩٠ — ابن شداد ص ١٧٠ — ١٧٢ .

(٢) Grousset op. cit V III p. 69 — Norgate op. cit p. 184

« إن قدرت أن تطاول الأفرنج فلعلهم يقيمون اليوم ، حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا[1] » . واشتد ضغط المسلمين على الصليبيين عندما اقتربوا من غابة أرسوف يوم ٦ سبتمبر ، وأخذ ريتشارد في الطواف حولها مستطلعاً المنطقة الواقعة بين البحر والغابة ، واخترقت جيوشه نصف الغابة بسلام ، وحط رحاله للاستراحة على نهر الفلايك وبركة رمضان ، الصعبة الإجتياز ، والممتدة ميلين شمالا وجنوباً وثلاثة أميال شرقاً وغرباً شمالي أرسوف (ش ٩) .

وفي صباح السبت ٧ سبتمبر (١٤ شعبان) تحرك الصليبيون صوب أرسوف ، الواقعة على ستة أميال من نهر الفلايك وثلاثة أرباع الميل من الطريق الرملي العام ، وسارت جموع الصليبيين في خمسة مجاميع : المقدمة وبها قدماء المحاربين وفرسان الداوية والجاويشية والتركبولية[2] ، ويليهم الأنجليز والإنجويين ، وخلفهم الملك جي وعسكره من أقليم بواتو ، ثم فئة من الأنجليز ومعهم الراية الإنجليزيه ، ثم المؤخرة وبها فرسان الإسبتاريه وبعض الرماة والبارونات المشهورين مثل وليم الأفيني[3] . وانتشر الجيش الصليبي في المنطقة الواقعة بين ساحل البحر وعساكر المسلمين ، وقام الكونت هنرى شامبين وفرقته من المشاة بحماية ميسرة الجيش الصليبي من ضربات المسلمين[4] . وبدأت معركة أرسوف في التاسعة من صباح ذلك اليوم بهجوم أيوبي عنيف خاطف على ساقة العدو ، وهي تسير بخطوات بطيئة متراصة ؛ فاندفع المشاه من بعض البدو والسودانيين بسهامهم ونبالهم[5] ، وخلفهم فرسان الأتراك في جموع تبلغ الثلاثين ألفاً ، فضلا عن الجموع المحتشدة من الحمالين ومماليك صلاح الدين الخاصة وأمراء مصر وسوريا والعراق بعساكرهم . وتطورت المعركة من حركة خاطفة على الساقة الصليبية إلى

(١) ابن شداد ص ١٧٤ — Lamb The Flame p. 139

(٢) أطلق الصليبيون هذه التسمية على الجند الذين اندمجوا من أهل فلسطين في الجيوش الصليبية — راجع : Barker : Crusades p. 40 — وكذلك العماد ص ٣٣٣ ؟

(٣) Oman V I p. 311

(٤) Grousset op. cit : V III p. 66 — Kingsford op. cit : p. 333

(٥) انظر ماسبق ص ١١٠ عن تجنيد السودانيين بالجيش المصرى الأيوبي .

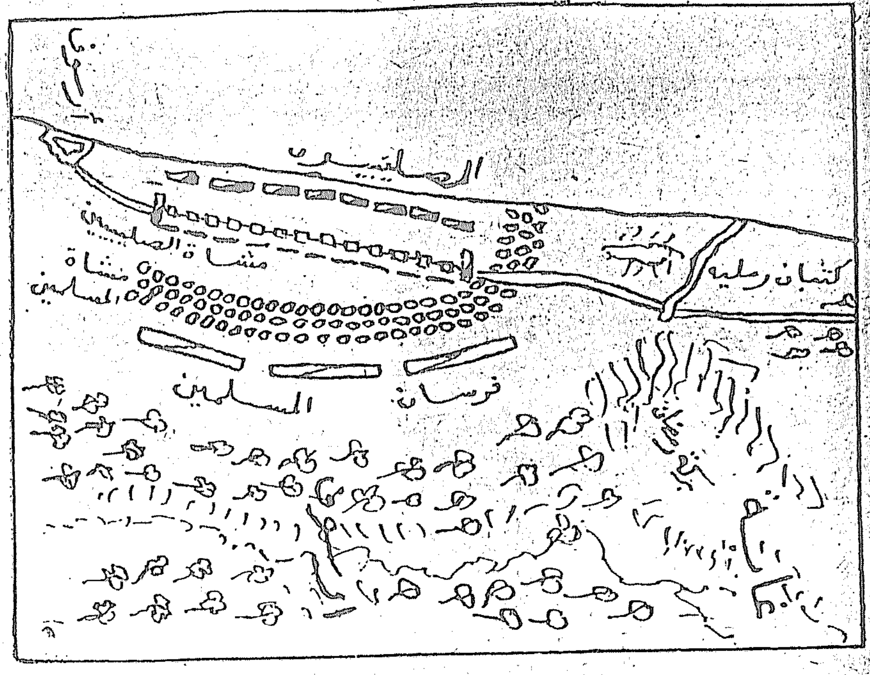

(شكل ٩)
معركة أرسوف ٧ سبتمبر ١١٩١
نقلا عن كتاب : تاريخ فن الحروب فى العصور الوسطى تأليف أومان

هجوم تطويق عام على الجيش الصليبي كله . وسرعان ما امتلأت الأرض فى المسافة بين الطريق العام وغابة أرسوف بتلك الجموع البشرية من الفريقين ، وانطلقت الطبول والصنوج تقرع الفضاء من الجانبين ، حتى امتلأت غابة أرسوف صخباً وضجيجاً (١) . واندفع الجيش الأيوبى فى ثلاث شعب : أحداها على المقدمة الصليبية لتحول بينها وبين هدفها أرسوف ، والثانية على الساقة مع طول الطريق والثالثة صوب الجناح الصليبي الأيسر . وألفى صلاح الدين أن أعند المقاومة الصليبية صادر من الســـاقة ، فقذف بنفسه بين صفوف الطلائع فى جماعة من خيالته الفدائيين (٢) . وظل المشاة الصليبيون يدافعون الهجمات المتوالية حتى ضاقه ذرعهم بها ونفذ صبرهم ، ورجا أحدهم وهو **Garnier de Nablus** مقدم الإسبتارية أن يصدر ريتشارد أمرا بالهجوم على المسلمين لدفع عدوانهم ، فأمهله ريتشارد ، غير أن فارسين من الإسبتارية خرجا على النظام واندفعا صوب الإتراك ، وصحبهما فارس مشهور إسمه بلدوين كارو **Baldwin of Carew** وتبعتهم فرق الفرسان الباقية (٣) ورأى ابن شداد أولئك الفرسان وقد « اجتمعوا فى وسط الرجالة ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على الميمنة الايوبية ، وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب ، فاندفع الجند بين أيديهم (٤) » : وخشى ريتشارد أن يفلت الزمام من يده ويخرج الصليبيون عن طاعته ، فاعطى أشارة بدء الهجوم ، ودقت الطبول حربيا ، وكان عددها ست ، أثنان منها فى المقدمة ، وأثنان فى الوسط ، وأثنان فى المؤخرة (٥) .

ولم يتوقع صلاح الدين تغيير خطة العدو الفاجئة من الدفاع المنتظم إلى الهجوم العنيف ، وشهد قلب جيشه يفر فراراً كاملا ، جعل ابن شداد يتحول من القلب إلى

(١) Kingsford p. 334 — Grousset op, cit V III p. 67
(٢) Oman V I p. 313
(٣) Norgate p. 186 — Lane Poole Saladin p. 315
(٤) ابن شداد ص ١٧٥ — ابن الفرات حـ ٨ تحت إحداث ٥٨٧ وذكرها خطأ تحت إحداث ٥٧٨ .
(٥) Grousset V. III p. 69 — Michaud V II p. 134

الميسرة فألفاها هى الأخرى فرت من هول المصاب، فتحول إلى طلب صلاح الدين ولم يجد به سوى سبعة عشر فارسا ، ثبت بهم صلاح الدين وحوله أصحاب الكؤوس والأعلام ، وتابع العدو فلول الهاربين لمسافة ميل ، ثم وقف خوفاً من الكمين الإسلامى ، وجمع تقى الدين عمر ستات سبعمائة فارس من الأتراك ، الفارين براياتهم الصفراء . وكر بهم على الصليبيين ، وأسر فارساً صليبياً مشهوراً اسمه يعقوب مقدم الجناح الصليبى الأيمن وذبحه ، وطاف برأسه وسط تهليل الفرسان الأتراك(١) . وعثر الصليبيون على جثة صاحبهم فى أرض المعركة وحولها خمسة عشر جثه تركية(٢) .

على أن النتائج الحاسمة للمعركة لم تتقرر حتى وقتذاك ، إذ حمل رتشارد على المسلمين مرة ثانية ، فتقهقروا فى غير نظام إلى مسافة ميل ، ثم وقف فوقفوا وانتظمت صفوفهم ثانية . وتابع رتشارد زحفه إلى ارسوف فوصلها ، وضرب خيام مقدمة جيشه خارج أبوابها . وانتهز الملك العادل فرصة هذه الحركة الصليبية السريعة ، فانقض على مؤخرة الصليبيين فى عدد كبير من الأتراك ، غير أن ذلك الانقضاض لم يغير من حركات رتشارد الذى انقض على الجيوش الأيوبية الرئيسية للمرة الثالثة ، حتى ألجأهم غابة ارسوف . عند ذلك وقف صلاح الدين عند تل يقع عند مدخل الغابة ، وهناك جاءته العساكر بأسرها(٣) . هكذا تم النصر للصليبيين عند أرسوف ، وغدت قصة سير ريتشارد مع الساحل الفلسطينى من عكا إلى ارسوف وانتصاره بها ، رمزاً خالداً للمهارة الحربية الفائقة(٤) ، رغم أنه لم يتابع هذا النصر بآخر(٥) .

أما صلاح الدين، فلم ينهزم لثباته فى مكانه بالأعلام على قول ابن شداد(٦) ،

---

(١) King p. 152—Rec. Hist. occ. VII p. 158

(٢) Cox. p. 128

(٣) ابن شداد ص ١٧٦ — Campbell p.313— Lane-PooleSaladin p. 319 — Norgate P. 187 — Oman V I p. 315

(٤) Fortescue p. 13

(٥) Camb. Med. Hist. XII p. 792—Lane-Poole Saladin p. 322

(٦) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٢٦٢ .

ولو علم الصليبيون أنهم هزموا المسلمين ، لاقتفوا أثرهم فى الغابة حتى أفنوهم عن آخرهم على قول ابن الأثير ، ولكن أنقذ المسلمين غيضة كثيرة الشجر بالقرب منهم فدخلوها ، وظنها الصليبيون مكيدة فعادوا عنهم(١) . وقتل من المسلمين فى هذه المرحلة الأخيرة من معركة ارسوف اثنان وثلاثون أميراً ، منهم أمير كردى اسمه موسك ، وقايماز العادلى ، وليجوش ، وأكثر من سبعة آلاف من أصحاب الرتب المختلفة ، وأغلب القتلى من السوقه والخيالة ، لأنهم ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة(٢) ، ولم تزد خسارة العدو على المائة ، وقيل سبعمائة رجل(٣) .

هكذا كسب ريتشارد معركة ارسوف ودخل المدينـة ، وأمضى بها يوم ٨ سبتمبر ، ثم غادرها فى اليوم التالى إلى يافا فوصلها يوم الثلاثاء ١٠ سبتمبر ، ولحقه هناك الأسطول بالمؤون والآلات . ومال المعسكر الصليبى فى يافا إلى الدعة والراحة مدة شهرين ، واستطاع ريتشارد إصلاح حصون يافا خلال هـذه المدة(٤) . ثم أصبح واضحاً من حركات الصليبيين أن ريتشارد يريد الزحف جنوبا للاستيلاء على عسقلان ، حتى إذا تمت له السيطرة على المنطقة الساحلية اتجه داخليا صوب المدينة المقدسة(٥) . وأخذ صلاح الدين يستعد لإفساد هذه الخطة الصليبية ، رغم ما طرأ على صحته من اعتلال بعد ارسوف ، ورغم ما بدا عليه وعلى المسلمين عامة من إمارات الخوف والانهيار المعنوى ، بعد محنتهم فى عكا وأرسوف(٦) . ولذا تقهقر صلاح الدين من أرسوف إلى الرملة ، حيث كتب إلى الامصار باستدعاء العساكر إلى النجدة سريعاً ، وعقد مشوره الحرب فى مساء الثلاثاء ١٠ سبتمبر (١٧ شعبان) للاتفاق على خطة لمواجهة الخطر الصليبى ، فأشار الأمير علم الدين ابن سليمان ابن جندر على المجتمعين بإخلاء عسقلان والاحتفاظ بمدينة القدس ، لأن

---

(١) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٤٥ .

(٢) ابو الفدا حـ ٣ ص ٨٤ .

(٣) Oman V I p. 317 — Kingsford p. 336

(٤) Oman V I p. 317—Stevenson p. 275

(٥) Kingsford p. 337

(٦) راجع Grousset V III p, 71

هدف العدو بعد يافا هو مدينتا عسقلان والقدس ، ويتطلب الدفاع عنهما حامية من ثلاثين ألف رجل لكل منهما ، وهو لم يكن فى استطاعة المسلمين يومئذ على قول ابن جندر [1] . فاعترض صلاح الدين على هذا الرأى اعتراضاً شديداً ، وطلب من بعض أمرائه الدخول إلى عسقلان للدفاع عنها ، فامتنعوا خوفاً من أن يمثل العدو بهم كما مثل بحامية عكا ، قائلين له « إذا أردت حفظها ، فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار ، وإلا فما يدخلها منا أحد ، لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا [2] » . وكان ذلك القول الجاف من الأمراء المعارضين أشد وقعاً على نفس صلاح الدين من ضياع عكا وأرسوف [3] ، ولا سيما بعد أن رجحت كفة المعارضة ، واتخذ المجلس قراراً بتخريب عسقلان ، وإقامة الملك العادل بقرب يافا ، مع عشرة من الأمراء لمراقبة تجمعات الصليبيين وحركاتهم [4] .

وخضع صلاح كارها لقرار مشوره ، وبات ليلته ساهراً مهموما لخراب عسقلان ، وبجانبه القاضى ابن شداد ، ويتوجع بقوله « والله لإن افقد أولادى بأسرهم ، أحب إلى من أن أهدم منها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا ، فكيف أصنع [5] » . واستنفر صلاح الدين الناس فى صباح اليوم التالى ، لهدم سور عسقلان ، وفرق السور والأبراج على الأمراء ، وألزم كل أمير برجا معلوما فى عنقه يخربه ، ووقع الضجيج والبكاء فى الناس أسفاً وغما ، وباعوا متاعهم بأبخس الأثمان ، فبيعت ثمنا عشرة دجاجة بدرهم واحد [6] ، وهاجر العسقلانيون إلى مصر والشام . وأسهم صلاح الدين نفسه وولده الأفضل فى عمليات التخريب والحريق ، لتتم قبل أن يعلم بها العدو ، فيسرع

(١) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٤٧ — ابو شامة ج ٢ ص ١٩٣ — العماد ص ٣٠٥ — Reinaud — Extraits p. 331

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٤ .

(٣) Grousset V III p. 71

(٤) ابو شامة ج ٢ ص ١٩٢ .

(٥) ابن شداد ص ١٧٩ — أبو شامة ج ٢ ص ١٩٢ — Norgate p. 190

(٦) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٤٧ .

إلى عسقلان ويستولى عليها ويجعل من حصونها درعا يحتمى به [1] . وشعر الصليبيون بخيبة أمل كبيرة لتخريب عسقلان قبل احتلالهم إياها ، وكتب كنراد يوبخ ريتشارد على ابطائه فى السير إلى عسقلان قبل أن يخربها صلاح الدين بعبارة جاء فيها ، إن صلاح الدين لم يخربها إلا وهو عاجز عن حفظها [2] .

على أن ريتشار دعاد وقتذاك إلى حديث المفاوضات ، وأرسل يوم ١٧ سبتمبر (١٩ شعبان) ترجمانه وسفيره الهمفرى ابن الهمفرى صاحب تورون إلى الملك العادل بالله ، ليمهد معه الطريق لعقد اتفاق للسلام ، وأطال العادل المفاوضات ليمكن لأخيه صلاح الدين من اتمام هدم عسقلان على قول ابن شداد [3] ، وفرغ صلاح الدين من تلك العملية الدفاعية نهائيا يوم ٢٣ سبتمبر ، ودخل إلى الرملة فخرب حصنها ، وركب إلى القدس جريده ، وبعد أن تفحص أحوالها عاد إلى اللد فهدمها كذلك ، وهى قرية صغيرة قرب بيت المقدس ، كما هدم حصن النطرون وغزه ، وغيرهما من الحصون الواقعة على طريق يافا — القدس [4] . وفى يوم ٢٩ سبتمبر (٨ رمضان) خرج ريتشارد للصيد والمخاطرة حول يافا ، وكاد يقع فى الأسر الإسلامى لولا أن فداه أحد فرسانه واسمه وليم بريو Preaux [5] ، الذى صاح بالعربية « أنا الملك » وأظهر حسن هندامه ، فظنه المسلمون ريتشارد وأسروه ، وفداه ملكه من الأسر بإطلاق سراح عشرة من أسرى المسلمين [6] .

واستقبل صلاح الدين يوم ٢٩ سبتمبر بمخيمه بالنطرون ، الأمير معز الدين قيصرشاه ابن قلج أرسلان صاحب ملطية ، ملتجئاً من أخيه وأبيه إلى صلاح الدين [7] وبعد ذلك التاريخ بأيام قلائل أى يوم ١٠ أكتوبر (١٧ رمضان) وصل

(١) ابن شداد ج ٣ ص ٣٤٨ — وابو شامة ج ٥ ص ٧٩ من مجموعة الحروب الصليبية — فريد ابو حديد ص ١٦٤ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٧ — Grousset VIII p. 73

(٣) ابن شداد ص ١٨٠ — Lane Poole : Saladin p225

(٤) السلوك ج ١ ص ١٠٦ — Nicolas p. 133 — Michaud V II p, 139

(٥) Michand V II p. 138

(٦) ابو شامة ج ٢ ص ١٩٢ — Lane-Poole : Saladin p.325

(٧) ابو الفدا ج ٣ ص ٨٥ .

صلاح الدين منماة الظافر تقى الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ، وهو على حصار ملازكرد من أعمال أرمينية ، وكتم ولده المنصور نصر الدين محمد وفاته إلى أن فتح الحصن وقفل راجعاً إلى الشام . وتوفى فى نفس اليوم الأمير حسام الدين محمد ابن عمر بن لاجين بن أخت صلاح الدين(١) ، وبذلك أصيب صلاح الدين بابن أخيه وابن أخته فى يوم واحد ، وفقد بموتهما أكبر عون له من أهله ، وكانا من كبار رجالات الدولة الأيوبية ، لكل منهما مواقف مشهورة فى الجهاد ، وخدمات جليلة فى تأسيس الدولة وتوسيع فتوحاتها ، وخسارة صلاح الدين فيهما كبيرة لا تعوض .

أما حديث الصلح الذى بدأه رتشارد لتسوية ما بينه وبين صلاح الدين ، فقام على فكرة جديدة على العصور الوسطى ، إذ أنفذ رسوله إلى العادل يقترح عليه زواجه من أخته جوانا ، أرمل وليم الثانى ملك صقلية ، على قاعدة أن يكون القدس وما مع المسلمين بالساحل للعادل ، وعكا وما مع الصليبيين لجوانا ، على شرط موافقة الداوية والاسبتارية ، وعلى شرط يحكم العادل البلاد ، وتقيم زوجته فى القدس ومعها القسيسون والرهبان فقط(٢) . واستدعى العادل العماد الأصفهانى ، والقاضى بهاء الدين ابن شداد ، والأمراء علم الدين سليمان ابن جندر ، وسابق الدين عثمان وعز الدين ابن المقدم ، وحسام الدين ابن بشارة إلى خيمته يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر (٢٩ رمضان) وعرض عليهم مشروع رتشارد ، الذى يرمى إلى ربط التاجين الأيوبى والإنجليزى بالمصاهرة ، وأعلن العادل ترحيبه بالمشروع ، وأمضى الأمراء إلى صلاح الدين ليباركه ، فذهبوا وعادوا بموافقة صلاح الدين عليه(٣) ، رغم شكه فى إخلاص رتشارد للمشروع . وعند ما أعلن هذا الخبر بين الصليبيين اجتمع قسسهم ، وأساقفتهم ورهبانهم إلى جوانا ، وعنفوها وأنكروا عليها هذه الزيجة ، فامتنعت من الإجابة حتى تعرف رأى البابوية أولا ، لأن استشارتها واجبة

(١) العماد ص ٣١٥ ، ٣١٩ .

(٢) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٤٧ — Stevenson p. 278

(٣) العماد ص ٣٠٩ .

فى مثل هذا الزواج ، وأخيراً اقترح رتشارد فى ٢٣ أكتوبر على العادل أن يتنصر كى ينجح المشروع ، فرفض العادل بطبيعة الحال(١) .

وفى ٢٦ أكتوبر (٥ شوال) سلم صلاح الدين أمر الأسطول بمصر إلى أخيه العادل ، لعله يصلح من شأنه ويجعله قادراً على مغالبة الصليبيين فى المستقبل ، فاستناب العادل فى مباشرة ذلك ، واستخدم فى ديوان الأسطول صفى الدين عبد الله ابن على بن شكر(٢) . ووصل صلاح الدين فى ٢ نوفمبر (١٢ شوال) كتاب من بغداد ، تقول فيه الخليفة على صلاح الدين بعض الأقاويل ، وطلب منه استيضاحها ومنها ، أن الخليفة أنكر على صلاح الدين حركات ابن أخيه تقى الدين عمر فى شمال الجزيرة وقصده خلاط ومحاصرتها ، وهى الحركات التى قام بها تقى الدين قبل وفاته وسبقت الإشارة إليها(٣) ، وشفع الخليفة فى حسن ابن قفجاق وتقدم بإطلاقه وكان مقبوضاً عليه فى أربل عند صاحبها مظفر الدين ، وطلب الخليفة من صلاح الدين إرسال القاضى الفاضل إلى بغداد لتصفية ما بين بغداد والقاهرة من أمور سياسية وحربية . وأجاب صلاح الدين على هذه الرسالة بأنه غير راض عن تصرفات ابن أخيه تقى الدين بالمشرق ولم يأمره بها ، وإنما عهد إليه بجمع العساكر للجهاد ، وأما ابن قفجاق فهو الذى تقدم إلى مظفر الدين ليحضره إلى الشام ويقطعه فيه لقربه من ميادين الجهاد ، واعتذر صلاح الدين عن أسفار القاضى الفاضل إلى بغداد ، لأنه كثير الأمراض ولا يتحمل مشقة الأسفار(٤) .

وإذا كانت المفاوضات توقفت مع رتشارد مؤقتاً ، فإنها استمرت مع الحزب الصليبى الآخر المعارض له وهو حزب كنراد الذى أرسل إلى صلاح الدين يوم ٤ نوفمبر يطلب مصالحته على قاعدة إعطائه صيدا وبيروت ، مقابل خروجه على الصليبيين وقيامه بمحاصرة عكا ، وإلقائه القبض على رتشارد وتسليمه إلى صلاح الدين(٥) ،

(١) ابن شداد ص ١٨٩ — Lamb — The Flame p. 104—Bercovici P 277

(٢) السلوك حـ ١ ص ١٠٧ .

(٣) انظر ص ٢٤٧ — ٢٧٩ .

(٤) ابو شامة حـ ٢ ص ١٩٣ .

(٥) Bercovici p. 278—Nicolas p. 134

فوافق العادل ، على شرط أن يطلق كنراد أسرى المسلمين عنده ، وان يجهر بخروجه على الصليبيين . وعاد رسول كنراد ومعه العدل النجيب كاتب صلاح الدين يحمل جواب العادل (١) . وأهمية ذلك هنا أن كلا من رتشارد وكنراد أخذ ينافس الآخر ويسابقه ، في إيفاد الرسل إلى صلاح الدين لكسب وده وصداقته والاتفاق معه على قاعدة عامة للصلح ، فضلا عن أن هذا التسابق بين الرجلين أشعل نار الحقد والكراهية بينهما ، وأتى بأوخم العواقب أخيراً على كنراد ، لأن رتشارد لم يكد يعلم بسفارة كنراد إلى صلاح الدين ، حتى أسرع إلى دعوة العادل إلى وليمة كبرى ، أقامها له في المعسكر الصليبي يوم ٨ نوفمبر ، وتناول الرجلان الطعام سويا ودار بينهما حديث ودي (٢) .

ورد العادل على هذه الحفاوة بمثلها ، حين دعى رتشارد إلى وليمة خاصة ، وانتهز رتشارد هذه الفرصة ليوطد صداقته بالعادل ، فطلب منه أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له العادل مغنية تضرب بالجنك ، فغنت غناء شرقيا رقيقا (٣) . وانفصل الصديقان على أن يرتب العادل مع صلاح الدين اجتماعا يجتمع ثلاثتهم ، لكن صلاح الدين رفض قائلا « إن الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك ، وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع » . (٤) أى أنه كان يريد الإتفاق على قاعدة سلمية مثلا قبل هذا الإجتماع .. وهذا يفسر إطمئنان صلاح الدين لإستقبال رسول كنراد ، واسمه أرناط مساء ٩ نوفمبر وإستعداده لبحث مطالبه (٥) . وعقد صلاح الدين من أجل ذلك مشوره لبحث فكرة الصلح ، فمال أغلبية الأعضاء إلى مصالحة رتشارد ، لعدم وفاء كنراد وغيره من الصليبيين الشرقيين لعهودهم مع المسلمين . وظلت الرسل تتردد بين رتشارد والعادل حتى قدم الشتاء ، وانقطعت المفاوضات بعد مضى شهرين من بدئها (٦) ، ولم يخسر صلاح

(١) Stevenson p. 279

(٢) Lamb — The Flame p. 134

(٣) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٧ — ابن شداد ص ١٩٥ — Grousset V. III p. 85

(٤) ابو شامة ج ٢ ص ١٩٤ .

(٥) ابن شداد ص ١٩٦ — Grousset V III p. 88

(٦) ابن شداد ص ١٩٧ — Lane — Poole — Saladin p. 220 — 332

الدين شيئا ، بل كسب كسباً ماديا ومعنويا (١) ، لأن إطالة المفاوضات أتاحت الفرصة لوصول المدد من مصر في الوقت المناسب (٢) ، فضلا عن أنها احدثت الفرقة في معسكر الصليبيين . على أن صلاح الدين لم يستطع استغلال هذا الكسب ، بسبب قرب حلول الشتاء (١١٩١ — ١١٩٢) وعودة كثير من العساكر الإسلامية إلى بلادها ، طلبا للراحة والاستجمام على عادتها ، على أن تعود في الربيع .

وذات يوم من أيام هذا الشهر ، الذي امتلأ بحركات العسكر الراحلة إلى بلادها ، خرج صلاح الدين من مخيمه بالنطرون يوم ٢٠ نوفمبر ، ليودع معز الدين قيصر ابن قلج أرسلان صاحب ملطيه ، بعد أن زوجه ابنة أخيه الملك العادل (٣) ، فترجل صلاح الدين وودعه راجلا . فلما أراد صلاح الدين الركوب عضده معز الدين ، وركب ، وسوى ثيابه علاء الدين فرخشاه ابن عز الدين ، وهو حفيد صاحب الموصل عماد الدين زنكى ، فقال بعض الحاضرين لنفسه متعجباً «ماتبالى ياابن أيوب ، أى موتة تموت ، يركبك ملك سلجوقى ، ويسوى قماشك ابن أتابك زنكى» (٤) ودل ذلك النص التاريخى على ماوصل إليه صلاح الدين من مهابة وقوة ، وأنه أضحى بلا منازع أعظم شخصية اسلامية في العالم .

غير أنه يبدو ، ان رتشارد أراد أن يحاول محاولة حربية سريعة للاقتراب من بيت المقدس قبل هذا الشتاء ، حتى يستطيع مهاجمته من موضع قريب في الربيع ، فزحف في ٢٢ نوفمبر من يافا شرقا ، واحتل الرملة الواقعة على بعد إحد عشر ميلا من يافا ، ثم تقدم ثمانية أميال أخرى بعد الرملة ، فوصل بيت نوبة يوم ٢٢ ديسمبر ، وبذا أشرف على بيت المقدس (٥) غير أنه لم يكن في مقدوره أن يخطو خطوة واحدة بعد بيت نوبة ، بسبب بدء الأمطار وكثرة الأوحال ، وهجمات الأتراك على خطوط مواصلاته الخلفية من قمم المرتفعات ، فضلا عن مطالبة الصليبيين الشرقيين والبولونيين والاسبتارية

(١) Knox p. 896

(٢) Brehier p. 134

(٣) ابو الفدا ج ٣ ص ٨٥ .

(٤) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٠ .

(٥) ابن شداد ص ١٨٢ — Lane Poole : Saladin p. 332 — Grousset V III p. 78 — Stevenson p. 280

والداوية الموده إلى يافا بسبب الشتاء . وأخيرا استقر الأمر على المودة ، وارتدت الجموع الصليبية إلى الرملة يوم ٨ يناير ، برغم رغبة رتشارد فى مواصلة القتال . وموضع الأهمية هنا ، أن اختلاف الآراء فى المعسكر الصليبى بين الصليبيين الشرقيين والغربيين أدى إلى أزدياد الخلاف فى صفوفهم ، فانسحب بعضهم إلى يافا ، والبعض إلى عكا مع الملك جى ، والبعض الآخر إلى صور ، ملبيا دعوة كنراد إلى عسقلان يوم ٢٠ يناير سنة ١١٩٢ ، ولم يكن وصولهم إليها ميسورا لشدة مقاومة الحاميات الإسلامية لهم على طول الطريق ، إذا تخطفت ساقتهم جماعة من الأسدية منهم ، سيف الدين أياز كوج وعلم الدين قيصر ، وقضى رتشارد ذلك الشتاء يصلح أسوار عقلان(١) .

أما صلاح الدين فانتقل من النطرون إلى القدس ، حينما علم بزحف العدو عليها ، فوصلها عصر يوم الجمعة ١٢ ديسمبر سنة ١١٩١ (٢٣ ذى القعدة) وقدم عليه يوم ٢٢ ديسمبر الأمير أبو الهيجاء السمين بالعساكر المصرية منجدا ، وانفذ صلاح الدين بعد وصوله إلى القدس يزكه ، لمضايقة العدو حتى أوقف زحفه نحوها ، واستولى أحد مقدمى صلاح الدين وأسمه فارس الدين ميمون القصرى على قافلة صليبية كبيرة فى ذلك الشهر .(٢) ووصل صلاح الدين وهو بالقدس أيضا أواخر سنة ١١٩١ منفاة الأمير الحلبي الكبير علم الدين سليمان ابن جندر ، وحوالى ذلك الوقت جاءه خمسون رجلا موصليا من أمهر الحجارين ، العارفين بشئون بناء الحصون المانعة ، بعثهم إليه صاحب الموصل للعمل فى عمارة سور بيت القدس وحفر خندقها(٣) . ومن ثم شرع صلاح الدين فى تحصين القدس وإقامة وسائل الدفاع عنها ، لما عساه يحدث من هجوم صليبى مفاجىء عليها ، ولم يدخر صلاح الدين وسعا فى ذلك السبيل ، فاستخدم الفين من أسرى الصليبيين لقطع الأحجار اللازمة لبناء السور ، وذلك بعد أن قسم البناء على أولاده وأخيه

(١) العماد ص ٣٢٨ — Nicolas p. 135-Grosset V III p. 79—Campbell P. 316

(٢) السلوك ج ١ ص ١٠٧ ، ١٠٨ — العماد ص ٣١٣ .

(٣) الدواداري : كنز الدرر ص ٧٩ — العماد ص ٣١٤ — Michaud V II p. 141

العادل وأمرائه ، فضلا عن القضاه والعلماء والفقهاء(١) . وما أصدق ما كتبه الرحالة عبد اللطيف البغدادى عن صلاح الدين ، عند زيارته له بالقدس ومشاهدته عملية البناء ، ونص عبارته « فرأيت ملكا عظيما ، يملأ العين روعة والقلوب محبة » . ثم وصف جهد صلاح الدين فى تلك الأعمال ، بقوله « وكان مهتما فى بناء سور القدس وحفر خندقه ، يتولى ذلك بنفسه وينقل الأحجار على عاتقه ، وتأسى به جميع الناس والفقهاء والأغنياء والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب والقاضى الفاضل ، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر ، يأتى داره ويمد الطعام ، ثم يستريح ويركب العصر ويرجع فى المشاعل ، ويصرف أكثر الليل فى تدبير ما يعمل نهارا »(٢) .

والجديد هنا فى التاريخ الحربى الأيوبى ، أن صلاح الدين شارك بنفسه كبار دولته فى أعمال الحفر والبناء ، واستخدم العساكر فى المشاريع العسكرية منها والمدنية ، فكانت سنة حميدة سار على نهجها خلفاؤه من بعده(٣) وتوفر تبعا لذلك عدد العمال ، حتى تم فى اليوم الواحد من العمل ما يتطلب عدة أيام ، وعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمر إلى باب الرحمة ، وعمل المواصلة برجا و بدنه ، وجددت أبراج حربية من باب العامود إلى باب المحراب(٤) . ولاتزال تحصينات صلاح الدين لبيت المقدس فى تلك السنة ، ماثلة للعيان على قبة يوسف بالخط النسخى الأيوبى ، ونصها « بأسمه وصلواته على محمد النبى وآله ، أمر بعمارته وحفر الخندق مولانا الملك الناصر صلاح الدين ، سلطان الأسلام والمسلمين ، خادم الحرمين الشريفين ، وهذا البيت المقدس ، أبو المظفر يوسف ابن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين ، أدام الله أيامه ونصر أعلامه ، فى أيام الأمير الاسفهلار الكبير سيف

(١) ابن واصل ص ٢٩٢ — Michaud V II p. 150

(٢) البغدادى الإفادة والاعتبار ص ٥٠ — الذهبي ج ٢٦ ص ١٩٨ — Precis de.. II P. 229

(٣) راجع ابن دقاق ج ١ ص ٩٨ .

(٤) الحنبلي : شفاء القلوب ص ٤٨ — ابن الأثير ج ١٢ ص ٣٨ — العماد ص ٣١٥ .

الدين على ابن أحمد، أعزه الله فى سنة ٥٨٨ . وبنظر الأمير ناصر الدين الطن با السيفى وفقه الله »[1].

وبينما صلاح الدين يستعد لما عساه يحدث من جانب الصليبيين ابتغاء الإستيلاء على بيت المقدس، أحدثت الفرقة بين كنراد وزتشارد خللا خطيرا فى صفوف الصليبيين، وأشعلت حربا أهلية حامية بين حزبى كنراد وجى مسرحها عكا وغادر رتشارد عسقلان إلى عكا فى ٢٠ فبراير لتسوية هذه الفرقة الناشئة من عدم الإتفاق على قاعدة راضية بشأن عرش مملكة بيت المقدس، وأمضى هناك شهراً حتى تم الإتفاق على أن يكون كنراد ملكا على العرش على كره من ريتشارد نفسه، وعلى أن يصبح جى ملكا على قبرص[2]. على أن هذه لم تحسم الخلاف بين كنراد وريتشارد، لأن ريتشارد لم يكد يصل من عكا إلى عسقلان فى ٣١ مارس حتى شرع فى إكمال تحصيناتها، غير أن الخبر جاءه باغتيال كوزاد فى فراشه بمدينة صور يوم ٢٧ إبريل سنة ١١٩٢ (١٧ ربيع الثانى سنة ٥٨٨)، ولما يمض على انتخابه ملكا سوى شهرين. وهكذا قتل كنراد، وتخلص رتشارد من أكبر منافس صليبى له.

واختلفت الروايات التاريخية فى تفسير اغتيال كنراد، فيرى البعض أن سنان «شيخ الجبل العجوز» وزعيم طائفة الإسماعيلية، أراد أن يثأر من كنراد، لأنه نهب بضائع إحدى مراكبه فكلف إثنين من فداويته باغتياله[3]. واتهم الفرنسيون ريتشارد بتدبير الجريمة استناداً إلى اعتراف القاتلين، كى يتخلص من غريمه كنراد الذى كان فى نظره خائناً وخارجاً عن جماعته وعن دينه[4]. ويقول ابن الأثير أن كنراد قتل بإيعاذ من صلاح الدين، الذى راسل سنان فى قتله[5]. ولم يكن واضحاً أن صلاح الدين رجل الدسيسة والغدر، ولو كان كذلك لدس على ريتشارد من يقتله، أثناء اجتماعه بأخيه

(١) انظر Wiet — Repertoire p. 174 حيث رسم الاسم « الطن با » كذا.

(٢) Lane — Poole Saladin P. 331 — Stevenson p. 281 — Cyprus p. 751 — Barker p. 786

(٣) ابن شداد ص ٢٩٧ — King p. 153

(٤) العماد ص ٤٣٠ — Nicolas p. 135 — Kingsford p. 341

(٥) ابن الأثير ج ٣ ص ٥٨٨ من مجموعة الحروب الصليبية.

الملك العادل للمفاوضة، أو يدس له السم فى الطعام الذى قدمه له المسلمون آمنا، كما أن صلاح الدين كان أميل إلى مصالحة كنراد، لأنه رأى المصلحة فى الإتفاق معه ليكون عونا له على الصليبيين الغربيين[1]. وأغلب الظن أن سنان أراد أن يخدم صديقه صلاح الدين وهو فى شدته مع الصليبيين، فعهد إلى اثنين من رجاله بتلك المهمة، وعين لها زمن ومكان ارتكاب الجريمة. ومن الدليل على ارتياح صلاح الدين لمقتل كنراد، أنه رسم للاسماعيلية عشرة ضياع قريبة من قلاعها، وبنى لها دوراً فى عواصم دولته مصر ودمشق وحمص وحماة[2].

وكيفما كان الأمر، أتاح مقتل كنراد الفرصة لهنرى شامبين ابن عم ريتشارد وابن أخت فيلب[3] أن يتولى عرش مملكة بيت المقدس الرمزية بموافقة الصليبيين جميعاً، وذلك بعد زواجه من إيزابلا أرمل كنراد فى ٥ مايو سنة ١١٩٣[3]. على أن لمقتل كنراد أهمية أخرى، وهى قطع المفاوضات بين ريتشارد والعادل بعد أن كادت تصل إلى تفاهم تام بينهما، ذلك لانتهاء عنصر التنافس بين كنراد وريتشارد على صداقة صلاح الدين. الواقع أنه يبدو أن صلحا كان من المحتملات السياسية بين ريتشارد وصلاح الدين، ما دام كنراد على قيد الحياة، فى ٢٩ مارس من هذه السنة — أى قبل مقتل كنراد بشهر واحد، دعا ريتشارد صديقه العادل لمشاهدة الإحتفال الدينى بعيد حد الزعف. ومنطق ريتشارد فى هذا الإحتفال الدينى، الملك الكامل ابن العادل بلباس الفروسية على مشهد من كبار رجال الجيش الصليبى وجماهيرهم[4]. غير أن الإتفاق على الصلح بين الطرفين لم يتم بسبب الإختلاف على إدارة القدس ومصير عسقلان، وكان من المحتمل — أو غير المحتمل — تسوية هذا الخلاف. ثم حدث أن علم ريتشارد وهو بعسقلان مقتل كنراد وخروج ناصر الدين محمد ابن تقى الدين عمر من طاعة عمه صلاح الدين، وأن ثورة على وشك الإشتعال فى بلاد الجزيرة، وأن بعض

(١) فريد أبو حديد : ص ١٧٨.

(٢) Guyard: Un Graud Maitre des... p.142 — أنظر ما سبق ص ٨٣ — ٨٤.

(٣) قيل أنه ابن أخى ملك فرنسا لأبيه وابن أخى ملك انجلترا لأمه (ابن الأثير ج ١٢ ص ٣٣) أو هو ابن أخت ملك انجلترا (ابن شداد ص ٢١٦).

(٤) ابن الأثير ج ١٢ ص ٥١٦ — Kingsford P. 341 — Campbell p. 322.

(٥) Campbell P. 327 — Stevenson P. 281 — Hitti p.651

أمراء المسلمين بدأ يتذمر من طول الجهاد ، وارتاب البعض الآخر في إخلاص صلاح الدين لفكرة الجهاد ، وأنهم غير راضين عن علاقة ريتشارد بالعادل وما قام بينهما من ود متصل[١] . كل ذلك شجع ريتشارد على نبذ المفاوضات جانباً ، والقيام بمحاولة حربية أخيرة لقصد بيت المقدس .

أما ثورة ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر على عمه صلاح الدين ، فسببها أن صلاح الدين رفض اعطاءه ما كان لأبيه تقي الدين عمر ببلاد الجزيرة ، لكونه صبياً لا يقدر على إدارتها وجمع عساكرها ، بل وأقطعها لولده الملك الأفضل الذي نزل مقابل ذلك عن دمشق لأحد إخوته ، ثم سار الأفضل بعسكره إلى بلاد الجزيرة في يناير سنة ١١٩٢ ، وكتب صلاح الدين إلى أصحاب هذه البلاد ، وهي الموصل وسنجار والجزيرة وديار بكر وغيرها ، يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل . وعلم ناصر الدين بهذا كله فلجأ إلى عمه العادل ، ليشفع له عند صلاح الدين . ويبدو أن العادل لم يكن من رأى صلاح الدين في حرمان ناصر الدين من إقطاعات أبيه ، فلم يزل حتى أقنع صلاح الدين بإقطاع ناصر الدين ما كان لأبيه تقي الدين عمر بالشام ، وهي حماه والمعرة وما يتبعهما ، وإقطاع البلاد الجزرية ، وهي حران والرها وسميساط وميافارقين وحاني الملك العادل ، مقابل تنازل العادل عن كل ماله في الشام ، ما عدا الكرك والشوبك والصلت وهي بلد من أعمال الأردن ، والبلقاء ، ونصف خاصة بديار مصر .

واستقرت القاعدة على ذلك ، وسار العادل أوائل مايو (جمادى الأولى) إلى إقطاعاته الجديدة بالجزيرة ، وعاد الأفضل إلى دمشق . وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ناصر الدين ، وقرر أمورها ونصب نوابه فيها[٢] . وحوالي ذلك الوقت استقبل صلاح الدين رسول إسحاق الثاني كومنينوس امبراطور بيزنطة ، يطلب تعيين قسس من الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية لكنيسة القيامة وغيرها من كنائس القدس ، ويرجو

(١) Bercovici, p. 281

(٢) أبو شامة ح ٢ ص ١٩٧ — السلوك ح ١ ص ١٠٨ — ابن الأثير ح ١٢ ص ٥٤ .

موافقة صلاح الدين على حمل صليب الصلبوت إلى القسطنطينية ، مقابل إعداد حملة حربية بيزنطية للإغارة على جزيرة قبرص ، حتى يضطر ريتشارد إلى الذهاب عن الشام لنجدتها . غير أن صلاح الدين لم يقر تلك العروض ، بل سير مع الرسول البيزنطي سفيره ابن البزاز بمقترحات لم تشر إليها المراجع[١] .

أما ريتشارد فاستطاع بعد مقتل كنراد أن يسوي بعض الخلافات الصليبية ، على حين اتجهت أنظار صلاح الدين إلى البلاد الشرقية ، بسبب ما انتشر فيها من اضطرابات داخلية ؛ فثار العراق العجمي ضد سلطانه السلجوقي طغرل الثاني بن أرسلان ، منذ أن اغتيل عمه قزل أرسلان بهمدان في سنة ١١٩١ ، ودب الخلاف بين الواصلة ، وحاصر عز الدين زنكي صاحب الموصل ابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر وأخضعه لسلطانه ، وتجزأت دولة السلاجقة بالروم بين أولاد سلطانها قلج أرسلان لإعتلال صحته[٢] ، وحارب سيف الدين بكتمر صاحب خلاط جورجيا ، ولم تتجاوز سلطنة العباسيين الزمنية حدود العراق العربي وخوزستان[٣] . ولذا زحف ريتشارد من عسقلان جنوباً إلى حصن داروم ، وفتحه عنوة يوم ٢٢ مايو (٩ جمادى الأولى) بعد حصار دام أربعة أيام[٤] . وأهمية ذلك الحصن أنه آخر حصن فلسطيني على الأطراف المصرية ، وإن الطريق إلى وادي النيل أصبح مفتوحاً أمام الصليبيين ، إذا لم يدركهم صلاح الدين . ثم عاد ريتشارد إلى عسقلان بعد أن أمن ناحية الأطراف المصرية باستيلائه على الداروم ، وزحف أخيراً إلى عسقلان متجهاً صوب المدينة المقدسة يوم ٧ يونيو ، فوصل النطرون يوم السبت ٩ يونيو (٢٦ جمادى الأولى) ، ووصل بيت نوبة يوم ١١ يونيو ، حيث وافاه الفرنسيون وابن أخته الملك هنري شامبين ملك مملكة بيت المقدس الرمزية ، ثم تقدم الصليبيون إلى قلونية يوم ١٦ يونيو وهي ضيعة على

(١) ابن شداد ص ٢٠٣ — Nicolas p. 136

(٢) مات قلج أرسلان بعد ذلك بثلاثة أشهر أي في أغسطس سنة ١١٩٢ .

(٣) راجع التفاصيل في أبو شامة ح ٢ ص ١٩٥ و ١٩٦ — العماد ص ٣٢٢ — Grousset V III p. 111

(٤) العماد ص ٣٣٢ — Oman V. I p. 317

مقربة من القدس[1] ، وهناك أخبره جواسيسه من البدو ، وبعض السيحيين السوريين ، ومماليك الأتراك الذين هجروا معسكر صلاح الدين إلى خدمة رتشارد[2] ، أن قافلة مصرية كبيرة فى طريقها إلى القدس ، تحت حراسة عسكر مصرى كبير بقيادة الأمير فلك الدين ، وهو أخو العادل من أمه ، حسبما ورد فى الروضتين[3] ، فركب رتشارد وهو فى زى عربى ، وتقدمه الجاسوس برنارد ومعهما سبعمائة فارس وألف راجل ، وانقضوا على القافلة المصرية أثناء استراحتها على ماء الخويلفة فجر يوم الأحد ٢٣ يونيو (٩ جمادى الثانى) ، وانقسم القفل المصرى ثلاثة أقسام : قسم فر إلى الكرك ، وآخر أوغل فى البرية عائداً إلى مصر ، والثالث وعدده خمسمائه رجل أسرهم رتشارد ، بما معهم من توابل وذهب وفضة وحرير وملابس وأسلحة من كل نوع ، وما لا يقل عن أربعة آلاف وسبعمائة جمل ، وألف وخمسمائة حصان ومثلها من البغال والحمير[4] . وبذلك تضاعفت قوة الصليبيين مادياً ومعنويا وصح عزمهم على القدس .

ولما علم صلاح الدين وهو بالقدس خبر القافلة المصرية وعزم الصليبيين على قصد بيت القدس ، عقد مشوره مساء الأربعاء أول يوليو سنة ١١٩٢ (١٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٨) وحضر الأمراء جميعاً حتى أبو الهيجاء السمين الذى وصل بمشقة عظيمة لمرضه ، وجلس على كرسى بجوار صلاح الدين ، وحضر سيف الدين المشطوب ، وكان واصلا تواً من أسره فى عكا . وافتتح القاضى ابن شداد الجلسة بكلمة عن الجهاد وفضله وشرعيته ، ثم وقف صلاح الدين وخطب فى الأمراء ، قائلا « اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة فى ذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم ، والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » . وتأثر الأمراء من

(١) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٥٢ .

(٢) Grousset, V III p. 103

(٣) ابو شامة حـ ٢ ص ١٩٧ .

(٤) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٨٤ — ابن الأثير حـ ١٢ ص ٥٣ — Lamb : The Flame p. 148 — Kingsford p. 343

هذا القول ، ووقف أحدهم وهو الأمير سيف الدين المشطوب معبراً عن الأثر العميق الذى تركته كلمة صلاح الدين فى نفوسهم ، بقوله « يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذى أنعمت علينا وكبرتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك[1] » . واستحسن الآخرون قول المشطوب وأيدوه فيما قال ، وانشرح قلب صلاح الدين ، وانفض المشور للاستعداد لدفع الصليبيين عن القدس بما وإفساد المياه الموجودة ظاهر القدس ، من صهاريج وجباب ، حتى لا يبقى حول المدينة ماء أو عشب ينتفع منه الصليبيون[2] . وأمضى المسلمون يوم الخميس ٢ يوليو فى اعداد كل وسائل الدفاع الممكنة ، ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان صلاح الدين ، إذ أخبره أبو الهيجاء السمين بعد صلاة عشاء ذلك اليوم ، أن جماعة من الأمراء أنكروا عليه قرار المشور ، وأنهم يخافون التجمع داخل بيت القدس للدفاع عنها ، فيجرى عليهم مثل ماجرى على أهل عكا ، واشترطوا إذا كان ولا بد من التجمع داخل بيت القدس ، فليكن معهم صلاح الدين نفسه أو بعض أهله داخل المدينة ، وإلا « فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد[3] » . فاغتم صلاح الدين لتلك الحركة العنصرية المزمنة فى صفوف أمرائه ، وبات ليلته حزينا وبجواره ابن شداد ، وعزم على أن يرسل من أهله إلى داخل بيت القدس مجد الدين ابن فرخشاه صاحب بعلبك . ولا شك أن غيبة الملك العادل بالجزيرة ، وأخبار الفتن القائمة وقتذاك هناك ، واستمرار توتر العلاقة بين الخليفة العباسى وصلاح الدين ، كل ذلك جعل أمراء صلاح الدين يقفون منه هذا الموقف[4] .

على أن الأقدار شاءت أن تنقذ صلاح الدين من كيد أمرائه ، ومن زحف الصليبيين نحوه ، إذ وصلته رقعة من الأمير جرديك قائد فرقة الاستطلاع بعد

(١) ابن واصل ص ٤٠٠ — ابو شامة حـ ٢ ص ١٩٨ — Stevenson p. 283 Lane-poole Saladin p. 340

(٢) ابن الفرات حـ ٨ ص ٥٨ وذكرها خطأ تحت إحداث سنة ٥٦٩ هـ

(٣) ابو شامه حـ ٢ ص ١٩٩ .

(٤) راجع Lamb: The Flame P. 151 — Michaud V II P. 152

صلاة الجمعة ، تشير إلى ركوب العدو وعودته إلى خيامه ، ثم جاءته رسالة ثانية من جرديك أيضاً فى صباح السبت ٤ يوليو (٢١ جمادى الثانى) ب باختلاف الصليبيين فى الزحف إلى القدس أو العودة والرحيل إلى بلادهم[1] . وتفسير ذلك تاريخياً ، أن ريتشارد عارض بشدة مشروع حصار بيت المقدس ، لتعذر الحصول على الماء بعد أن طم صلاح الدين صهاريجها وآبارها ، ولكثرة من بداخلها وخارجها من عساكر المسلمين ، ولصعوبة الحصول على العلوفات والأقوات ، وصارح ريتشارد أنصاره بقوله « هذه مدينة لا يمكن حصرها ، وصلاح الدين حى ، وكلمة المسلمين مجتمعة[2] » . ووصف ريتشارد الصليبيين بالجنون ، إذ أصروا على حصارها ، وأعلن أنه سيرافقهم جنديا محاربا لا قائداً[3] . ولما احتدم الخلاف بينهم احتكموا إلى لجنة مكونة من ثلاثة من كبارهم ، فرأى أولئك أن السلامة فى الرحيل[4] . ولذا تقرر الرحيل عن القدس ، كما تقرر القيام بغزو بيروت لأن مراكبها تقطع على الصليبيين دائماً طريق البحر ، أو غزو مصر التى تبعد عنهم مائتين وخمسين ميلا عبر الصحراء . وعارض الفرنسيون مشروع غزو مصر ، لأن هدفهم الأساسى لمجيئهم إلى الشرق هو استخلاص بيت المقدس[5] ، أما ريتشارد فوعد بالاشتراك فى تحقيق هذين الهدفين فى الربيع القادم ، ورحب خاصة بفكرة غزو مصر ، بعد أن تبين له غناها من القافلة المصرية التى استولى عليها ، وبعد أن علم بمشاكل صلاح الدين الداخلية ، وأعلن أنه سوف يسهم فى مشروع غزو مصر وحده بثلاثة آلاف جندى[6] .

هكذا فشل الصليبيون فى محاولة استرجاع بيت المقدس ، وذهب ريتشارد إلى عكا ليجهز حملته لفتح بيروت ، ثم يعود بعدها لغزو مصر . ويبدو أن ريتشارد

(١) ابن شداد ص ٢١٤ — ابن واصل ص ٤٠٠ — Kingsford P, 344
(٢) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٣٨ .
(٣) Lamb ; The Flame p. 170
(٤) مرآة الزمان ص ٢٦٧ — Stevenson p 155
(٥) Kingsford p, 344 Lane—poole : Saladin p, 341
(٦) Lamb—The Flame p 155

أخذ فكرة غزو مصر من الصليبيين الشرقيين ، إذ لم تثبت عنده تلك الفكرة إلا بعد وصوله إلى الشرق ؛ وتوجب القواعد العامة فى الاستراتيجيه لغزو مصر الزحف رأساً إلى القاهرة عن أحد طريقين : أولها احتلال الاسكندرية والسير جنوبا بالطريق الصحراوى إلى الجيزة فالقاهرة كما فعل الفواطم ، وثانيهما عبر شبه جزيرة سيناء والسير مع محاذاة الفرع البلوزى القديم ، وهو المدخل الحربى الحقيقى للغزاة جميعاً ، قمبيز والاسكندر وبطليموس وعمرو وآمورى ، ويشترط لغزو مصر من هذا الطريق أن تكون سوريا فى يد الغازى[1] .

أما خطة صلاح الدين أزاء هذين المشروعين الصليبيين ، فهى الاهتمام بالدفاع عن مصر وتقوية جبهتها الداخلية ، وحشد العساكر الإسلامية قبالة بيروت لصد العدو عنها . ولذلك أصدر صلاح الدين أوامره من بيت المقدس ، حيث أقام بعد تقهقر الصليبيين عنها إلى نوابه بالقاهرة ، بقطع أشجار بساتين دمياط وحفر خندقها وعمل جسر عند سلسلة البرج[2] ، كما أمرهم بإخلاء تانيس ونقل أهلها إلى دمياط ، فأخليت فعلا من السكان ، ولم يبق بها سوى المقاتلة فى قلعتها[3] ؛ وهذا دليل بين على أن صلاح الدين توقع الغزو الإنجليزى لمصر عن الطريق الشرقى . أما القاهرة فأمر صلاح الدين بزيادة سورها الشمالى من باب القنطرة إلى باب الشعرية إلى باب البحر ، والمعروف أنه اتجه بهذا السور الشمالى فى سنوات حكمه الأولى جنوباً مع شارع الجيش الحالى حتى باب القنطرة[4] ، فلما توقع غزو ريتشارد للقاهرة من تلك الناحية غير هذا الإتجاه ، واتجه بالسور غرباً مخترقاً شارع الجيش الحالى إلى باب الشعرية فشارع الفجالة فقلعة المقس عند باب البحر أى إلى قرب محطة باب الحديد الحالية ، وشرع صلاح الدين تلك السنة فى حفر الخندق خارج السور الشمالى من باب الفتوح إلى المقس[5] . وجاء إلى صلاح الدين

(١) Onman VI p. 266
(٢) المقريزى : الخطط حـ ١ ص ٣٤٨
(٣) شرحه حـ ١ ص ١٩٢ — السلوك حـ ١ ص ١١٨
(٤) راجع ماسبق بالفصل الثالث ص ٥ م ١
(٥) السلوك حـ ٢ ص ١١٢ — على مبارك حـ ٣ ص ٧١

فى هذا الشهر (يوليو) وهو بالقدس خبر وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ،
وابن قرا أرسلان قطب الدين صاحب آمد ، ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكر
صاحب سنجار بعساكرهم إلى دمشق ، فكتب إليهم صلاح الدين أن يكونوا مع
ولده الملك الأفضل لمنع العدو عن بيروت (١) .
وحوالى ذلك التاريخ أى فى شهر يوليو سنة ١١٩٢ وصلت كذلك سفارة
ابن منقذ من بلاد المغرب بغير نتيجة ، لأن صلاح الدين لم يخاطب ابن عبد المؤمن
بأمير المؤمنين ، أو لأن ابن عبد المؤمن غضب من حركات بهاء الدين قراقوش
التقوى على أطراف مملكته من ناحية برقة وطرابلس ، أو لانشغال ابن عبد
المؤمن هذا بالأحداث الجارية فى بلاد الأندلس المجاورة لبلاده وقتذاك ، ومما يوجب
الالتفات هنا ، أن ابن منقذ الرسول الصلاحى لدى البلاط المراكشى مدح ابن عبد
المؤمن بقصيدة من أربعين بيتاً وخاطبه فيها بأمير المؤمنين (٢) ، فأعطاه ابن عبد
المؤمن بكل بيت ألفاً من الدنانير قائلا له « إنما أعطيتك لفضلك ولبيتك » (٣) .
على حين بعث معه هدية صغيرة حقيرة لصلاح الدين .
وكيفما كان موقف ابن عبد المؤمن من حركة الجهاد الإسلامية ، فالمعروف أن المغاربة
عموماً قاموا بمختلف الخدمات فى الدولة المصرية فى مختلف العهود ، فاعتمدت الدولة
الفاطمية فى قوتها البحرية على المغاربة ، الذين درجوا على ركوب البحر فى الجانب الغربى
من بحر الروم المشهور بأنه « مورد الأساطيل ، ثابت القوة » على قول ابن خلدون (٤) .
فلما زالت دولة الفواطم سنة ١١٧١ ورث صلاح الدين عنها بعض نظمها وسياستها
البحرية ، فعول على المغاربة فى إعداد الأسطول ، وأصبح ذلك وقفاً عليهم على قول
المقريزى ، لمعرفتهم بمعاناة البحر (٥) . غير أن الأمر لم يقف عند حد توظيف المغاربة

(١) النوادر ص ٢٣٣ ...
(٢) إليك أمير المؤمنين ولم تزل — إلى بابك المأمول تزجى الرواحل (٦)
قطعت إليك البر والبحر مؤمنا — بأن نداك الغمر بالنجح كافل
نفح الطيب ج ٤ ص ٧٠ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٣ .
(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨٩ .
(٦) أى تساق برفق ...

فى البحرية المصرية الأيوبية ، بل تعداه إلى الأعمال العامة فى الحياتين المدنية
والعسكرية . وغدت هجرة المغاربة أفراداً وجماعات إلى مصر والشام أمراً
مألوفاً سعياً وراء الرزق ، أو لتأدية فريضة الحج ، أو لإنجاد إخوانهم
المصريين والشاميين تطوعاً فى شئون الجهاد حتى قبل زمن صلاح الدين ،
ومن الدليل على ذلك قول ابن جبير أن جماعة من المغاربة « غزت مع
نور الدين أحد الحصون الصليبية فكان لهم فى أخذه غناء ، ظهر واشتهر ،
فجازاهم الصليبيون بتحصيل ضريبة مكسية على قوافلهم المارة بحصن تبنين ،
وتساءل ابن جبير عن سبب ذلك التعسف ، فأجابه الصليبيون بقولهم « إن المغاربة
يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً ، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع
إخوانهم المسلمين علينا ، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم » (١) .
وشهد عبد اللطيف البغدادى بأن المغاربة أسهموا بنصيب كبير فى الأشغال
العسكرية بالمعسكر الصلاحى ، وظهرت مهارتهم على وجه الخصوص فى فن إنشاء
الجامات والاشتغال بها ، وليس هناك من يفوقهم من المسلمين فى هذه الناحية (٢) . وساعد
على اجتذاب المغاربة إلى الشرق على نطاق أوسع ما عينه نور الدين وصلاح الدين من
أوقاف كثيرة للانفاق على المغاربة وافتداء أسراهم ، فعين صلاح الدين لأبناء السبيل
منهم خبزتين لكل إنسان فى كل يوم بالغاً ما بلغوا ، وربما وصل التعيين إلى ألفى
خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة ، وعهد صلاح الدين بذلك إلى موظف أمين (٣) .
وبينما عكف صلاح الدين على الإستعداد لما سوف يقوم به الصليبيون نحو
بيروت أو دمياط ، ظلت رسل كل من ريتشارد وابن أخته الملك هنرى (٤) تتردد
على السلطان حتى يوم ٢٠ يوليو ، وصلاح الدين يسفر معهم الحاجب يوسف صاحب
الأمير المشطوب حاملا ردوده واقتراحاته ، ومنها أن يعامل صلاح الدين الملك
هنرى كبعض أولاده ، ويعطى الصليبيين كنيسة القيامة ، ويحتفظ الصليبيون

(١) ابن جبير ص ٤٤٧ من مجموعة الحروب الصليبية الجزء الثالث
(٢) السلوك ج ١ ص ٩٤ — انظر ما سبق ص ٢٦١ .
(٣) ابن جبير ص ١٠ ، ٢٨٢ .
(٤) راجع حاشية ٣ ص ٢٨٦ .

بالمدن الساحلية التي فتحوها ، ويحتفظ المسلمون بالمدن الداخلية والقلاع الجبلية ، وأن يكون ما بين القسمين مناصفة بين الطائفتين ، على أن تخرب عسقلان وما وراءها ولا يمتلكها أحد الطرفين . فعارض ريتشارد شروط تخريب عسقلان ، وانتهت المفاوضات ، وبرز ريتشارد من عكا يريد بيروت[1] .

وانتهز صلاح الدين فرصة زحف ريتشارد شمالا نحو بيروت ، وخرج هو من القدس يوم ٢٣ يوليو (١١ رجب) قاصداً يافا يريد الإستيلاء عليها في سرعة ، فوصلها يوم ٢٨ منه وخيم عليها ، ورتب عسكره ميمنة وميسرة وقلباً ، فأنزل طرف الميمنة على البحر وعهد بها إلى ولده الملك الظاهر ، وطرف الميسرة على البحر أيضا وعليها أخوه العادل ، ووقف صلاح الدين في الوسط . وفي اليوم التالي بدأ الزحف على يافا ، وعمل النقابون في أسوارها من شمالي بابها الشرقي ، كما صوب الرماة ثلاث منجنيقات لرمي الحامية بالأحجار ، حتى إذا نجح النقابون في نقب إحدى البدنات حشوا الثغرة التي أحدثوها حطبا ، ووضعوا النار فيها فوق نصف البدنة ، واستمر القتال خارج الأبواب إلى يوم الجمعة ٣١ يوليو (١٨ رجب) ، ثم صوب المسلمون منجنيقين آخرين على الأسوار ، واشعلوا النيران في سائر الثغرات التي أحدثها النقابون بعد ذلك ، وزحفوا من جميع الجهات ودخلوا المدينة عنوة ، وانحازت الحامية إلى القلعة بعد أن أرسلت رسولين إلى صلاح الدين تلتمس الأمان والتسليم ، فأمنها على أن تخرج الحامية من يافا بنفس الشروط التي خرج بها الصليبيون من بيت المقدس يوم فتحها سنة ١١٨٧ .

وفي عصر ذلك اليوم (الجمعة) وصلت صلاح الدين رسالة من قايماز النجمي رئيس فرقة الكشافة ، تنبيء بتحول ريتشارد عن قصد بيروت حين سمع خبر مهاجمة المسلمين يافا ، وأنه في طريقه لإنجادها . فأنفذ صلاح الدين القاضي ابن شداد بالدخول في سرعة ليلا إلى قلعة يافا ، ومعه الأمراء عز الدين جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني ، لاستلام قلعة يافا قبل وصول النجدة إليها في الصباح ، كما أوقف ولده الملك الظاهر أمام الباب القبلي للمدينة ، لمناوشة النجدة إذا هي وصلت قبل الأوان . ودخل الأمراء

(١) ابن شداد ص ٢١٥ — ٢١٩ — Lane Poole — Saladin P. 343—
Stevenson P. 283

الصلاحيون القلعة وتهيأت الحامية للخروج ، غير أن عز الدين جرديك خشي على جنود الحامية أن يتخطفهم العسكر من الأكراد والأتراك الذين داخلهم الطمع في الغنائم ، وكلها من أحمال القافلة المصرية التي نهبها ريتشارد سابقاً ، ورأى ألا تخرج الحامية حتى الصباح ، ولام ابن شداد الأمير جرديك على مسلكه وأسرع بإخراج تسع وأربعين فارساً من القلعة بخيولهم . أما الباقون فحدثتهم نفوسهم بالإمتناع ، إذ علموا بقرب وصول النجدة إليهم صباح السبت أول أغسطس في خمس وثلاثين مركبا وقيل ثمانٍ فقط ، عليها خمس وخمسون فارسا والفان من المشاة[1] . ولذا انقلبت عملية التسليم إلى هجوم صليبي على الجنود الأيوبية التي بكرت في الدخول إلى يافا ، وقتل بسبب ذلك عدد كبير من المسلمين ، وأخبر ابن شداد صلاح الدين بما حدث داخل المدينة ، فاستنفر الجند من كل جانب للغزاة ، وهاجم المدينة وحشر الحامية الصليبية ثانية في قلعتها . حدث كل ذلك ليلة الحادي والثلاثين من شهر يوليو دون أن تصل النجدة الموعودة ، فأرسلت الحامية إلى صلاح الدين تعتذر وتسأل الأمان ثانية . أما النجدة فتوقفت بالبحر بسبب رؤيتها أعلام المسلمين مرفوعة على أسوار المدينة ، علامة على التسليم ، ثم استطاع قسيس باڤارى أن يقفز من القلعة إلى الميناء فأخبر ريتشارد بحقيقة الحال ، واندفع ريتشارد نحو الميناء ، وانقلبت الحال مرة أخرى ، فأمر صلاح الدين بجلاء الجند إلى يازور قرب الرملة . وسرعان ما رفرف علم ريتشارد على أسوار يافا ، ومن ثم قاتل العدو المسلمين قتالا حاميا في شوارع المدينة ، فلم يبق ولم يذر منهم أحداً[2] .

وتحدث رتشارد مساء ذلك اليوم الذي حرر فيه يافا من المسلمين مع بعض أمرائهم الذين ألف الحديث معهم وصادقهم ، ومنهم الحاجب أبو بكر العادلي ، وايبك العزيزي ، وسنقر المشكوري ، وبدر الدين دلدرم . وطلب رتشارد من أبي بكر العادلي أن يعرض على صلاح الدين رغبته الملحة في الصلح ، لأن أخباراً

(١) ابن شداد ص ٢٢٥ — أبو شامة ح ٢ ص ٢٠٢ — Bercovici p. 284—
Stevenson p. 283 — Oman V I p. 318

(١) السلوك ح ١ ص ١١٠ — Lane Poole — Saladin p. 246 — 249

سيئة وصلته من انجلترا عن مكائد أخيه حنا ، وأنه يجب أن يعود إليه مسرعاً . فذهب أبو بكر إلى صلاح الدين وأخبره برسالة رتشارد ، فأجاب صلاح الدين على ذلك العرض ، بأنه يترك يافا لرتشارد ويحتفظ هو بعسقلان وما وراءها ، فرجا رتشارد أن يمنحه صلاح الدين عسقلان كذلك فرفض . وظلت عسقلان المرة الثانية الصخرة التي تحطمت عندها مفاوضات الصلح .

ولما علم صلاح الدين أن نجدة صليبية في طريقها من عكا إلى يافا ، لتشد أزر رتشارد عسكريا وسياسياً ، صمم على القيام بمحاولة أخرى على يافا صباح الأربعاء ٥ أغسطس ، عله يستخلصها قبل وصول هذه النجدة ، ولم يكن لدى صلاح الدين وقتذاك سوى سبع فرق ، عدتها عشرون ألف فارس على قول الراجح[١] . فحمل بهم على المعسكر الصليبي ، ولكنه وجد مقاومة شديدة أدت إلى وقف القتال هنيهة . ثم تطورت هذه المحاولة من جانب صلاح الدين لأخذ يافا إلى معركة حربية كبيرة ، إذ رتب رتشارد عسكره لهجوم عام[٢] ، على حين أخذ صلاح الدين في دعوة جنده إلى صد تقدم الصليبيين فلم يستجب لدعوته أحد سوى ولده الملك الظاهر ، وتقدم أحد الأمراء المسلمين واسمه الجناح أخو المشطوب إلى صلاح الدين مخاطباً إياه بلهجة تركية جافة ، نصها «قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة ، وضربوا الناس بالجاقات يتقدمون فيقاتلون ، إذا كان القتال فنحن ، وإذا كانت الغنيمة فلهم»[٣] فعجب صلاح الدين لهذا القول الخشن الذي لم يعتد سماعه من أمرائه في السنوات الأولى من فتوحاته ، وقت أن كانت الأسلاب والانتصارات تأتي إليهم تترى ، وأعرض عن القتال وسار حتى وصل يازور بعد أن خسر سبعمائة رجل وألفا وخمسمائة حصان ، على حين خسر الصليبيون رجلين عدا الجرحى[٤] . وتقدم

---

(١) راجع Lamb — The Flame p. 156 — Nicolas 137

(٢) راجع Camb. Med. Hist. V II P. 762 — Oman V I 318

(٣) ابن الأثير ﺣ ١٢ ص ٥٥

(٤) Oman V I 318 — وقيل أن رتشارد فقد حصانه في المعركة ، وقاتل مترجلا كعادة الفرسان الانجليز يحاربون مترجلين وخلفهم رماة السهام (Fortescue p. 10) فأرسل إليه صلاح الدين اثنين من الخيول العربية الأصيلة الشريفة قبلها رتشارد شاكراً =

صلاح الدين إلى النطرون ثم إلى القدس فدخلها وصلى الجمعة بها يوم ٧ أغسطس ، ورتب أموره وعاد إلى النطرون حيث قدمت عليه عساكر الشرق متأخرة ، فوصل علاء الدين ابن أتابك صاحب الموصل يوم ٨ أغسطس ، والأميران مجد الدين هيلدري وسيف الدين يازكوج في خدمة الملك المؤيد مسعود ومعهما العساكر المصرية يوم ١٩ أغسطس ، وقدم الملك المنصور ابن تقي الدين عمر يوم ٢١ أغسطس ، ولحق به الأمير قطب الدين سكمان ابن محمد بن قرا أرسلان والملكان العادل والأفضل بعساكرهم[١] . وحينما اجتمعت تلك العساكر عقد صلاح الدين مشوره واستقر الرأي على العودة إلى مهاجمة يافا ثانية ، وعهد الشور إلى الأميرين عز الدين جرديك وجمال الدين فرج قيادة اليزك واستطلاع قوة العدو وحركاته[٢] .

أما رتشارد فمرض مرضا خطيرا بعد انتصاره في معركة يافا ، ووصلته أخبار سيئة عن الأحوال السياسية في إنجلترا بسبب طول غيابه ، وأبدى الفرنسيون في جيشه رغبتهم في الرحيل إلى أوطانهم ، وترددت رسل رتشارد في طلب الفاكهة والثلج من المسلمين . وأشتهى رتشارد الكمثرى والخوخ أثناء مرضه ، فأرسل إليه صلاح الدين منها الشيء الكثير . وأشتد قلق صلاح الدين على صحة صديقه وغريمه قلقا كبيرا ملحوظا ، دل عليه ما حمله رسول رتشارد من شكر وثناء إلى صلاح الدين على كرمه وفضله[٣] ، والتمس الرسول من العادل أن يقنع

= (Stevenson P. 285 — Bercovici P. 285) وقيل أن العادل هو الذي أرسلها إلى رتشارد واتهمه بعض أنصاره بالخيانة (paris: La Legende P. 480—Cox P. 13 Lamb: The Flame P. 165

(١) العماد ص ٣٤٧ — ابن شداد ص ٢٣٠

(٢) ابن شداد ص ١٣٢ .

(٣) أرجع بعض المؤرخين العلاقة الروحية المتبادلة بين صلاح الدين ورتشارد إلى الصلة الغرامية التي وقع فيها الشاب صلاح الدين مع ايليانورا زوج لويس السابع ملك فرنسا أثناء حصار الصليبيين لدمشق سنة ١١٤٩ م ، والتي بسببها طلق لويس بعد عودته إلى فرنسا ايليانورا فتزوجها هنري الثاني ملك انجلترا وانجب منها ولده رتشارد . ورغبت ايليانورا مصاحبة ولدها في حملته الصليبية المعروفة بالثالثة إلى الشرق لترى عشيقها صلاح الدين ، غير أن رتشارد أصر =

صلاح الدين بالصلح، وأن يستوهبه عسقلان لرتشارد أو يعوضه عنها، واستمرت الرسل جيئة وذهابا بين صلاح الدين ورتشارد أسبوعا كاملا أى من الجمعة ٢٨ أغسطس (١٧ شعبان) إلى الأربعاء ٢ سبتمبر، وصلاح الدين لا يتحرك قيد أنملة بصدد عسقلان، ثم نزل رتشارد نهائيا عن عسقلان، وعن طلب العوض عنها وصح عزمه فى الصلح.

وحفظ التاريخ لصلاح الدين ورتشارد فضلهما فى خلق فكرة المفاوضة وحل المشكلة الصليبية بالسلم لا بالسيف، ونجح بعدهما الملك الكامل الأيوبى والأمبراطور فردريك الثانى الصليبى فى تحقيق تلك الفكرة بعد أربعين سنة تقريبا. وتمت هدنة عامة فى البر والبحر بين المسلمين والصليبيين، وانتظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية بين الشعبين لمدة ثلاث سنوات على قول ابن شداد(١)، وثلاث سنوات وثمانية اشهر على قول العماد(٢)، وثلاث سنوات وثلاثة أشهر على قول المقريزى(٣)، وثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع وثلاثة أيام وثلاث ساعات على قول غيرهم(٤)، مما تطفح به وبأشباهه المراجع العربية فى غير معنى.

هذا هو صلح الرملة، وشروطه أن يكون للصليبيين يافا وعملها عدا الرملة ولد ومجدليابا، وقيسارية وأعمالها وارسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها عدا الناصرة وصفورية. وتكون بلاد اللد والرملة مناصفة بين الفريقين، وان تخرب عسقلان، وأن تدخل بلاد الاسماعلية وأنطاكية وطرابلس فى الصلح؛ وأن يسمح للمسيحيين بزيارة بيت المقدس، وأن يتاجر

= وهو فى بيزا على عودة أمه إلى انجلترا فعادت عن كره. (راجع Bercovici pp. 215 — 216 — 255 — Lamb The Flame p. 130). والقصة مدخولة على صلاح الدين من مؤرخى القرن الثالث عشر، لأن العلاقة الغرامية الحقيقية لاليانورا كانت مع الأمير الصليبى ريموند الثالث صاحب انطاكية وطلقت بسببها، وصلاح الدين وقتذاك كان صبيا لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره (وراجع Paris La Legende PP. 435 — 437).

(١) ابن شداد ص ٢٣٤ — Lane Poole — Saladin p. 456

(٢) العماد ص ٤٢١

(٣) السلوك ج ١ ص ١١٠ — Grousset V III P. 11

(٤) Campbell p 327

كل من المسلمين والمسيحيين فى بلاد الآخر(١). وأمضى كل من صلاح الدين ورتشارد وثيقة الهدنة، وأقسم على احترامها من الجانب الصليبى الملك هنرى شامبين والباليان ابن بارزان صاحب طبرية، والهمفرى ابن الهمفرى، وأميرا انطاكية وطرابلس وغيرهم من كبار الصليبيين، وحلف عن المسلمين من الملوك الأيوبيين العادل والأفضل والظاهر والمنصور، ومن الأمراء المشطوب وبدر الدين دلدرم وابن المقدم وصاحب شيزر(٢).

وهكذا وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين والصليبيين، ودعى صلاح الدين رتشارد قبل مغادرته الشرق لزيارة بيت المقدس، فرفض رتشارد أن يرى المدينة التى غلقت أبوابها فى وجهه(٣)، ووعد صلاح الدين أنه سيعود ثانية إلى الشرق لمحاربته والاستيلاء على بيت المقدس بعد إنتهاء فترة الهدنة. وأبحر رتشارد من عكا يوم ٩ اكتوبر يريد السفر إلى انجلترا عن طريق أوربا البرى، ومعه مائة وعشرون تركيا من مماليك صلاح الدين الذين رغبوا فى خدمة رتشارد(٤). ورغب العادل مصاحبة صديقه رتشارد ليقاسمه أخطار الطريق فرفض شاكرا مكتفيا بمصاحبة الطبيب العربى واسمه مصلى هان Misley Han، على قول المراجع الأوربية، وهو طبيب العادل الخاص(٥). ويبدو أنه أعجمى، غير أن رتشارد وقع أسيرا قرب فينا على يد دوق النمسا، ثم سلمه الدوق إلى هنرى السادس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبقى بالأسر مدة حتى دفع فدية كبيرة. وحزن صلاح لأسر رتشارد وأبدى استعداده لمؤازرته، ولكن رتشارد لم يطالب نجدته(٦). أما صلاح الدين فأمر بالمناداة فى الوطاقات وأسواق العسكر « ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم

(١) ابو شامة ح ٢ ص ٢٠٣ — — Kingsford p. 346 — Brecheir P. 136 — Nicolas p. 173

(٢) ابن شداد ص ٢٣٦ — Lamb The Flame P. 167 — Groussel V III P. 116

(٣) Bercovici P. 289

(٤) Grousset V II P. 103

(٥) Bercovici p. 286

(٦) Ibid p. 271

فليفعل »[١] . وسرعان ما اختلط عسكر المسلمين بعسكر الصليبيين ، وكان ذلك يوماً مشهوداً عم فيه الفرح والسرور أنحاء الطائفتين ، وأعطى صلاح الدين الدستور لعسكر المسلمين بالعودة إلى أوطانهم ، فرحل عسكر أربل يوم ٩ سبتمبر (أول رمضان) ، وفي اليوم التالي عسكر الموصل وسنجار وغيرهما . وغادر صلاح الدين الرملة إلى النطرون ، ومنها إلى ماء صمويل حيث زار أخاه العادل لمرضه ، ولبث إلى جانبه حتى تم شفاؤه ، ثم سار الأخوان صلاح الدين والعادل معاً إلى القدس فوصلاها يوم ١٢ سبتمبر ، وفتحت المدينة أبوابها لأفواج الصليبيين الذين جاءوا للحج والزيارة . وأكرم صلاح الدين وفود الحجاج الصليبيين ومد لهم الأطعمة وباسطهم ، وجامل على الخصوص هيوبرت والتر أسقف ساليسبورى ، وسمح له ولمن معه من القساوسة بالصلاة عند القبر المقدس وفي بيت لحم والناصرة[٢] وكبح صلاح الدين جماح عساكره التي تحرقت شوقاً للاخذ بثأر من ذبح بعكا من المسلمين[٣] .

ثم عكف صلاح الدين على تنظيم مدينة بيت المقدس ، ففوض ولايتها وأعمالها للامير عز الدين جرديك ، وولى قضاءها وأوقافها للقاضي بهاء الدين يوسف ابن رافع ابن غنيم . وولى صلاح الدين علم الدين قيصر بلاد الخليل وغزه والداروم وعسقلان ، وسير معه مائة نقاب لتخريب عسقلان[٤] . وأمره بنقل الغلات من مصر إلى عسقلان والعمل على تنمية العمران والزراعات بها . وكتب صلاح الدين إلى مصر واليمن والحجاز وغيرها بعزمه على الحج في موسم سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢ م) ، فأشار عليه القاضي الفاضل بتأجيل ذلك إلى سنة أخرى لأسباب عرضها عليه ، منها الخوف على القدس من أن ينقض الصليبيون الهدنة ويدخلونها على غفلة من المسلمين ، ولأن حاج العراق وخراسان هذه السنة كبير ، وعدده ما بين المائتي ألف والثلاثمائة ألف ، وربما عدساسة بغداد وغيرها إلى تأويل

(١) السلوك ج ١ ص ١١٠ .
(٢) Kingsford p, 347.
(٣) Lane-Poole Saladin P,360–362.
(٤) أبو الفدا ج ٣ ص ٧٧ .

سفر صلاح الدين تأويلا سيئاً . وأضاف القاضي إلى ذلك أن المشاكل الداخلية في الدولة عديدة بسبب الإنصراف إلى الجهاد طول السنوات الماضية ، وأهمها أن دخل الدولة الأيوبية وخرجها في حاجة إلى تقدير وتعديل جديدين ، وأن حصونها في حاجة إلى التحصين والذخيرة والعسكر ، وأن الثورات المحلية في أعمال دمشق ووادي بردى والزبداني وغيرها كثيرة ، بسبب ظلم الأمراء الإقطاعيين وتسلطهم على أهل هذه البلاد ، وأن الانقطاع لكشف « مظالم الخلق ، أهم من كل ما يتقرب به إلى الله »[١] . على قول القاضي الفاضل ولم ينس القاضي الفاضل أن يذكر صلاح الدين بظهور رجل بالقاهرة من سلالة الفاطميين سنة ١١٩٢ (٥٨٨ هـ) ، ودعوته للناس في عودة الخلافة الشيعية[٢] ، واعتقاد بعض الحيطين بهذا الرجل أن غيبة صلاح الدين عن مصر منذ سنة ١١٨٢ م ، وكثرة مشاكله بفلسطين ، وما حل بالمصريين من كوارث مادية وروحية ، بسبب الحرب وطول الجهاد سوف يساعد على إعادة الفاطميين ودولتهم ، وأن القضاء على هذه الحركة سنة ١١٩٢ م ليس معناه عدم ظهورها مرة أخرى وصلاح الدين بالحجاز .

وبسبب ذلك كله اقتنع صلاح الدين بتأجيل سفره إلى الحجاز ، وعمل بنصيحة القاضي الفاضل وغيره من أعيان دولته ، وانصرف إلى إتمام تحصين بيت المقدس وعمارته ، وأدار سوراً على قبة صهيون وأضاف إلى المدينة المقدسة ، وأمر عز الدين جرديك واليها بإدارة الخنادق على المدينة كلها وبإصلاح المسجد الأقصى وتعميره ، ولا تزال آثار الترميم والإصلاح ماثلة للعيان إلى اليوم ، يفسرها تلك العبارة الأثرية الخالدة على جامع عمر بالقدس ، ونصها « أمر بعمارة هذا المسجد صلاح الدين ... في شهور سنة ٥٨٩ هـ ، بتولى عز الدين جرديك متولي الحرب بالبيت المقدس[٣] » .

وفي يوم ١٣ أكتوبر سنة ١١٩٢ (٢٣ رمضان) وصل رسول الخليفة العباسي إلى القدس ، وجدد اقتراح ارسال القاضي الفاضل إلى بغداد ، ليقرر قاعدة تتحدد

(١) ابو شامه ج ٢ ص ٢٠٥ نقلا عن رسائل القاضي الفاضل – Grousset V. III P. 108
(٢) السلوك ج ١ ص ١١١
(٣) Repertoire p, 187

بين صلاح الدين والخليفة . ومما يدعو إلى الالتفات هنا ، أن هذا الرسول اجتمع أكثر من مرة بالملك العادل بالقدس ، ووعده بوعود لم تشر إليها المراجع[(١)] ، ولعل خلاصة هذه الوعود أن الخليفة العباسى أشار إلى تأييده العادل فى عرش الأيوبيين عند وفاة صلاح الدين ، بدليل أن العلاقة بين الخليفة العباسى وصلاح الدين أخذت فى هذه السنة صورة عدائية سافرة ، وآية ذلك اتهام الخليفة لأمير الحاج العراق مجير الدين طاشتكين بمكاتبة صلاح الدين هذه السنة (١١٩٢) ودعوته إلى مهادنة الصليبيين والزحف لامتلاك العراق ، ونص مكاتبته « المصلحة مهادنة الفرنج والمجىء إلى البلاد ، فما يقف بين أيديكم أحد ، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نية ، وأنا مشدود الوسط فى الخدمة[(٢)] » . ويؤيد هذا القول ما أشار إليه ابن الأثير من أن السلطات العراقية قبضت تلك السنة (٥٨٨ هـ) على الأمير المذكور ، وألقت به فى سجن بغداد[(٣)] . على أن صلاح الدين لم يجعل من معاملة طاشتكين سببا للقطيعة بينه وبين الخليفة ، بل أرسل رسوله ضياء الدين الشهرزورى ليسوى ما هنالك من قلق بين صلاح الدين والخليفة ، وليستعلم عن حقيقة الوعود التى بذلها الرسول الخليفى للعادل .

وأحس صلاح الدين وهو بالقدس بوجوب الرجوع إلى القاهرة بعد غيبته الطويلة ، ووطد عزمه على المسير إليها ، غير أنه أرجأ ذلك إلى ما بعد طوافه بمدن الشام وقراها ، لكشف أحوال الرعيه ، فخرج من القدس يوم الخميس ١٤ أكتوبر (٥ شوال) ونزل على نابلس ، فأزال عن أهله ظلم الأمير سيف الدين على المشطوب ، ثم رحل إلى بيسان وأمر بتعمير قلعتها وتخريب قلعة كوكب . ونزل بظاهر طبريه ولقى عليها الأمير بهاء الدين قراقوش بعد خروجه من الأسر بعكا . ثم رحل صلاح الدين من طبريه إلى قلعة صفد ، واتخذ طريق جبل عامله حتى

(١) ابن شداد ص ٢٤٠ .

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ٢١١ — سبقت الإشارة إلى طاشتكين وأنه قتل أمير الحاج الشامى شمس الدين ابن المقدم بعرفات سنة ٥٨٣ هـ وكان سببا فى القطيعة بين صلاح الدين والخليفة وقتذاك — أنظر ص ٢٠١ .

(٣) ابن الأثير ج ١٢ ص ٦١ .

خيم على مرج تبنين ، أهدى واليها بعمارتها ، ومر على قلعة هونين ومرج عيون ، وحط رحاله أخيرا ببيروت حيث تلقاه واليها عز الدين أسامه لقاء حسنا يوم ٢٩ أكتوبر (٢٠ شوال) . واستقبل صلاح الدين فى بيروت بيهوموند صاحب انطاكية ، وصالحه على انطاكيه مقابل خمسة عشر ألف دينار سنويا[(١)] . ثم رحل صلاح الدين إلى دمشق ، فوصلها يوم الأربعاء ٤ نوفمبر (٢٦ شوال) بعد غيبة أربع سنوات عنها ، فشغلته أمورها عن السفر إلى مصر كلما عزم على شد الرحال إليها ، وكثيراً ما خرج صلاح الدين للصيد والاستجمام فى مروج دمشق مع أخيه العادل وأولاده وكبار دولته .

وفى دمشق مرض صلاح الدين بالحمى الصفراوية ؛ ومات قبل شروق الأربعاء ٤ مارس سنة ١١٩٣م . ولما يبلغ من العمر سوى خمس وخمسين سنة ، بعد أن جعل من معظم الشرق الأدنى جبهة متحدة ضد الصليبيين ، وبعد أن جاهد الصليبيين جهاداً حاراً لمدة سنين ، غير أثنائها الجغرافية السياسية والتوزيع السياسى فى فلسطين ، وقضى على آمال رجال الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة فى استرداد بيت المقدس ، وحصر الصليبيين فى شريط ساحلى ضيق يقع بين يافا وانطاكيه .

(١) العماد ص ٣٤٨ — ابو شامة ج ٢ ص ٢٠٧ — Lane Poole — Saladin P. 363

مصادر البحث

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا — المصادر العربية المخطوطة

١ — ابن أيبك : ابوبكر ابن عبيد الله (٧٠٩ هـ) .
درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان . مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٦٠٥ تاريخ .
٢ — ابن الجيعان : شرف الدين يحيى بن المقر : (٨٥٥ هـ) .
القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف — مخطوط بالمعهد الفرنسى بالقاهرة رقم C. 917
٣ — ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن سبط (٥٩٧ هـ) .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان حـ ٨ .
٤ — ابن حاتم : بدر الدين محمد الأمير (٦٤٨ هـ) .
السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك الغز باليمن : مخطوط بدار الكتب الملكية رقم ٢٤٠١١ .
٥ — ابن دقاق : ابراهيم ابن محمد ابن أيدمر (٨٠٩ هـ) .
الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢ تاريخ .
٦ — ابن الفرات : ناصر الدين محمد ابن عبد الرحيم ابن على (٨٠٧ هـ) .
تاريخ الدول والملوك حـ ٧ ، ٨ — مخطوط مصور من خزانة فى فينا سنة ١٣٤٣ هـ بدار الكتب المصرية .
٧ — ابن مخرمة : أبو محمد محمد الطيب ابن عبد الله ابن أحمد (القرن العاشر الهجرى)
قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر حـ ٢ مجلد ٢ مخطوط ،مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ .
٨ — ابن منكلى : الأمير محمد (٧٧٨ هـ) .
الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية — مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٣ فروسية تيمورية .
٩ — ابن واصل : القاضى جمال الدين (٦٩٧ هـ) .
مفرج الكروب فى تواريخ بنى أيوب — مخطوط مصور من كامبرج بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٥٠ تاريخ .

٢ ، ٤ ج ٤ ١٣ مراجع أشير إليها مرة واحدة فى الحاشية ، وذكرت هنا لتميم الفائدة .

١٠ — أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (٦٦٥ هـ) .
كتاب الذيل على الروضتين — مخطوط مصور ببلدية الاسكندرية رقم ٣٥٥٣ ج
١١ — بدر الدين : محمد ابن أبى بكر ابن قاضى شهبة الأسدى الدمشقى (٨٧٤ هـ) .
الدر الثمين فى سيره نور الدين — مخطوط ببلدية الاسكندرية رقم ١٣٣٦ ب .
١٢ — بكتوت الرماح : بدر الدين خازندار الملك الظاهر (حوالى ٧١٦ هـ) .
السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية — مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة عن المتحف البريطانى :
١٣ — الجزرى : شمس الدين أبو عبد الله محمد (٧٣٩ هـ) .
تاريخ الجزرى — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٥ تاريخ .
١٤ — جمال الدين بن الوزير : أبو الحسن على ابن كمال الدين (٦٢٣ هـ) .
أخبار الدول المنقطعة — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ
١٥ — الحنبلى : إبراهم
شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب — مخطوط مصور عن مكتبة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٤٢ حـ ٣ ، ٤ — مجلد ١٧ مكتبة جامعة فؤاد رقم ٢٤٠٣١ تاريخ .
١٦ — الدوادارى : أبو بكر بن عبد الله (حوالى القرن الثامن الهجرى) .
كنز الدرر وجامع الغرر حـ ٧ قسم ١ — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ .
١٧ — الذهبى : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله (٧٤٨ هـ) .
تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ .
١٨ — رشيد الدين : فضل الله بن أبى الخير الملقب بالرشيد الطبيب (حوالى القرن الثامن الهجرى) .
تاريخ الغازانى المشهور بجامع التواريخ حـ ١ ، ٢ . — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٨٨٩ تاريخ .
١٩ — العينى : بدر الدين محمود (٨٥٥ هـ) .
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان حـ ٢١ قسم ٣ ، حـ ١ قسم ١ — مخطوط مصور رقم ١٥٨٤ تاريخ بدار الكتب المصرية .
٢٠ — النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢ هـ) .
نهاية الأرب فى فنون الأدب حـ ٢٦ ، ٢٧ — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية عن باريس رقم ٥٤٩ معارف عامة .
٢١ — النويرى : محمد ابن قاسم بن محمد المالكى الاسكندرى (٧٦٧ هـ) .
كتاب الألمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية الواقع بها سنة ٧٦٧ هـ مخطوط بدار الكتب المصرية حـ ١ رقم ١٤٤٩ تاريخ .
٢٢ — اليوسفى : موسى بن محمد (٧٥٣ هـ) .

كشف الكروب فى معرفة الحروب — مخطوط بالمتحف الحربى المصرى .
٢٣ — لم يعرف مؤلفه .
التدبيرات السلطانية فى الصناعة الحربية — مخطوط مصور عن المتحف البريطانى بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٣٧ مخطوط .
٢٤ — لم يعرف مؤلفه .
كتاب فهرسة الكتب(١) التى نرغب أن نبتاعها ، والمسائل التى توضح جنس الكتب التى نرغب الحصول عليها إذا نجهل اسمائها — مكتبة جامعة القاهرة رقم B, 770 عن لندن سنة ١٨٤٠ .

(١) يبدو أن هذا الكتاب طبع فى لندن سنة ١٨٤٠ م . انظر : عبد الرحمن زكى كتاب الرتب والنياشين ص ٢٧ .

ثانيا — المصادر العربية المطبوعة :

١ — ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على (٦٣٠ هـ) .
تاريخ الدولة الاتابكية (اتابكة الموصل) حـ ٢ من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المسلمين .
٢ — الكامل فى التاريخ حـ ١٠ ، ١١ ، ١٢ طبعة ليدن .
٣ — ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى المصرى (٩٣٠ هـ) .
كتاب تاريخ مصر المشهور باسم بدائع الزهور فى وقائع الدهور حـ ١ طبعة بولاق ١٣١١ هـ .
٤ — ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى (٦١٤ هـ) .
رحلة ابن جبير .
طبعة لبدن ١٨٥٢ م والطبعة الأولى لمطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ .
ونبذه من رحلته فى حـ ٣ من مجموعة الحروب الصليبية .
٥ — ابن الجيعان : شرف الدين يحيى ابن المقر (٨٥٥ هـ) .
كتاب التحفة السنية باسماء البلاد المصرية . طبعة بولاق ١٢٢٦ هـ .
٦ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن عمر (٨٠٦ هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر حـ ٥ طبعة مصر .
٧ — مقدمة ابن خلدون — المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٠ م .
٨ — ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد (٦٨١ هـ) .
كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — باريس ١٨٣٨ م ، وبولاق ١٢٩٩ هـ .
٩ — ابن شداد : القاضى بهاء الدين (٦٣٢ هـ) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — طبعة الآداب المؤيد ١٣١٧ هـ .
١٠ — ابن العديم : عمر بن عبد العزيز بن أبى جوادة (٦٦٠ هـ) .
منتخبات من بغية الطلب فى تاريخ حلب حـ ٣ مجموعة الحروب الصليبية .
١١ — ابن العماد الحنبلى : عبد الحى بن أحمد (١٠٨٩ هـ) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب حـ ٤ طبعة مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ .
١٢ — ابن كثير : عماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ) .
البداية والنهاية حـ ١٢ مطبعة السعادة بمصر .
١٣ — ابن مماتى : شرف الدين أبو المكارم ابن أبى سعيد (٦٠٦ هـ) .
كتاب قوانين الدواوين — نشر الدكتور عطيه سوريال القاهرة ١٩٤٧ .
١٤ — أبو شامة : شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن ابن اسماعيل (٦٦٥ هـ) .
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . طبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ .

١٥ — أبو صالح الأرمنى :
أخبار من نواحى مصر وإقطاعها ، المعروف بتاريخ أبى صالح الأرمنى طبعة أكسفورد ١٨٩٤ م .
١٦ — أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (٧٣٢ هـ) .
المختصر فى أخبار البشر حـ ٣ طبعة القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .
١٧ — أبو المحاسن : جمال الدين يوسف ابن تغربردى (٨٤٧ هـ) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — حـ ٦ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٠ م .
١٨ — أسامه : مؤيد الدين أبو المظفر بن منقذ الشيرازى (٥٨٤ هـ) .
كتاب الاعتبار طبعة ليدن ١٨٨٤ ونشر الدكتور حتى ١٩٣٠ م .
١٩ — البغدادى : موفق الدين عبد اللطيف ابن يوسف (٦٢٩ هـ) .
كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة فى أرض مصر .
مطبعة المجلة الجديدة بمصر ، حـ ٣ من مجموعة الحروب الصليبية .
٢٠ — الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر (حوالى القرن الثامن الهجرى) :
آثار الأول فى ترتيب الدول . بولاق ١٢٩٥ هـ .
٢١ — السيوطى : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (٩١١ هـ) .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — المطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٧ هـ .
٢٢ — عماد الاصفهانى : أبو عبد الله محمد بن صفى الدين (٥٩٧ هـ) .
كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى — مطبعة الموسوعات ١٣٩١ هـ .
٢٣ — عمارة اليمنى : أبو محمد بن أبي الحسن نجم الدين (٥٦٩ هـ) .
كتاب تاريخ اليمن — طبعة لندن ١٣٠٩ هـ .
٢٤ — كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية — طبع مرسو بمدينة شالون ١٣٩٧ م .
٢٥ — العمرى : شهاب الدين أحمد بن فضل الله (٧٤٢ هـ) .
التعريف بالمصطلح الشريف — مطبعة العاصمة بمصر ١٣١٢ هـ .
٢٦ — الفيروزابادى : مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى (٨١٧ هـ) .
القاموس المحيط حـ ٢ الطبعة الأولى ١٣٣٠ هـ .
٢٧ — القلقشندى : أبو العباس أحمد (٨٢١ هـ) .
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا — القاهرة ١٩١٣ م
٢٨ — المقريزى : تقى الدين أحمد ابن على (٨٤٥ هـ) .
المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — النيل بمصر ١٣٢٤ هـ — فييت ١٩١١ م .

٢٩ — السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر الدكتور زيادة — دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م .
٣٠ — النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢ هـ) .
نهاية الأرب فى فنون الأدب حـ ٦ ، ٨ — دار الكتب المصرية ١٩٢٨ م .
٣١ — ياقوت الحموى الرومى : ابو عبد الله الملقب بشهاب الدين (٦٢٦ هـ) .
معجم الأدباء حـ ٢ — تصحيح مرجليوث مطبعة هندية بالموسكى بمصر .
معجم البلدان حـ ١ — طبعة أوربا .

ثالثا — مطبوعات عربية حديثة :

١ — أبو حديد : محمد فريد .
صلاح الدين الأيوبى وعصره — القاهرة ١٩٢٧ م .
٢ — البستانى : بطرس .
معارك العرب فى الشرق والغرب . طبعة بيروت .
٣ — بهجت : على (١٩٢٤ م) .
حفريات الفسطاط — الطبعة الأولى ١٩٢٨ م .
٤ — تيمور : أحمد باشا . تصحيح القائمقام عبد الرحمن زكى .
رسالة لغوية عن الرتب والألقاب المصرية .
٥ — حبشى : حسن .
نور الدين والصليبيون — دار الفكر العربى ١٩٤٨ م .
٦ — حسن : إبراهيم حسن .
الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص — المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٢ م .
٧ — حمزه : عبد اللطيف .
أدب الحروب الصليبية — دار الفكر العربى الطبعة الأولى ١٩٤٩ .
٨ — الحموى : محمد ياسين .
تاريخ الأسطول العربى — مطبعة الترقى بدمشق .
٩ — زيدان : جورجى .
تاريخ التمدن الإسلامى — صلاح الدين والحشاشين — مطبعة الهلال ١٩٠٢ .
١٠ — سرهنك : اسماعيل .
حقائق الأخبار عن دول البحار حـ ٣ قسم ١ — الطبعة الأولى ١٣١٢ هـ .
١١ — سعداوى : نظير حسان .
نظام البريد فى الدولة الإسلامية — طبعة ١٩٥٣ .
١٢ — شرف : طه .
الدعوة الإسماعيلية الجديدة — رسالة الدكتوراه نسخة محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة .
١٣ — شقير : نعوم (١٩٢٢ م) .
تاريخ سينا والعرب — طبع مصر ١٩١٦ .
١٤ — صالح مجدى : السيد محمد بن صالح (١٢٩٨ هـ) .
ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابل باليد والمقلاع — طبعة بولاق ١٢٧٥ هـ .
١٥ — عمار : عباس مصطفى .
المدخل الشرقى لمصر — أو أهمية شبه جزيرة سينا كطريق للمواصلات ومعبر للهجرات البشرية .

١٦ — عواد : ميخائيل .
المآصر فى بلاد الروم والاسلام — مطبعة المعارف ببغداد ١٩٤٨ م .
١٧ — فهمى : صاغ قول أغاسى محمود أفندى .
البدورات السافرات فى فن الاستحكامات . الطبعة الثانية .
١٨ — فيشر . تعريب زيادة والعرينى .
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى : دار المعارف بمصر .
١٩ — مبارك : على (١٣١١ هـ) .
الخطط التوفيقية حـ ٣ ، ٥ ، ٨ .
٢٠ — الهاشمى : طه .
الجغرافية العسكرية : الطبعة الثالثة ١٩٣٨ م
٢١ — يعقوب : جورج : تعريب فؤاد حسنين .
أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى . مطبعة مصر ١٩٤٦ م .

رابعاً — المصادر الأجنبيـــة

1 — Archer (T.A) :
The Crusade of Richard I. London 1888

2 — Archer & Kingsford :
The Crusades. Idition 1919

3 — Barker (E.) :
The Crusades : In The Encyclopædia Britannica

4 — Bellok (H.) :
The Crusades (The World's Debate). Cassell & Company LTD.

5 — Bercovici (K.) :
The Crusades. New York 1929

6 — Brehler (L.) :
L'Eglise & L'Orient au Moyen Age. Paris 1928

7 — Cahen (C.) :
Un Traité D'Armitrerie composé pour Saladin-Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales-Tome XII - 1947 - 1948

8 — Campbell (G A.) :
The Crusades

9 — Carman :
The Military History of Egypt

10 — Casanova (M.) :
Notice sur une coupe arabe. Journal Asiatique 8serie I. XVII 1891

11 — La Citadelle

12 — Cox (G. W.) :
The Crusades. London 1889

13 — Creswell (K. A. C.) :
The Citadel of Cairo-Bulletin de l'inst. Franc. d'Arch. orient. du Caire Tome XXIII - Le Caire 1924

14 — Dvis (H. W. C) :
England Under The Normans & Angevins. London 1880

15 — Defremery (M. C.) :
Nouvelles Recherches sur Les Ismaellens. Journal Asiatique 5ieme serie Tome III 1954

16 — Derembourg (H) :
Anthologie de textes Arabes inedits par Osama & sur Osama Paris 1893

17 — Dozy :
Supplement aux dictionnaires Arabes.

18 — Fortescue (H J. W.) :
History of the British Army V. I London 1910

19 — Fuller (J. F. C.) :
Decisive Battles : Their influence upon history & civilization Part I London 1950

20 — Gibb (H. A. R.) :
The Damascus Chronicle of the Crousades. London 1932

21 — The Arabic Sources of the Life of Saladin - A Journal of Mediaeval Studies - January 1950

22 — Grousset (R.) :
Histoire des Groisades et du Royaume Franc du Jerusalem. Part II & III Paris 1935

23 — Guyard (M. S.) :
Un Grand Maitre des Assins au temps de Saladin Paris

24 — Hitti (P. K.) :
History of the Arabs. London 1937

25 — Kammerer (M. A.) :
La Mer Rouge — Le Caire

26 — King (E. J.) :
The Knights Hospitaller in the Holy Land. London 1931

27 — Knox (F.) :
Saladin. Encyc. Brit.

28 — Lamb (H.) :
The Crusades. (Iron men & saints) London

29 — The Crusades. (The Flame of Islam.) London 1931

30 — Lane-Poole (S.) :
The Story of Cairo. 1900 — 1st Edition

31 — A History of Egypt in the Middle Ages. London 1901

32 — Saladin & the Fall of the Kingdom of Jerusalem. 1898

33 — **Lavisse (E.) et Rambaud (A.) :**
Histoire Generale Vol II Paris 1893

34 — **Mawlawi Fadil (S.) :**
The Decline of the Soljuqid Empire. Calcutta 1938

35 — **Michaud :**
Histoire de Croisades. V. II & IV. Nouvelle Edition. Paris

36 — **Nicolas Iorga :**
Histoire des Croisades. Paris 1924

37 — **Norgate (K.) :**
Richard the Lion Heart. London 1924

38 — **Oman :**
A History of the Art of War in the Middle Ages. 2nd Ed. 1924

39 — **Paris (G.) :**
La Legende de Saladin. Journal des Savants. Mai 1893

40 — **Reinaud (J. T.) :**
Extraits des Historiens Arabes Relatifs aux guerres des Croisades

41 — L'Art Militaire chez les Arabes au moyen age
Journal Asiatique, Septembre 1848. V 12

42 — **Rey (G.) :**
Etudes sur les Monuments de l'architecture militaire des Croisés en Syrie et dans L'Ile de Chypre. Paris

43 — Les Colonies Franques de Syrie aux XII et XIII siecles. Paris 1883

44 — **Sabahudden (S.) :**
Conduct of Strategy & Tactics of War during the Muslem Rule in India - Islamic Culture. V XX No. 2 April 1946 & No. 3 & 4 V XXI No. 1

45 — **Sadek (H.) :**
Salah El-Din's on Ras El-Gindi in Sinai. Bulletin de L'Inst. d'Egypte. Tome II — Session 1919-1920

46 — **Stevenson (W. B.) :**
The Crusades in the East Cambridge 1907

47 — **Van Berchem (M. C.) :**
Citadelle du Caire. Memoires publies par les membres de la mission archeologique francaise en Caire T. IXX 1894

48 — Notes d'Archeologie Arabe — Journal Asiatique — 8e serie T. XVII 1891

49 — **Wiet (G.) :**
Histoire de la nation Egyptienne (L'Egypte Arabe) V. IV Paris

50 — **Wiet et Henri Munier :**
Precis de l'Histoire d'Egypte T. II. Le Caire 1932

51 — **Zaki (M. H.) et certains Historiens :**
Repertoires Chronologique d'Epigraphie Arabe. Tome 9e. Le Caire

52 — Cambridge Mediaeval History V. IV & VI

53 — Histoire Scientifique & Militaire V. II

54 — **Recueil des Historiens :** Occidentaux des Croisades V.II, Paris
Orienteaux des Croisades V. III, Paris

كشـــاف

بأسماء الأشخاص والأماكن والألفاظ الاصطلاحية

فهرس الأعلام

(ا)

آل ملك الطوسى : ٣ .
أباطرة الدولة البيزنطية : ١٧ ، ١٨ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٥٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٥١ ، ٢٨٦ .
ابراهيم الكردى : ٣٢ .
ابراهيم المهرانى : ١٨٣ ، ١٩٠ .
ابن الأزى : ١٤٥ .
ابن أبى طى : ٢٢ ، ٤٢ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٨٣ .
ابن الأثير : ١٩ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ١١٢ ، ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٨٣ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ .
ابن انبراز : ٢٨٧ .
ابن بيسان : ١٤٥ .
ابن جبير : ٦٠ ، ٦٣ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٩٣ .
ابن الخشاب : ٥٣ .
ابن خلكان : ١٧٥ ، ١٨٣ .
ابن خلدون : ٧٦ ، ٧٧ ، ١١٥ ، ١٦٩ ، ٢٩٢ .
ابن الداية : ٥٢ ، ٥٣ .
ابن شداد : ٤١ ، ٨٤ ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ .
ابن عبد المؤمن : أبو يوسف يعقوب بن يوسف سلطان المغرب : ١٣٢ ١٥٨ ، ٢٠١ ، ٢٥٠ ، ٢٩٢ .
ابن العماد : ٣٤ ، ٥٩ .
ابن القلانسى : ٢٢٢ .
ابن القومصية : ١١٧ .
ابن كثير : ٦٩ .
ابن مخرمة : ٥ .
ابن مطروح : ١٤٤ .
ابن مماتى : ٢١ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .
ابن منقذ : أسامة المؤرخ والفارس : ٢٦ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٧٨ .
ابن منقذ : شمس الدولة مبارك : ٧٨ ، ٢٦٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ .
ابن واصل : ١٧ ، ١١٠ .
أبو البركات : محمد بن الموفق نجم الدين ٣١٣ .
أبو بكر العادلى (الحاجب) : ٢٠٥ ، ٢١٦ .
أبو شامه : شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن : ٨٨ ، ١٢٨ ، ١٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢١٩ .
أبو صالح الأرمنى ٣٣ .
أبو المنصور جهاركس (فخر الدين) ١٦ .
أبو الهيجاء السمين (الأمير حسام الدين) ٤٨ ، ١٣٨ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ .
أبو زكريا (الشيخ) ٢١٠ .
احمد بن تقى : عمر ١١١ .
أرناط : رينولد أمير الكرك ٤٢ ، ٧٠ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .
الإدريسى ١٢ .
أرناط : صاحب صيدا ١٥٦ .

أرنول : المؤرخ ١٥٤ ، ١٩٣ .
أرسلان بوذا ١٦٨ .
الاسبتارية : ٨ ، ١٦٩ ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ .
إسحاق بن منصور ٩٢ .
أسد الدين برتقش ١٦٣ .
أسد الدين شيركوه ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ٥٩ ، ١٧٤ .
أسد الدين ناصر الدين شيركوه ١٦٨ .
إسماعيل بن نور الدين (الملك الصالح) : ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ٧٧ ، ٨٤ ، ١١٣ ، ١٢٩ .
إسماعيل الصفوى الأموى ٢٢٨ .
أشيف صاحبة طبرية : ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٨٥ .
أقوش ٢٥٨ .
أمورى : انظر ملوك مملكة بيت المقدس
أود ١١٧ .
أوز ١٨٩ .
إياز الطويل ٢٤٦ ، ١٧٠ .
إيزابلا ١٥٤ ، ١٥٤ ، ٢٥٨ .
إيبك الساقى زاده ١٦ ، ٢٢٢ .
إيبك العزيزى . ٢٩٥ .

(ب)

بابوات روما : ١٤٩ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٧ ، ٢٧٨ .
باليان بن بارزان : ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ .
بدران الفارسى : ١٩٧ .
بدران أيوب بن كنان : ٢٥٧ .
بدر الدين بن شرون الهكارى ١٦٨ .
بدر الجمالى ٥٦ ، ٨٧ ، ١٠٧ .
بدر الدين دلدرم : ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ .
بدر الدين مودود ٢٠٣ .
البغدادى : عبد اللطيف : ٢٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ .
بكتوت الزماح ٢٢٢ .
بهاء الدين قراقوش التقوى : ١٤٤ ، ١٥٨ ، ١٦٨ .
بهاء الدين قرقوش الأسدى : ١٦ ، ٢٢ ، ٤١ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٧٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٠٢ .
بورى : تاج الملوك ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .
بيهومند (صاحب إنطاكية) ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ٢٥٠ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ ، ٣٠٢ .

(ت)

تتش : ٣ .
تقى الدين عمر : ١٨ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦ .
تورانشاه ، شمس الدولة ٣٢ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٣ .

(ج)

جاولى الأسدى : ١٦ ، ٧٥ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ .
جمال لدين أبو على بن رواحه ٧٢٢ .
جمال الدين جوشترين ١٣٨ .
جمال الدين ريحان ٥٣ .
جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ : الفقية ١٨٧ .
جمال الدين فرج قائد البزك ٢٩٧ .
جى دى ليزجنان : ١٦٩ ، ١٣٠ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٤ .
جيرارد : انظر الداويه .

(ح)

الحارمى : شهاب الدين محمود : ١٨ ، ٢٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ١١٣ .
حرب بن فور : ٢٦ .
حسام الدين (أنظر أبو الهيجاء السمين)
حسام الدين بشارة : ١٦٨ ، ٢١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٧٨ .
حسام الدين تمرتاش بن جاولى : ٢٥٦ .
حسام الدين حسين بن باريك : ٢٤٣ .
حسام الدين طومان بن غازى : ١٤٦ ، ١٩٨ .
حسام الدين لؤلؤ : ٢٥ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٩١ ، ٢٣٢ .
حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين : ٢٧٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨ .
حسن بن غفراس : ٢٠٣ .
حسن بن قفجان : ٢٣٣ .
الحشيشية : ٤٢ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٦٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

حطان : ١٣١ ، ١٣٥ .
حياة بن قيس الحرانى : ١٦٠ .

(خ)

الخاتون بنت نور الدين : ٥٠ ، ٧٧ .
خاشتكين : مجير الدين أمير الحاج العراق : ٢٠١ ، ٣٠٢ .
خالد بن القيسرانى : ٤٥ .
خطلبا : والى مصر : ١٣١ .
الخلفاء العباسيين : ٢٢ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .
خليل الهيكارى : ٢٢٨ .

(د)

داود بن العاضد : ٨٩ .
داود بن منكلان الكردى : ٧٥ .
الداوية : ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ .
درباس بن المهرانى : ٢٩٤ .
الدوادارى : ٢٢٨ .
دوق برغنديا : ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(ذ)

الذهبى : ٢٠٩ .

(ر)

الزبيب : بهاء الدين : ١٦٤ .
ربيعة خاتون بنت أيوب : ٨٥ .

رتشارد : ٢١٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ .
رسلان بغا ٢٨٨ .
ركن الدين منكورش ١٦ .
الروم : انظر أباطرة الدولة البيزنطيه .
ريحان الخادم ٥٩ .
ريموند الثالث (صاحب طرابلس) ٦٢ ، ٦٣ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ .

(ز)

زالفندار ٧٢ .
زنكى : انظر عماد الدين .
زين الدين بن مظفر الدين : ٧٠ ، ٧٢ ، ١٩١ .
زين الدين بلك ١٤٦ .
زين الدين يوسف بن بكتكين صاحب أربل ١٥٢ ، ١٦٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ .

(س)

سابق الدين عثمان صاحب شيزر : ٢٠٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ، ٣٢٨ .
ستيفنسن : المؤرخ ٢٦٠ .
سعد الدولة : ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ .
سعد الدين كشبة الأسدى : ٢٠٢ ، ٢١٠ .
سعد الدين كمشتكين ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٠ .
سعد الدين مسعود بن أنر : ٨٤ ، ٨٥ ، ١٤٠ .
سلجوق : ٢ ، ٣ ، ٤ .

سليمان بن جندر : علم الدين : ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ .
سنان : انظر الحشيشية .
سنقر الخلاطى : ٢٠٦ .
سنقر المشكوزى : ٢٩٥ .
سنقر الوشاقى : ٢٥٦ .
سيف الدين أبو بكر : انظر العادل .
سيف الدين أبو بكر السلار : ٨٣ .
سيف الدين أياز كوج ٧٥ ، ١٥٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ .
سيف الدين بكتمر (صاحب خلاط) : ١٦٣ ، ١٨٧ .
سيف الدين سنقر الدووى : ١٦ ، ١٨٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥ .
سيف الدين على بن احمد المشطوب : ١١٦ ، ١١٨ ، ١٦١ ، ١٩٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٣٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ .
سيف الدين غازى : ٣٣ ، ١٢٢ .

(ش)

شاور (الوزير الفاطمى) : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٥٦ ، ١٧٤ .
الشجاع البعلبكى : ٣٠ .
شجر الدر ٣٨ .
شرف الدين بن أبى عصرون : ٨٤ ، ٨٥ .
شرف الدين برغش : ١١٠ .
شمس الدوله بن منقذ : انظر بن منقذ .
شمس الدين بن البيضاء : الخطيب ٥٤ .
شمس الدين أبو جعفر بن ايلدكز ١٦٣ .
شهاب الدين بشير : ١٥٢ .
شهاب الدين محمد بن ايلياس : ١٣٨ .

شيخ الشيوخ : صدر الدين : ١٥٢ ، ١٦٦ ،
شيركوه : أنظر أسد الدين .
الشيعة : أنظر الفاطميون .

(ص)

صارم الدين قايماز النجمي : ١٧٧ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ — ٢٤٥ ، ٢٩٤ .
الصفي بن القابض : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٣ .
صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر : ٢٧٩ .

(ض)

ضياء الدين بن أبي الحجاج : ١٧٥ .
ضياء الدين بن عبد الله الشهر زوري : ١٦١ ، ٢١٩ ، ٣٠٢ .

(ط)

طاشتكين : مجير الدين ، أنظر خاشتكين
طفتكين : سيف الاسلام : ٥١ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ .
طغر يت البهلوان (ملك العجم) : ١٥٢ ،
طغرل بن ارسلان سلطان السلاجقة : ٢٨٧
طغرل الخازندار : ٢٠٢ .
طلائع بن رزيك : ٢٦ ، ٤٣ ، ١٧٤ .

(ظ)

الظاهر غازي بن صلاح الدين : ١٥١ ، ١٦٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٩٤ .
الظافر بن صلاح الدين صاحب بصرى : ٢٤٥ .
ظهير الدين بن البلنكري : ٢٢٦ .
ظهير الدين سقمان صاحب خلاط : ١٤٥ .

(ع)

العادل سيف الدين أبو بكر : ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٤٨ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٤ ، ٧٦ ، ٩٦ ، ١١٤ ، ١٤٢ ، ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٧٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ .
العاضد (الخليفه الفاطمي) انظر الفاطميون
عباس بن شادي : ٤٧ ، ٤٨ .
عثمان بن علي الزنجيلي : ٧٨ ، ١٣١ ، ٣١٥ .
عبد السلام المغربي : انظر المغاربة .
عبد النبي بن محمد : ٤٢ ، ٤٤ .
العدل النجيب ٢٨٠ ، ٢٥٦ .
عز الدين ابراهيم بن المقدم : ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٧٨ .
عز الدين أسامه : ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ .
عز الدين أرسل : ٢٥٦ .
عز الدين جرديك : ١٦ ، ٤٨ ، ٦١ ، ١٢٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٥٠ ، ٣٠١ .
عز الدين سنجر شاه بن غازي صاحب الجزيرة : ٢٣٦ ، ٢٤٧ .
عز الدين مسعود بن زنكي : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ٢٣٣ .
العزيز عثمان بن صلاح الدين : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ .
عصمة الدين خاتون (زوجة نور الدين) ٥٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٢٠ ، ١٦٦ .
علاء الدين بن عز الدين مسعود (صاحب

الموصل) : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٩٧ .
علاء الدين فرخشاه بن عز الدين صاحب الموصل : ٢٨١ ، ٢٩٢ .
علم الدين سليمان بن جندر : انظر سليمان ابن جندر .
علم الدين قيصر : ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ .
علم الدين كرجي : ١٦ ، ٢٥٥ .
علي بن عريف النحاسين : ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
عيسى الهكاري : ١٦ ، ٤٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ .
عين الدولة الياروقي : ١٦ .
العيني : ٢١١ .
العماد الأصفهاني (المؤرخ) : ٣١ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ١٩٨ .
عماد الدين بن قطب الدين مودود زنكي ١ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٨٧ .
عمارة اليمني : ٤٦ ،

(غ)

غازي بن سعد الدين مسعود البيطار ٢٣١ .
غازي : سيف الدين أمير الموصل : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ،
غرس الدين قليج : ١٨٨ ، ٢٠٧ .

(ف)

الأفضل نور الدين بن صلاح الدين : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ .
فارس الدين ميمون القصري : ١٦ ، ٢٨٢ .
الفاطميون : ٢ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ١٧٤ ، ٢١١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ .
فخر الدين قراجا : ٤٧ .
فخر الدين مسعود بن الزعفراني : ٦١ ، ١٢٥ ، ١٣٨ .
فردريك بربروسا : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٩٨ .
فلك الدين أخو العادل (من أمه) : ٨٨ .

(ق)

القاضي الفاضل : ٢٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .
قايماز العادلي : ٢٧٥ .
قايماز النجمي : أنظر صارم الدين .
قراجا : ٢٣٣ .
قراقوش : أنظر بهاء الدين .
قزل أخي البهلوان : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٢٣ .
قطب الدين بن قلج أرسلان : ٢٣٨ .
قطب الدين سكمان بن نور الدين أرسلان

صاحب آمد : ٢٠٣ ، ٢٦٧ ، . ، ٢٩٧ .
قطب الدين ينال بن حسان : ٦٠ ، ٧٤ ، ١٣٨ .
قلج ازسلان : عز الدين : ٣٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٦٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
القلقشندى : ٩٢ ، ١٣٣ ، ٢٠٩ .

(ك)

كازانوفا (المؤرخ) : ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .
الكامل بن العادل : ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٨٥ .
كمال الدين بن الشهر زورى : ٥٩ .
كنراد مونتفرات : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٣٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ .

(ل)

ليجوش : ٢٧٥ .
ليثيول : ١٩٩ ، ٢٦٠ .
ليون ملك أرمينية الصغرى (صاحب بلاد الأرمن) : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٢١٢ ، ٢٣٨ .
ليوسيوس الثالث : أنظر بابوات روما .

(م)

مبارز الدين على بن أبى الفوارس : ٦٠ .
مجاهد الدين ايازسر بك صاحب شهر زور : ١٦٦ ، ٢٣٢ .
مجاهد الدين برنقش : ٢٢٦ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ .
مجاهد الدين قايماز : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٦٠ .
مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن أيوب : ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٨٩ .
مجد الدين ميلدوى : ٢٩٧ .
مجلى بن مرواق : ٢٢٦ ، ٢٢٨ .
محمد بن المقدم : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٢٣١ ، ٢٠٨ ، ٢٩٩ .
محمد على باشا : ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٤٩ .
محيى الدين الزكى : ١٥٣ ، ١٩٤ .
محيى الدين بن كمال الدين الشهر زورى : ١٥٢ .
المرغريط : ٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٦١ .
المستضيء بالله (الخليفه العباسى) انظر الخلفاء العباسيين .
مسعود : الملك المؤيد : ٢٩٧ .
مسعود بن الزعفران : ٦٧ ، ٦٨ .
مسعود بن قطب الدين مودود : ٥٩ .
مظفر الدين بن زين الدين (صاحب حران) ، ١٤٦ ، ١٣٨ ، ١٦٩ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ .
مظفر الدين جعفر قايماز : ٧٨ .
مظفر الدين قلج أرسلان (صاحب أذربيجان) : ٢٣٢ .
مظفر الدين كوكبرى (صاحب اربل) : ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ١٤٤ .
معز الدين إسحاق بن صلاح الدين : ١٦٣ .
معز الدين سنجر بن مودود زنكى (صاحب الجزيرة) : ١٥٢ ، ١٦٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
معز الدين سنجر شاه (صاحب جزيرة بن عمر) ٢٨٧ .
معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان (صاحب ملطيه) : ٢٧٧ ، ٢٨١ .
معين الدين أنر : ٥ ، ٦ ، ٥٠ ، ٨٥ .
المغاربة : ٤١ ، ١٢١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٢١٧ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
ملكشاه : ٢ .
المقريزى : ١٤ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ٥٨ ،

٨٨ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ، ١٧٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ .
مكثر بن عيسى (أمير مكة) ١٤٨ .
ملوك مملكة بيت المقدس : ١٩ ، ٥٥ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ .
منصور بن نبيل : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
مؤتمن الخلافة نجاح : ١٦ .
موسك : الأمير : ٢٧٥ .

(ن)

ناصر الدين كامارتشين : ٦٢ .
الناصر بن قلاوون : ١٥٦ .
ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر : ٢٣٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ .
ناصر الدين محمد بن ختار تكين : ١٤٦ ، ١٥٠ .
الناصر محمد (السلطان) : ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .
نجاح : أنظر مؤتمن الخلافة .
نجم الدين بن مصال : ٦٤ .
نجم الدين أيوب : ٥ ، ٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٥٠ .
نجيب العدل : أنظر العدل النجيب .
نوم شقير : ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٨ .
نور الدين بن قرا أرسلان (صاحب حصن كيفا) : ١٢٢ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ،
نور الدين محمود (السلطان) : ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ .

(هـ)

هارون الكردى : ٧٧ .
هنرى الرابع : ١٥٤ ، ٢٥١ .
الهنفرى (صاحب تورون) : ٢٧٠ ، ٢٩٩ .
هنرى شامبين : ٢٤١ ، ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٦٩٣ ، ٢٩٩ .
الهنفرى (صاحب بانياس) : ١٠٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٢ .

(و)

وليم الثانى (ملك صقلية) : ٤٢ ، ٤٥ ، ٢٠٤ ، ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٧٨ ،
وليم الصورى (المؤرخ) : ١٢٦ ، ١٧١ ، ٢١٦ .

(ى)

ياقوت الحموى : ١٧٥ .
يعقوب الحلى : ٢٥٢ .
يمن الخادم : ٦٤ .

فهرس الأماكن

(ا)

آمد : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ٢٠٣ ، ٢٩٢ .

أبرم : ٣٢ ، ٣٣ .

اربل : ٧٠ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ .

ارسوف . ١٨٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩٨ .

الاسكندرية : ١٢ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٥٧ .

أسوان : ١٧ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ١٢٨ .

آسيا الصغرى : ٣ ، ٤ ، ٣٣ .

انطاكية : ٨ ، ٢٦ ، ١٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ ، ٢٩٨ ، ٧٠ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ .

انطرسوس : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

ايله (جزيرة فرعون) : ٩٠ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١١٤ ، ١٥٣ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٩ .

(ب)

باب البرقية : ١٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

باب الفتوح : ١٠٥ ، ١٠٦ .

باب القرافة : ٩٦ ، ١٠٠ .

باب القنطرة : ٧ ، ١٠٥ ، ٢٩١ .

باب المدرج : ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ .

باب مصر : ٥٦ ، ١٥٧ .

باب النصر ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ .

البابين : ١٠ ، ١١ .

باتياس : ٥٢ ، ١٨٨ ، ٢١٩ .

برج الحداد : ٩٥ ، ٩٦ .

برج سقتا : ٩٣ ، ١٠٠ .

برج الصحراء : ٩٦ ، ٩٧ .

برج الطارقة : ٩٥ ، ١٠٠ .

برج الظفر : ١٠٤ ، ١٠٦ .

برج العاوة : ٩٣ ، ١٠٠ .

برج كركيلان : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ .

برج المقطم : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

بركة الجب : ٥٨ ، ٨٥ .

برزية : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

براغة : ٧٣ ، ٧٤ .

بعلبك : ٥ ، ٧ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ١٣٦ ، ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

بغراس : ٢٠٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ .

بلبيس ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٩٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ٥٧ ، ١١٠ .

بيت جبريل : ١٧٢ ، ١٩١ .

بيت الأحزان (بيت يعقوب) ١١٦ ، ١١٨ .

بيت المقدس : ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ١٠٧ ، ٢٠٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ،

بيت نوبه : ٢٨١ ، ٢٨٧ .

بيروت : ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٤٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٧٤ .

(ت)

تانيس : ٢٠ ، ٧٩ ، ٢٢٧ ، ٢٩١ .

تبنين : ١٨٨ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٩٣ .

تل باشر : ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٥٠ .

تل خالد : ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٠ .

تل الخروبة : ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

تل السلطان : ٧٠ ، ٧٣ ، ١٧٨ .

تل العياضيه : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ .

تل كيسان : ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

تل الصليبين : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(ج)

جبله : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٤٣ .

جبيل : ١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٤٠ .

جزيرة بن عمر : ٧٠ ، ١٦٩ .

الجيزه : ٩ ، ١٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

جزيرة فرعون : انظر ايله .

(ح)

حارم : ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٩ .

الحبشه : ٤٣ ، ٤٤ ، ١٤٤ .

حران : ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ،

حطين ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢١٠ .

حلب : ٣ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ٢١٠ .

حماه : ٦ ، ٧ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٥٣ ، ١٣٠ ، ١٧٠ ، ٢١٠ ، ٢٨٦ .

(خ)

الخابور : ٥١ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ،

خلاط : ١٣٩ ، ٢٦٢ ، ٢٥٨ .

الخليل : ١٩٠ .

(د)

داروم : ١٤٩ ، ١٧٢ ، ٢٨٧ .

درب الشعوى : ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

دمشق : ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، وما بعدها .

دمياط . ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١٧٧ ، ١٢٨ ، ١٤٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ .

ديار بكر : ١٦١ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٢٨٦ .

(ذ)

ذخيرة : ١٧٢ .

(ر)

رأس عين : ١٤٥ ، ١٦٠ .

رعبان . ١١٨ ، ١٢٢ :

الرقة : ٥١ ، ٧٤ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣٠ .

الرملة : ١٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٨٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

الرها : ٥١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٩٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

(ز)

زبيد : ٤٤ ، ٧٨ ، ١٣١ ، ١٣٥ .

(س)

سرمانيه : ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

سروج : ٥١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤٦ .

سميساط : ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

سنجار : ٦٤ ، ٧٠ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٠ ، ١٥٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٨٦ ،

السويس : ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٢٤٢ .

سيناء : ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٨ .

(ش)

شفرعم : ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٥٨ .
شقيف أرنون ١٣٧ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ .
شهرزور : ١٢٥ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ،
الشوبك : ٢٣ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٨٦ .
شيزر : ٦ ، ٤٣ ، ٧٠ ، ٧٩ .

(ص)

صدر : ٣٤ ، ٣٨ ، ٥٨ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٤٩ .
صفد : ١١٨ ، ١٢١ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٩٩ ،
صفورية : ١٥٠ ، ١٧٩ ، ١٨٨ .
صقلية : ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٧٨ ، ٢٨٧ .
صهيون : ٢٠٦ ، ٢٠٩ .
صور : ١٨٣ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٨٢ .
صيدا : ١١٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧٩ .

(ط)

طبريه : ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٢٣ ، ٣٠٢ .
طرابلس : ٧ ، ٢٦ ، ٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٩٨ .

(ع)

عدق : ٤٤ ، ٦٧ ، ١٣٥ ، ١٤٢ .
العريش : ١٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ٢١٢ .
عزاز ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٥٠ ، ٢٠١ .
عسقلان : ١٩ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٤١ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .
عكا : ١٢ ، ٢٦ ، ١٢١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ،
عيذاب : ١٧ ، ٤٤ ، ١٤١ ،

غ

غزه : ١٠ ، ١٩ ، ٣٨ ، ١٠٩ ، ١٤٩ ، ٣٠٠

(ف)

فاقوس : ٨ ، ٤٧ ، ١٠٩ ، ١١٤ .
الفسطاط : ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٤ ،
الفيوم : ١٢ ، ٢٥ .

(ق)

القاهرة : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ٣٠ ، ٢٤ ، وما بعدها .
قرون حماه : ٦٦ ، ٦٨ .
قوص : ١٢ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢٨ ،
قيسارية ١٨٨ ، ٢٧٠ ، ٢٩٨ .
القيمون : ٢٧٠ .
الكرك (حصن) . ١٨ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٨٦ .
كفرطاب : ٦٦ ، ١١٥ ، ٢٠٧ .
كوكب : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٠٢ .
كيفا : ٧٠ ، ٧٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٥٣ .

(ل)

اللاذقية : ٢٦ ، ٢١٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ .

لوبيه (قريه) : ١٨١ ، ١٨٧ .

(م)

ماردين : ٧٠ ، ٧٧ ، ١٢٣ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٣ .
المدينة : ٢٣ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٠ .
مرج الصفر : ٦٨ ، ٨٥ ، ١٦٨ .
مرج عيون : ١١٧ ، ١١٨ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٣٠٣ .
مصياف : ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٠ .
المرة : ٦٦ ، ٧٠ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ، ١٨٦ .
المغرب (بلاد) : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٥ ، ٧٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ .
مكه : ٤٤ ، ٥٧ ، ١٣٦ ، ١٤ ، ١٤٨ ، ١٥٠ .
منبج : ٧٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٦٨ .
الموصل : ٥٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ١٢٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٢٢٤ ، ٢٨٦ .
ميافارقين : ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٢٦٤ ، ٢٨٦ .

(ن)

نابلس : ١٥٤ ، ١٨٨ ، ٣٠٢ .
الناصريه : ٢٦٨ ، ٣٠٠ .
نصيبين : ٥١ ، ٧٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ،
النطرون : ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ .
نهر أنامن : ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٥٤ .
نهر الأردن : ٥٧ ، ١٥٠ .
نهر العاصى : ٥٧ ، ٧٠ ، ١١٤ ، ٢٠٤ .

(ه)

هرمز : ٢١٠ .
هونين : ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٣٠٣ .

(و)

وادى الشميره ٣٩ .
وادى النطرون : ١٢ .
الوعيره : ٢١٠ .

(ى)

يازور : ٢٩٥ ، ٢٦٦ .
يافا : ١٨٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .
اليمن : ٣٣ ، ٤١ ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ .

الألفاظ الاصطلاحية

البرك : ٢٥٠ .
البريد : ٢١ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ٢٢٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ .
البطالون : ١٢٩ .
البطسة : ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .
التركبولية : ٢٧١ .
الجاليش : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
جامكية : ١١ ، ٤٥ .
الدينار الصورى : ١١٧ .
ديوان الثغور : ٢١ .
ديوان الزكاة : ٢٥ .
ديوان الأسطول : ٢٤ .
الزراقون : ١٨٢ .
الزردخانة : ٨٣ .
الزنبورك : ١٢٦ ، ٢٦٧ .
السقطيون : ٤١ .
سوق عكا - ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٣٣ .
الشختكية : ٩ .
شيني : ٢٥٠ .
الصليب : ١٨٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٥٧ ، ٣٥٩ ، ٢٨٦ .
الطبلخاناه : ١٢٥ .
الطراده : ٢٥٢ .
الطريدة ١١٧ .
الطلب : ٢٣ ، ٢٢١ .
الطواشية : ٣٠ ، ١٣٠ .
العشير الصلاحى : ٢١٥ ، ٢١٧ .
قراغلامية : ٣٠ ، ١١٠ ، ١٣٠ .
الكمين : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٢٥ ، ٢٤٦ ، ٢٧٤ .
المذهب الشيعى : ٢٣ ، ٤٠ .
المرتزقة : ٥ .
المنشور : ٢٢ .
مستغلات : ١٢٥ .
النفط : ١٩ ، ١٦٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .
اليزك : ٦٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ١٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ .

فهرس الرسالة

		صفحة
تصـــدير	بقلم الدكتور محمد مصطفى زياده	٠٠٠٠٠
مقدمة البحث		أ — ز
الفصل الأول :	القواعد الحربية فى تأسيس الدولة الأيوبية (١١٤٩ — ١١٧٤ م) .	١ — ٤٨
الفصل الثانى :	فى سبيل السلطنة على أملاك نور الدين (١١٧٤ — ١١٧٦ م) .	٤٩ — ٨٥
الفصل الثالث :	صلاح الدين بعـــد العودة إلى مصر (١١٧٦ — ١١٨٠ م) .	٨٦ — ١٢٣
الفصل الرابع :	فى سبيل تكوين جبهة إسلامية (١١٨١ — ١١٨٦ م) .	١٢٤ — ١٦٤
الفصل الخامس :	الجهاد ضد الصليبيين (١١٨٦ — ١١٨٩ م) .	١٦٥ — ٢١٣
الفصل السادس :	عكا والحملة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٨٩ — ١١٩١ م) .	٢١٤ — ٢٦٣
الفصل السابع :	صلاح الدين بعد عكا (١١٩١ — ١١٩٣ م) .	٢٦٤ — ٣٠٣
مصادر البحث		٣٠٤ — ٣١٥
كشاف بأسماء الأشخاص والأماكن والألفاظ الاصطلاحية		٣١٦ — ٣٢٥

الخرائط

(٢) صورة تخطيطية لقلعة صلاح الدين برأس الجندى « صدر » ٣٥
(٢) رسم تخطيطى لطريق وسط سينا الحربى صدر — أيله ٣٩
(٣) قطاع حربى لحروب صلاح الدين مع المسلمين والصليبيين بين ١١٧٤ — ١١٨٠ م . ٧١
(٤) قلعة القاهرة . ٩٤
(٥) صورة شمسية لنص تاريخى عن تاريخ بناء قلعة القاهرة . ٩٧
(٦) قطاع حربى لحروب صلاح الدين مع أمراء المسلمين بين ١١٨١ — ١١٨٦ م . ١٥٩
(٧) إستراتيجية حطين ١١٨٧ م ١٨٠
(٨) تاكتيك صلاح الدين والصليبيين فى معركة ٤ أكتوبر سنة ١١٨٩ بعكا . ٢٢٧
(٩) تاكتيك صلاح الدين والصليبيين فى معركة أرسوف ٧ سبتمبر سنة ١١٩١ . ٢٧٢

تصـــويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٦	السكتانية ؟	الكتانية	١٩	١٥	غرة	غزة
٢٨	١٩	المصلحة	المصالحة	٣٣	١	الحلة	الحلة
٣٤	١٥	سدر	صدر	٣٧	١٦	بجيوشة	بجيوشه
٣٨	١٦			٣٨	٥	هذا	هذه
٤٠	٦						
٥٩	١٤	سفيان	سيفان	٧٢	١٥	زيد	زين
١٩٨	٦	تمزر	تمذر	٢٠٦	٢	شنر	شيرز
٢٩٥	٩	ياقا	يافا	٢٩٧	٩	البْزك	اليزك

للمؤلف :

١ — نظام البريد فى الدولة الإسلامية — مكتبة مصر طبعة ١٩٥٣

٢ — جيش مصر فى أيام صلاح الدين — مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦

٣ — ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية » » » ١٩٥٧

٤ — خمسة من معاصرى صلاح الدين الأيوبى » » » ١٩٥٧

٥ — التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى » » » ١٩٥٧

The Egyptian Military History

in the Age of Saladin

By

Nazir Hassan Saadawi (Ph. D.)

Lecturer in Teachers College

Cairo 1957

The Egyptian Renaissance Bookshop

9, Adli St. Cairo

الكتاب : التاريخ الحربي المصري عهد صلاح الدين الأيوبي المؤلف : د. ظاهر حامد مصطفى
الرقم العام : الرقم الخاص : ٩٣٦

تاريخ الارجاع	تاريخ الاعارة	تاريخ الارجاع	الاعارة

هدية من
... الدكتور ... منيب
عضو مجلس محافظة
القليوبية

محافظة القليوبية
مديرية التربية والتعليم
مكتبة السادات
القسم العام